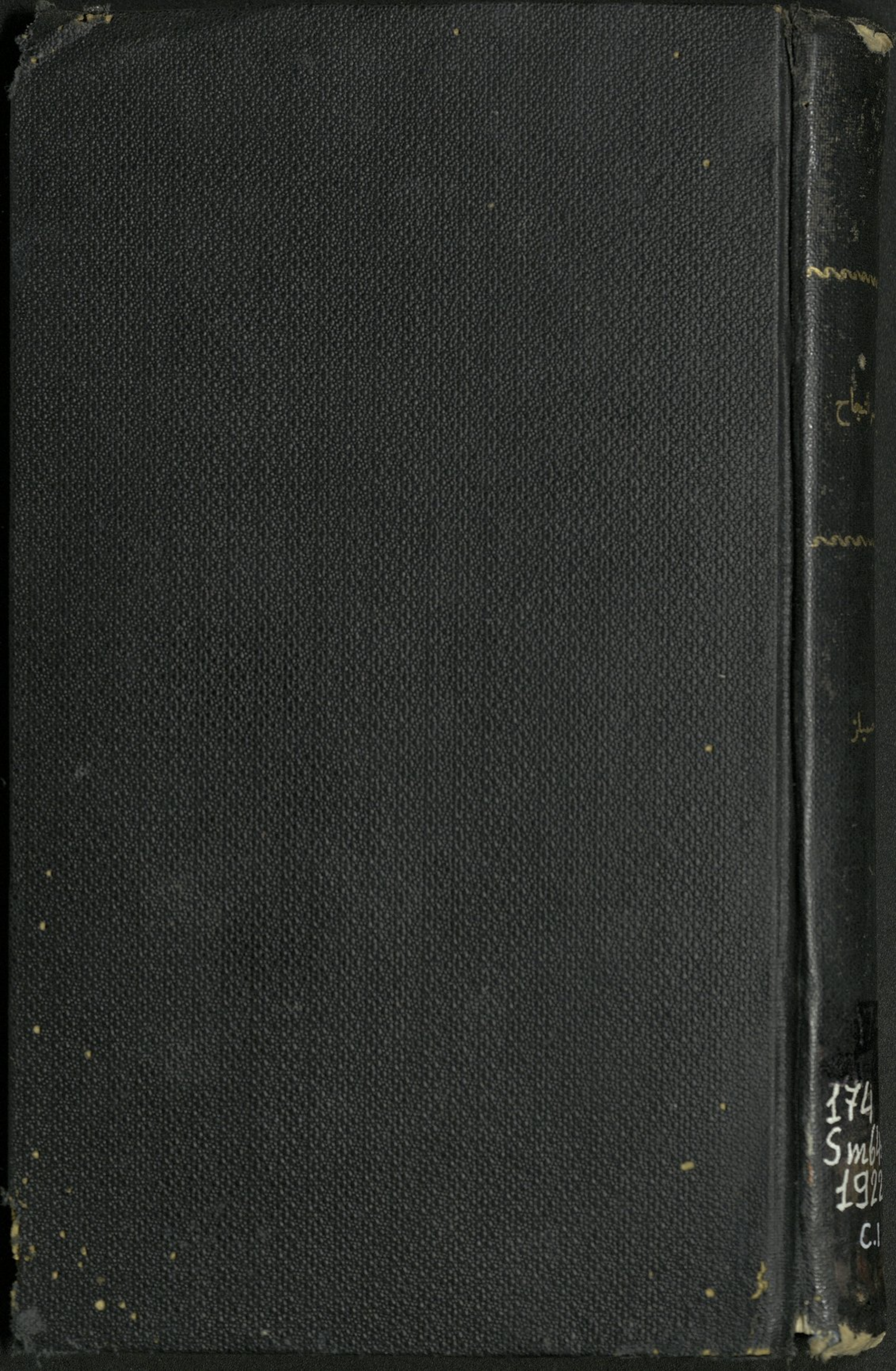
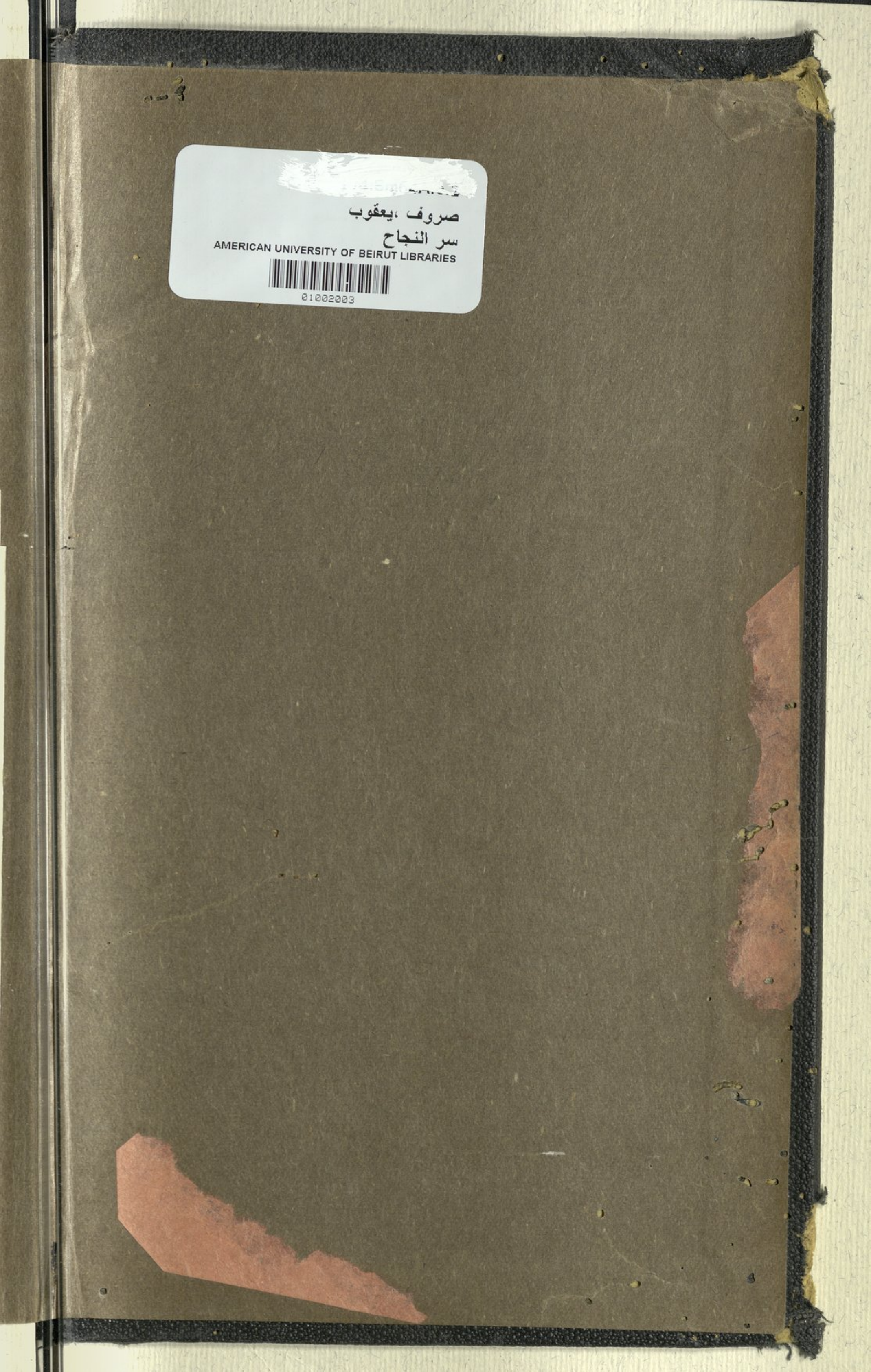
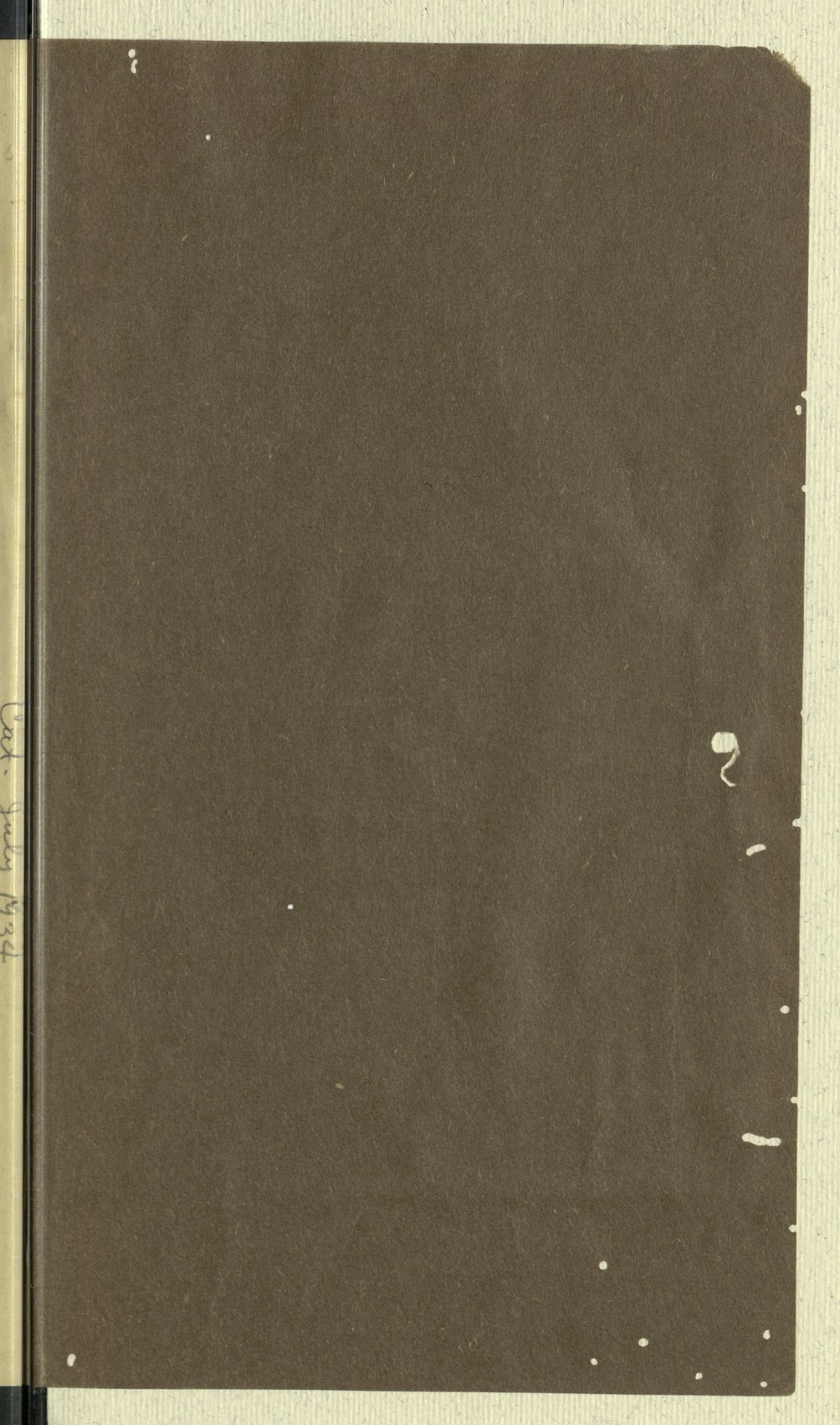


174
Smb6
1922
C.1



DATE DUE

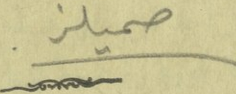


كتاب

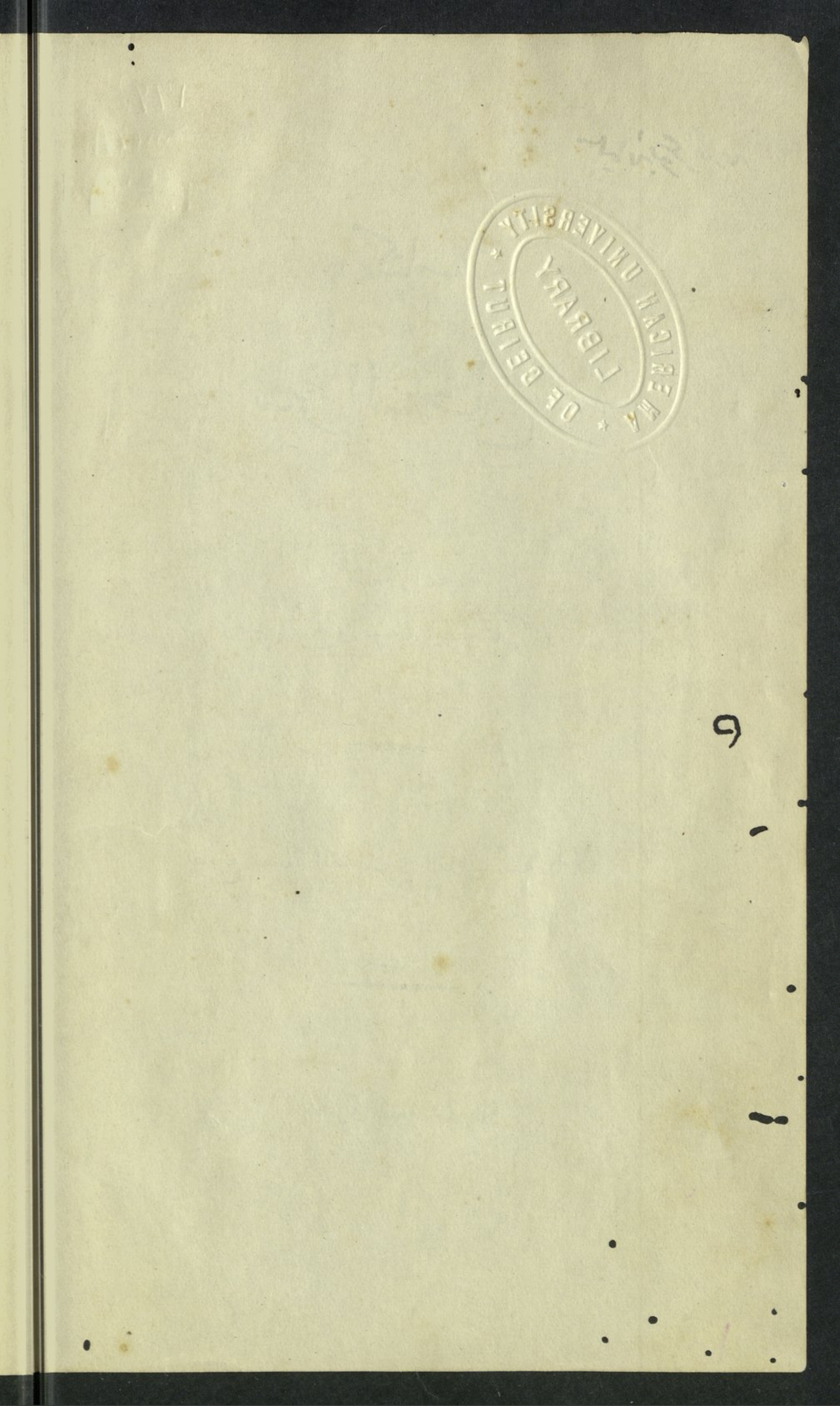
سر النجاح

طبعة رابعة

وقد نُقّح وأُضيف اليهِ امثلة كثيرة



طُبع بمطبعة المقتطف في القاهرة سنة ١٩٢٢



تمهيد

ترجمت هذا الكتاب في حدود سنة ١٨٧٧ بايعاز الدكتور كرنيليوس ڤانديك. وطبع في بيروت سنة ١٨٨٠ وقدمت لهُ مقدمة وجيزة قلت فيها انهُ «من مؤلفات الفاضل صموئيل صميلز الانكليزي وقد ندبني الى ترجمتهِ استاذي الاكرم الدكتور كرنيليوس ڤانديك فاستعنت الله على سبكهِ في قالب عربي وكنت اراعي الاصل تارة واخالفهُ اخرى على ما يقتضيهِ اختلاف اللغتين وافكار اهلهما وانا اشهد لابناءِ وطني اني لم انتفع بكتاب قدر ما انتفعت بهذا الكتاب»

ومهد لهُ الدكتور ڤانديك حينئذٍ تمهيداً وجيزاً قال فيهِ «اني طالعت هذا الكتاب بما يستحقهُ من التروي فوجدتهُ من انفع الكتب التي يحتاج اليها كل احد من اهل هذه البلاد وغيرها وقد رأى ذلك كثيرون من علماءِ اوربا وترجموهُ الى اكثر لغاتها فسعيت انا في ترجمتهِ الى العربية وطبعهِ فيها املاً ان ينتفع اهلها بهِ كما انتفع غيرهم من الامم العربية»

ونفدت نسخ الطبعة الاولى فطبع ثانية في بيروت. ثم اضفت اليهِ ترجمات كثيرة شرقية ومعجماً يشرح ما فيهِ من الاعلام وطُبع في مطبعة المقتطف بالقاهرة سنة ١٨٨٦ ولما نفدت نسخهُ هذه طالبني كثيرون باعادة طبعهِ ولكنني لم اجد فرصة لذلك الاَّ في الصيف الماضي فراجعتهُ وتوسعت في معجمهِ واعدت طبعهُ . وانا ارجو ان ينتفع بهِ قارئوهُ الآن كما انتفع الذين قرأوهُ قبلهم

يعقوب صرُّوف

فهرس الفصول

سر النجاح

الفصل الاول

في الاعتماد على النفس

قال يوحنا ستورت مل . قيمة المملكة تتوقف على قيمة افرادها
قال دزرائيلي. اننا نعتمد على القوانين اكثر مما يجب وعلى الانسان اقل مما يجب

اعتماد الانسان على نفسهِ اصل لكل نجاح حقيقيّ . واذا اتّصف بهِ كثيرون من امةٍ من الامم ارتقت تلك الامة وتقوّت وكان هو سرَّ ارتقائها وتقوّيها. وما ذلك الّا لانِ الانسان يقوى عزمهُ باعتمادهِ على نفسهِ ويضعف باعتماده على غيرهِ. ألا ترى ان المساعدة التي ينالها الانسان من غيرهِ تذهب بنشاطهِ غالباً لانها لا تدَع موجباً لسعيهِ في خير نفسهِ فتغادرهُ ضعيفاً عاجزاً ولاسيما اذا فاقت حدّ الاقتضاء . وما احسن ما قالهُ الطغرائي في هذا المعنى

وانما رجُلُ الدنيا وواحدها   من لا يعولُ في الدنيا على رجُلِ

وافضل الشرائع لا يجدي الانسان نفعاً اكثر من جعلهِ حرًّا ليعتمد على نفسهِ وينكبّ على اصلاح شأنهِ . غير ان البشر قد اعتقدوا في كل انٍ وآن أنّ خيرهم وراحتهم منوطان بشرائع بلادهم لا بسلوكهم فحسبوا الشرائع علةً لتقدمهم وبالغوا في الاعتماد

عليها ايّ مبالغة . ولكن كاد يتقرَّر عند اهل هـذا العصر انهُ ليس لشرائع الدول من فائدة سوى حماية رعاياها بتأمينهم على حياتهم وحريتهم ومالهم . فالشرائع التي يتولاها حكام امناء تمكّن الانسان من اجتناءِ ثمار اتعابهِ العقلية والجسدية بقليل من الخسارة ولكنها ما كانت لتصيرِ البليد نجيباً والكسلان مجتهداً والمبذر مقتصداً مهما كانت عادلة لان هـذا منوط بالاصلاح الشخصي اي بالاجتهاد والاقتصاد وانكار الذات وما اشبه

وما حكومة الشعب سوى صورة افرادهِ فاذا فاقت الشعبَ لم تلبث ان تنحط اليهِ واذا انحطَّت عنهُ لم تلبث ان ترقى اليهِ مع الزمن . ومهما تكن اخلاق الشعب فانها تظهر في حكومتهِ فاذا كان مستقيماً حُكم بالاستقامة واذا كان معوجًّا حُكم بالاعوجاج . والاختبار يدلنا على ان قوة الشعوب ودرجتها لا تتوقفان على حكوماتها كتوقفهما على اخلاق افرادها اذ ليس الشعب سوى مجموع افرادهِ وليس تمدُّنهُ سوى تمدُّن افرادهِ كباراً وصغاراً ذكوراً واناثاً . فتقدُّم الشعب هو مجموع علم افرادهِ واجتهادهم واستقامتهم وتاخرهُ هو جهل افرادهِ وكسلهم والتواؤهم . واذا دققنا النظر وجدنا ان اكثر الشرور التي اعتدنا نسبتها الى الشعب اجمالاً هي شوائب نامية في حياة آحادهِ واذا استؤصلت بواسطة الشرائع عادت فنمت من ناحية اخرى بهيئة أُخرى ما لم تتغيَّر طباع الناس واخلاقهم . ويترتب على ما تقدم ان الغيرة الوطنية لاصلاح الوطن يجب ان لا تبذل في اصلاح سياستهِ وشرائعهِ بل في انهاض اهله لكي يصلحوا شأنهم بيدهم

اذا كان التقدُّم كلهُ معلَّقاً على كيفية حكم الانسان على نفسهِ غلا اهمية كبيرة للحكام المتسلّطين عليهِ اذ ليس العبدُ من يستعبدهُ غيرهُ بل من يستعبد لجهلهِ وكبريائهِ وهواهُ . فهذا هو العبد الذليل

والشعب المستعبد على هذا النمط لا يحرّره تغيير الشرائع والمسلطين عليهِ ولاسيما اذا ظلّ يتوهّم ان حريتهُ متوقفة على كيفية حكومتهِ . لان اساس الحرية الثابت قائمٌ على صلاح الشعب الذي هو السند الوحيد لنظام الاجتماع الانساني والتقدُّم الوطني . ولقد اجاد الفيلسوف يوحنا ستورت مِلّ اذ قال « ان الاستبداد لا يضرُّ كثيراً ما دام كل شخص مستقلاً بنفسهِ. ولكن كل ما يحطّم الاستقلال الشخصي هو استبداد مهما اختلفت اسماؤهُ » . وما احسن ما قالهُ وليم درغن احد مشاهير المحامين عن استقلال ارلندا في معرض دَبْلِن الاول قال « انني لم اسمعْ قطُّ لفظة الاستقلال الأَّخطر على بالي وطني واهلهُ . وكثيراً ما سمعت عن الاستقلال الذي سوف نفوز بهِ بمساعدة الغير ولا يسعني ان انكر كَمْ كنتُ اعنّى مساعدة الغير واحترمها على انهُ لم يبرح من بالي قطُّ انَّ استقلالنا الادبي والماديّ يتوقف كلهُ علينا . وعندي اننا باقبالنا على العلم والصناعة واستخدام ما لنا من الوسائل قد بلغنا درجة من التقدُّم لم نبلغها من قبلُ. والسبب الاكبر لنجاحنا مثابرتنا على ما بهِ خيرنا . واني لمتيقّن انّا اذا واظبنا على ما نحن عليهِ من الغيرة والاجتهاد وصلنا قريباً الى درجة من السعادة والراحة لا يفوقنا فيها احد »

ان جميع الشعوب قد اتصلوا الى ما اتصلوا اليهِ من التقدم باجتهاد الوف من رجالهم زماناً طويلاً . فالفعلة وحارثو الارض ومستخرجو المعادن وارباب الصنائع والمخترعون والمكتشفون والمصنفون والشعراء والفلاسفة ورجال السياسة جميع هؤلاءِ سعوا في تطلب تلك الغاية المجيدة التي هي ترقية شأن بلادهم وازدياد عمرانها. هؤلاءِ هم الذين اوجدوا العمران ورفعوا شأن النوع الانساني بمثابرتهم على العلم والعمل . وكل جيل بنى على اتعاب سلفهِ في هذا البناء العظيم . ونحن ورثنا العمران كما تركهُ لنا اسلافنا وعلينا ان لا

نتركهُ لخلفائنا كما تُرك لنا بل ان نجدَّ ونسعى في توطيده وتهذيبهِ كما فعل من تقدَّمنا ·

الاعتماد على النفس من اخص ما يوصف بهِ الشعب الانكليزي وعليهِ تتوقف قوتهُ كشعب. فاذا التفتنا الى الخاصة منهُ رأينا انهُ قام من بينهم اناس فاقوا مَن سواهم فاستحقوا الاكرام من الجميع. ولكن لم يتوقف تقدم البلاد الانكليزية على هؤلاءِ الافراد القلائل بل شاركهم فيهِ اناسٍ دونهم رتبةً اي اشخاص من العامة قلَّ ما يعرف عنهم . ألا ترى ان من يذكر خبر انتصار جيش في واقعة من وقائع الحرب يقتصر على ذكر قوّاد الجيش مع ان النصر تمَّ على يد آحادهِ . كذلك الحال في هذه الحياة التي هي اشبه شيءٍ بدار حرب دائمة الاسم فيها لأُولي المقام السامي. ولكنَّ في زوايا النسيان رجالاً لا يحصى عددهم كانوا وسائط فعَّالة في ايجاد العمران ورفع شأن الشعوب وهم اكثر عدداً من الذين انصف التاريخ فذكرهم . بل يمكننا ان نقول ان كلَّ من كان قدوةً لغيرهِ في الاجتهاد والنزاهة والاستقامة لهُ يد في خير البلاد الحاضر والمستقبل وحياتهُ مثال يقتدي بهِ معاصروهُ وخلفاؤهم جيلاً بعد جيل

والاختبار اليومي شاهد بان قدوة المجتهدين تؤثر في غيرهم تأثيراً كبيراً يفوق تأثير العلوم . بل ما من علم يؤثر في حياة الانسان مثل العلم الذي يراهُ يوميًّا في البيوت والشوارع والحقول والمعامل . هذه هي العلوم الانتهائية التي يجب على كل احد ان يتقنها لكي يحقَّ لهُ الدخول في الهيئة الاجتماعية. هذه هي العلوم التي سماها شِلر علوم الجنس البشري. وهي تقوم بالعمل والسلوك والتهذيب والطاعة او بكل ما يؤهل الانسان لتعاطي اعمال الحياة. وهذه العلوم لا تُحصَّل في المدارس ولا ترى في الكتب . وما احسن ما قالهُ الشهير باكون وهو « ان جلَّ فائدة العلوم ارشاد الانسان الى حكمة فوقها لا

تكتسب بالدرس بل بالملاحظة ». والاختبار يعلمنا ان الانسان يصير كاملاً بالعمل اكثر مما بالعلم . اي ان شأن الانسان يُصلَح بالعمل والاجتهاد والاستقامة لا بالعلم والدرس والشهرة

لعمرك ان المجد والفخر والعلى ونيل الاماني وارتفاع المراتب
فضائلُ عزم لا تباعُ لضارعٍ واسرارُ حزم لا تذاعُ لعائبِ

ولما كانت القدوة من الامور الفعّالة في شؤون البشر كانت كتب سير المشاهير ولاسيما الفضلاء منهم من اكثر الكتب فائدةً حتى ان بعضهم وضعها في المنزلة الاولى بعد الكتب المنزلة لان فيها امثلة كثيرة للاعتماد على النفس وثبات العزم وعلو الهمة والنشاط والاستقامة والسعي في النفع العام ونحو ذلك من المحامد التي تعلن بكلام صريح ما يستطيعهُ الانسان من الارتقاءِ في ذرى المجد وتبين ببلاغة فائقة ان الذي يكرم نفسهُ ويعتمد عليها ينال اسماً حسناً وشهرة لا تُنسى

ورجال العلوم والفنون والآداب ارباب الافكار واهل الحصافة لم ينحصروا في فئة من البشر ولم يختصوا باهل المراتب العالية بل نبغوا من المدارس والمعامل ومن الدساكر والمزارع من اكواخ الفقراءِ الحقيرة وقصور الاغنياءِ الرفيعة . وكم من اناس ارتقوا من ادنى الدركات الى اعلى المراتب ولم تصدهم المصاعب عن نيل ما شمروا لهُ الذيل بل كثيراً ما كانت تستحيل الى اكبر مساعد لهم باثارتها قوتهم ونشاطهم وايقاظها ما ربما كان يخمل من قواهم لو لم تكن الحال كذلك . وامثلة هذا كثيرة جدًّا لا يسعنا تعدادها وجميعها تثبت صحة المثل القائل كلُّ من جَدَّ وَجد . ألا ترى ان جرمي تيلر الملقب عند الانكليز بفم الذهب والسر رتشرد اركويت مخترع آلة الغزل ومؤسس معامل القطن واللورد تنتردن قاضي القضاة وتُرنر المصور الشهير نبغوا من دكان حلاق

وشكسبير راس شعراء الانكليز لا تعلم حقيقة امرهِ ولكن لا خلاف في انهُ نبغ من اصل وضيع على حد قول ابن الوردي

ينبتُ الوردَ من الشوك وما ينبتُ النرجسُ الاَّ من بصلْ

فان اباهُ كان راعياً وجزاراً وهو نفسهُ كان يعمل في صباهُ بمشطة الصوف على ما يُظَن . ومن الناس من قال انهُ كان خادماً في احدى المدارس ثم صار كاتباً . وقد اجتمع في هذا الرجل الشهير كلّ اختبار بني البشر كأنهُ تعاطى اعمالهم كلها . ولا شبهة انهُ كان ذا قريحة وقادة وذكاء مفرط ففاق من سواهُ في سرعة الخاطر وبنى كل كتاباتهِ على الملاحظة والاختبار تخدم بها جيلهُ ولم تزل لها السلطة القوية على الشعب الانكليزي

﴿ وقام من العرب وغيرهم من امم المشرق اناس عصاميون لا يحصى عددهم داسوا الفقر الذي ولدوا فيهِ وجعلوهُ مرقاة الى ذرى المجد . فابو الطيب المتنبي كانَ ابن سقَّاء ولكنهُ رقي بتوقد ذهنهِ وبلاغة شعرهِ اسمى المراتب وجمعت حكمهُ فكانت مثل حكم ارسطاطاليس كبير الفلاسفة حتى قال فيهِ بعضهم

ما رأى الناس ثاني المتنبي اي ثانٍ يُرى لبكر الزمان
هو في شعرهِ نبيٌّ ولكن ظهرت معجزاتهُ في المعاني

وابو العتاهية الشاعر المشهور كان يبيع الجرار فقيل لهُ الجرّار . وابو تمام حبيب الطائي نشأ بمصر وكان يسقي الناس ماء بالجرة في جامع مصر وقيل انهُ كان يخدم حائكاً ويعمل عندهُ بدمشق وكان ابوهُ خمّاراً بها . ثم قال الشعر البليغ وجمع الكتب النفيسة وكان واحد عصرهِ في ديباجة لفظهِ وبضاعة شعرهِ وحسن اسلوبهِ ولهُ كتاب الحماسة الذي دل على اتقان معرفتهِ بحسن اختيارهِ ولهُ مجموع آخر سماهُ فحول الشعراءِ وكتاب الاختيارات من شعر الشعراءِ . ولما مات رثاهُ الحسن بن وهب بقولهِ

فُجع القريض بخاتم الشعراء   وغدير روضتها حبيبِ الطائي
ماتا معاً فتجاوروا في حفرةٍ   وكذاك كانا قبلُ في الاحياء

وجرير الشاعر كان ابوهُ فقيراً مدقعاً. ذكر ابو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني ان رجلاً قال لجرير «من أشعر الناس فقال لهُ قم حتى أُعرّفك الجواب فأخذ بيدهِ وجاء بهِ الى ابيهِ عطية وقد اخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها فصاح بهِ اخرج يا ابتِ فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيتهِ ثم قال اشعر الناس من فاخر بمثل هذا الاب ثمانين شاعراً وقارعهم بهِ فغلبهم جميعاً»

والزجاج النحوي الشهير كان يخرط الزجاج ثم تركهُ واشتغل بالادب فنال منهُ الحظ الاوفر . والسيرافي كان يتعيَّش بنسخ الكتب . وابن الحاجب صاحب الكافية كان ابوهُ حاجباً للامير عز الدين الصلاحي

والامام ابو حنيفة كان خزازاً اي يبيع الخزا. والحكيم ثابت بن قرّة الفلسفي كان صيرفيًّا بحران ثم انتقل الى بغداد واشتغل بعلوم الاوائل فمهر فيها وبرع في علم الطب والفلسفة وهو الذي قيل فيهِ

هل للعليل سوى ابن قرّة شافي   بعد الالهِ وهل لهُ من كافي

وابو بكر الرازي الطبيب المشهور كان في شبيبتهِ يضرب بالعود ثم اقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها فصار امام عصرهِ في علم الطب وصنَّف فيهِ الكتب النافعة كالحاوي والجامع ونحوهما

وياقوت الحموي المؤرخ المشهور صاحب معجم البلدان أُسر من بلاده صغيراً واشتراهُ تاجر ببغداد اسمهُ ابرهيم الحموي فلما كبر شغَّلهُ بالاسفار في متاجرهِ فاحرز اشتات الفوائد التي دوَّنها في مصنفاتهِ الجليلة. وكتابهُ معجم البلدان من اجل الكتب الموضوعة في الجغرافية

ونشأ من بين العبيد والمماليك جمهور غفير من الامراء والعظماء كبدر الجمالي الذي كان عبداً عند جمال الدولة بن عمَّار فصار بجده

وزير السيف والقلم عند المستنصر وهو الملك الافضل . والامير ابو شجاع فاتك الكبير أُسر صغيراً من بلاد الروم ثم اشتهر بالشجاعة والاقدام وصار من الامراء العظام وهو الذي مدحهُ ابو الطيب المتنبي بقصيدتهِ المشهورة التي يقول في مطلعها .

لا خيل عندك تهديها ولا مالُ   فليسعد النطقُ ان لم يسعد الحالُ

ولما مات رثاهُ بقصيدتهِ التي مطلعها

الحزن يقلقُ والتجمّلُ يردعُ   والدمع بينهما عصيٌّ طيّعُ

وقال فيهِ ايضاً

لا فاتك آخر في مصر نقصدهُ   ولا لهُ خلفٌ في الناس كلهمِ

والملك العادل سيف الدين ابن السلار كان من آحاد الجند وهو كردي الاصل

والحجاج ابن يوسف الثقفي كان يعلّم الصبيان هو وابوهُ بالطائف ثم لحق بروح بن زنباع الجذامي وزير عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطتهِ ثم رقي المناصب العالية بهمتهِ واقدامهِ حتى صار امير العراق وخراسان وسائر المشرق

ونظام الملك الطوسي كان من اولاد الدهاقين . وابن الزيات وزير المعتصم كان ابوهُ زيّاتاً وهو كان كاتباً بباب المعتصم فاستوزرهُ لادبهِ وعلو همتهِ وهو الذي مدحهُ البحتري بقولهِ

وأرى الخلقَ مجمعين على فضلكَ من سيدٍ ومسودِ

وقام من بين الفعلة اناس يستحقون الذكر الجميل منهم برندلي المهندس وكوك الخبير بسلك البحر وبرنس الشاعر . ومن بين البنائين وصافيّ القرميد بن جنص الذي عمل في بناء لنكان إنْ وفي يدهِ ملعقة البناء وفي جيبهِ الكتاب . وأدْوَرْدْس وتلفُرْد المهندسان وهيوملر الجيولوجي وآلن كنهام المؤلف النقاش . ومن بين النجارين انيغو جونس وهريسن صانع الكرونومتر ويوحنا هنتر الفسيولوجي .

ورُمني واوبي المصوران والاستاذ لي البارع في اللغات الشرقية ويوحنا جبسن النقاش . ومن بين الحاكة سمسُن الرياضي وباكُن النقاش وفستر المؤلف وولسن العارف بالطيور والدكتور لفنستن الرحَّالة الافريقي وتناهل الشاعر . ومن بين الاساكفة السر كلودسلي شوفل امير البحر الكبير وسترجن الكهربائي وصموئيل درو المؤلف وجيفرْد محرر جريدة كورترلي رڤيو وبلمفيلد الشاعر ووليم كاري وموريسُن المبشّران . وموريسن لم يكن سكافاً بل صانع قوالب للاساكفة . ومنذ سنين قليلة قام من بين الاساكفة الطبيعي الشهير توما ادوردس الذي درس العلوم الطبيعية بفروعها وهو يعمل في حرفتهِ واكتشف نوعاً جديداً بين الحيوانات القشرية الصغيرة سماه الطبيعيون پرانيزا ادوردسي (Praniza Edwardsii) نسبةً اليهِ

وقام من بين الخياطين يوحنا ستو المؤرخ وجكسن المصور والبطل السر يوحنا هكسود الذي اعطاهُ الملك ادورد الثالث لقب النَّبْط جزاء لشجاعتهِ . والاميرال هبصن كان صانعاً عند خياط في جزيرة وَيْط فحدث ان اسطولاً بحريًّا اجتاز امام تلك الجزيرة فذهب مع بعض الفتيان الى الشاطئ ليراهُ ولما شاهدهُ تحرَّك فيهِ ميل شديد الى سفر البحر فنزل في قارب كان هناك واخذ يجذف الى ان وصل الى سفينة الاميرال فصعد اليها وعرض نفسهُ متطوعاً ولم تمضِ عليهِ الاَّ سنوات قليلة حتى صار اميرالاً

واشهر الذين قاموا من بين الخياطين بالاجماع اندرو جُنسُن رئيس الولايات المتحدة الاميركية المشهور بالحزم والذكاء . قيل انهُ القى خطبةً في مدينة وشنطون قصبة الولايات المتحدة واخذ يراجع فيها تاريخ حياتهِ وكيف ارتقى من درجة الى اخرى الى ان صار رئيساً للولايات المتحدة فضجَّ المحفل الحاضر بصوتٍ واحد «من الخياط فصاعداً» . ولم يكن يعتدّ بتعيير خصومهِ بل يحولهُ من القدح

الى المدح . قال مرة « يعيرني البعض بانني كنت خياطاً ولكنني لا ارى في ذلك شيئاً من العار لانني كنت مشهوراً بالامانة والمهارة في صناعتي وكنت دائماً اخيط الثياب واعطيها لاصحابها في الاجل المعين علاوة على انني كنت اخيطها خياطة محكمة متينة

والكردينال ولسي العظيم كان ابن جزار وكذلك كان ده فو مؤلف كتاب روبنصن كروزو واكنسيد الطبيب الشاعر . ويوحنا بَنْين كان تنكاريًّا ويوسف لنكستر كان سلالاً . ومن الذين لهم اليد الطولى في اختراع الآلة البخارية نيوكمن ووط وستفنسن والاول كان حداداً والثاني نجاراً والثالث وقاداً . وبويك شيخ النقاشين في الخشب كان يعمل في معادن الفحم ووسلي الفيلسوف كان خادماً وهُلكرفت المؤلف كان سائساً وبَفن كان خادماً في سفينة وكذلك كان السر كلودسلي شفل . وهرشل الفلكي الشهير كان ينفخ بالمزمار وتشنتري كان نقاشاً واني طبّاعاً وفَرداي تعلم تجليد الكتب وعمل فيهِ الى ان بلغ الثانية والعشرين من عمره ولكنهُ يُعد الآن من الطبقة الاولى بين الفلاسفة الطبيعيين حتى انهُ يفضَّل على استاذهِ السر همفري داڤي

وبين الذين لهم اليد الطولى في تقدم علم الهيئة كوبرنيكس وهو ابن خباز من بولونيا . وكبلر وهو ابن خمار من المانيا . ودالمبر وهو لقيط وُجد ليلاً على درج كنيسة مار يوحنا في باريز ورُبي عند امرأة زجّاج . ونيوتن ابن فلاح غير غني ولابلاس ابن فلاح فقير وهذان الشهيران نشأا في العسر ولكنهما حصَّلا باجتهادهما شهرة لا تساويها كنوز العالم . والمرجح انهما لو كانا من ذوي الثروة ما اتصلا الى ما اتصلا اليهِ ويؤيد ذلك الحادثة الآتية وهي : ان ابا لكرَنج الفلكيّ الرياضيّ الشهير كان مستلماً خزينة الحرب في تورين فاشتغل بالكنتراتات وخسر خسارة فاحشة اوصلت بيتهُ الى الفقر

الشديد فصار ذلك سبباً لافتخار لـكرنج لانهُ كان يقول « لو كنت غنيًّـا ما صرت رياضيًّـا »

ومن الذين اشتهروا في بلاد الانكليز اكثر من غيرهم اولاد القسوس وخدمة الدين لاننا نرى بينهم دراك ونلسن الشهيرين بين رجال البحر. وولستن وين وبلفير وبل المشهورين بالعلوم. ورن ورينلدز وولسن وولـكي المشهورين بالتصوير. وثرلو وكمبل بالشريعة. واديسن وتمسن وكلدسمث وكلردج وتنين بالانشاء. واللورد هردنج والـكولونل ادوردس والماجور هدصن الذين اشتهروا في حروب الهند. وقد استولت الدولة الانكليزية على بلاد الهند بواسطة اناس من الطبقة الوسطى مثل كليف وورن وهستنس وخلفائهم رجال تربوا في المعامل وتعاطي الاعمال

وتجد بين اولاد المحامين والصناع والباعة ادمند برك السياسي الفيلسوف وسميتن المهندس وسكوت ووردسورث الشاعرين والسر وليم بلاكستن واللورد جيفرد. واللورد دنمن ابن طبيب والقاضي تلفرد ابن خمَّـار واللورد بُلُـك ابن سرَّاج (صانع سروج) وملتن ابن كاتب وبوب وسوذي ابنا بائعي انسجة واللورد ماكولي ابن تاجر افريقي. وليرد مكتشف خرائب نينوى كان كاتباً والسر وليم ارمسترنغ مخترع الآلة الهيدروليكية والمدفع المسمى باسمـهِ درس الفقه في صغرهِ ومارس المحاماة مدةً. وكيتس الشاعر كان صيدليًّـا والسر همفري دافي صانعاً عند صيدلي وهو الذي قال اني بلغتُ ما بلغتُ بسعيي ولا اقول ذلك بعجـب بل ببساطة قلب. ورتشرد اون كبير علماءِ التاريخ الطبيعي كان في احدى السفن الحربية ولم ينتظم في سلك طلبة العلم الاَّ بعد ان تقدَّم في السن. ويظهر انهُ وضع اساس معارفهِ لما كان يرتـب مجموع البقايا الذي جمعهُ يوحنا هنتر

اذا التفتنا الى تواريخ الامم المختلفة غير الامة الانكليزية رأيناها

مفعمة بذكر رجال كثيرين شرفوا الفقر الذي كان نصيبهم من الدنيا باجتهادهم وحذقهم . فمن الذين اشتهروا في الصناعات كلود وهو ابن حلواني وجيفس وهو ابن خباز وليوبلد روبرت وهو ابن صانع ساعات وهيدن وهو ابن صانع دواليب . والبابا غريغوريوس السابع ابن نجار وسكستوس الخامس ابن راعٍ وادريانوس السادس ابن بحري. ويروى انهُ لما كان صغيراً لم يستطع ان يبتاع مصباحاً ليدرس على ضوئهِ فكان يدرس دروسهُ على ضوء المصابيح المعلقة في الازقة. (وهذا يماثل ما قيل عن ابي نصر الفارابي الفيلسوف الشهير الذي اتَّبع الفلسفة اقصاها وادناها والَّف كتباً فيها لا تعدُّ لكثرتها مع ما كان عليهِ من العوز فانهُ كان يسهر الليل للمطالعة والتأليف ويستضيء بقنديل الحارس وبقي على ذلك الى ان عظم شأنهُ وظهر فضلهُ واشتهرت تصانيفهُ وكثرت تلاميذهُ وصار وحيد زمانهِ)

ومن الذين نبغوا من اصل حقير ايضاً هوي المعدني وهو ابن حائك وهتفيل الميكانيكي وهو ابن خبَّاز ويوسف فريه الرياضي وهو ابن خياط ودوران وهو ابن اسكاف وجسنر الطبيعي وهو ابن دباغ . قيل ان هذا خطا الخطوة الاولى في سلم الحياة يحيط بهِ كل ما يضعف الهمة كالفقر والمرض وانشغال البال ولكن لم تكن هذه المصاعب لتوهن عزمهُ وتصدهُ عن النجاح . وممن كانت احوالهم مثل احوال جسنر بطرس رامُس وهو ابن رجل مسكين من بيكردي وكان عملهُ في حداثتهِ رعاية الغنم ولكنهُ لم يرضَ بها حرفة ففرَّ هارباً الى باريز وبعد معاناة مشاق جزيلة دخل المدرسة الكلية في ناڤار خادماً ولكنهُ انتهز كل فرصة للدرس والمطالعة ولم يمض عليهِ وقت طويل حتى عدَّ من اشهر رجال عصرهِ

وڤوكولين الكيماوي الشهير ابن فلاح ويروى انهُ لما كان يتعلم في

المدرسة وهو فتى حديث السن لم يكن لهُ من الثياب ما يستر عريهُ ولكن امارات الذكاء كانت تلوح على وجههِ فكان معلمهُ يقول لهُ عند ما يريد مدحهُ على اجتهادهِ «نعمّا يا ولدي واظب على ما انت فيهِ من الاجتهاد فتلبس يوماً ما ثياباً حسنة مثل ثياب خفير الكنيسة» وزار تلك المدرسة احد الصيادلة فاعجبتهُ قوة ذراعيهِ فاخذهُ واستخدمهُ لسحق العقاقير ولكنهُ منعهُ من الذهاب الى المدرسة فتركهُ ڤوكولين وتوجه الى باريز ولما وصل اليها اخذ يعرض نفسهُ على الصيادلة خادماً فلم يجد من يستخدمهُ . ولكثرة ما المَّ بهِ من التعب والجوع أُصيب بمرضٍ فاخذهُ بعض اهل الشفقة الى احد المستشفيات حيث ظن انهُ يقضي نحبهُ ولكنْ العناية كانت معدة لهُ شيئاً آخر فلم يمضِ عليهِ الاّ وقت قصير حتى شفي من مرضهِ فرجع الى ما كان عليهِ من التفتيش عن مكان يخدم فيهِ فوجد مكاناً عند احد الصيادلة . وبعد برهة يسيرة عرف بهِ فركروي الكيماوي الشهير فضمهُ اليهِ وبالغ في اكرامهِ حتى جعله كاتباً لهُ . ولما مات ذلك الكيماوي الفيلسوف خلفهُ ڤوكولين في تدريس الكيمياءِ . وسنة ١٨٢٩ انتخبتهُ مقاطعة كلڤادو نائباً عنها في مجلس النواب

وليس في البلاد الانكليزية اناس ارتقوا من ادنى مراتب الجند الى أعلاها كما شاع في فرنسا بعد الثورة فان هُش وأُمبر وبشغرو كانوا من عامة الجند فكان هش يطرز الصدرات ويبتاع بما يكسبهُ كتباً في علم الحرب. وامبر هرب من بيت ابيهِ وهو في السادسة عشرة ودخل في خدمة تاجر ثم في خدمة عامل ثم في خدمة بائع جلود ارانب ثم تطوَّع جنديًّا ولم تمضِ عليهِ سنة من الزمان حتى صار قائد لواء . وقس عليهم كلابر ولفافر وسوشى وڤكتور ولان وسُلت وماسنا وسان سير ودرلون وموررا واوجرو وبسير وناي وغيرهم ممن نشأوا من ادنى الرتب وارتقوا الى اسماها . فمنهم من كان ارتقاؤهُ سريعاً

ومنهم من كان بطيئاً لان سان سيركان ابن دباغ فانتظم في سلك الفرسان ولم يلبث سنة حتى صار قبطاناً . وفكتور دوك بلونو دخل في الطبجية سنة ١٧٨١ ثم رُفض من الجيش في الحوادث السابقة للثورة ورجع اليهِ عند افتتاح الحرب وفي برهة قصيرة صار اركان حرب ورئيس اورطة . اما مورا وهو ابن صاحب خان فانتظم اولاً في سلك الفرسان وطرد لعدم طاعتهِ ثم انتظم ثانية فارتقى سريعاً الى رتبة اميرالاي . وناي انتظم في سلك الالاي من الفرسان وعمرهُ ثماني عشرة سنة ولما رأى الجنرال كلابر اقدامهُ رقاهُ درجة فدرجة الى ان صار في رتبة ادجوتانت جنرال وهو ابن خمس وعشرين

هذا من جهة الذين تقدموا بسرعة . اما الذين تقدموا ببطءٍ فمنهم سُلت الذي مضى عليهِ اكثر من ست سنوات قبلما ارتقى الى رتبة جاويش وهي الاولى فوق الجندي ولما صار وزير الخارجية اخذ يدرس الجغرافيا لانهُ لم يكن يعرف شيئاً من العلوم فوجد فيها لذَّة كبيرة . ومسينا خدم في الجندية اربع عشرة سنة قبلما ارتقى الى رتبة جاويش ومع انهُ ارتقى اخيراً بالتوالي الى منصب اميرالاي وجنرال ومرشال قال ان رتبة جاويش كلفتهُ تعباً اكثر من كل هذه الرتب . ولا يزال هذا الارتقاءُ بين رجال فرنسا الى يومنا هذا لان المرشال بوجو ظل نفراً اربع سنوات قبلما رقي ضابطاً . والمرشال رندون الذي صار وزير الحربية دخل في الخدمة ولداً يضرب الطبل ولا تزال صورتهُ في فرساليا ويدهُ على طبلٍ وقد صُوّرت كذلك بطلبهِ . فامور مثل هذه تضرم نار الغيرة والحمية في نفوس الجنود الفرنسوية رجاءَ ان كل واحد منهم قد يصير مرشالاً ان لم نقل امبراطوراً .

وهؤلاءِ الرجال قلال جداً في جانب الذين ضربنا صفحاً عن ذكرهم فليس ارتقاؤهم من الامور النادرة التي لا يبنى عليها حكم بل من الامور الشائعة جداً حتى يمكننا ان نقول ان كل من سعى في طلب المجد بهمة

عالية وواظب على السعي نال مبتغاهُ . بل اذا نظرنا الى كثيرين من الذين نجحوا بسعيهم رأينا ان الصعوبات والمتاعب التي صادفوها في اول سعيهم كانت لازمة لنجاحهم

ولم يخلُ مجلس النواب في بلاد الانكليز من رجال كثيرين من هذا النوع نشأُوا من بين اصحاب الصنائع والحرف . قيل ان يوسف برذرتن نائب مقاطعة سلفرد قام في احدى مباحثات هذا المجلس وجعل يعدد المشاق التي قاساها وهو صانع في معمل قطن فقال ومن ثمَّ صممتُ على انهُ اذا ساعدتني التقادير ابذل قصارى جهدي في اصلاح شأن العمَّال الذين كنت اعمل بينهم . فما اتمَّ كلامهُ حتى وقف السر يعقوب غريهم وقال اني لم اعرف قط أن اصل مستر برذرتن وضيع الى هذا الحد ولكن الآن زاد افتخاري بمجلس النواب اذ رأيت فيهِ انساناً ارتقى من درجة وضيعة الى ساوى عظماء الارض . ويماثل ذلك قول مستر فكس نائب الدهام الذي كان يردده كثيراً وهو « لما كنت صانعاً عند حائك في نوروك »

ولم يزل في مجلس نواب الانكليز اعضاء اصلهم حقير مثل هذين وربما احقر . قصَّ المسترلندساي نائب سندرلند سيرة حياتهِ لمنتخبي ويموث مجيباً خصوماً لهُ في امور سياسية فقال توفّي والدي ولي من العمر اربع عشرة سنة فتركتُ غلاسكو وقصدتُ ليڤربول ولم اكن قادراً على دفع اجرة السفر فارتضى ربان السفينة ان اخدمهُ بما يقوم باجرة سفري واستخدمني في تنقية الفحم فوصلتُ الى ليڤربول واقمت فيها سبعة اسابيع قبل ان وجدتُ عملاً اعملهُ . وكنت انام في الفلاء ولم اكد احصّل ما يسدُّ رمقي . ثم استخدمت في احدى السفن ولكني لم ابلغ التاسعة عشرة حتى ارتقيت الى رآسة مركب بجدّي واستقامتي . ولما بلغت الثالثة والعشرين تركت البحر ومن ثمَّ اخذتُ في التقدم السريع واؤكد لكم ان السبب الحقيقي لتقدمي

اجتهادي وسعيي وجريي على موجب تلك القاعدة الذهبية التي جعلتها دستوراً لكل اعمالي فكنت اعامل الغير كما اريد ان يعاملوني

ومما يقارب ذلك تقدم مستر وليم جكسن عضو نورث دربيشير فهذا كان ابن جرّاح في لنكستر . توفي ابوهُ عن احد عشر ولداً وهو سابعهم فأُخرج من المدرسة قبل ان بلغ الثانية عشرة ووُضع في معمل وكان مضطرًّا ان يعمل فيهِ اربع عشرة ساعة كل يوم اي من قبل الظهر بست ساعات الى ثمانٍ بعدهُ . وبعد وقت قصير مرض معلمهُ فاخرج من عندهِ ووضع في بيت المحاسبات حيث كان لهُ شيءٌ من الحرية فاكبَّ على الدرس وحينئذٍ تمكن من الوصول الى كتاب الانسيكلوبيذيا البريطانية فقرأهُ كلهُ وكان اكثر قراءتهِ فيهِ ليلاً . ثم اكبَّ على التجارة فافلح فيها ايَّ افلاح وصارت لهُ سفن في كل البحار وعلاقات تجارية مع كل بلادٍ على وجهِ الارض

ويماثل ذلك تقدم رتشرد كبدن وهو ابن فلاح من مدهرست في سسكس فانهُ أُرسل في حداثتهِ الى لندن ودخل خادماً في بعض المخازن وكان حاذقاً ذكيًّا حسن السيرة كثير المطالعة . وكثيراً ما كان ينهاهُ معلمهُ عن كثرة الدرس الاَّ انهُ لم يمتثل امرهُ بل واظبَ على ما كان فيهِ مالئاً عقلهُ بما في الكتب من كنوز المعرفة فتقدم من عمل الى آخر الى ان تعاطى المسائل السياسية وخصص لها نفسهُ وكل ما كان يملكهُ . ويروى ان اول خطبة خطبها لم تستحق ان يلتفت اليها احد ولكنهُ لم ينفك يمارس الخطابة حتى صار من اشهر الخطباء واقواهم حجةً وانفذهم كلمةً وذاع صيتهُ في الآفاق حتى استحق مديح السر روبرت بيل الشهير . قال المسيو درون ده ليس سفير فرنسا في انكلترا ان مستر كبدن هذا خير مثال لفعل الآداب والمواظبة والاجتهاد وهو مثال من اتم امثلة الرجال الذين ارتقوا من ادنى الرتب الى اعلاها باستحقاقهم وخدمهم الشخصية التي خدموا بها وطنهم ومثال من اندر

الامثلة للصفات الثابتة الموروثة في الشعب الانكليزي

وخلاصة ما تقدم انهُ ما من احد نال المجد والشرف الاَّ بعد السعي والكدّ وما من احد قدر على نيلهما بالكسل والتواني . وما احسن ما قالهُ ابو الطيب المتنبي

على قدر اهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام الكرائمُ

ويد الانسان ورأسهُ يصيرانهِ حكيماً غنيًّا . وان ولد في الغنى والسعة وكان من قوم لهم اسم وفضل لا يحصل على شهرة ما لم يكن مستحقًّا لها لان الغنى يتصل بالإرث وليس كذلك العلم والحكمة . والغنيّ يستأجر من يعمل لهُ اعمالهُ ولكنهُ لا يستطيع ان يستأجر من يفتكر عوضاً عنهُ ولا ان يشتري العلم والتهذيب ولا الشهرة التي يستحقها لاجلهما . فلا شهرة الاَّ بالسعي والاجتهاد وذلك يصدق على اصحاب الثروة كما يصدق على درو وجيفورد اللذين درسا في دكان السكاف وعلى هيو ملر الذي درس دروسهُ الانتهائية في مقلع الحجارة

والغنى والراحة ليسا ضروريين لبلوغ المراتب العليا من الرقي والاَّ لما كان الناس مديونين دائماً للذين نشأوا من ادنى الرتب . وذلك لانهُ اذا كان الانسان غنيًّا مترفهاً لم يضطرّ ان يقاوم الصعوبات فلا تقوى عزيمتهُ ولا تصيرهُ من ذوي الاقدام . واذا كان الفقر عدوا فالاعتماد على النفس يجعلهُ صديقاً يولي العزم والاقدام ومناضلة الدهر وما يتبعها من الظفر والمجد . قال الفيلسوف باكن ان الناس لا يقدرون غناهم ولا قوتهم قدرهما لانهم يقدرون الغنى اكثر مما يستحق والقوة اقل مما تستحق . اما الاعتماد على النفس ومقاومة الاهواءِ فيعلِّمان الانسان ان يشرب ماءً من جبهِ وان يشتغل ويتعب لتحصيل معيشتهِ وانفاق ما يصل الى يدهِ بالحكمة والاقتصاد

والغنى يقود الى الكسل والبطر وهما امران نرى الانسان مائلاً اليهما طبعاً حتى ان الذين وُلدوا في نعمة وافرة اذا استهانوا بالراحة

ولم يأنفوا من التعب في خدمة جيلهم كان لهم الفخر الاعظم. وما اكثر الاغنياء الذين تجشموا اشد المشاق في خدمة جيلهم. قيل ان احد القواد الاغنياء كان ماشياً الى جانب فرقته في حرب اسبانيا فخاضت تلك الفرقة في بالوعة وخاض هو معها فقيل ان خمسة عشر الف جنيه سنويًا تخوض في تلك البالوعة (يراد بذلك ان دخل القائد كان خمسة عشر الف جنيه في السنة). ومن عهد قريب شاهدت احادير سفستوبول ورمال الهند والسودان المحرقة البسالة الفائقة التي اظهرها شرفاء الانكليز واغنياؤهم فكم من شريف وغنيٍّ خاطر بنفسهِ او فقدها في تلك المعامع الهائلة خدمةً لوطنهِ

وما الاغنياء بمعزل عن اتّباع العلم والفلسفة والاَّ فمن هو باكن ابو الفلسفة الحديثة ووستر وبويل وكافنديش وتلبُت ورُص. ورصٌ هذا يلقَّب ميكانيكيَّ الاشراف ولو لم يولد شريفاً لحاز اسمى الرتب بين المخترعين. قيل انهُ كان ماهراً مهارة فائقة في صناعة الحدادة حتى طلب منهُ رجلٌ يجهل نسبهُ ان يتولى ادارة معمل حديديٍّ لهُ. ومن المعلوم ان تلسكوب هذا الشريف الذي عملهُ بيدهِ من اعجب ما صُنع من نوعهِ الى يومنا هذا. غير اننا نجد ان الفريق الاكبر من كبراءِ الانكليز قد تعاطى فنون السياسة والادب ولا يخفى ان النجاح في هذه ايضاً متوقفٌ على الاجتهاد والدرس والمزاولة. فعلى الوزير او الرئيس ان يكون من اكثر الناس اشتغالاً وجداً كبامرستون ودربي ورسل ودزرائيلي وغلادستون. ومن عرف هؤلاءِ الرجال واشغالهم الكثيرة رأى انهم كانوا لا ينفكون عن الاشتغال نهاراً وليلاً

ومن اشهر رجال السياسة بالاجماع السر روبرت بيل فقد كان لهُ جلَد على مزاولة اشغالهِ العقلية يكاد يعدُّ من خوارق العادة فانهُ لازم البرلمنت اربعين سنة واشتغل في غضونها اشغالاً لا تكاد تصدَّق لكثرتها وعظمتها. قيل انهُ لم يشرع في امر الاَّ اتمَّهُ. وكلٌّ

خطبهِ تشهد لهُ انهُ درس درساً دقيقاً في كل ما تكلم بهِ او كتب فيهِ. وكان من المفرطين في الشغل والمفرّطين في صحتهم ومصالحهم لكي يتمم كل ما شرع فيهِ . وفاق كل معاصريهِ في قوة الحجة وسمو الافكار والمقدرة على امتلاك عقول سامعيهِ .وكان كلَّما تقدم في السن ازدادت معارفهُ ولانت عريكتهُ واستمرَّ الى آخر نسمة من حياتهِ فاتحاً باباً في ذهنهِ لقبول الآراء الجديدة . كان نفوراً من التطرُّف في المسائل الاَّ انهُ لم يقع في ما وقع فيهِ غيرهُ من التعصب للآراءِ القديمة الذي هو فالج يصيب عقول الاكثرين عند تقدمهم في السن

وممَّن يضرب بهم المثل في الاجتهاد وعدم الملل اللورد برَوَم الذي خدم جيلهُ اكثر من ستين سنة تعاطى فيها الفقه والادب والسياسة والعلم واتقن كل ما تعاطاهُ . قيل سُئِل السر صموئيل روملي ان يعمل عملاً جديداً فاعتذر بضيق وقتهِ ثم قال عليكم بهذا برَوَم لانهُ يخلقُ وقتاً لكل شيء . والسرُّ في ذلك ان اللورد برَوَم لم يدَع دقيقة من وقتهِ تمضي سدى . ولما بلغ السن الذي يتنحى فيهِ الناس عن الاعمال شرع في عمل شاقّ الى الغاية وهو البحث في نواميس النور فجاءت ابحاثهُ مكللةً بالنجاح وشهد لهُ فيها اشهر علماءِ باريز ولندن . وكان آخذاً حينئذٍ في طبع كتابهِ الشهير في العلماءِ والادباءِ الذين نبغوا في عصر الملك جورج الثالث وقائماً بعبء منصبهِ في مجلس الاعيان حتى قيل ان سدني سمث اشار عليهِ مرة ان يقتصر على اعمال لا يقدر على القيام بها اقل من ثلاثة رجال. الاَّ انهُ كان لا يستكثر اعمالهُ مهما كثرت وشقَّت ناهيك انهُ كان مطبوعاً على اتقان الاعمال حتى قال بعضهم انهُ لو كانت حرفتهُ صبغ الاحذية لصار اوَّل صباغ احذية في المسكونة

ومنهم السر بَلْور لتُون الذي قلَّ من ماثله في تعاطي اعمال كثيرة وافلاحهِ فيها كلها لانهُ كان شاعراً وروائيًّا ومؤرِّخاً ومؤلفاً

وخطيباً وسياسيًّا . ولم يكن يسأل عن الراحة ولا يكترث للتعب . وقلَّ من جاراهُ من مؤلّفي الانكليز في كثرة التآليف او ساواهُ في سموّها . وكان من ذوي الثروة الرابين في مهد التنعُّم ولكنهُ انكر نفسهُ ولم يمتعها بشيء مما يتمتع بهِ اهل الغنى والقصوف بل سار في طريق المؤلفين الحَرِج فكانت تآليفهُ الاولى على جانب من الركاكة فرمقها الناس بعين الازدراء ولكنَّ ذلك لم يثنِ عزمهُ فواظب على الدرس والتأليف حتى حاز قصب السبق وصار يعدُّ من ابرع المؤلفين

ومنهم دزرائيلي الشهير الذي رقي الى اسمى المناصب بجدهِ وكدهِ. الَّف في اول الامر كتباً ازدراها الناس وعدوها من آثار الجنون. فغيَّر نسق تأليفهِ والّف ثلاثة كتب دلت على ان فيهِ جوهراً مكنوناً . ولما دخل مجلس النواب وخطب فيهم الخطبة الاولى ضحكوا على كل جملةٍ منها هزءًا بها على فخامتها ولكنهُ ختم خطبتهُ بهذه العبارة التي تحسب انباءً بما وصل اليهِ وهي قولهُ « اني شرعت في امورٍ مختلفة مراراً كثيرة ولم انفكَّ عنها حتى نجحتُ فيها النجاح المطلوب فسيأتي وقت تصغون فيهِ اليَّ » . ثم جاء الوقت المشار اليهِ وصار كل اهل المسكونة يصغون الى قول ذلك الرجل العظيم . ولكنهُ لم ينل ما نالهُ من المجد والسؤدد الاَّ بجدهِ وحزمهِ فانهُ لما كانت تحبط مساعيهِ لم يفعل ككثيرين من الشبان الذين اذا فشلوا مرةً وهت عزائمهم ووقعوا في بالوعة اليأس بل كان يقرن العزم بالحزم ويفتش عن عيوبهِ ويصلحها ودرس اطوار سامعيهِ ومارس الخطابة طويلاً وملأَ راسهُ بما يحتاج اليهِ من المعارف ففاز باما نيهِ وضحك لهُ مجلس النواب بعد ان ضحك عليهِ وصار اعظم الخطباء ورجال السياسة

يظهر من الامثلة المتقدمة ان النجاح موقوف على الاجتهاد . وسنورد امثلة اخرى تؤيد ذلك ايضاً . ولكن لا ينكر ان الانسان يحتاج ايضاً الى من يعضدهُ ويعينهُ . ولقد اجاد الشاعر وردزورث

اذ قال « ان افتقارنا الى الغير واستقلالنا بانفسنا لا بد من ان يسيرا معاً ويصطحبا ولو كان بينهما مناقضة ظاهرة » . فكل واحدٍ مفتقرٌ الى غيرهِ في التغذية والتهذيب من طفوليتهِ الى شيخوختهِ وان تفاوت مقدار هذا الافتقار باختلاف الاشخاص . وافضل الناس اقربهم الى عرفان ما عليهم لغيرهم من الجميل والاحسان. قيل ان المسيو الكسيس ده توكفيل الشريف الفرنسوي المعمّ المخول دُعي الى منصب في محكمة ڤرساليا وهو في الحادية والعشرين من عمرهِ فرأى انهُ غير اهل لذلك المنصب وقد دُعي اليـهِ لشرفهِ الموروث فرفضهُ عازماً ان يتأهّـل لهُ بجدهِ . ثم ترك فرنسا وقصد الولايات المتحدة الاميركية واستصحب صديقهُ كستاف ده بومون . قال كستاف هـذا « ان توكفيل مطبوع على عداوة الكسل فلا تراهُ بلا عمل في حال من الاحوال في حَضَر كان او في سَفَر واطيب الحديث عندهُ انفعهُ واسوأ الايام ايام العطلة فيغتمُّ لاضاعة كل دقيقة من الوقت » وكتب توكفيل الى احد اصدقائهِ يقول « الانسان لا يفرغ من العمل في حياتهِ ولا بدَّ لهُ من الجهاد الداخلي ولاسيما في الحداثة كما انهُ لا بدَّ لهُ من الجهاد الخارجي. وما الانسان في هذه الدنيا سوى مسافر في بلاد يزداد بردها كلما تقدم في سفرهِ فعليهِ ان يزداد حركة وسرعة كلما تقدم والاَّ فاجأتهُ منيتهُ في هيئة البرد . واشد امراض النفس مرض البرد الاَّ ان قوانا العقلية والجسدية لا تكفينا لمقاومة هذا العدوّ الالد فعلينا ان نستعين بغيرنا »

وقد جزم توكفيل ان الاعتماد على النفس واجب على كل احد الاَّ انهُ لم يحطَّ من قيمة المساعدة التي ينالها الانسان من غيرهِ ولو تفاوتت مقاديرها فانهُ كثيراً ما اقرَّ بجميل ده كرغورلي وستوفلس الاول لاجل مساعدتهِ العقلية والثاني لاجل معاضدتهِ الادبية . وكتب الى كرغورلي يقول « اني مديون لكثيرين بامور كثيرة فرعيّـة ولكني

لستُ مديوناً لاحدٍ بقدر ما أنا مديون لك بالمبادىء الاساسية التي هي قاعدة السلوك » . واقرَّ ايضاً بفضل امرأتهِ لانها ساعدتهُ على مواظبة دروسهِ واعمالهِ . وكان يعتقد ان المرأة الفاضلة تشرّف اسم زوجها وتعلي آدابهُ والسليطة تدنيهِ وتحقّرهُ وفي ذلك يقول « انني كثيراً ما شاهدتُ رجالاً من فضلاء الناس ونبلائهم وانما كانوا كذلك لان لهم زوجات يعنَّهم لا بارشادهنَّ وتحذيرهنَّ لهم كأنَّ لهنَّ السيادة عليهم بل بميلهنَّ الطبيعي الى الاعمال النبيلة . وشاهدت رجالاً آخرين كانوا على جانب من الشهامة والاستعداد الطبيعي للارتقاء ثم صاروا بواسطة نسائهم لؤماء ادنياء لا يهتمون بشأن وطنهم الاَّ اذا عاد اهتمامهم بالنفع عليهم »

والخلاصة ان الفواعل التي تفعل باخلاق البشر كثيرة فمنها العلم والعمل والقول والقدوة والاصحاب والجيران والدنيا وسكانها من حاضرين وغابرين . ولكن مهما كان لهذه الفواعل من التأثير الشديد يبقى سعي الناس واعتمادهم على انفسهم اقدر على رفع شأنهم من كل الفواعل الخارجيَّة

الفصل الثاني

في ارباب الصنائع وهم المخترعون والمستنبطون

قال ابن خلدون لا بدّ في طلب الرزق من سعي وعمل

وقال ده سافندي . العلم والعمل يسودان العالم من الآن فصاعداً

وقال ارثرهلبس. انزع من بلاد الانكليز كل ما صنعه لها المخترعون الذين نبغوا من بين السوقة وانظر كيف تبقى

الاجتهاد صفة من اشهر صفات الانكليز فقد امتازوا بهِ في الازمنة الغابرة كما هم ممتازون بهِ الآن فتوطَّدت اركان مملكتهم باجتهاد عامتهم وازدادت عظمة امتهم باجتهاد آحادهم سواء كانوا من حارثي الارض او صانعي الامتعة او عاملي الآلات او مؤلفي الكتب. ولم يقتصر اجتهادهم على ترقيتهم بل انقذهم من شر ما وقع في سياستهم وشرائعهم من الخلل حيناً بعد حين وهذَّب اخلاقهم ونظم احوال مملكتهم . والاجتهاد رفيق لاتمام الواجبات وقد قرنتهما العناية بالنجاح والسعادة . قال شاعر الاعاجم ان الآلهة وضعت الاجتهاد والتعب في طرق الفردوس وقال الشاعر العربي

ان كنتَ تطلبُ عزًّا فادَّرعْ تعباً

او فارضَ بالذل واخترْ راحةَ البدَنِ

هذا ولا خلاف في ان الانسان لا يأكل خبزاً ألذَّ من خبز تعبهِ عقليًّا كان او جسدياً . والاجتهاد في العمل اساس كل تقدم فيهِ ذُلّلت مصاعب الطبيعة وارتقى الانسان من وهاد الجهل والخشونة الى ذرى الحضارة والعمران . وهو من الواجبات والضروريات وتراهُ مكتوباً على كل جارحةٍ من جوارح الجسد وكل لفافة من تلافيف

الدماغ . وهو ايضاً بَرَكة من البركات ولا يستثقلهُ الاَّ كل بليد خامل الذكر او كسلان كافر بالنعم

والعمل لا يحط من شأن الانسان ولو كان اذكى الناس عقلاً واوسعهم علماً . قال هيوملر الذي لا يضاهيهِ احد في معرفة العمل وما يتأتى عنهُ للعامل من القوة والضعف « ان اتعب الاعمال مفعم باللذة واصلاح شأن العامل ادبيًا وماديًّا والعمل امهر معلم ومدرستهُ افضل مدرسة بعد مدرسة الديانة لاننا نتعلم فيها ان نكون مفيدين ومستقلين ومجتهدين » . وكان هذا الفاضل يذهب الى ان الصناعة تهذب اهلها وتجعلهم رجالاً اكثر من غيرها من اسباب المعايش ولا حرج فان الحكمة العملية التي هي افضل انواع الحكمة تدرَّس في مدرسة العمل

ويظهر مما ذكرناهُ من امر الرجال الذين نبغوا من بين اهل الاعمال ثم امتازوا بالعلم او التجارة او الادب او الفنون ان الاجتهاد يذلل الصعوبات مهما كانت وان ارتفاع الاخطار باقتحام الاخطار . هذا ناهيك ان الاختراعات والاكتشافات التي اغدقت على الامة الانكليزية ينابيع الثروة والعزة اكثرها لاناس من العامَّة بل من السُّوقة واذا حذفنا ما فعلهُ هؤلاءِ الرجال لا يبقى شيء يذكر لانهم اوجدوا صنائع من اوسع صنائع الدنيا وتفحوا العالم بكثير من الضروريات والكماليات وروَّجوا الاعمال وزادوا راحة البشر ورفاهتهم. وطعامنا ولباسنا واثاث بيوتنا وزجاج شبابيكنا والغاز الذي ننير بهِ شوارعنا والبواخر التي نسافر فيها برًّا وبحراً وكل الآلات والادوات التي جنى العالم ثمارها ولا يزال ولن يزال هي ثمرة تعب اولئك المخترعين

ومن المخترعات التي نذكرها اولاً الآلة البخارية فقد اخترعت في عصرنا الحاضر الاَّ ان مبدأها وُجد منذ مئات من السنين ثم ظهرت

في حيز الوجود رويداً رويداً كغيرها من المخترعات . فكان العامل الواحد يعمل ويتعب في هذا الاختراع الخطير زماناً طويلاً ولا يصل الى الغاية المطلوبة ثم يمضي ويترك عملهُ لآخر فيأتي ويحسّنهُ ويزيد عليهِ ما امكنهُ . ودام الحال على هذا المنوال قروناً عديدة . وعليهِ ترى ان الامر الذي خطر على بال هيرو الاسكندري قبل المسيح باكثر من مائة وثلاثين سنة كان كحبوب الحنطة في مدافن المصريين الاقدمين التي يقال انها نمت عند ما زُرعت بعد ما مضى عليها اكثر من الفي سنة مدفونة في الارض . وهذا الاختراع العظيم مرَّ عليهِ اكثر من الفي سنة متروكا في زوايا الاهمال ثم نما بنور العلم في عصرنا . وقد حالت دون اخراجهِ من القوة الى الفعل صعوبات تفوق الوصف ولكن ذوي الهمة قووا عليها ودكوها بما بذلوا من الصبر والمزاولة . وكأني بالآلة البخارية بين الآلات سلطان محفوف برجالهِ العظام الذين بذلوا حياتهم في تشييد ملكهِ . وان تسأل عن اسمائهم فهم سافري المهندس ونيوكمن الحداد وكولي الزجاج وبُتر الصانع وسميتون المهندس وفي صدرهم جميعاً رجل الصبر والكد الذي لم يملّ من عمل قط النجّار جمْس وط

هذا هو جمس وط اكثر الناس اجتهاداً . هذا هو الرجل الذي اثبتت سيرتهُ ما طالما اثبتهُ الخُبْر والخَبَر من ان الامور العظيمة لا يعملها ذو المقدرة والمهارة الفطرية بل من يستعمل قواهُ بما اكتسبهُ بالاجتهاد من المزاولة والاختبار . لان كثيرين من معاصريهِ كانوا اعلم منهُ جدا ولكن لم يجتهد احد اجتهادهُ في تحويل كل علومهِ وقواهُ الى غايات مفيدة . فانهُ كان يواظب على تتبع النتائج اشدَّ المواظبة وقد مرَّن قوة الانتباه فيهِ اشد التمرين وعلى الانتباه يتوقف فعل كل قوى العقل المتممة للاعمال . ولقد اجاد المستر ادجورث اذ قال ان الفرق بين عقول البشر يتوقف على اختلاف، قوة الانتباه فيهم اكثر مما يتوقف على

اختلاف بقية قوى العقل

رضع وط العلوم مع اللبن لان اباهُ كان يصنع آلات فلسفية وفلكيَّة وكان في دكانهِ كثير من الارباع(١) فنبهت ابنهُ الى درس علم البصريات والهيئة وكان جسمهُ نحيفاً فحملهُ ذلك على درس علم الفسيولوجيا . وكان يحب الجولان في القفار فقادهُ ذلك الى درس علمي النبات والتاريخ . وطُلب منهُ مرة ان يصنع ارغناً لانهُ احترف حرفة ابيهِ — عمل الآلات الرياضية — ولم يكن يعرف علم الايقاع فدرسهُ وصنع الارغن المطلوب فجاء بديع الاتقان . وطلب منهُ ذات يوم ان يصلح مثالاً من آلة نيوكمن البخارية لمدرسة غلاسكو الكلية فاكبَّ على درس كل ما كان يُعرَف حينئذٍ من نواميس الحرارة والبخار واصطناع الآلات الميكانيكية وظهرت نتيجة درسهِ اخيراً في الآلة البخارية المكثفة التي صنعها

قضى في صنع هذه الآلة عشر سنوات وهو بين مكتشف ومخترع ولا نتيجة تسرهُ ولا صديق ينشطهُ . وكان يحصّل ما يقوم بنفقاتهِ ونفقات اهلهِ من اصطناع الارباع والاعواد وغيرها من آلات الطرب. ومارس ايضاً مساحة الاراضي وتخطيط الطرق وادارة حفر الترع وكل ما يعود عليهِ بالربح . ثم وجد معيناً لهُ رجلاً حاذقاً نشيطاً محبّاً للاختراع يُسمى بلتن . فاخذ هذا على نفسهِ استخدام آلة وط لتحريك الآلات المختلفة . ثم تداولت هذه الآلة ايدي المخترعين فزادوا عليها واصلحوا فيها كثيراً الى ان جعلوها صالحة لكل الاعمال تقريباً . وهي الآن تدير الآلات وتسير السفن وتطحن الحبوب وتطبع الكتب وتسك النقود وتطرّق الحديد وترفع الاثقال وتنسج الاقمشة وتحرث الاراضي وتعمل كل عمل يحتاج فيهِ الى قوة . ومن افضل التحسينات فيها جعلها صالحة لسير المركبات البرية وهذا شرع

(١) نوع من الآلات الفلكية

فيهِ ترڤيثك واتمهُ ستفنسن وابنهُ ويصحُّ ان نحسب هذا التحسين اختراعاً جديداً وربما فُضّل على اختراع آلة وط لما نتج عنهُ من اتساع الحضارة

ومن اعظم النتائج التي نتجت من اختراع وط انشاء معامل القطن ومنشئها السر رتشرد اركريت الذي يُعجَب بهِ لاجل همتهِ وزكانتهِ اكثر مما يُعجَب بهِ لاجل مقدرتهِ على الاختراع بل ان من الناس من لا يقرُّ لهُ بالاختراع كما ان منهم من لا يقر لوط. ولعلَّ نسبة اركريت الى آلة الغزل كنسبة وط الى آلة البخار ونسبة ستفنسن الى قاطرات سكة الحديد لانهُ جمع شتيت خيوط متفرقة ونسج منها هذا الاختراع العظيم

قيل ان رجلاً يسمى لويس بول نال امتيازاً بآلة للغزل تغزل بواسطة البكرات قبل اركريت بثلاثين سنة ولكن آلتهُ كانت ناقصة من وجوه كثيرة فأُهمل امرها. وقيل ان رجلا آخر اسمهُ توما هايس اخترع آلة للغزل والظاهر ان اختراعهُ لم ينجح ايضاً. وكأنهُ لا يُخترع اختراع الاَّ بعد ان يخطر على بال كثيرين حينما تمسُّ الحاجة اليهِ فيخطو كلٌّ منهم فيهِ خطوة او اكثر كما جرى في الآلة البخارية وقنديل الامانة والتلغراف الكهربائي وغيرها من المخترعات ويدوم الامر على مثل ذلك الى ان يقوم رجل يفوق اقرانهُ في العقل والاقدام فيسبقهم ويستخلص كل ما استنبطوهُ ويضيفهُ الى ما ارتآهُ هو او استنبطهُ فيتم بهِ الاختراع. وحينئذٍ يعلو صراخ اولئك المقصرين في ميدان هذا الاختراع ويصوبون نحوهُ سهام ملامهم فيضطرُّ ان يدافع عن اسمهِ وحقهِ

هذا ولنرجع الى رتشرد اركريت فنقول انهُ وُلد في برستون سنة ١٧٣٢ من ابوين فقيرين جداً. وكان صغير اخوتهِ واخواتهِ وهم ثلاثة عشر ولم يدخل مدرسة قط وبقي حتى وفاتهِ لا يحسن الكتابة. وكانت صناعتهُ الحلاقة فلما تعلَّمها فتح دكاناً في بلتن تحت الارض وكتب

فوق بابهِ « هلمّوا الى الحلاق الارضي فانهُ يأخذ على الراس عشرين بارة » فاضطرّ رصفاؤهُ الحلاقون ان يقللوا اجرة الحلاقة مجاراةً لهُ فاعلن انهُ يحلق حلاقة جيدة بعشر بارات. وشاع حينئذ لبس الشعور العارية فترك صناعة الحلاقة واخذ يجول في البلاد يبيع الشعر والخضابات الكيماوية

وما طالبُ الحاجاتِ من كل وجهة من الناس الاّ من اجدّ وشمرا

ومع كل اقدامهِ واجتهادهِ لم يكن يكسب اكثر مما يكفي للقيام بمعيشتهِ

ونحو ذلك الوقت بطل لبس الشعور العارية فاضطر ان يترك تجارتها ويأخذ في عمل آخر وهو اصطناع الآلات او كما كان يقال اختراع الاختراعات. وفي غضون ذلك جُرّبت التجارب الكثيرة لاختراع آلة للغزل فعزم ان يزج نفسهُ بين المجرّبين فالقى دلوهُ في الدلاءِ عازماً ان لا يرجع الاّ غانماً. وكان قد اضاع قسماً كبيراً من وقتهِ في اصطناع آلة تتحرك حركة دائمة كما هو شأن اكثر محبي الحرف فاعدّ عقلهُ لاختراع اهمّ واثبت وهو اختراع آلة الغزل. ولما اخذ فيهِ اكبّ عليهِ برغبة شديدة الى ان نفد ما جمعهُ من المال اليسير. فلما رأت زوجتهُ ذلك فرغ ما عندها من الصبر فاختطفت آلاتهِ ورسومهُ واطعمتها النار آملةً ان تصرفهُ عنها الى اتباع حرفة تقوم بحاجات بيتهِ. فاستشاط منها غيظاً وهجرها

وكان قد استعان برجل صانع ساعات اسمهُ كاي على عمل الآلة التي قدّر لها الحركة الدائمة فظن بعضهم ان كاي هذا اخبرهُ بمبدإ الغزل بالبكرات وقيل بل خطر على بالهِ مبدأ آلة الغزل عند رؤيتهِ قطعة حديد محماة قد استطالت بمرورها بين اسطوانتين من حديد. وكيفما كان اتصالهُ الى مبدإ آلة الغزل فمن المعلوم انهُ تفرّغ لها بكليتهِ ولم ينفكّ عنها حتى جاء بالنتيجة التي ليس لكاي من فضل عليهِ بها سوى عملهِ لهُ المثال حسب ارشادهِ. الاّ انهُ صادف مصاعب كثيرة في اشهار

آلتهِ هذه لان من عادة الصناع ان يقاوموا كل آلة جديدة خوفاً من ان تكسد بضاعتهم بها فاضطرَّ ان يترك وطنهُ ويلتجىء الى نوتنهام التي كانت آمن قليلا

وكان قد وصل الى حالةٍ يرثى لها من الفقر حتى اضطرَّ البعض ان يتصدقوا عليهِ بيسير من المال لابتياع ما يحتاج اليهِ من الاكسية. فطلب الامداد من بيت ريط فمدوهُ بمبلغ من المال مشترطين عليهِ ان يقاسمهم الربح . ولكن لم يمكنهُ اتقان آلتهِ كما انتظروا فاوعزوا اليهِ ان يلتجىء الى بيت سترت وتيد . وسترت هذا مخترع حاذق وهو الذي اخترع آلة لعمل الجوارب فحالما رأى آلة اركريت عرف قيمتها فاشترك مع تيد وساعدهُ على اتقانها واخرجا لهُ امتيازاً بها سنة ١٧٦٩ (وفي تلك السنة اعطي الامتياز لوَط بآلتهِ البخارية) والآلة الاولى التي صنعها اركريت كانت تديرها الخيل ثم صنع اخرى اكبر منها يديرها الماء

وبقي على اركريت ان يحسّن هذه الآلة لانها لم تزل تحتاج الى اصلاحات وتحسينات كثيرة وكانت نفقتها كثيرة على قلة ربحها فلم ينفكّ عن اصلاحها وتحسينها حتى جاءت كاملةً متقنةً جزيلة النفع . ولكن عند ما اتقنت وحان لهُ ان يجتني ثمار اتعابهِ قام الصناع عليهِ وهجموا على محل الآلة ودكوهُ الى الارض على مرأى من جنود الدولة. وتفاقم الخطب حتى لم تعد مغزولاتهُ تباع في السوق مع انها كانت احسن من غيرها وارخص . ثم تعصبوا عليهِ وابوا ان يعطوهُ المال المفروض على من يستعمل آلتهُ بل قاموا عليهِ في المحكمة والغوا الامتياز الذي نالهُ . قيل انهُ مرَّ مرةً بخصومهِ الذين غلبوهُ فقال احدهم على مسمع منهُ لقد غلبنا هذا الحلاّق فاجابهم لا بأس فلم يزل معي موسى لاحلقكم كلكم. ثم عاد فاقام معامل اخرى في لانكشير ودربيشير ونيولانارك بعد انحلال شركتهِ مع سترت . وازدادت مغزولاتهُ ووصلت الى

درجة رفيعة من الاتقان فصارت لهُ السلطة المطلقة على هذه البضاعة وصار يحدد ثمنها كما يشاء

وكان اركريت من امضى الناس عزيمة واكثرهم اقداماً واقواهم جلداً فتراكمت عليهِ الاعمال حتى كان يضطر ان يعمل من الساعة الرابعة صباحاً الى الساعة التاسعة مساءً اي من قبل الظهر بتسع ساعات الى تسع بعدهُ . ولما صار لهُ خمسون سنة من العمر شرع في درس النحو وتصليح خطهِ وتهجئتهِ فغلب كل المصاعب التي قامت في وجههِ واجتنى ثمار اتعابهِ ولم يمضِ عليهِ ثماني عشرة سنة منذ صنع آلتهُ الاولى حتى بلغ درجة سامية من المجد والجاه في عيون اهل بلادهِ فعين حاكماً لمقاطعة دربيشير وبعد مدة انعم عليهِ الملك جورج الثالث بلقب الفارس . وكانت وفاتهُ سنة ١٧٩٢ . ومهما كانت مقاصدهُ فلا يشك في انهُ اقام في البلاد الانكليزية صناعة اكسبتها غنًى وافراً

واذا التفتنا الى بقية الصناعات التي اغنت الامة الانكليزية رأينا انها ابتدأت على يد اناس من العملة والصناع مثل بيت سترت وبلبر وتنت ومرشل وغت وبيل وانسورث الذين قام من خلفائهم رجال كثيرون اشتهروا في السياسة مثل بيت بيل . وهذا البيت الشهير اي بيت بيل نشأ نحو اواخر القرن الثامن عشر ومنشئهُ فلاح اسمهُ روبرت بيل من مكان قرب بلكبرن . وكانت بلكبرن والضياع المجاورة لها مشهورة بنسج المنسوجات من القطن والكتان وكان من عادة الفلاحين ان يستعملوا الحياكة في اوقات الفراغ من عمل الحقول لان الزراعة لم تكن تأتي بما يكفيهم فوضع روبرت بيل نولاً في بيتهِ وكان اميناً مجتهداً فافلح . وهو اول من استعمل اسطوانة الندف المخترعة حديثاً

وكانت افكاره متجهة الى كيفية طبع الانسجة لان هذه الصناعة لم تكن شائعة حينئذٍ وكانت الاطعمة تسكب في صحاف من المعدن فرسم صورة على صحفة من هذه الصحاف وخطر على بالهِ ان يطبع بها

المنسوجات . وكانت تسكن على مقربة من بيته امرأة عندها آلة لصقل الثياب فقام اليها ووضع الصحفة في الآلة ووضع فوقها قطعة من النسيج ثم ضغطها بالآلة فانطبعت الصورة عليها . فلما رأى ذلك جعل يجرّب ويمتحن الى ان صنع آلة متقنة لطبع المنسوجات واول قطعة طبعها بها طبع عليها صورة ورقة بقدونس واسمهُ بالانكليزية «بارسلي» فلقب هناك بارسلي بيل الى هذا اليوم . وعند ذلك ترك الفلاحة وانتقل الى قرية تبعد نحو ميلين عن بلكبرن واخذ يطبع المنسوجات هو واولادهُ ولم يكن اولادهُ اقلّ منهُ نشاطاً ودام على ذلك بضع سنوات. ولما بلغ اولادهُ اشدّهم انشأ كلٌّ منهم معملاً خاصّاً بهِ واستخدم عدداً كبيراً من العمال . ويبين من امر روبرت بيل انهُ كان فطناً ذكياً بعيد النظر. قال ابنهُ السر روبرت بيل ان ابي مؤسس بيتنا كان يعرف فائدة الربح التجاري للامة وكثيراً ما كان يقول ان الربح الذي يربحهُ الافراد من التجارة لا يعد شيئاً في جنب ربح الامة اجمالاً

اما السر روبرت بيل بن روبرت بيل الاول فورث عن ابيهِ الاقدام والاجتهاد ولما استقلّ لم يكن لهُ مال ولا ثروة لان اباهُ لم يكن قد اثرى فاشترك مع خالهِ ورجل آخر اسمهُ وليم يتس وكان رأس مالهم خمس مائة جنيه واكثرها من وليم يتس . ولم يكن روبرت قد ناهز العشرين ولكنهُ قام بهذا العمل العظيم على حداثة سنهِ . ومما قيل فيهِ ان لهُ رأس شيخ وبدن شاب . فاشترى هؤلاء الثلاثة مطحنة متهدمة وارضاً مجاورة لها وجعلوها معملاً لطبع المنسوجات وذلك سنة ١٧٧٠ ثم بعد سنوات اضافوا اليهِ معمل غزل . ويظهر شكل معيشتهم حينئذٍ مما يأتي : كان وليم يتس متزوجاً ففتح بيتاً وضمّ روبرت بيل اليهِ لانهُ كان عزباً فكان يدفع لهُ ثمانية شلنات كلّ اسبوع عن اكلهِ وسكناهُ ولكن وليم يتس وجد هذا المبلغ قليلاً وطلب ان يزاد عليهِ شلن كلّ اسبوع فلم يقبل بيل ذلك ووقع بينهما الخلاف فآل الامر الى الانفصال

ولكنهما اتفقا بعد مدَّةٍ على ان يدفع بيل نصف شلن فوق الثمانية الشلنات. وكان ليتس ابنة صغيرة اسمها أرلن فعلق بها قلب بيل وانتظرها عشر سنوات الى ان اتمت السابعة عشرة فاتخذها لهُ زوجة فكانت من اكبر مساعديهِ لانها كانت تكتب مكاتيبهُ وحساباتهِ فانهُ لم يكن يحسن الكتابة. وهي ام السر روبرت بيل رئيس وزراءِ انكلترا وتوفيت سنة ١٨٠٣ بعد ان قلّد زوجها رتبة البارونية. قيل ان المعيشة في لندن اضرّت بصحتها لانها كانت مخالفة لما اعتادتهُ في بيت ابيها فجعل ابوها يقول لو لم يجعل روبرت ابنتنا سيدة ما ماتت باكراً

واستمر يَتس وبيل وشركاؤهما مدة طويلة جارين في سبيل النجاح وكان بيل مقدامهم باجتهادهِ وانصبابهِ وحكمتهِ ومهارتهِ في البيع والشراءِ وقدرتهِ على مواظبة اعمالهِ الى حدّ يفوق التصديق. والخلاصة ان نسبة هذا الرجل الى طبع المنسوجات نسبة اركريت الى غزل القطن. ومما يستحق الالتفات ان بيل وشركاءهُ لم يقتصروا على تحسين مصنوعاتهم وجعلها من الطراز الاوَّل بل اجتهدوا ايضاً في ترقية شأن عمالهم فزادهم ذلك شهرة وشرفاً

ومن مزايا السر روبرت بيل التفاتهُ الى كل اختراع جديد فعندما اخترعت مادةٌ تطلى بها المنسوجات حيث يراد بقاؤُها بيضاء اشتراها من مخترعها بمبلغ كبير من المال واخذ في امتحانها مدة سنة او سنتين الى ان بلغت غاية الاتقان فجعلت معاملهُ في رأس كل معامل طبع المنسوجات

ومن جملة مؤسسي الصنائع القس وليم لي مخترع آلة عمل الجوارب ويوحنا هثكوت مخترع آلة حبك الخرج. اما الاخبار التي وصلت الينا عن اختراع آلة الجوارب ففيها بعض الريب والتناقض ولكنها تتفق في اسم المخترع وهو وليم لي وفي انهُ كان فقيراً ودخل خادماً وتلميذاً معاً في مدرسة كمبردج سنة ١٥٧٩ ثم انتقل الى مدرسة مار يوحنا

ونال رتبة بكلوريوس في العلوم سنة ١٥٨٣ ورتبة معلم في العلوم سنة ١٥٨٦ . وحينما اخترع آلة عمل الجوارب كان قسيساً لقرية كالفرتون بقرب نوتنهام . قيل انهُ شغف حينئذٍ بحب فتاة وكان حينما يزورها لا تلتفت اليهِ كثيراً بل تبقى محدقة في الجوارب التي كانت تعملها فاستاء من عمل الجوارب باليد وعزم من يومهِ على اختراع آلة لعملها واخذ يجرب ويمتحن مدة ثلاث سنوات الى ان نجح فترك القسوسية وجعل يتعاطى عمل الجوارب بالآلة التي اخترعها

ومن رأى هذه الآلة وسهولة العمل بها عرف ما لمخترعها من الفضل ولاسيما اذا قابلها بعمل النساء البطيء الممل . ومن تراهُ يستطيع تعداد المصاعب التي صادفها هذا الرجل ولاسيما لانهُ كان في عصرٍ معرفةُ عمل الآلات فيهِ في درجة واطئة فاضطر ان يصنع كل اجزائها بيدهِ بل ان يصنعها كلها من الخشب وهو امرٌ يكاد يفوق التصديق . وبعد ان تعب في عملها ثلاث سنوات كما قلنا سابقاً صارت صالحة للعمل فاستعملها سنوات متوالية وعلَّم اخاهُ وكثيرين من اقربائهِ استعمالها . وكان يرغب في احراز حماية الملكة اليصابات المالكة حينئذٍ المشهورة بميلها الى عمل جوارب الحرير فاتى لندن لكي يريها اياها واراها للبعض من رجال البلاط ومنهم اللورد هنسدن فلم يكتفِ هذا برؤيتها بل تعلم العمل بها ثم استأذن لهُ في المثول لدى الملكة فاراها الآلة وعمل بها امامها فلم تلتفت اليهِ الالتفات الذي انتظرهُ بل اعترضت عليهِ على ما قيل مدعية ان آلتهُ تبطل عمل كثيرات من اللواتي معيشتهنَّ من عمل الجوارب . فلما رأى منها ذلك اوجس خيفةً وعزم على مغادرة بلادهِ وكان سُلّي الحكيم وزير هنري الرابع ملك فرنسا قد طلب منهُ ان يأتي الى روان ويعلّم اهاليها كيفية عمل هذه الآلة والعمل بها وكانت روان حينئذٍ من اكثر مدن فرنسا معامل فاجاب طلبهُ ورحل الى فرنسا سنة ١٦٠٥ واستصحب معهُ اخاهُ

يعقوب وسبعة من العمال فقوبل في روان بالترحيب وراجت مصنوعاتهُ كثيراً . ولكن السعد ابى الاَّ الابتعاد عنهُ لان الملك هنري الرابع الذي توقع منهُ ان يسبغ عليهِ النعم الوافرة حسبما وعدهُ قُتل غيلة نخاف من ضياع حقوقهِ واتى باريز قاصداً اثباتها في المحكمة فلم يعبأ بهِ احد لانهُ اجنبي ومن البروتستانت فقضى نحبهُ في باريز وهو في غاية المسكنة . وهرب اخوهُ مع سبعة من العمال بآلاتهم الى بلاد الانكليز واشترك مع رجل اسمهُ اشتون وهو الذي زاد على الآلة الرصاصات التي تخفض ابرها . ثم شاع استعمال هذه الآلة وكثر العاملون بها حتى صارت صناعة عمل الجوارب فرعاً مهمًّا من صنائع الانكليز

ومن اهم تنوعات آلة الجوارب آلة عمل الخرج او الدنتلاَّ وصانعها فرُسْت وهُلْمس فانهما اصلحا آلة الجوارب حتى صار يُنسج بها نوع من الخرج وشاعت هذه الآلة كثيراً حتى استعمل منها اكثر من الف وخمسمائة آلة في اقل من ثلاثين سنة وكان عدد الصناع العاملين بها يزيد على خمسة عشر الفاً. ثم أُهملت بسبب الحروب المتواصلة وتغيُّر الازياءِ وما زالت في زوايا النسيان الى ان قام جون هثكوت واخترع آلة جديدة ومن ثمَّ ثبت هذا النوع من الصناعة على اساس وطيد وهاك تاريخ اختراعهِ بالاختصار

ولد جون هثكوت سنة ١٨٧٣ وكانت تلوح عليهِ سمات النجابة وهو يتعلم مبادىء العلوم ولكن لم يسمح لهُ والداهُ ان يقيم في المدرسة مدة طويلة بل وضعاهُ عند صانع انوال ليتعلم حرفتهُ فلم يمضِ عليهِ وقت طويل حتى حذق استعمال الآلات والادوات المختلفة وعرف كل الاجزاء المركبة منها آلة الجوارب واخذ يحاول اصلاحها كلما سنحت لهُ الفرصة . ثم عزم وهو في السادسة عشرة على عمل آلة تصنع خرجاً مثل خرج بكنهام وفرنسا الذي كان يصنع باليد فاصلح نول السدي حتى صار يمكنهُ ان يعمل بهِ كفوفاً للراحة نسيجها كنسيج

الخرج ومن ثمَّ وطَّن نفسهُ على اصطناع آلة لعمل الخرج . وكانت آلة الجوارب قد أُصلحت حتى صار يمكن ان يصنع بها خرج منقطعراه معكوفة كعرى الجوارب لكنهُ كان سريع العطب كثير الافلات وبالتالي غير مرضيّ فاجتهد كثيرون من صناع نوتنهام في اختراع آلة تثني العرى بعضها على بعض كما في عمل الشبكة فذهب تعبهم سدًى ومنهم من انفق كل امواله ومات فقيراً او جُنَّ وهام على وجهه

ولما ناهز هثكوت الحادية والعشرين مضى الى نوتنهام وكان يعمل فيها الانوال فاحترم كثيراً لاجل مهارته وذكائه وكان لم يزل عاقداً قلبهُ على عمل آلة تثني العُرى فتعلّم عمل خرج بكنهام الذي كان يصنع على المخدة قاصداً ان يصنع آلة تحبك خرجاً مثلهُ . وكان هذا العمل صعباً مملاً يقتضي مزاولة كثيرة وحذاقة شديدة الاَّ انهُ صبر وتأنى فنال ما تمنَّى . وقد وصفهُ معلمهُ بقوله انهُ رجل صبور مواظب منكر نفسهُ كثير الصمت شديد الامل يثق كل الثقة ان اتعابهُ ستكلل بالنجاح وقد تكلَّلت وصنع آلة لعمل الخرج يعجز القلم عن وصفها واجيز لهُ بها وعمرهُ اربع وعشرون سنة

ولم تكن امرأتهُ اقل اهتماماً منهُ باتمام هذه الآلة فقالت لهُ ذات ليلة بعد ان تعب فيها اشهراً واعواماً هل صارت تشتغل فقال لا بل يجب ان افككها واركبها ثانيةً فلم تقدر ان تضبط نفسها عن البكاء ولكنهُ اتاها بعد اسابيع قلائل وفي يده قطعة من الخرج صنعها بها. وقد اصاب هذا الرجل ما اصاب اكثر المخترعين اي انهُ لم يُعترَف لهُ باولية الاختراع ولم يعط امتيازاً بها الاَّ بعد المحاكمة وصدور الحكم لهُ . قيل ان السر جون كبلي الذي حامى عنهُ رأى انهُ يلزم لهُ ان يعرف كيفية تركيب هذه الآلة والعمل بها لكي يمكنهُ ان يدافع عنهُ فركب الى نوتنهام حيث كانت الآلة ونزل في النول ولم يخرج حتى عرف وظيفة كل جزء من اجزائها وتعلّم العمل بها ثم رجع الى المحكمة

ووضع مثال الآلة امام ارباب المجلس واخذ يعمل بهِ ويشرح تركيبهُ وافعالهُ بمهارة حيرت عقل القاضي وعقول المحلَّفين وكل الحاضرين فخرج الحكم لهُ

ولما نال هثكوت الامتياز المذكور وجد ان الصنّاع قد صنعوا اكثر من ست مئة آلة مثل آلتهِ ففوضت الحكومة اليهِ ان يأخذ من اصحابها ضريبة مالية فحصل لهُ من ذلك ربح وافر. وكانت مكاسب العاملين بهذه الآلة وافرة جدًّا فانتشر استعمالها كثيراً وانحطَّ ثمن ذراع الخرْج من خمسة جنيهات الى غرشين وذلك في اقل من خمس وعشرين سنة. وبلغ معدَّل الدخل السنوي من عمل الخرج في هذه المدة اربعة ملايين من الجنيهات الانكليزية وعدد العاملين بهِ مئة وخمسين الفاً. واقام هثكوت معامل في لوبرو سنة ١٨٠٩ وبقي هناك سنوات وهو في اوج النجاح وعندهُ عدد غفير من الفعلة واجرة الواحد منهم في الاسبوع من خمسة جنيهات انكليزية الى عشرة

ثم قام العمال وزعموا ان هذه الآلة قطعت رزقهم مع انها فتحت باباً لتشغيل كثيرين منهم وعقدوا اجتماعاً اتفقوا فيهِ على تخريب كل آلة يستطيعون الوصول اليها. وسنة ١٨١١ حدثت منازعة بين المعلمين والعمال في معامل الجوارب والخرج في الاقسام الجنوبية الغربية من نتنهمشير ودربيشير وليسترشير فتجمَّع الفعلة وتحالفوا على تكسير كل آلات الجوارب والخرج واجروا ذلك فعلاً. ولكنَّ الحكومة القت القبض على بعض رؤسائهم وعاقبتهم فصاروا يفعلون ذلك خفية لا جهاراً كلما سنحت لهم الفرصة. وكانت الآلات دقيقة جدا فضربة واحدة كانت تعطّلها. وكانت الابنية الموضوعة فيها منفردة عن بيوت السكن فكان الهجوم عليها سهلاً

واجتمع مكسرو الآلات في جوار نتنهام التي هي مركز الشغب وتنظموا في فرق وعقدوا جمعيات ليلية دبروا فيها دسائسهم واقاموا

عليهم قائداً يدعى لُـدّ ومن ثم دُعوا لدّيين وعاثوا في البلاد وقطعوا رزق عدد كبير من العمال فاضطر اصحاب المعامل الى نقلها من الضياع والاماكن المنفردة الى اماكن حصينة داخل المدن . ويظهر ان اللديين تشجعوا بخفّـة العقاب الذي عوقب بهِ من قُبض عليهِ منهم فلم يمض الاّ وقت قصير حتى انتشروا في كل الجهات الشمالية والمتوسطة وخربوا كل ما وصلت اليهِ يدهم من المعامل . وكان تحالفهم سريّاً آلوا فيهِ على انفسهم ان يطيعوا قوادهم طاعة عمياء في كل ما يأمرونهم بهِ وان يميتوا كل مَنْ يفشي مقاصدهم .وحكموا بملاشاة كل الآلات سواء كانت لنسج الجوخ او الشيت او الخرج وقضوا على اصحابها بالقتل . فيا لها من سنين مهولة تمرَّد فيها هؤلاء الاشقياء وجالوا يفسدون في البلاد حتى تلافت الحكومة امرهم والقت القبض على كثيرين منهم وعاقبتهم بالموت . وبعد تعب سنين عديدة اخمد هيجانهم وتلاشت قوتهم

واتلف اللديون معامل هثكوت مخترع آلة الخرج لان جمهوراً منهم دخلوا معملهُ في لوبرو في احدى الليالي والمشاعل في ايديهم واضرموا فيهِ النار فحرقوا ستّـا وثلاثين آلة ومصنوعات ثمنها عشرة آلاف جنيه فقبض على عشرة وعُوقب ثمانية منهم بالقتل .ورفع هثكوت دعواهُ على البلاد المجاورة فغرمت عشرة آلاف جنيه الاّ ان القضاة طلبوا منهُ ان ينفق هذا المال داخل حدود لستر فلم يجبهم الى طلبهم لانهُ كان قد عزم على نقل معاملهِ الى مكان آخر فانتقل الى تيفرتون في ديفنشير وابتاع بناءً كبيراً كان معملاً للصوف ورممهُ ووسّعهُ واقام فيهِ اكثر من ثلثمائة آلة لعمل الخرج وآلات اخرى لثني الغزل وحل الحرير وعمل الشباك . وانشأ ايضاً مسبك حديد ومعامل لاصطناع ادوات الفلاحة. وكان يرى ان كل الاعمال الكبيرة يمكن ادارتها بواسطة البخار فصنع محراثاً بخارياً ونال امتيازاً بهِ سنة ١٨٣٣ وبقي محراثهُ افضل ما صنع من نوعهِ الى ان صُنع محراث فولر

وخلاصة ما يقال عن هذا الرجل العظيم انهُ كان ثاقب الفكر سديد الرأي سريع الخاطر محبًّا للعمل اميناً مستقيماً ولما كان قد نال ما نالهُ باجتهادهِ كان اذا رأى شابًّا من العاملين عندهُ مجتهداً نشَّطهُ وقوَّى عزمهُ حتى يزيد اجتهاداً وتقدُّماً . واكبَّ مع كثرة اعمالهِ على تعلُّم اللغة الفرنسوية والايطالية فاحسنهما وطالع تاليف كثيرة واغنى عقلهُ بكنوز المعرفة . وكان في معاملهِ اكثر من الفي عامل كانوا جميعهم ينظرون اليهِ كاب لهم لاهتمامهِ براحتهم ورفاهتهم كاهتمامهِ بنفسهِ فان نجاحهُ لم ينزع الشفقة من قلبهِ بل زادهُ ليناً وحنوًّا حتى صار عضداً للفقراء وملجأً للبائسين . وبنى مدارس لتعليم اولاد العمال العاملين في معاملهِ انفق عليها ستة آلاف جنيه . وكان مع ما ذُكر بشوش الوجه انيس المحضر محبوباً ومكرماً من الجميع . وسنة ١٨٣١ اختارهُ اهالي تيفرتون نائباً عنهم في البرلمنت فاقام في هذا المنصب نحو ثلاثين سنة . وحينما تنحى عنهُ بسبب شيخوختهِ اهدى اليه الف وثلثمائة من الفعلة العاملين في معاملهِ دواةً من الفضة وقلماً من الذهب علامةً لاكرامهم لهُ . وتوفي سنة ١٨٦١ ولهُ من العمر سبع وسبعون سنة وترك بعدهُ اسماً تفتخر بهِ ذريتهُ

والآن نلتفت الى شخص آخر ليس اقل شهرة من هثكوت ولو كان اقل سعداً منهُ وهو جكار الشهير . ولد جكار بمدينة ليون من ابوين فقيرين صناعتهما الحياكة ولما بلغ سن الرشد وضعهُ ابوهُ عند مجلد ليتعلم تجليد الكتب وكان لهُ ميل شديد الى عمل الآلات فاشار بعضهم على ابيهِ ان يعلمهُ صناعةً توافق ميلهُ فوضعهُ عند سكاف (صانع سكاكين) وكان هذا السكاف شرس الطباع فتركهُ جكار وخدم عند صانع حروف . ثم توفي ابواهُ فاضطر ان يحترف الحياكة في نوليهما ولكنهُ ما لبث حتى خطر لهُ ان يحسن هيئة النولين ويصلحهما واكبَّ على ذلك فنسي نفسهُ ولم يشعر الاَّ والفقر قد دهمهُ فباع النولين لكي يوفي

دينهُ . ونحو ذلك الوقت اقترن بامرأة فصار عليهِ ان يعولها ايضاً فباع بيتهُ واخذ يفتش عن عمل فلم يستخدمهُ احد لان الجميع كانوا يعدونهُ كسلان كثير الاوهام . فلبث يتضوَّر جوعاً الى ان وجد عملاً عند صانع حبال وبقيت امرأتهُ في ليون وكانت تعول نفسها بعمل برانيط القش . ولا يُعرَف من امرهِ شيءٌ الاَّ بعد مضي سنوات اتم في غضونها عمل نول لنسج المنسوجات الموشاة . ولم يمضِ على هذا النول عشر سنوات حتى شاع كثيراً وصُنع منهُ في ليون اربعة آلاف نول . ثم حدثت الثورة في فرنسا فانقطع عن عملهِ وتطوَّع للحرب بين المتطوعين الليونيين ولما أُخذت مدينتهم هرب وانضم الى جنود الرن فارتقى الى رتبة جاويش وقُتل ابنهُ الى جانبهِ في احدى المعارك فترك الجند ورجع الى ليون وافتقد امرأتهُ فوجد انها لم تزل تعمل برانيط القش فاقام معها ولكنهُ لم ينفكّ عن النظر في امر الاختراع حتى اضطرَّ ان يخرج من مخفاهُ معها ويسعى في عمل يعيش بهِ فانضمَّ الى صانع ماهر وكان يعمل عندهُ في النهار ويرجع الى اختراعهِ في الليل حاسباً ان نول المنسوجات الموشاة يحتمل اصلاحات كثيرة

وحدث يوماً انهُ ذكر ذلك لمستأجرهِ متأوهاً على ضيق ذات يدهِ المانع لهُ من اتمام مقاصدهِ فاصغى اليهِ مستأجرهُ ومدهُ بمالٍ كافٍ لكي يتمم اختراعهُ في ساعات العطلة . فلم تمضِ عليهِ ثلاثة اشهر حتى اخترع نولاً بديع الصنعة وعرضهُ في معرض الصنائع الذي اقيم في باريز سنة ١٨٠١ ونال عليهِ نيشاناً . وزارهُ الوزير كرنو في ليون وهنأهُ بنجاحهِ في اختراعهِ هذا . وفي السنة التالية اعلنت لجنة الصنائع في لندن انها تعطي جائزة لمن يخترع آلة لعمل الشباك فاخذ جكار ينظر في هذا الموضوع ولم تمضِ عليهِ ثلاثة اسابيع حتى اخترع الآلة المطلوبة فبلغ ذلك الامبراطور نبوليون فدعاهُ الى باريز وقابلهُ بالترحيب والاكرام كما يليق بمخترع عظيم ودام الحديث بينهما ساعتين

فشرح جكار للامبراطور كل ما يتعلق بنول المنسوجات الموشاة وما يحتمله من الاصلاح فامر الامبراطور ان يعطى مكاناً في معهد الفنون والادوات وان يقدَّم له كل ما يحتاج اليهِ من الآلات وامر له بمعاش كافٍ . فوجد جكار في ذلك المعهد آلات لا تحصى وجميعها تشهد بفضل صانعها وحذقهم وفي جملتها نول لنسج الحرير المشجر من عمل ڤوكنصن الشهير

اما ڤوكنصن هذا فهو من الطراز الاول بين المخترعين بل هو مخترع مطبوع على الاختراع . روي انهُ رأى في حداثتهِ ساعة كبيرة تتحرك من نفسها فاخذ يفكر في سبب حركتها ولم ينفك عن تأملها حتى فهم سبب حركتها فعمل ساعة من خشب تدل على الساعات وعمل ايضاً ملائكة تحرك اجنحتها وكهنة يتممون بعض الفرائض الدينية . ثم اخذ في تعلُّم التشريح والموسيقى والميكانيكيات لكي يسهل عليهِ اختراع الآلات . ورأى ذات يوم مغنياً يغني بالفلوت في بستان التويلري فصنع شخصاً مثله يغني الغناء نفسهُ ولكنهُ اضطرَّ ان يعمل فيهِ سنين عديدة . ثم صنع بطةً تسبح وتشرب وتبطبط كبطة حيَّة وصنع صلاً لرواية كليوبترة يفحُّ ويثبُّ الى صدر المشخّصة كأنهُ صلٌّ حقيقي . ولكنهُ لم يقتصر على عمل آلات كهذه لان الكردينال ده فلري عينهُ مفتشاً لمعامل الحرير في فرنسا فما لبث ان تولج هذا المنصب حتى اخذ يدخل الاصلاحات الكثيرة في آلات الحرير . ومن الآلات التي اخترعها آلة لغزل مشاقة الحرير ولكنها هيجت صناع ليون فرجموهُ بالحجارة ولولا قليل لقتلوهُ . غير انهُ لم ينفك عن الاختراع فاخترع آلة لنسج الحرير المشجر واوجد طريقة لجعل كل خيوط الوشائع من ثخن واحدٍ . ثم توفي سنة ١٧٨٢ واوصى قبل وفاتهِ بكل آلاتهِ للمملكة غير ان المملكة لم تعن بها فذهبت ادراج الرياح اما آلة نسج الحرير المشجر فحفظت لحسن الحظ في خزانة الآلات

والادوات لتكون مرشداً لجكار في عمل نوله . ومن اهم اجزائها اسطوانة ذات ثقوب اذا اديرت حركت ابراً حركات معلومة بواسطة ثقوبها وفرّقت السدى على نوع يجعل رسماً معلوماً . فلما رأى جكار هذه الآلة طار فرحاً واخذ من ساعته في اصلاحها بهمة مخترع حقيقي فاكمل اصلاحها في اقل من شهر وزاد عليها قطعة من الكرتون مثقوبة ثقوباً كثيرة تدخل فيها الاسدية وآلة اخرى تري الحائك لون الوشيعة التي يلزم طرحها في النول فاستغنى بذلك عن واحد يسحب الخيوط وآخر يقرا الرسوم . واهدى اول قطعة نسجها الى الامبراطورة جوزفين زوجة نبوليون بونابرت فسرّ نبوليون بها سروراً عظيماً وامر احذق الصناع ان يصنعوا عدداً من الانوال حسب مثال جكار واهداها اليه فاخذها ورجع الى ليون . فصادف في ليون ما لا بدّ منهُ لكل مخترع . فان صناعها حسبوا نولهُ عدوًّا يقطع رزقهم فتجمهروا وعزموا ان يقتلوهُ ويلاشوا آلاته فجرُّوهُ الى النهر ليغرقوهُ لكن التقادير ساعدتهُ فنجا من ايديهم

ولم يمضِ وقت طويل حتى عُرِف فضل نوله والحّ عليه حاكة الحرير بانكلترا ان يأتي ويسكن بلادهم ولكنهُ ابى ذلك حبًّا بوطنه . الاّ ان الحاكة الانكليز استعملوا نولهُ واعتمدوا عليه فرأى ذلك اهل ليون وعلموا ان الانكليز غالبوهم لا محالة فاقبلوا على نول جكار برغبة شديدة واستعملوهُ لكل المنسوجات تقريباً وثبت لهم ان خوفهم من انحطاط اجور الصناع كان في غير محله لان هذا النول زاد اعمال الصناع عشرة اضعاف وكان في ليون وحدها سنة ١٨٣٣ ستون الف عامل بحسب احصاء المسيو ليون فوشه ثم زاد على ذلك كثيراً

وعاش جكار بعد ذلك بالهدوء والسكينة محبوباً من الجميع . والعمال الذين جرُّوهُ قبلاً ليغرقوهُ ارادوا ان يحملوهُ يوم عيد ميلاده ويطوفوا به في الطريق التي جروهُ فيها قبلاً فلم يجبهم الى ذلك تواضعاً

منهُ . ثم عرض عليهِ ديوان البلدية في ليون ان يتفرغ لاصلاح نولهِ لخير الوطن بالاجرة التي يختارها فقبل ذلك وادخل فيهِ كل الاصلاحات اللازمة ثم تنحَّى عن الاعمال ولهُ من العمر ستون سنة ورجع الى اولينس ليقضي ما بقي لهُ من العمر في مولد ابيهِ فمنح لجيون دونر (نيشان الشرف) سنة ١٨٢٠ وتوفي هناك سنة ١٨٣٤ واقيم لهُ نصب تذكاراً لهُ الاَّ ان اقاربهُ بقوا في الفقر الشديد . وبعد موتهِ بعشرين سنة باعت ابنتا اخيهِ النيشان الذهبي الذي قلدهُ اياهُ الملك لويس الثامن عشر . قال احد الفرنسويين هذا هو جزاء اهل ليون لمن كان سبب غناهم ومجدهم

وفي استطاعتنا ان نذكر سير كثيرين من المخترعين وما احتملوهُ من المشاق وعانوهُ من المضض ولم يجنوا شيئاً من ثمار اتعابهم بل ذهبوا وتركوها لغيرهم ولكننا نجتزىءُ عن ذلك بذكر سيرة مخترع آخر حديث العهد وهو يشوع هلمن مخترع الممشطة

ولد هلمن هذا في ملهوسي من الالزاس سنة ١٧٩٥ ودخل معمل قطن وهو في الخامسة عشرة واقام فيهِ سنتين وكان يشغل اوقات العطلة برسم الآلات ثم انتقل الى بيت عمهِ في باريز ودرس هناك الرياضيات وانشأ بعض اقاربهِ معملاً لغزل القطن فوضعوهُ في معمل الخواجات تسو وراي في باريز ليتعلم هذا العمل ثم يرجع ويدير معمل اقاربهِ . فتعلم كل ما يحتاج اليهِ من تركيب الآلات وما اشبهٔ ورجع الى الالزاس مديراً للمعمل . ولكن حدثت حوادث تجارية اخَّرت اقاربهُ فاتصل المعمل الى غيرهم فخرج منهُ ورجع الى بيتهِ في مُلهَوْسي . وكان يحاول اختراع آلة للتطريز تحرك عشرين ابرة في وقت واحد ويقضي اكثر اوقات العطلة في عملها فاتمها في ستة اشهر وعرضها في معرض سنة ١٨٣٤ فنال عليها نيشاناً ذهبيًّا ونيشان الشرف . ثم اخترع مخترعات اخرى كثيرة منها نول وآلة لقياس النسيج وطيهِ وادخل

اصلاحات كثيرة في آلات كب الحرير والقطن واعداد غزلها ونسج الحرير والقطن . ومن اعظم اختراعاتهِ آلة تنسج طاقين من المخمل او من كل نسيج ذي خمل في وقت واحد ثم تفصلهما باداة فيها كسكين حاد . وافضل اختراعاتهِ كلها واعظمها آلة التمشيط وهاك تاريخ اختراعها

خطر على بالهِ قبل ذلك استنباط آلة لمشط القطن وفصل الالياف الطويلة من القصيرة قبل غزلهِ . وكان العملة يستعملون لذلك آلة غير متقنة كثيرة الخسارة فعرض مجمع النسج في الالزاس جائزة خمسة آلاف فرنك لمن يخترع آلة للمشط اتقن من الآلة المستعملة . فتفرغ هلمن لهذا الاختراع لا طمعاً بالمال (لانهُ كان قد تزوج بامرأة غنية) بل حبًّا بشرف الاختراع لانهُ كان يقول ان طالب المال لا يمكنهُ ان يعمل اعمالاً جليلة. وبعد ان تعب في هذا الاختراع سنين عديدة نفد ما معهُ من المال ولم يحصل على نتيجة مرضية فاعتمد على مساعدة اصدقائهِ الذين قدموا لهُ المساعدة اللازمة لاتمام اختراعهِ . ثم ماتت امرأتهُ متيقنة انهُ على حافة الخراب فاتى بعد موتها الى انكلترا واقام في منشستر وعمل مثالاً لما اتصل اليهِ من الاختراع في هذه الآلة عند امهر صناعها لكنهُ لم يكن مرضياً فعاد الى اصلاحهِ وبعد تعب جزيل كاد ييأس من اصلاحهِ. ثم رجع الى فرنسا لكي يرى عائلتهُ وعقلهُ مشغول بهذا الاختراع واذ كان جالساً ذات ليلة في بيتهِ متأملا في نصيب المخترعين وسوء حظهم التفت الى بناتهِ فرآهنَّ يمشطنَ شعورهنَّ فخطر على بالهِ حينئذٍ انهُ لو صنع آلة تمشط الشعر الطويل وترجع القصير الى خلف وهي راجعة كما يفعل بناتهُ لجاءت بالمطلوب فصنع آلة تمشط القطن وتفصل الالياف الطويلة عن القصيرة وتجمع الطويلة وحدها والقصيرة وحدها كأنها شخص عاقل دقيق الصنعة. هذه هي الآلة التي صار ينسج بها من ليبرة واحدة من القطن خيط طولهُ ٣٣٤ ميلاً حتى ان ما ثمنهُ شلن واحد ينسج خرجاً ثمنهُ نحو اربعمائة جنيه

وحالما اشتهر اختراع هلمن عرف غزّالو القطن في بلاد الانكليز مقدار قيمتهِ فاجتمع اصحاب ستة معامل من معامل لنكشير واعطوهُ ثلاثين الف جنيه لكي يجيز لهم استعمال هذه الالة لمشط القطن واعطاهُ غازلو الصوف مقدار ذلك والخواجات مرشل عشرين الف جنيه ليجيز لهم استعمالها في مشط الكتان فانهال عليهِ الغنى بغزارة ولكنهُ لم يعش ليتمتع بهِ فوافتهُ المنية بُعَيد ذلك ثم لحق بهِ ابنهُ الذي شاركهُ في الضراءِ

الفصل الثالث

في

الخزافين الثلثة العظام وهم بالِسي وبُتغر وودْجوُد

قال يوحنا رسكن . الصبر افضل ما في العزم وما من لذة ولا قوة الا والصبر اساس لها . والرجاء نفسه لا تطيب به النفس اذا صحبه الضجر . وقال الشاعر العربي

لاستسهلن الصعب او ادرك المنى فما انقادت الآمال الا لصابر

في تاريخ صناعة الخزف امثلة على الصبر والمواظبة من اشهر ماجاء في سير البشر . وقد انتخبنا من بينها ثلاثة وهي ترجمة برنار بالسي الفرنساوي وجوان فردريك بُتغر الالماني ويوشيا وَدْجوُد الانكليزي

ان عمل آنية الفخار البسيطة كان معروفاً ومشهوراً من قديم الزمان عند اكثر الشعوب القديمة واما عمل الآنية المدهونة بالمينا فاقلّ قدميةً واشتهاراً على انهُ كان معروفاً عند قدماءِ الترسكانيين الذين كانت تباع مصنوعاتهم في عهد اوغسطس قيصر بثقلها ذهباً ولم يزل شيءٌ منها محفوظاً في متاحف اوربا

ومن الامم التي اشتهرت بهذه الصناعة عرب الاندلس وكان لهم معامل في جزيرة ميورقا حينما استولى عليها اهل بيزا سنة ١١١٥ . وقيل ان البيزيين اخذوا بين الغنيمة بعضاً من الآنية المدهونة ووضعوها في جدران كنائسهم القديمة في بيزا علامةً لظفرهم ولم تزل فيها الى يومنا هذا . وبعد ذلك بنحو قرنين اخذ الايطاليون يمثلون صناعة العرب وسموا مصنوعاتهم ماجولكا نسبةً الى محل معامل العرب . ومحيي هذه الصناعة في ايطاليا هو لوقا دلاَّ روبيا النقاش الفلورنسي . قال فزاري في وصفهِ انهُ رجل لا يملّ من العمل يقضي النهار وازميلهُ في يدهِ ويحيي الليل

في رسم ما يريد نقشهُ واذا خاف على رجليهِ من برد الليل القارس وضعهما في سلة ملأى من النشارة . وما ذلك بعجيب لاني ارى الناس الذين لا يعتادون احتمال مشقة البرد والحرّ والجوع والعطش وما اشبه لا يمكنهم ان ينجحوا . والذين يظنون انهُ يمكنهم ان ينجحوا ويشتهروا اذا كانت كل امورهم مسهلة يخدعون انفسهم لان النجاح والشهرة لا ينالان بالنوم والراحة بل بالسهر والتعب . وما احسن ما قال ابو الطيب المتنبي

تريدين ادراك المعالي رخيصةً ولابدَّ دون الشهد من ابر النحل

الاَّ ان لوقا هذا لم يقدر ان يكسب من صناعة النقش ما يقوم بمعيشتهِ مع كل ما كان عليهِ من الاجتهاد فخطر لهُ ان يجد مادةً اقل ثمناً واسهل مراساً من الرخام لعمل التماثيل فاخذ يصطنعها من الطين وكان همهُ الاكبر ان يشويها ويدهنها دهناً ثابتاً لكي تقوم مقام الرخام . وبعد تعب شديد وتجارب كثيرة اكتشف مادةً اذا دهن الطين بها وعرَّضهُ لحرارة شديدة جدًّا ذابت وصارت دهاناً زجاجيًّا ثابتاً . ثم اكتشفت طريقة لتلوين هذا الدهان بالوان مختلفة وبذلك ازداد جمالهُ جمالا . فامتد صيتهُ في كل اوربا وانتشرت مصنوعاتهُ في اقطار فرنسا واسبانيا وغيرهما وكانت تباع باثمان فاحشة . ولم يكن يُصنع في ذلك العصر في فرنسا الاَّ جرار وقدور بسيطة خالية من الدهان ودام الحال على هذا المنوال الى ان ظهر فريد عصرهِ ونابغة دهرهِ الشهير بالسي الذي حارب الصعوبات بعزم وهمة تستفز كل مطلع على حياتهِ الى العجب والانذهال كيف لا وهو رجل

هيهات ان يأتي الزمان بمثلهِ ان الزمان بمثلهِ لبخيلُ

{وهاك طرفاً من ترجمة هذا الرجل وما احتملهُ من المتاعب وكابده من المشاق الى ان نال الغاية التي شمَّر لها الذيل}

وُلد برنارد بالسي في جنوبي فرنسا نحو السنة العاشرة بعد الخمس

مائة والالف للميلاد من ابوين فقيرين جداً لم يمكنهما ان يعلماهُ في مدرسة ويشهد بذلك ما قالهُ بعدئذٍ وهو «ليس لي كتب سوى كتابي السماء والارض اللذين يشترك فيهما الجميع» . وكان ابوهُ زجاجاً (صانع الزجاج) على ما يظن فتعلم صناعتهُ وزاد عليها علم تلوين الزجاج وعلم الرسم والقراءة والكتابة . ولما بلغ الثامنة عشرة كسدت صناعة الزجاج فاضطرَّ ان يترك بيت ابيهِ ويحمل وطابهُ ويسعى في طلب رزقهِ في مكانٍ آخر . فسار نحو غسكوني وكان يعمل في صناعتهِ حيثما وجد عملاً واحياناً كان يعمل في مساحة الاراضي . وجال مدة طويلة في فرنسا وهولندا والمانيا . ودام على ذلك نحو عشر سنين ثم رجع الى وطنهِ وتزوَّج واستقرَّ في مدينة سنت واخذ يعمل في تلوين الزجاج ومساحة الاراضي ولم يمض عليهِ وقت طويل حتى عال وزادت نفقاتهُ فاخذ يعمل فكرتهُ في ايجاد وسيلة لتكثير دخله فلم يجد افضل من دهن الخزف وتلوينهِ اذا استطاع اليهِ سبيلاً . وكان يجهل هذه الصناعة كل الجهل حتى انهُ لم يكن يعرف كيفية جبل الطين فلذلك اضطر ان يتعلم كل شيء بلا معلم ولكن علو همتهِ وشدة املهِ هوَّنا عليهِ كل امر عسير

روى بعضهم ان بالسي رأى ذات يوم كاساً ايطالية بديعة (ولعلها من عمل لوقا المتقدم ذكرهُ) فاعجبهُ منظرها ورغب في تمثيلها رغبةً شديدة . ولا يبعد ان الوفاً من الناس قد رأوا تلك الكاس فلم تؤثر رؤيتها فيهم كما اثرت فيهِ وما ذلك الاَّ لانهُ كان مهتمًّا حينئذٍ بابدال صناعتهِ بصناعة اخرى . ولو كان عزباً لترك وطنهُ وذهب الى ايطاليا وتعلَّم سرَّ صناعتها ولكنهُ كان مقيَّداً بزوجة واولاد . فاستحضر جميع العقاقير التي ظنَّ انها تسيل على الخزف فتدهنهُ كدهان الكاس التي رآها واشترى آنية خزف وكسَّرها كسراً صغيرة ورشَّ عليها من تلك العقاقير وبنى لها اتوناً وشواها فيهِ مدةً من الزمان فلم يذب

الدهان عليها بل كانت النتيجة تكسر الآنية واضاعة الحطب والعقاقير والوقت والتعب. ومن المعلوم ان النساء اللواتي لا يهمهنَّ الاَّ تحصيل الدراهم لاشتراء القوت والكسوة لاولادهنَّ لا يعبأن بالامتحانات العلمية وكانت امرأة باليسي كذلك فلم تسلّم لهُ باشتراء آنية اخرى زاعمةً انها انما تُشترَى لتكسر فقام بينهما الخصام ولكن لمَّا رأتهُ مشغوفاً بالتفتيش عن هذه الصناعة التي اخذت منهُ كل مأخذ تركتهُ الى هواهُ فبنى اتوناً آخر واتلف فيهِ مقداراً وافراً من الوقود والعقاقير والآنية وبعد تجارب كثيرة يطول شرحها دهمهُ الفقر الشديد. ومما قالهُ في صدد ذلك «اني عكفت سنوات على التفتيش عن المينا بحزن وتنهد». وكان عند ما تسمح لهُ الفرصة يعود الى حرفتهِ الاولى اي تلوين الزجاج ورسم الصور ومساحة الاراضي غير ان ما يربحهُ منها كان يسيراً جدًّا. واخيراً عجز عن الامتحان في اتونهِ بسبب غلاء الوقود فاشترى مقداراً كبيراً من الآنية المكسرة وكسرها نحو اربع مئة شقفة ودهنها بمواد كيماوية مختلفة ومضى بها الى معمل خزف يبعد عن سنت نحو غلوة ونصف وشواها فيهِ ولما تمَّ الشواء وجدها كما كانت. فصمم من ساعتهِ على اعادة التجارب من جديد

قلنا انهُ كان خبيراً بفن المساحة ففي ذلك الوقت صدر امر الدولة بمسح الملاح التي في جوار سنت فعينتهُ لذلك فكسب ما مكّنهُ من مراجعة امتحاناتهِ. فاشترى نحو ثلاثين اناء وكسرها شقفاً صغاراً ودهنها بمواد مختلفة وشواها في اتون زجاج بالقرب من سنت فذاب بعض هذه المواد من حرارة الاتون وانفتح امامهُ باب الامل الاَّ ان الدهان الابيض كان لم يزل محجوباً عنهُ فلبث سنتين اخريين يمتحن ويجرّب على غير فائدة الى ان نفد كل ما كسبهُ من مساحة الملاح. فعزم ان يمتحن الامتحان الاخير فكسر مقداراً كبيراً من الآنية نحو ثلاث مئة شقفة ودهنها بالمواد المختلفة وشواها في اتون الزجاج ولمَّا

فتح الاتون وجد الدهان ذائباً على واحدة منها فقط ولما بردت ايض صقيلاً لامعاً جميلاً فحملها وهرول الى بيتهِ وهو يكاد يطير فرحاً واراها لزوجتهِ ولكن لم يكن ذلك الدهانُ الدهانَ الحقيقي بل واسطة لاثارة رغبتهِ وتحميلهِ مشقات يعجز القلم عن وصفها . لانهُ لما رأى نجاحهُ هذه المرة بنى لنفسهِ اتون زجاج بجانب بيتهِ لكي يجري امتحاناتهِ سرًّا فيهِ . وقضى على عملهِ نحو ثمانية اشهر لانهُ كان يعمل فيهِ وحدهُ ولم يستخدم انساناً ولا بهيمة . ولما اتمهُ عمل آنية خزف بيدهِ وشواها ودهنها بالمركبات التي ظن انها تأتي بالمطلوب ووضعها في الاتون واضرم النار النهار بطولهِ ولم يذب شيء من الدهان فاحيا الليل كلهُ وهو يوقد ولكن على غير نتيجة . فاتتهُ زوجتهُ في الصباح بشيء من الطعام لانهُ لم يستطع ان يفارق الاتون . ثم مرَّ اليوم الثاني ولم يذب شيء من الدهان وخيَّم الظلام ومضى الليل واشرقت الشمس ولم يذب منه شيء ومرَّ اليوم الثالث والرابع والخامس والسادس مع لياليها ولكن على غير نتيجة

فمن يقدر ان يصف مقدار التعب الذي كابدهُ هذا الرجل في تلك الايام الطويلة . فقال لا بد من نقص في هذه المركبات التي دهنت الخزف بها فاخذ يركب غيرها لكي يمتحن امتحاناً آخر فمضى عليهِ ثلاثة اسابيع وهو يسحق ويمزج ويركب . وبقي عليهِ ان يجلب آنية اخرى لان الآنية الاولى التي عملها بيدهِ تلفت من تواصل النار عليها وقد نفد كل ما معهُ من النقود . فاستعار من صديق لهُ مبلغاً من المال واشترى بهِ آنية ووقوداً ودهن الآنية بالمركبات الجديدة ورتبها في الاتون واضرم النار فنفد الوقود الذي اشتراهُ ولم يذب الدهان . فنزع سياج جنينتهِ واوقدهُ ولكن على غير فائدة فلم يبقَ امامهُ شيء يقبل الاشتعال الا اثاث بيتهِ فنزع الرفوف وكسرها هي والموائد والكراسي واطعمها النار فصرخت امرأتهُ بالويل والحرب ونادت

الجارات قائلةً هلممن لمعونتي على هذا المجنون. وهاك كلام بالسي نفسهِ وهو مأخذ من الصفحة ٣١٥ من الكتاب المدعو اعمال بالسي في صناعة الخزف المطبوع في باريز سنة ١٨٤٤ قال «واذ اعوزني الوقود اضطررت ان احرق سياج جنينتي ثم موائد بيتي وكنت في ضيقة لا استطيع وصفها من شدة ما اعتراني من التعب وحرارة الاتون. ومضى عليَّ شهر لم يجف قميصي فيهِ . وعوضاً عن ان أُعزَّى كنت اعير حتى ان الذين كان يجب عليهم ان يساعدوني كانوا يجولون في المدينة ويقولون انهُ احرق اثاث بيتهِ . فثلموا صيتي وحمَّقوني في عيون القوم . وقد اتهمني البعض بسك النقود الزائفة فالمني ذلك كثيراً حتى كنت اذا مشيت في الشوارع امشي مطرق الراس كمن ارتكب نقيصة . . . . ولم يعنِ احد من الذين حولي بل استهزأوا بي قائلين لا باس اذا مات جوعاً فانهُ اهمل صناعتهُ. وكنت اسمع هذه الاقوال وانا مارٌّ في الشوارع »

ومع كل ذلك لم ينثن عن عزمهِ بل دام على هذه الحال بضعة اشهر الى ان اخذ التعب والارَق منهُ كل مأخذ وكاد يهلك جوعاً. وحينئذٍ ذاب الدهان فاخرج الآنية سنجابية اللون وتركها حتى بردت فاذا بها مكسوة قشرة زجاجية بيضاء فصدق فيهِ المثل القائل من تأنى نال ما تمنى

فاستأجر حينئذٍ فخاريًّا ليصنع لهُ آنية بحسب ارشادهِ وصنع بيدهِ اشكالاً من الخزَف قاصداً ان يدهنها بالدهان الذي اكتشفهُ فبقي عليهِ ان يجد من يعولهُ هو وعائلتهُ ريثما تشوى الآنية وتباع . ولحسن الاتفاق بقي لهُ في سنت صديق يعتقد باستقامتهِ ولولم يعتقد بسداد رأيهِ وهو صاحب فندق فاتفق معهُ على ان يعولهُ ستة اشهر . واما الفخاري الذي استأجرهُ فاعطاهُ بعض ثيابهِ بدلا عن اجرتهِ .فعرَّى جسدهُ من الثياب كما عرَّى بيتهُ من الاثاث

ثم بنى اتوناً على شكل منتظم ولسوء حظهِ بطَّن جانباً منهُ بحجارة صوانية فلما اضرم النار فيهِ تشظَّى الصوان وطارت شظاياهُ الى

الآنية وحينما تمَّ شيُّها واخرجت من الاتون كان الدهان ذائباً عليها حسب بغيتهِ الاَّ انهُ كان مخمشاً ومشققاً مما لحقهُ من الصوان نخسر تعب ستة اشهر لكنَّ الناس اقبلوا عليهِ راغبين في ابتياعها فلم يبعهم اياها زاعماً ان ذلك يثلم صيتهُ

ومما قالهُ في وصف حالتهِ حينئذٍ الكلام الآتي « اني مع كل ما المَّ بي لم يزل رجائي قويًّا واملي وطيداً ابشُّ في وجوه الناس اذا زاروني واطايبهم في الكلام وقلبي ملآن كآبة وغمًّا . واصعب ما قاسيتُ تهكم اهل بيتي عليَّ واستخفافهم بي . وكانت اتني مكشوفة سنوات عديدة وانا واقف امامها تحت رحمة العواصف والامطار بلا معين ولا مسلٍّ سوى مواء القطاط وهرير الكلاب حتى اذا ثارت الزوابع وتعذر عليَّ القيام امامها هرولت الى بيتي مبللاً بالامطار ملطخاً بالاوحال مترنحاً من النعاس ترنح السكران فلا ارى فيهِ غير الملامة والتعيير . واني حتى الساعة لاعجب من بقائي حيًّا مع كل ما قاسيت»

ويقال انهُ أُصيب حينئذٍ بمالنخوليا شديدة فهام على وجههِ في القفار القريبة من سنت بثياب اخلاق كانهُ هيكل من عظام وما زال اهلهُ وجيرانهُ يعيرونهُ ويستهزئون بهِ حتى رجع الى صناعتهِ الاولى ولازمها بجدٍ نحو سنة من الزمان فاصلح شأنهُ وسكتت عنهُ أَلسنة الناس. ثم عاد الى دهان الخزف ولم يزل يجرب فيهِ ويمتحن حتى اتقنهُ غاية الاتقان في مدة ثماني سنوات بعد ان اضاع في اكتشافهِ عشر سنوات . وبرع فيهِ بكثرة المزاولة والاختبار جامعاً ثمار المعرفة من فيافي الفشل . فتعلم في مدرسة الاختبار ماهية الدهان والاتربة الصالحة لهُ وكيفية بناء الاتن . وبعد ان مضى عليهِ ست عشرة سنة يتعلم في مدرسة الاختبار اجترأَ ان يدعو نفسهُ خزافاً وصار يبيع مصنوعاتهِ بقيمتها ويعول عائلتهُ بالسعة . ولكنهُ لم يكتفِ بما وجدهُ ولم يفتر عن بذل الهمة في تحسين هذه الصناعة وايصالها الى اسمى درجاتها .

فدرس الكائنات الطبيعية لكي يرسم أشكالها على مصنوعاته. وقد شهد له بيفون الشهير انهُ كان من البارعين في علم التاريخ الطبيعي. ومصنوعاتهُ تُعدُّ الآن من التحف النادرة وتباع بأثمان تكاد تفوق التصديق فانهُ بيع في لندن منذ سنين قليلة صحفة من عمله قطرها اثنتا عشرة بوصة بمائة واثنتين وستين جنيهاً انكليزيًّا. وجميع النقوش التي على مصنوعاته منقولة عن صور الحيوانات والنباتات التي في جوار سنتس وهي في غاية الاتقان رسماً ووضعاً

ولم تنته مصائب پالسي هنا لانهُ كان من طائفة البروتستانت التي ثار عليها الاضطهاد في جنوب فرنسا في ذلك الحين وكان جسوراً لا يجزع من بث آرائه فقام عليه خصومهُ وطرحوهُ في سجن بُردو. ودخل اهل الفتنة معملهُ وكسَّروا كل ما فيه من الآنية ثم حُكم عليه بالحرق لكن توسط امرهُ الكنستابل منمورنسي لا اكراماً لهُ ولا لمذهبه بل لانهُ لم يكن حينئذٍ صانع ماهر مثلهُ لعمل بلاط قصره الفاخر الذي كان آخذاً في اقامته في اكون فاخرج لهُ امراً ملكيًّا يعينهُ مخترعاً لهُ وللملك فانقذ من محكمة بُردو ورجع الى سنت ولكنهُ رأى بيتهُ ومعاملهُ مفتوحةً منهوبةً ومصنوعاته مكسرةً فنفض غبار سنت عن رجليه وانتقل الى باريز واقام في التويلري وكان يعمل للكنسابل ولأم الملك (١)

وألف پالسي في اواخر حياته كتباً كثيرة في صناعة الخزف لكي يعلّم ابناء وطنه هذه الصناعة ويرشدهم الى تجنُّب الاغلاط التي وقع هو فيها. والّف ايضاً في الزراعة وبناء الحصون والتاريخ الطبيعي والقى خطباً في هذا العلم الاخير. وكتب في تفنيد التنجيم والكيميا (بمعناها

(١) من برهة وجيزة اكتشف رجل مغرم باكتشاف آثار البروتستانت في فرنسا يسمى تشارلس ريد الافران التي كان پالسي يشوي مصنوعاته فيها واحتفر من هناك عدداً من القوالب عليها رسم وجوه ونباتات وحيوانات ونحو ذلك وعليها سمة پالسي المعروفة

القديم) والسحر وما اشبه ذلك من الخزعبلات فهاج عليهِ خصوماً كثيرين فاتهموهُ بالهرطقة واودعوهُ سجن البستيل وهو في الثامنة والسبعين وهددوهُ بالموت اذا لم يرتد عن مذهبهِ لكنهُ كان متمسكاً بهِ كتمسكهِ بالتفتيش عن دهان الخزف فاتى الملك هنري الثالث الى سجنهِ وطلب منهُ ان يرتد عن مذهبهِ بقوله لهُ ايها الرجل الصالح انك خدمتَ امي وخدمتني خمساً واربعين سنة وقد حميناك في وسط النيران والمذابح والآن قد الزمني الشعب وحزب غيز ان اتركك في قبضة اعدائك وغداً تُحرَق ما لم ترتد عن مذهبك . فاجابهُ ايها المولى انا مستعد ان اضحي بحياتي لاجل مجد الله ولقد قلتَ لي مراراً كثيرة انك تشفق عليَّ وانا اقول لك الآن اني اشفق عليك انت الذي قلتَ قد الزمني الشعب . فان كلامك هذا ليس كلام ملك . اما انا فلا انت ولا شعبك ولا احد يقدر ان يثني عزمي واني اعلم كيف اموت . وحسبما قال مات . مات شهيداً ولكن ليس حرقاً بل في السجن بعد ان سجن فيهِ نحو سنة. وهكذا انقضت حياة هذا الرجل الذي لا يضارعهُ احد في الهمة والاستقامة والاقدام

الرجل الثاني جون فردريك بُتغر مكتشف صناعة الخزف الصيني الصلب . وُلد هذا الرجل في شليتز سنة ١٦٨٥ ولما بلغ الثانية عشرة وُضع عند صيدلاني في برلين فاظهر من صغرهِ رغبة شديدة في الكيمياء فكان يقضي اكثر اوقات العطلة في التجارب الكيماوية وجل مقصدهِ اكتشاف الاكسير الذي يزعم اهل الكيمياء القديمة انهُ يحيل كل المعادن الى ذهب . وبعد مضي بضع سنوات ادَّعى انهُ اكتشف هذا الاكسير وصنع بهِ ذهباً ويقال انهُ امتحن ذلك امام معلمهِ الصيدلاني وجماعة من الشهود واحتال عليهم حتى اقنعهم جميعهم انهُ صير النحاس ذهباً

وانتشر خبرهُ في الآفاق وتقاطر اليهِ الناس من كل فجّ عميق

ملقبين اياهُ « بطابخ الذهب » حتى ان الملك رغب في رؤيتهِ والتكلم معهُ . وعُرضت قطعة من الذهب التي زعم انهُ حوّلها من النحاس على فردريك الاول فحدثتهُ نفسهُ بعمل ما لا يقدَّر من الذهب ولا سيما لان خزينة بروسيا كانت محتاجة الى النقود حينئذٍ فعزم على وضع بتغر في حصن سبندو ليعمل لهُ الذهب فيهِ . ولما بلغ بتغر ذلك خاف من الفضيحة وهرب الى سكصونيا . فعين الملك الف ريال لمن يأتي بهِ . ولكن مسعاهُ خاب لان بتغر دخل سكصونيا وطلب حماية منتخبها فردريك اوغسطس الاول الملقب بالقوي ففرح هذا بهِ جداً لانهُ كان محتاجاً الى النقود احتياجاً شديداً وارسلهُ سرًّا الى درسدن مصحوباً بحرس ملكي . وعند ما خرج من وتنبرج جاءَت فرقة من الفرسان البروسيانيين وطلبت ان يسلَّم صانع الذهب ليدها . فأُوصل الى درسدن وأُنزل في البيت الذهبي وعومل بكل نوع من الاكرام الاَّ انهُ كان عليهِ حرس شديد

ونحو ذلك الوقت اضطرَّ المنتخب ان يذهب الى بولونيا فكتب الى بتغر يطلب منهُ ان يفشي لهُ سر عمل الذهب . فبعث اليهِ بتغر بخنجر ملآن من سائل يضرب الى الحمرة زاعماً انهُ يصير كل المعادن ذهباً اذا كانت ذائبة . فاخذ البرنس فرست فن فرستنبرغ هذا الخنجر ومعهُ كتيبة من الحرس واتى بهِ الى ورسو فعزم المنتخب ان يجرب ذلك على الفور ودخل هو والبرنس غرفة سرية وأُتزرا بمئزرين من الجلد واخذا في صهر النحاس فلما ذاب سكبا عليهِ من سائل بتغر فلم يتغير . وكان بتغر قد سبق فقال ان ذلك لا يتم الاَّ بنقاوة القلب . اما المنتخب فكان قد قضى ليلهُ مع اناس اشرار فنسب عدم نجاحهما الى ذلك فاعترف ونال الحلة ثم عاودا الامتحان في اليوم الثاني فلم ينجحا . فغضب غضباً شديداً وعزم ان يجبر بتغر على افشاء هذا السر لهُ ظنًّا منهُ ان ذلك هو السبيل الوحيد لتخليصهِ من الافلاس . ولما

بلغ بتغر قصد المنتخب عزم على الفرار فتغفّل الحراس وفرّ هارباً وبعد مسير ثلاثة ايام وصل الى انس في النمسا حيث ظن نفسهُ آمناً . فتأثرهُ رجال المنتخب وقبضوا عليهِ وهو نائم ورجعوا بهِ الى درسدن رغماً عن مقاومتهِ واستغاثتهِ بالنمسا ومن ثم اقيم عليهِ حرس شديد

ثم نُقل الى حصن كونجستين المنيع وقيل لهُ ان الخزينة فارغة من النقود وان عشر كتائب من البولونيين لم يدفع لها شيء من رواتبها وهي منتظرة ذهبهُ . ثم زارهُ المنتخب بنفسهِ وتكلم معهُ في امر الذهب وهدده بالقتل ان لم يعمل لهُ ذهباً

ولكن مرّت السنون ولم يعمل ذهباً ولم يُقتَل بل حفظت حياتهُ لكي يكتشف شيئاً انفع من تحويل النحاس الى ذهب وهو تحويل التراب الى خزف صيني فان البرتوغاليين كانوا قد جلبوا آنية صينية من بلاد الصين وكانت تباع في اوربا باكثر مما يعادل ثقلها ذهباً . وقد وجّه افكار بتغر الى هذا العمل العظيم كيماويٌّ يسمى ولتر فون تشرنهوس وكان هذا الرجل مشهوراً بعلمهِ ومحترماً جداً في عيني البرنس فرستنبرغ وفي عيني المنتخب فقال ذات يوم لبتغر اذا لم تقدر ان تصنع الذهب فاصنع شيئاً آخر .اصنع خزفاً صينياً . فكان لكلامهِ وقع عند بتغر فاخذ من تلك الساعة يجرب ويمتحن عساهُ ان يجد المواد التي يصنع منها الخزف الصيني ودام على ذلك زماناً طويلاً على غير جدوى. واخيراً اتاهُ رجل بقليل من الطين الاحمر ليعمل منهُ بواتق فوجد انهُ اذا عرّضهُ لدرجة عالية من الحرارة تحوّل الى مادة شبيهة بالزجاج وصار كالخزف الصيني الاَّ في اللون والشفافية

هذا هو الخزف الصيني الاحمر وقد اكتشفهُ اتفاقاً ومن ثم اخذ يصطنعهُ بكثرة ويبيعهُ كالخزف الصيني . الاَّ انهُ كان يعلم ان اللون الابيض ضروري لهُ ولذلك لم ينفكّ عن الامتحان آملاً ان يعثر عليهِ . فمضى سنون كثيرة ولم يبلغ مرادهُ واخيراً اعانتهُ الصدفة

فاكتشف الخزف الصيني الابيض . وذلك انهُ كان يلبس لمـَّة من الشعور العارية حسب عادة تلك الايام فوجد ذات يوم ان لمتهُ اثقل من المعتاد فسأل خادمهُ عن السبب فاجابهُ ان ذلك من ثقل المسحوق الموضوع بين الشعر . وكان هذا المسحوق نوعاً من التراب فخطر على بالهِ حينئذٍ انهُ ربما كان نفس التراب الذي يُصنع منهُ الخزف الصيني. وهكذا كان لان هذا التراب كان محتوياً على الكاولين الذي هو تراب الخزف الصيني وكانت النتيجة ان هذا الاكتشاف كان انفع من اكتشاف الاكسير بما لا يُقدَّر

وفي اكتوبر من سنة ١٧٠٧ اهدى الى المنتخب اول قطعة من الخزف الصيني فسرَّ بها سروراً جزيلاً وامر ان يُقدَّم لهُ كل ما يحتاج اليهِ لاتقان اختراعهِ هذا فاستخدم خزَّافاً ماهراً وشرع في عمل الخزف الصيني .وحينئذٍ اهمل الكيمياء وكتب على باب معملهِ ما ترجمتهُ

قد عاضني الله العظيم الجبار   من صنعة النضار صنع الفخار

الاَّ انهُ كان لم يزل تحت الحفظ الشديد مخافة ان يفشي سرهُ لآخر او يفرّ من قبضة المنتخب . وكانت معاملهُ واتنهُ محروسة بالجنود نهاراً وليلاً . وعين لحفظهِ ستة من الضباط كانوا مطالبين بهِ

ولما رأى المنتخب نجاح بتغر ورواج مصنوعاتهِ عزم على اقامة معمل ملكي مؤملاً ان يغتني بذلك كما اغتنت هولندا من معامل الخزف المدهون (القيشاني) فاصدر امراً ملكيًّا في الثالث والعشرين من فبرايه (شباط) سنة ١٧١٠ لاقامة معمل كبير للصيني في البرختسبرغ وتُرجم هذا الامر الى اللاتينية والفرنسوية والدنماركية ووزعهُ سفراء المنتخب في كل قصبات اوربا وفيهِ يقول ان المنتخب فردريك اوغسطوس قد نظر الى خير سكصونيا التي اصابها ضرر كثير من الغزوة الاسوجية ووجَّه التفاتهُ الى الكنوز التي تحت الارض واقام رجالاً ماهرين للبحث فيها فصنعوا لهُ نوعاً من الآنية الحمراء

افضل كثيراً من الخزف الهندي(١) وصحافاً ملونة قابلة للقطع والصقل وليست دون الآنية الهندية وصنعوا لهُ قليلا من الخزف الابيض وهو يرجو انهم سيصنعون منهُ شيئاً كثيراً. وختم هذا المنشور بدعوة الصناع الاجانب ليأتوا الى سكصونيا وينتظموا في سلك العَمَلة واعداً اياهم باجرة كبيرة وبحماية الملك. ويظهر من هذا المنشور ان اختراع بتغر كان لهُ قيمة كبيرة في عيني المنتخب وعيون شعبهِ

قال المؤلفون الالمان ان المنتخب رفع منزلة بتغر كثيراً لاجل خدمتهِ لوطنهِ وجعلهُ مديراً لكل معاملهِ الصينية ولقبهُ بلقب بارون. ولا ريب انهُ يستحق هذا الاكرام الاَّ ان المعاملة التي عاملهُ بها كانت تناقض ذلك كل المناقضة لانهُ اقام عليهِ اثنين جعلهما مديرين وجعل بتغر رئيساً على الخزَّافين لا غير وحسبهُ اسيراً فكانت الجنود حولهُ في دخولهِ وخروجهِ بل كان يُقفَل عليهِ في غرفة حصينة حينما ينام. فاغتاظ من هذه المعاملة وجعل يكتب الى الملك ويتضرَّع اليهِ ان يرفق بهِ بكلام يلين لهُ الجماد. قال في احدى رسائلهِ انني اقف نفسي لصناعة الخزف وسأفعل اكثر مما فعل ايُّ مخترعٍ كان ممن تقدمني ولا اطلب منك الاَّ الحرية. فادار اليهِ الملك اذناً صماء بل كان يريد ان يعطيهُ كل الاموال التي يقترحها عليهِ والالقاب التي يطلبها منهُ اما الحرية فبخل عليهِ بها لانهُ حسبهُ عبداً لا يُعتق

ودام بتغر على ذلك مدة طويلة الى ان سئم الحياة فعكف على المسكر واقتدى بهِ اكثر العَمَلة فقامت بينهم الخصومات والمنازعات حتى دعت الحال ان تأتي الجنود مراراً كثيرة وتفصل بينهم. ولما لم يرتدعوا سجنوا كلهم في البرختسبرج وعوملوا معاملة الاسرى. وفي غضون ذلك مرض بتغر مرضاً شديداً واشرف على الموت فاشفق الملك

(١) ان جميع الآنية الصينية واليابانية كانت تدعى في ذلك الوقت هندية وربما كان ذلك لانها انصلت الى اوربا من الهند

ان يفقد هذا العبد النافع فاذن لهُ ان يتنزه في مركبة ومعهُ بعض الجنود لحراسته فتعافى قليلاً ثم اذن لهُ في ان يذهب احياناً الى درسدن ووعدهُ بالحرية التامة في كتاب كتبه اليهِ في ابريل سنة ١٧١٤ ولكن هذا الوعد اتى بعد وقتهِ لان بتغر عاش بعد ذلك سنين قليلة في الذل والهوان عقلاً وجسداً من تأثير السكر والمرض والحبس. وفي الثالث عشر من مارس سنة ١٧١٩ وافتهُ المنية فحررتهُ من سجنهِ ولهُ من العمر خمس وثلاثون سنة فدفن ليلاً في مقبرة جونيس في ميسن كأنه كلب. هذه هي سيرة اعظم مسببي غنى سكسونيا وهذه هي المعاملة التي عومل بها والنهاية التي وصل اليها

اما معامل الخزف الصيني فكانت سبباً لاتساع ثروة سكسونيا ومنتخبها فاقتدى به اكثر ملوك اوربا . وكان الخزف الصيني غير الصاب يعمل في سنت كلو قبل اكتشاف بتغر باربع عشرة سنة الاَّ ان الصيني الصلب الذي اكتشفهُ بتغر افضل منهُ كثيراً فانشئت لهُ معامل في سفر سنة ١٧٧٠ وهو الآن من اعظم ينابيع ثروة فرنسا لانهُ افضل من كل ما يصنع في سائر الممالك

الرجل الثالث يوشيا ودجوُد الخزَّاف الانكليزي الذي لم تصبهُ مصائب شديدة كما اصاب بالسي وبتغر ولكنهُ نجح اكثر منهما ولاسيما لان الزمان الذي نشأ فيهِ كان موافقاً لنجاحهِ كما سترى

بقيت البلاد الانكليزية حتى اواسط القرن الثامن عشر دون اكثر البلدان الاوربية صناعةً . وكان في ستفوردشير كثيرون من الخزَّافين ومنهم بيت ودجوُد هذا الاَّ ان مصنوعاتهم كانت بسيطة الى الغاية فكانت البلاد تجلب خزفها الجيد من دلفت ومن كولون. ثم اتاها خزَّافان من نورمبرج وبعد ان اقاما مدةً في ستفوردشير انتقلا الى شلسي واقتصرا على عمل الآنية المزخرفة . ولم يكن يُصنع في كل انكلترا شيءٌ من الخزف الصيني . واما الآنية البيضاء التي كانت تعمل

في ستفوردشير فلم تكن بيضاء تماماً بل ذات لون ترابي يضرب الى الصفرة . فهذه كانت حالة صناعة الخزف في انكلترا لما ولد بوشيا ودجود وذلك سنة ١٧٣٠ الا انهُ لم يمت حتى غيرها تغييراً تامًّا مع انهُ لم يعش اكثر من اربع وستين سنة . وباجتهادهِ ومهارتهِ قامت هذه الصناعة على اسس وطيدة او كما قيل في رثائهِ انهُ حوَّل عمل الخزف من حرفة خشنة لا شأن لها الى صناعة بديعة ذات قدر وطائل في تجارة البلاد .

وهذا الرجل من الرجال الابدال الذين ينبغون حيناً بعد حين من بين عامَّة الشعب ويعلمونهم الاجتهاد بالفعل لا بالقول ولا يقتصرون على ذلك بل يؤثرون في مجموع الامة بقدوتهم في الاجتهاد والثبات وهم دعائم الامة واركان عزها . كان لابيهِ ثلاثة عشر ولداً وهو اصغرهم وكان ابوهُ خزَّافاً وكذلك جدُّهُ واخو جدهِ . ومات ابوهُ وترك له ميراثاً يساوي عشرين جنيهاً فقط وهو في الحادية عشرة من عمرهِ وكان يتعلم القراءة في مدرسة صغيرة فأُخذ منها ووضع عند اخيهِ الاكبر ليعمل معهُ في صناعة الفخار . وبعد مدة قصيرة اصيب بالجدري ونشأ عن الجدري مرض في ركبتهِ اليمنى كان يخطر عليهِ مرة بعد اخرى حتى ضطرَّ الى بترها . قال غلادستون في ترجمة ودجود التي تلاها في برسلم « لا يبعد ان مرض رجلهِ كان سبباً لشهرتهِ لانهُ منعهُ من استعمال كل اعضائهِ وبالنتيجة من ان يكون عاملاً نشيطاً كغيرهِ من العمال الانكليز فاضطرَّ ان ينصبَّ على امر آخر فاعمل فكرتهُ في سر صناعتهِ فبلغ ما يستحق ان يحسدهُ عليهِ خزافو اثينا »

ولما تعلم ودجود هذه الصناعة من اخيهِ اشترك مع انسان آخر واخذا يصنعان نصباً للسكاكين وصناديق وغيرها من الادوات . ثم تركهُ واشترك مع انسان يصنع قناديل وعلباً للسعوط وما اشبه ولكنهُ لم ينجح كثيراً . وسنة ١٧٥٩ فتح معملاً خاصاً بهِ في برسلم

واخذ يصنع الخزف بنشاط وكان جلُّ مقصده ان يصنع آنية افضل من الآنية المصنوعة في ستفوردشير هيئة ولوناً ودهاناً ومتانة ولذلك اكبَّ على درس الكيمياء في اوقات العطلة وامتحن امتحانات كثيرة في الدهان والمذوبات وانواع الاتربة وكان ذا حذق شديد ونظر دقيق فلاحظ ان نوعاً من التراب الاسود المحتوي على السلكا يبيض بالتكليس في الاتون . وبعد ان لاحظ هذا الامر ودقَّق النظر فيه استنتج انهُ اذا مزجت السلكا بتراب الخزف الاحمر ابيضَّ مزيجهما بالتكليس . وهكذا كان . فلم يبقَ عليه سوى ان يدهن هذا الخزف بدهان اذا ذاب صار شفافاً فيحصل على ما يماثِل الصيني او على الصيني نفسه او ما سمي فيما بعد بالخزف الانكليزي وفُضّل على كل ما سواهُ

ووجد صعوبات كثيرة في اتنهِ مثل بالسي الا انها لم تطل كما طالت صعوبات ذاك بل تغلّب عليها سريعاً وذلك بالتجارب المتتابعة والمواظبة الدائمة والفشل المتواتر لانهُ كثيراً ما كان يضيع تعب شهر في يوم واحد . وبعد تجارب كثيرة واضاعة الكثير من الوقت والمال والتعب عرَف نوعاً مناسباً من الدهان

ثم اخذ في تحسين هذه الصناعة واضعاً نصب عينيهِ ايصالها الى الدرجة العليا حتى بعد ان صار يصنع كثيراً من الآنية البيضاء والحمراء وراجت مصنوعاتهُ في انكلترا واوربا . فانشأ فرعاً عظيماً من الصناعة الانكليزية واقامهُ على دعائم راسخة وكان يقول ان ترك عمل الشيء افضل من عمله عملاً غير متقن . فذاع صيتهُ في الآفاق واقتدى بهِ كثيرون

وكان لوجود مساعدون كثيرون من اولي المقام والسيادة ومن الصنّاع الحاذقين ايضاً . فعمل للملكة تشرلوت آنية المائدة الملكية الاولى من الخزف الذي لقب فيما بعد خزف الملكة . فلقب خزافاً ملكياً واعتبر هذا اللقب اكثر مما لو لقب اميراً . وكثيراً ما كان يسلَّم آنية صينية فيصنع مثلها تماماً الامر الذى ادهش الجميع . واعاره السر وليم

هملتون آنية قديمة من هركولانيوم فعمل مثلها. ولما عرضت القارورة البربرينية للمبيع دفع بها الفاً وسبع ماية جنيه انكليزي فدفعت اميرة برتلند الفاً وثمانماية ليرة وابتاعتها بهذا الثمن الفاحش ولكنها لما علمت ان قصده تمثيلها اعارتهُ اياها فصنع خمسين قارورة مثلها انفق عليها الفاً وخمسمائة جنيه وباعها بأقل من ذلك ولكنهُ نال غايتهُ اذ اثبت ان كل ما عملتهُ الامم لا تعجز عنهُ اليد الانكليزية وكأنهُ كان يتمثل بقول المتنبي القائل

تحقر عندي همتي كل مطلب ويقصر في عيني المدى المتطاول

وكان لوجود مشاركة في الكيمياء وعلم الآثار القديمة ومهارة تامة في صناعة الايدي فاستخدم كل ذلك لصناعة الخزف واستخدم ايضاً نقاشاً ماهراً لعمل الاشكال والصور الجميلة فصارت اشكال مصنوعاتهِ وسيلة لاحياءِ صناعة النقش القديمة بين قومهِ. وتمكن ايضاً بواسطة الدرس والامتحان من كشف صناعة تلوين الخزف التي كانت مفقودة حينئذٍ بل كانت قد فقدت من ايام بلينيوس. وخدم العلم خدمة نصوحاً وخلد ذكره بالبيرومتر الذي اخترعهُ. وكانت لهُ يد طائلة في كل مصلحة تأول الى خير البلاد. فهو السبب في فتح ترعة ترنت ومرسي من شرق الجزيرة الى غربها. وما زال يزداد شهرة ومقاماً حتى صارت معاملهُ في برسلم واتروريا نادياً يتقاطر اليهِ مشاهير الزوار من كل اقطار اوربا

ونتيجة اتعاب هذا الرجل ان الصناعة التي شرع فيها وهي في حالة دنيئة جدًّا صارت من اهم صنائع انكلترا وصارت انكلترا تصنع من الخزف ما يزيد على حاجتها فترسلهُ الى البلدان البعيدة التي كانت تجلب خزفها منها. وراج خزفها في تلك البلدان رغماً عن المكوس الباهظة التي كانت تضرب عليهِ. واثبت للبرلمنت بعد ان ابتدأ في عملهِ بنحو ثلاثين سنة انهُ بعد ان كانت هذه الصناعة في حالة دنيئة جداً

وكان يعمل فيها رجال قلائل فقراء الحال واكثرهم في حالة يرثى لها من الجهل والمسكنة صار نيف وعشرون الف شخص يعيشون منها مباشرة هذا فضلاً عن عدد لا يحصى من الحفارين والفحامين والذين ينقلون الآنية براً وبحراً والذين يتجرون بها . وكان يرتإي ان هذه الصناعة لم تزل في طفوليتها وان ما اصلحهُ فيها لا يحسب شيئاً في جنب ما تحتملهُ من الاصلاح بتقدُّم صناع الانكليز واجتهادهم وتنشيط دولتهم لهم وقد تحقق قولهُ تماماً والشاهد على ذلك انهُ صدر من بلادهم سنة ١٨٥٢ ما ينيف على اربعة وثمانين الف الف اناء خزف وهذا التقدم العظيم لا يحسب شيئاً اذا قوبل بتقدم الصناع أخلاقاً وآداباً لانهُ لما باشر ودجود عملهُ في ستفوردشير كانت في الحالة الهمجية وكان اهلوها قلال العدد فقراء اغبياء وحالما توطدت معاملهُ صار فيها عمل كافٍ لثلاثة امثالهم بأجرة عالية وتحسنت اخلاقهم وآدابهم بمواظبتهم على عملهم

فهؤلاءِ الرجال اي بالسي وبتغر وودجود وامثالهم خايقون بان يدعوا قادة اهل الصناعة بل جبابرة التمدن لان صبرهم وثباتهم في وسط التجارب والمصاعب وشجاعتهم وجَلَدهم في مساعيهم المجيدةِ ليست اقل من بسالة الجنود الذين يقوم مجدهم بالمدافعة عما عملهُ ارباب الصنائع

الفصل الرابع

في المزاولة والثبات

قال دافانان . الغني من اذا انهار الرمل من ساعته الرملية انحنى وجمع رملها حبة حبةً كأنه بزر الكواكب

وقال ده لمبر . تقدم والايمان يتبعك

اكثر الاعمال العظيمة تمَّت بالوسائل البسيطة وباستخدام القوى العادية . وفي سبيل الحياة العام فُرَصٌ كثيرة للاختبار بل ان طرق الحياة المطروقة اكثر من غيرها تولي المجتهد قوة كافية ليسعى في اصلاح شأنهِ . والنجاح منوط بناصية الثبات والاقدام فاكثر الناس ثباتاً واقداماً اكثرهم نجاحاً

وكثيراً ما لام الناس السعد وعدّوهُ اعمى وما العمي الاّهم فإنّا اذا امعنّا النظر في احوال اهل الاعمال رأينا ان السعد لاكثرهم اجتهاداً كما ان الرياح والامواج توافق الربان الماهر . بل ان اسمى مطالب البشر يمكن البلوغ اليها باستخدام القوى العادية كالانتباه والاجتهاد والمواظبة ولا لزوم لما يسمونهُ قريحة او عبقرية او موهبة فائقة. على ان القريحة وان كانت من اسمى القرائح لا تنافي القوى العادية ولا تزري بها . واعظم الناس شأناً اقلهم اركاناً الى القرائح وا كثرهم مزاولة لاعمالهم ومنهم مَنْ عرَّف القريحة بأنها ملكة قوية من الملكات العادية . قال احد رؤساءِ المدارس انها قوة السعي وقال جون فُسترانها قوة يضرم بها الانسان نارهُ . وقال بيفون الشهير انها هي الصبر

لا يخفى ان اسحق نيوتن كان من ذوي العقول الثاقبة ولكنهُ

سُئِلَ مرةً بماذا اكتشفت كل هذه الاكتشافات الفائقة فأجاب «بالتأمل المستمر فيها» ووَصَفَ في مكان آخر اسلوب بحثهِ فقال «اني اضع الموضوع نصب عيني وانتظر حتى ينزع فجرهُ ويصير نوراً كاملاً». ولم ينل ما نالهُ من الشهرة الاَّ بالاجتهاد والمواظبة مثل غيرهِ من المشاهير بل انهُ كان اذا تعب من الدرس في عام من العلوم يستريح بابدالهِ بدرس علم آخر . وقال مرةً للدكتور بنتلي «ان كنت قد خدمت الجمهور بشيء فباجتهادي وَجَلَدي». فما اشبه ذلك بما قالهُ الفيلسوف كبلر الفلكي المشهور باكتشاف القواعد الثلث التي هي اساس علم الفلك وهو ان تعمُّني في دروسي يجعلني اواصل التفكير في مواضيعها الى ان اغوص في لججها بكل قوى عقلي

لما راى بعض المشاهير ان الاجتهاد والثبات انتجا نتائج خارقة العادة ارتابوا في وجود ما يسمَّى قريحة او عبقرية او موهبة خاصة. قال فُلتير ان الحد الفاصل بين مَنْ لهُ قريحة ومن ليس لهُ يكاد لا يرى . وقال بكاريا ان كل الناس يستطيعون ان يكونوا شعراء وخطباء. وقال ريلندز كل احد يقدر ان يصير مصوراً ونقاشاً . وقال هلفيتيوس وديدرو ولُكْ ان كل الناس قابلون لان يسموا بالقرائح على حد سوي وان ما يفعلهُ البعض بواسطة عقولهم يجب ان يقدر غيرهم على فعلهِ اذا استخدموا الوسائط التي استخدمها اولئك . الا انهُ وان يكن كل شيء منوطاً بالاجتهاد حتى ان اولي القرائح هم اكثر الناس اجتهاداً وسعياً فلا يسعنا ان ننكر انهُ ما لم يكن للانسان قريحة فطرية فائقة لا يقدر ان يبلغ مبلغ شكسبير او نيوتن او بيتوفن او ميخائيل انجلو مهما جد واجتهد

ان دلتون الكيماوي انكر ان لهُ شيئاً من المواهب الفائقة ونسب كل ما حصلهُ الى السعي والاجتهاد . وجون هنتر قال «ان عقلي كقفير النحل يظهر مملوءًا من الطنين والارتباك ولكنهُ مملوءٌ ايضاً من الهدو والنظام

والطعام المجلوب من انخر منتخبات الطبيعة باجتهاد مستمر» . واذا التفتنا الى ترجمات مشاهير المخترعين والمؤلفين والصنّاع من كل نوع ولو لفتة واحدة رأينا انهم بلغوا ما بلغوا بجدهم واجتهادهم وحوّلوا كل شيء ذهباً حتى الوقت نفسهُ . وقد ارتأى دزرائيلي الكبير ان نجاح الانسان يقوم بامتلاكهِ ناصية الموضوع الذي يبغي النجاح فيهِ ولا يحصل ذلك الاَّ بالدرس والانصباب الدائمين . فينتج مما تقدم ان الرجال الذين حرَّكوا الدنيا باسرها لم يكونوا من ذوي المواهب الفائقة بل كانت قواهم العقلية معتدلة ولكنهم كانوا من اهل الجد والثبات . وكثيراً ما سبق البلداء الاذكياء في ميدان الحياة لانهم كانوا اكثر منهم مواظبة . قال المثل الايطالي من يسر متمهلاً يسر طويلا

فالثبات من اول وسائل النجاح وهو الذي يكمل الاعمال كلها . بالثبات نال السر روبرت بيل ما جعلهُ زينةً وفخراً لمجلس الاعيان الانكليزي فانهُ لما كان صبيًّا كان من عادة ابيهِ ان يقيمهُ على المائدة ليتكلم ارتجالاً وعوَّدهُ اعادة كل ما يحفظهُ من المواعظ التي يسمعها نهار الاحد. وكان نجاحهُ قليلاً في اول الامر الاَّ ان المواظبة على ذلك قوت فيهِ قوتي الانتباه والذاكرة حتى صار قادراً على اعادة موعظة كاملة حرفاً حرفاً. ثم لما دخل البرلمنت وكان يفند ادلة اضدادهِ واحداً واحداً ببلاغة تفرَّد بها قلَّ مَنْ ظن ان تلك الحافظة الفريدة التي فاق بها اقرانهُ قد اكتسبها بارشاد ابيهِ لهُ وهو حدَث

وما اعجب ما تفعلهُ المزاولة حتى في الامور البسيطة فاللعب على الكمنجة يظهر في بادىء الامر امراً سهلا لكنهُ يقتضي مزاولة طويلة متعبة جدًّا قيل ان شابًّا قال لجيرديني في كم من الزمان اتعلم اللعب على الكمنجة فاجابهُ في عشرين سنة اذا مارستهُ اثنتي عشرة ساعة كل يوم. ومن يجهل مقدار العناء الذي يعانيهِ الممثلون قبلما يتمكنون من التمثيل . قيل ان تغليوني الشهيرة كانت قبلما تمثل شيئاً تمارسهُ

ساعتين متواليتين وعندما تنتهي الساعتان يغمى عليها من شدة التعب فتجرَّد من ثيابها وترشُّ بالماء والمنعشات وكان يصيبها مثل ذلك ايضاً عند ما تنتهي من التمثيل

والارتقاء في سلَّم النجاح امر بطيءٌ جدًّا والنتائج العظيمة لا يبلغها الانسان دفعة واحدة فعلى كل احد ان يقنع بالارتقاء المتدرّج. قال ده مايستر ان سر النجاح هو ان يعرف الانسان كيف يتوقع النجاح بالصبر. فعلى الانسان ان يزرع قبل ان يحصد وكثيراً ما يضطرُّ ان يصطبر وقتاً طويلاً قبلما يصل الى الحصاد. وافضل الاثمار ابطأُها نضجاً. قال الشاعر

مَنْ جعلَ الصبرَ في مقاصدهِ وفي مراقيهِ سلماً سَلِمَا

وقال الآخر

لاستسهلنَّ الصعبَ او ادركَ المنى فما انقادت الآمالُ الاَّ لصابرِ

ولا يستطيع الانسان ان يتوقع بلوغ امانيهِ بالصبر ما لم يجتهد في بلوغها عن طيب نفس. والاجتهاد وطيب النفس تسعة اعشار الحكمة وهما حياة النجاح وروحهُ. وما من لذة في الدنيا اتم من لذة العامل بعملهِ اذا كان عملهُ عن طيب نفس. قيل انَّ سدني سمث الشهير لما كان كاهناً في احدى القرى لم يحسب نفسهُ عاملاً في العمل الذي يصلح لهُ لكنهُ اخذ فيهِ بسرور عازماً ان يبذل فيهِ جهدهُ فقال «قد صممتُ على ان احب هذا العمل واوفّق نفسي لهُ فذلك خير من الترفع عليهِ والتذمر منهُ» ومما يماثل ذلك قول الدكتور هوك عند ما انتقل الى عمل جديد قال «حيثما اكون فاني سافعل بقوتي كل ما تجدهُ يدي وان لم اجد عملاً اوجدت عملاً لنفسي»

وعلى المشتغلين بمصلحة الجمهور ان يشتغلوا زماناً طويلاً بالصبر لان كثيرين منهم قد زرعوا زرعهم فغمرتهُ ثلوج الشتاءِ وقبلما جاء الربيع وافتهم منيتهم فمضوا ولم يروا ثمار تعبهم. وفي مثل هذه الاحوال

لا شيءَ افضل من الرجاءِ ولا شيءَ يقوم مقامهُ فالرجاءِ او الامل هو الذي يشجع الانسان ويقوّيهِ على اقتحام المصاعب . قال الشاعر

اعلّلُ النفس بالآمال ارقبها ما اضيق العيش لولا فسحةُ الامل

ان كاري المبشر الشهير فاق اقرانهُ في كثرة اعمالهِ ولكنهُ كان دائماً مسروراً وذلك لرجائهِ الثابت واملهِ الوطيد . قيل انهُ وهو في الهند كان يشغل ثلاثة كتّاب فاكثر وكان اذا تعب من عمل واراد ان يستريح يبدلهُ بعمل آخر . وكان معهُ اثنان وهما ورد ومرشام (١) وبهمة هؤلاءِ الثلاثة اقيمت مدرسة كلية في سيرمبور وستة عشر مركزاً للوعظ وترجمت التوارة الى ست عشرة لغة وصار انقلاب ادبي عظيم في كل الهند الانكليزية . ومع ان اصل هذا الرجل وضيع كما اشرنا لم يكن يخجل من ذلك . قيل انهُ دعي مرةً الى وليمةٍ اولمها الوالي فسمع وهو على المائدة احد الضباط يقول لجارهِ الم يكن كاري سكافاً فاجابهُ كاري على الفور كلاَّ يا مولاي بل كنتُ أُرقع الاحذية العتيقة . وقيل انهُ حاول في حداثتهِ طلوع شجرة فسقط وكسر رجلهُ فلازم الفراش الى ان جبرت واول ما استطاع النهوض والمشي ذهب الى تلك الشجرة وطلعها وما زال ذلك دأبهُ الذي غلب بهِ كل المصاعب التي حالت دون اتمام مقاصده

وكان من جملة مبادىء الدكتور ينغ الفيلسوف ان كل انسان يقدر ان يعمل كل ما عملهُ انسان آخر .وما احسن ما قالهُ ابن الوردي

لا تقل قد ذهبتْ اربابهُ كل من سار على الدرب وصل

ومن المعلوم ان ينغ هذا لم يأخذ في عمل وألاَّ عنهُ جهداً .روى بعضهم انهُ اول ما ركب فرساً سار مع فارس شهير فوصلا الى جدار رفيع فوثب الفارس بجوادهِ من فوقهِ فاراد ينغ ان يقتدي بهِ

(١) ان كاري ابن سكاف وورد ابن نجار ومرشام ابن حائك

فسقط عن ظهر جواده فركب وحاول ثانية فسقط ولكنهُ نهض قبلما وصل الى الارض وحاول ثالثة فنجح

ومما يماثل ذلك الحادثة التي حدثت لاوديبون العالم بالطيور وقد قصَّ خبرها بقوله «اصابتني مصيبة اتلفت مئتي رسم من رسوم الطيور التي رسمتها ولاشت كل اتعابي في هذا الفن. فانني وضعتُ هذه الرسوم في صندوق وائتمنت عليه رجلاً من معارفي بعد ان طلبتُ منهُ ان يحترس عليهِ كل الاحتراس لاني ضمنتهُ نتيجة اتعاب سنين عديدة. ثم مضيت لامر ما وبعد بضعة اشهر رجعت وافتقدت الصندوق الذي كنت اسميهِ كنزي ولما فتحتهُ وجدت ما تتفتت لهُ الاكباد لان كل اتعابي اضحت فريسة لجرذين كبيرين دخلا الصندوق من احد جوانبهِ وقرضا كل ما فيهِ من الاوراق وطحناها طحناً وولدا بينها عائلة كبيرة. فصعد الدم الى راسي واصابتني رجفة ورعدة وانطرحت على ظهري ومضى عليَّ ايام عديدة وانا في سبات عميق. ولما رجعت الى نفسي اخذت بندقيتي وقلمي وانطلقت الى الغابات كأن لم يكن من الامر شيء بل كنتُ مسروراً باني صرت اقدر ان ارسم رسوماً اصح من الاولى. وهكذا كان لانهُ لم يمضِ عليَّ ثلاث سنوات حتى جمعت بدل كل ما خسرتهُ»

ومن قبيل ذلك ما اصاب اوراق السر اسحق نيوتن وذلك ان كلبهُ رمى عليها شمعة مشتعلة فاحرقتها ولاشت حسابات كبيرة كان ذلك الفيلسوف قد تعب سنين عديدة في استخراجها. ويقال انهُ حزن من جراء ذلك حزناً مفرطاً اثَّر في صحتهِ تأثيراً شديداً واضعف فهمهُ. ومثل ذلك ما اصاب المجلد الاول من كتاب كارليل في الثورة الفرنسوية فان رجلاً استعارهُ ليطَّلع عليهِ فحدث انهُ القاهُ في ارض غرفة ونسيهُ. وبعد مدةٍ ارسل كارليل في طلبهِ ليطبعهُ فورد اليهِ الجواب ان الخادمة وجدتهُ ملقى على الارض فظنتهُ رزمة ورق لا

منفعة منها واخذت تضرم النار بهِ . فما اشدّ ما اصاب كارليل عند ما سمع هذا الجواب ولاسيما لانهُ لم يكن عندهُ شيء من اصلهِ فالتزم ان يجهد ذاكرتهُ ويؤلفهُ ثانيةً وتعب في ذلك تعباً لا يوصف ولا يصدَّق ولكنهُ الفهُ ثانيةً وتأليفهُ لهُ في مثل تلك الاحوال يشهد لهُ بما تفرد بهِ من شدة العزم وعلو الهمة

ومما يظهر قوة الثبات باكثر ايضاح سير المخترعين . روى بعضهم انهُ كان من عادة جورج ستفنسن ان يقول للشبان عند ما ينصح لهم « افعلوا كما فعلت اي اثبتوا » . قيل انهُ بقي يحسّن في المركبة البخارية التي اخترعها خمس عشرة سنة قبلما فازت بالسبق. وجمس وط قضى على عمل آلتهِ البخارية ثلاثين سنة قبلما اتمها . وللثبات امثلة كثيرة مدهشة في كل نوع من العلوم والصنائع ومن الذّها الحوادث المتعلقة باستخراج آثار نينوى واكتشاف قراءة الكتابات السفينية او المسمارية المرسومة عليها بعد ان فُقدت قراءتها منذ عصر الاسكندر . اما طريقة اكتشافها فكانت كما يأتي

كان في قرمان شاه من بلاد فارس جندي انكليزي اسمهُ رولنصن من شركة الهند الشرقية. فرأى كتابة سفينيّة قديمة في جوار قرمان شاه فنسخها وكان من جملة ما نسخهُ الكتابة المرسومة على صخر بهستون وهو شاهق يبلغ ارتفاعهُ الفاً وسبعمائة قدم وعلى سفحهِ كتابات بالفارسية والسكيثية والاشورية ومن مقابلتهِ المجهول بالمعلوم من هذه الكتابات عرف شيئاً من مجهولها وركب حروفهُ الهجائية . ثم ارسل رسم ما نسخهُ الى انكلترا لكي يطّلع عليهِ رجال العلم ويجيلوا فيهِ نظرهم . ولم يكن حينئذٍ احدٌ من اساتذة المدارس الاوربية يعرف شيئاً من امر هذه الكتابة . الاّ ان رجلاً اسمهُ نورس كان قبل ذلك كاتباً عند الشركة المذكورة وقد انتبه لهذه الكتابة وامعن النظر فيها ونجح في حلها بعض النجاح فلما اطّلع

على الرسم الذي رسمهُ رولنصن واعمل فيهِ نظرهُ قال ان في نسخهِ بعض الخطاءِ مع انهُ لم ينظر صخر بهستون قط. وكان رولنصن لم يزل في جوار ذلك الصخر فراجع الرسم فرأى ان نورس مصيب في تخطئتهِ فاصلحهُ. ثم قام رجل ثالث اسمهُ لَيرد واحضر لهما شيئاً كثيراً من هذه الكتابات لكي يتسع بحثهما

كان لَيرْد هذا كاتباً عند محام بلندن. ولما كان لهُ من العمر اثنتان وعشرون سنة طاف في بلاد المشرق قاصداً ان يقطع الارضي التي عبر الفرات ولم يكن معهُ سوى رفيق واحد فمرَّ في وسط قبائل كثيرة متحاربة ونجا منها بقوة ذراعهِ وطلاقة وجههِ وانس محضرهِ وعلو همتهِ. فوصل الى اطلال نينوى ونقبها واستخرج منها كنوزاً تاريخية جزيلة الفائدة لم يستخرج مقدارها انسان واحد قط ولو وُضعت قطعها الواحدة حذاء الاخرى لملأت مساحة ميلين مربعين. فنُقلت نخبة هذه الآثار الى لندن ووُضعت في المتحف البريطاني وقُرئت فاذا بها تتفق اتفاقاً غريباً مع نص التوراة في حوادث جرت منذ ثلاثة آلاف سنة واكثر كأنها وحي جديد هبط على البشر. ولم يكتفِ لَيرْد باستخراج هذه الآثار بل الَّف فيها كتاباً جليلاً صادق الرواية حسن الانسجام يشهد لهُ بعلو الهمة وعظم الثبات

ومن الذين كانوا مثالاً في الصبر والاجتهاد بيفون الشهير الذي قال ان الموهبة الفائقة هي الصبر. فقد كانت قواهُ العقلية في حداثتهِ معتدلة بل ضعيفة وكان كسلان طبعاً عرضة لان يعيش عيشة الترف اذ كان من ذوي الثروة والوجاهة الاَّ انهُ اجتنب الترف في حداثتهِ ولم يعطِ نفسهُ هواها بل انكر عليها لذَّاتها وعكف على الدرس حاسباً الوقت كنزاً محدوداً. ولما رأى انهُ يضيع ساعات عديدة لانهُ لا يقوم باكراً عزم ان يعتاد القيام الباكر وحاول ذلك مراراً فقصَّر عنهُ ولم يقدر على القيام في الساعة التي عينها فاستعان بخادمهِ ووعده بأن يعطيهُ ريالاً

في كل يوم يوقظهُ فيهِ قبل الساعة السادسة صباحاً . الاَّ انهُ كان عندما يدعوهُ الخادم للقيام يدَّعي انهُ مريض او يظهر الغضب فلما رأى الخادم انهُ لم يربح شيئاً سوى التوبيخ عزم على ان يكسب الريال على اي حال فالح عليهِ يوماً ان يقوم فلم يقم فاتى بماءٍ مثلج وسكبهُ في فراشهِ فنهض حالاً فلما رأى الخادم انهُ نجح بهذه الواسطة واظب عليها الى ان اعتاد سيدهُ القيام الباكر . وكان يقول انهُ مديون لخادمهِ بثلاثة مجلدات او اربعة من كتابهِ في التاريخ الطبيعي

وبقي هذا العلاَّمة يشتغل بالدرس والتأليف احدى عشرة ساعة كل يوم مدة اربعين سنة الى ان صار الشغل ملكة راسخة فيهِ . قال مؤرخ حياتهِ « ان الشغل من لوازمهِ والدرس من لذات حياتهِ » ولم يكن يتعب من تهذيب كتاباتهِ فكان ينقحها مراراً كثيرة لكي يجعل عبارتهُ بسيطة طلية . ومن كتبهِ ما كتبهُ احدى عشرة مرة قبلما حسبهُ اهلاً للنشر . وكان مع علوّ همتهِ كثير الترتيب والتدقيق . ومن قولهِ ان القريحة بلا ترتيب تخسر ثلاثة ارباع قوتها . وكل ما حصله انما حصله بتعبهِ واجتهادهِ . قالت مدام نكر ان بيفون كان يقول ان ما يدعى قريحة ليس الاَّ حصر الفكر في موضوع واحد وانهُ كان يملُّ عندما يؤلف شيئاً ولكنهُ كان يعيد نظرهُ على ما الفهُ ثم يعيدهُ ثانيةً وثالثة فيجد في تنقيحهِ وتهذيبهِ لذةً عوضاً عن الملل . ومن المعلوم انهُ الف كل ما الفهُ وبهِ داءٌ اليم من اشد الادواءِ المعرض لها الجسم الانساني ولله در من قال

اخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجتهِ ومدمن القرع للابواب ان يلجا

وبين الشعراء والادباءِ رجال كثيرون يتخذون امثلة على الثبات والمواظبة منهم السر ولتر سكوت الشاعر الاسكتسي الشهير الذي تمرَّن على العمل وهو كاتب بل ناسخ عند محامٍ وكان عملهُ على نسق واحد فسئمهُ وكان مرتبطاً بهِ في النهار وحرًّا ليعمل ما يشاءُ في المساءِ

فعكف على الدرس والمطالعة . وكان اذا اراد ابتياع كتاب يجهد نفسهُ في نسخ مئَـة صفحة او اكثر فوق المطلوب منهُ فيشتري باجرتها الكتاب المذكور

وبعد ان تقدم في السن والشهرة كان يفتخر بكونهِ كثير العمل ويناقض القائلين ان اهل المواهب الفائقة لا يضطرون الى اتمام الاعمال العادية وجزم ان القوى العقلية تقوى بتعاطي الاعمال . ولما دخل محكمة ايدنبرج كاتباً كان يصنف كل ما يريد تصنيفهُ من نظم ونثر قبلما يفطر ويقيم بقية النهار في المحكمة والظاهر انهُ كان يشتغل نصف وقتهِ فقط في التصنيف والنصف الآخر في القيام بواجبات منصبهِ لانهُ حكم على نفسهِ ان يحصل معيشتهُ مما يعملهُ لا مما يؤلفهُ . وقال ذات مرة اني عقدت قلبي على ان اجعل التأليف قضيباً امسكهُ بيدي والعمل عكازاً اتوكأ عليهِ وان لا اعتمد في معيشتي على ما اربحهُ من التأليف ولو كان كثيراً

وكان التدقيق في حفظ الوقت ملكة راسخة فيهِ ولولاهُ ما امكنهُ ان يصنف كل ما صنفهُ فقد آلى على نفسهِ ان يجيب عن كل كتاب يرد اليهِ في اليوم الذي يرد فيهِ ما لم يكن فيهِ شيءٌ يقتضي تأخير الجواب ولولا ذلك ما استطاع ان يجيب عن الرسائل الكثيرة التي كانت ترد عليهِ . فكان ينهض من فراشهِ الساعة الخامسة اي قبل الظهر بسبع ساعات فيقضي ساعة في الحلاقة واللبس ويجلس في مكتبهِ الساعة السادسة واوراقهُ وكتبهُ مرتبة امامهُ اكمل ترتيب فيأخذ في اشغالهِ الى ان يجتمع اهل بيتهِ للفطور بين الساعة التاسعة والعاشرة . ومع كل جدهِ واجتهادهِ وعلمهِ الجزيل الذي هو نتيجة درس سنين كثيرة لم يكن فيهِ شيءٌ من الغرور بل كان يقول ان جهلهُ يعربسهُ في كل عمل اخذ فيهِ

وهذه هي الحكمة الحقيقية والاتضاع الحقيقي لانهُ كلما زاد

الانسان علماً قلَّ اعتداده بنفسهِ. قيل ان احد الطلبة ذهب الى استاذهِ واستأذنهُ في الانصراف قائلاً انهُ اكمل علمهُ اجابهُ الاستاذ اني ارى عجباً في ما تقول لانني انا اراني قد ابتدأت بالعلم الآن. ومن لم يرتشف الاَّ اليسير من بحار المعارف عدَّ نفسهُ قد بلغ من الحكمة اقصاها واما الحكيم الحقيقي فيقر انهُ لا يعرف شيئاً او يقول كما قال نيوتن انهُ جامع اصداف على شاطىءِ بحر الحقائق

وبين المؤلفين الذين يُعَدُّون من الطبقة الثانية كثيرون يضرب بهم المثل في الثبات والاجتهاد منهم جون برتون مؤلف كتاب «محاسن انكلترا وولس» وكتب اخرى في فن البناء فانهُ وُلد في كوخ حقير في كنستون وكان ابوهُ خبازاً فجنَّ بسبب خسارة مالية اصابتهُ حينما كان ابنهُ صغيراً فوُضع عند عمهِ وهو صاحب خان فبقي عندهُ اكثر من خمس سنوات وعملهُ صب الخمر في القناني وساءت صحتهُ فتركهُ عمهُ ليهيم على وجههِ وفي جيبهِ جنيهان فقط وهما اجرة السنوات الخمس التي خدمه فيها. فمضى عليهِ وهو على هذه الحال سبع سنوات قاسى فيها مشقات لا توصف الاَّ انهُ سعى وراء المعرفة فنال منها الحظ الاوفر. قال في تاريخ حياتهِ «انني كنت نازلاً في منزل حقير ولم اقدر ان اشتري وقوداً في ليالي الشتاءِ فكنتُ ادرس وانا في فراشي». ثم سافر الى باث ماشياً وبعد ان اقام فيها برهة رجع الى لندن حافياً لا قميص على بدنهِ. ثم وجد عملاً في حان لندن وكان هذا العمل في دهليز تحت الارض فاثَّر في صحتهِ تأثيراً شديداً لانهُ كان يعمل فيهِ عملاً شاقاً ثماني عشرة ساعة كل يوم فتركهُ ودخل كاتباً عند محامٍ وكان يأخذ خمسة عشر شلناً كل اسبوع لانهُ كان قد اتقن الخط فصار يتردَّد على مخازن الكتب في ساعات الفراغ ويقرأ ما لا يستطيع ابتياعهُ من الكتب. فاقتطف كثيراً من ثمار المعرفة ولما دخل في الثامنة والعشرين من العمر كتب كتاباً سماهُ مساعي بيزارو ومن ثم عكف

على التأليف والتصنيف ودام على ذلك خمسين سنة الى ان ادركتهُ الوفاة . ومؤلفاتهُ المطبوعة تنيف على سبعة وثمانين كتاباً اشهرها كتاب آثار كنائس لندن في اربعة عشر مجلداً وهو تذكار خالد لاجتهادهِ ومواظبته

ومنهم لودُن البستاني الذي كان يدرس ليلتين كاملتين كل اسبوع وهو صانع عند بستاني فتعلم اللغة الفرنسوية وترجم سيرة ابيلَرْد قبل ان بلغ الثامنة عشرة وكان معما ذُكر حريصاً على النجاح حتى انهُ لما بلغ العشرين من عمرهِ كتب في مفكرتهِ « الآن قد بلغت السنة العشرين وربما كان ثلث حياتي قد مضى فما هو العمل الذي عملتهُ لافادة بني نوعي » وهذا امر يستغرب من شاب في هذه السن . وبعد ان اتقن الفرنسوية درس الالمانية واتقنها في برهة وجيزة واقتنى ارضاً واسعة واستعمل فيها الاصلاحات الاسكتسية في فن الزراعة فنجح واحرز ريعاً كبيراً في وقت قصير . ثم ساح في ممالك اوربا مرتين لكي يطّلع على احوالها الزراعية وكتب نتائج سياحتهِ في انسكلوبيدياه الشهيرة التي جمع فيها من الفوائد ما يقل نظيرهُ

ومنهم صموئيل درو وهو ابن فاعل فقير وكان لهُ اخ اكبر منهُ يدعى جابز فوضعهما ابوهما في مدرسة صغيرة وكان يدفع عنهما اربعة مليمات كل اسبوع . فافلح جابز في دروسهِ وكان هادئاً مجتهداً واما صموئيل فلم يفلح بل كان مشهوراً بطيشهِ ومحبتهِ للّعب . فلما بلغ الثامنة من عمرهِ اخرجهُ ابوهُ من المدرسة ووضعهُ في منجم قصدير باجرة ستة مليمات كل يوم ولما بلغ العاشرة وُضع عند سكاف ليتعلم صناعة السكافة فلقي ما لا يقدَّر من التعب حتى انهُ عزم مراراً كثيرة على الهرب واتباع القرصان . وكان يتقدَّم في الطيش بتقدمهِ في السن فاشتهر بسرقة الجنائن وتهريب الامتعة . ولما بلغ السابعة عشرة هرب عازماً ان يدخل خادماً في سفينة حربية . ولكنهُ لم ينل مأربهُ . ثم

انتقل الى جوار بليموث وشرع يعمل في حرفة الكسافة . وبينما هو هناك اوشك ان يهلك بسبب التهريب من الجمرك وقد حملهُ على ارتكاب ذلك محبة اقتحام المخاطر وانتظار الربح لانهُ لم يكن يحصّل بحرفتهِ اكثر من ثمانية شلنات في الاسبوع . اما تفصيل هذه الحادثة فكما ترى . بلغهُ مرة ان سفينة تجارية اقبلت وقاربت البر فهرع جميع الرجال الذين صناعتهم تهريب البضائع في فريقين فريق بقي على الشاطئ لينذر بالخطر ويستلم البضائع وفريق ركب القوارب التي كانت هناك وبينهم درو وكانت الظلمة حالكة جدًّا . وقبل ان انزلوا قسماً كبيراً من الشحن عصفت الرياح.وتعالت الامواج الاَّ انهم كانوا معتادين اقتحام المخاطر فلم يرعهم ذلك بل عزموا على تفريغ الشحن كلهِ . وفيما هم كذلك اطارت الريح قبع احد رجال القارب الذي فيهِ درو فمال لكي يمسكهُ ففقدت موازنة القارب وقلب فغرق ثلاثة من رجالهِ وامسك الباقون بهِ ولكنهم وجدوا انهُ اخذ في التوغل بهم في البحر فتركوهُ وشرعوا في السباحة وبينهم وبين الشاطئ نحو ميلين . وبعد ثلاث ساعات وصل درو الى صخر قرب الشاطئ مع ثلاثة من رفاقهِ وبقوا عليهِ الى الصباح حتى كادوا يموتون برداً . فعلم بمكانهم بعض رفقائهم فاتوا اليهم وسقوهم شيئاً من البرندي الذي هرَّبوهُ فافاقوا

الاَّ انَّ هذا الاسكاف الذي شبَّ على السرقة وتهريب البضائع صار مبشراً فاضلاً ومؤلفاً بارعاً وهاك تفصيل ذلك : لمَّا سمع ابوهُ بما هو عليهِ ارجعهُ الى بيتهِ فصار يسمع مواعظ الدكتور آدم كلرك فاثرت فيهِ تأثيراً شديداً ثم مات اخوهُ فزاد موتهُ في تحويل افكارهِ عن الجهل والطيش الى التعقل والرزانة . وكان قد نسي ما تعلمهُ في صغرهِ من القراءة والكتابة فاخذ يدرس باجتهاد وثبات وبعد تعب سنين عديدة اتقن القراءة والكتابة بعض الاتقان ثم اخذ يطالع الكتب الكثيرة ويقتبس ما فيها من الفوائد.ومما قالهُ عن حالهِ حينئذٍ

اني كنت كلما اكثرت المطالعة كثر شعوري بجهلي واشتدت رغبتي في المطالعة فكنت اغتنم كل فرصة للدرس وكان الوقت الذي يمكنني ان ادرس فيهِ قصيراً جدًّا لاني كنتُ مضطرًّا ان اعمل كل النهار لاجلِ تحصيل ما يقوم بمعيشتي فكنتُ افتح كتاباً امامي وقت الاكل فاقرأُ في وقت كل وجبة نحو خمس صفحات . وفي نحو ذلك الوقت قرأ مقالة الفيلسوف لوك في الفهم فكانت اول باعث على توجيه افكارهِ الى علم ما وراء الطبيعة (المتافيزيك) وتجريدهِ عما فيهِ من شوائب الاوهام

ثم شرع يعمل في حرفتهِ وحدهُ لانهُ كان كل هذه المدَّة صانعاً عند سكاف وكان رأس مالهِ دريهمات قليلات . الاَّ ان احد جيرانهِ وكان طحَّاناً عرض عليهِ مبلغاً من المال قرضةً فقبلهُ منهُ واشترى الادوات اللازمة واخذ في عملهِ ولم تمضِ عليهِ سنة حتى اوفاهُ . وكان قصارى رغبتهِ الاستقلال في العمل والاقتصاد فكان ينام احياناً بلا عشاءٍ مخافة ان يصبح وعليهِ دين . ولم ينسَ تهذيب عقلهِ فاكثر من المطالعة ودَرَس علم الفلك والتاريخ وما وراء الطبيعة وعكف بالاكثر على هذا العلم الاخير لان كتبهُ التي يرجع اليها اقل من كتب الفلك والتاريخ وقال اني اعلم ان هذا المسلك وعر لا يسلكهُ من كان مثلي ولكني عازم على الولوج فيهِ . ثم زاد على السكافة وعلم ما وراء الطبيعة الوعظ والسياسة فاضحى حانوتهُ نادياً لرجال السياسة من اهل قريتهِ حتى اذا انقطعوا عن المجيءِ اليهِ ذهب اليهم . فانهمك في ذلك ايَّ انهماك واضاع قسماً كبيراً من وقتهِ حتى كان يضطر ان يعمل الى نصف الليل بدل ما يضيعهُ في النهار . فحدث ذات ليلة انهُ كان يطرّق نعلاً في حانوتهِ فمرَّ بهِ ولد صغير ووضع فمهُ في ثقب المفتاح وصرخ قائلاً « ياسكاف ياسكاف اشتغل في الليل ودر في النهار » قال درو فيما بعد انهُ لو اطلقت طبنجة حينئذ في اذني ما كنت انتبهت اليها اكثر مما انتبهت الى صوت ذلك الولد فطرحت

النعل من يدي وقلت في نفسي لقد اصاب فلا بد من ان اترك هذه العادة حتى لا ادعهُ يقول مثل ذلك مرة اخرى ما دمت حيًّا ولا ريب عندي ان هذا الصوت من الله فتعلمتُ منهُ ان لا اترك للغد ما يمكنني عملهُ اليوم ولا اتكاسل في عملي ابداً . ومن تلك اللحظة طرح السياسة جانباً وعكف على عملهِ محيياً اوقات العطلة في الدرس والمطالعة . ثم تزوَّج ومال الى نظم الشعر وكان مكتبهُ المطبخ ومكتبتهُ المنفخ

وفي ذلك الوقت انتشر كتاب باين المعنون « بعصر العقل » ووقع عند البعض وقعاً حسناً فالَّف درو رسالة ردَّ فيها عليهِ وكان يقول بعد ذلك ان عصر العقل صيرهُ مؤلفاً

ثم كتب كتباً اخرى ونشرها منها كتابهُ المشهور في جوهرية النفس وخلودها كتبهُ وهو يعمل في حرفة السكافة وباعهُ للطبع بعشرين جنيهاً وكان ذلك ثمناً كبيراً . وقد طُبع هذا الكتاب مراراً عديدة ولم يزل من الكتب القيمة الى يومنا هذا . ولم يغترَّ بما صادفهُ من النجاح ولم ينتفخ ككثير من المؤلفين الاحداث بل بقي يعمل في حرفتهِ الى ما بعد اشتهارهِ بالتأليف. وكان يكنس امام باب دكانهِ بيدهِ. ولم يتوقع ان يعيش من قلمهِ بل من مخرزهِ وابرتهِ على انهُ عزم ان يقضي كل اوقات العطلة بالقراءة والتأليف ولكنهُ زاد علماً وشهرة حتى استُخدم منشئاً لاحدى الجرائد ومحرراً لبعض الكتب وكان يكتب في مجلة الاكلكتك والَّف تاريخاً قيماً لوطنهِ وكتباً اخرى . وبقي يقول الى آخر دقيقة من حياتهِ اني ابتدأت من ادنى الدرجات واجتهدت دائماً في البلوغ الى اعلاها بالمواظبة والاستقامة والاقتصاد وقد وفقتني العناية الالهية وكللت مساعيَّ بالنجاح

وممَّن اشتهروا بالمواظبة يوسف هيوم الذي كان الثبات شعاراً لهُ وفاق من سواهُ بالاجتهاد والحزم مع ان قواهُ العقلية كانت معتدلة فان اباه مات وتركهُ صغيراً فعالتهُ امهُ بعمل يديها ووضعتهُ عند جراح

ليتعلم الجراحة فتعلم وسافر الى الهند مراراً عديدة(١) جرّاحاً في السفن ثم دخل في خدمة الشركة الهندية فقام بعبء منصبهِ بكل نشاط ونال احترام من هم اعلى منهُ فرفعوا مرتبتهُ . وسنة ١٨٠٣ دخل في فرقة من الجند فمات الترجمان فأُقيم مقامهُ لانهُ كان قد درس اللغات الهندية واتقنها ثم جُعل رئيساً على اطباءِ الجند وتسلم ادارة البريد ودفع الاجور وتعهد بتقديم المؤن للجنود وقام بعبء هذه الاعمال كلها . وبعد ان قضى عشر سنين في العمل المتواصل رجع الى انكلترا بمال وافر وكان اول شيء عملهُ ان اعطى فقراء عائلتهِ ما يكفيهم على حد قول الشاعر

واذا رزقت من النوافل ثروة فامنح عشيرتك الاداني فضلها

ولم يكن ممن يتمتعون بثمرة عملهم بالكسل والتراخي بل كانت لذتهُ العظمى في انصبابهِ على العمل فطاف في كل المدن الصناعية في المملكة لكي يطلع على حالتها الادبية والمادية ثم طاف في البلدان الاجنبية لكي يطلع على احوال صنائعها ومعاملها ورجع الى بلاده ودخل البرلمنت سنة ١٨١٢ وبقي فيهِ نحو اربع وثلاثين سنة . واول خطبة القاها في البرلمنت كانت في التعليم العمومي . وكان في كل مدة عضويتهِ مهتمًّا بهذه المسئلة وغيرها من المسائل التي تأول الى رفع شأن الامة كاصلاح السجون واقامة بنوك الاقتصاد وحرية التجارة والاقتصاد في النفقات وتوسيع نطاق الانتخاب لمجلس النواب وما اشبه . ولم يتعرض لموضوع الاَّ افرغ فيهِ جهدهُ ولم يكن فصيح اللسان الاَّ انهُ كان لكلامهِ وقع عظيم لان السامعين رأوا فيهِ كلام رجل مستقيم مدقق وكثيراً ما كانوا يغلبونهُ باكثرية الاصوات ولكنهُ كان يدافع عن

(١) لما كان هيوم جراحاً في السفن تعلم فن الملاحة من نفسه فعاد عليه بالنفع بعد سنين كثيرة وذلك انه سافر مرة من لندن الى ليث وصادف السفينة التي كان فيها نوء شديد وجن القبطان فاستلم هيوم ادارة السفينة ونجاها من الغرق

آرائهِ بحماسة شديدة فتحصل الفائدة من كلامهِ ولو غُلِب

وكانت اعمالهُ كثيرة جدًّا فكان يقوم قبل الظهر بست ساعات ويكتب تحاريرهُ ويهيء اوراقهُ للبرلمنت ويتناول غداءهُ ويقابل نحو عشرين ممن لهم اشغال معهُ ثم يذهب الى البرلمنت . وكثيراً ما كان اجتماع البرلمنت يمتد الى الساعة الثالثة بعد نصف الليل فكان يلازمهُ من اولهِ الى آخرهِ . والخلاصة انهُ باشر اعمالاً عظيمة وواظب عليها سنين كثيرة وكثيراً ما كان كل اعضاء البرلمنت يقومون عليهِ ويهزأُون بهِ ويغلبونهُ ولكنهُ لم ينثنِ عن عزمهِ ولا خارت قواهُ ولا ضعفت آماله . وعاش حتى رأى الجميع يسلمون باكثر مطالبهِ ويمدحونها ويعملون بها . وهذا من اعظم ما جاءت بهِ ترجمات البشر واكبر الادلة على قوة الثبات

ولا يحسن بنا ان نختم هذا الفصل قبل ان نضيف اليهِ شيئاً مما جمعناهُ بعد البحث والتنقيب عن الذين اشتهروا في البلاد الشرقية وكانوا مثالاً في الثبات والمواظبة . فزهير ابن ابي سلمى كان ينظم القصيدة الواحدة في اربعة اشهر وينقحها في اربعة اشهر ويعرضها على الشعراء اربعة اشهر ثم يشهرها فسميت قصائدهُ محوليات زهير . والاخطل بقي سنة كاملة يهذب قصيدتهُ التي يقول فيها « خف القطين فراحوا منك او بكروا » قبلما بلغ كل ما اراد منها

وابن الجوزي الَّف كتباً اكثر من ان تعد والناس يغالون في ذلك على ما قالهُ ابن خلكان ويقولون انهُ جمعت الكراريس التي كتبها مدة عمرهِ وقسمت على المدة فكان ما خصَّ كل يوم تسع كراريس

وجلال الدين السيوطي كتب في كل مسألة مصنفاً باقوالها وادلتها النقلية والقياسية وبلغت مصنفاتهُ نحواً من اربع مئة مصنَّف

وعبد اللطيف البغدادي لم يخلِ وقتاً من اوقاتهِ من النظر في

الكتب والتصنيف والكتابة ومصنفاته عديدة تنيف على المئة والستين .
وكان يقرئ الناس في النهار بالجامع الازهر وفي الليل يشتغل على نفسه . وكتبه تشهد له بدقة البحث وسعة الاطلاع وغزارة المادة وصدق الرواية

وابو الفرج الاصبهاني جمع كتاب الاغاني في خمسين سنة . ولم يقتصر عليه بل الّف كتباً اخرى كثيرة ككتاب الاماء الشواعر وكتاب الديارات وكتاب الحانات وآداب الغرباء وكتاب ايام العرب وكتاب التعديل والانتصاف في مآثر العرب ومثالبها

وابن الاثير صاحب المثل السائر والوشي المرقوم حفظ من الاشعار القديمة والمحدثة ما لا يحصى كثرة ثم اقتصر على شعر ابي تمام الطائي وابي عبادة البحتري وابي الطيب المتنبي وكان يكرر عليها بالدرس مدة حتى تمكّن من صوغ المعاني وصار الادمان له خلقاً

وحنين بن اسحق المترجم المشهور الّف اكثر من سبعين كتاباً عدا الرسائل الكثيرة. ويعقوب بن اسحق الكندي الّف خمسة عشر كتاباً ومئتين وخمسين رسالة في مواضيع شتى . وثابت بن ابرهيم الصابي الف اثنين وسبعين كتاباً ما عدا الرسائل المختلفة . وقسطا بن لوقا البعلبكي الّف سبعة وثلاثين كتاباً عدا الرسائل الكثيرة . والرازي الف نحو ثمانين كتاباً . وابن سينا الف نحو اربعين كتاباً في مئة وعشرين مجلداً عدا غيرها من الرسائل . والفارابي الف اكثر من ثمانين كتاباً . وكان في اول عمره ناطوراً (غفيراً) في بستان بدمشق وهو على ذلك دائم الاشتغال بالحكمة والنظر فيها والتطلع على آراء المتقدمين وشرح معانيها . وكان ضعيف الحال يسهر للمطالعة والتصنيف ويستضيء بالقنديل الذي للحارس وبقي على ذلك مدةً ثم عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه واجتمع به الامير سيف الدولة واكرمه اكراماً كثيراً وعظمت منزلته عنده ويذكر انه لم يكن يتناول

من سيف الدولة سوى اربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيما يحتاج اليهِ من ضروري عيشهِ . ويذكر عنهُ ايضاً انهُ قال قرأت السماع لارسطو اربعين مرة وارى اني محتاج الى معاودتهِ . وهذا يماثل ما ذكرهُ ابن سينا عن نفسهِ قال اني قرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت افهم ما فيهِ والتبس عليَّ غرض واضعهِ حتى اعدت قراءتهُ اربعين مرةً وصار لي محفوظاً وانا مع ذلك لا افهمهُ وأيست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل الى فهمهِ واذا انهُ يوماً حضرت وقت العصر في سوق الورَّاقين وبيد دلال مجلد ينادي عليهِ فعرضهُ عليَّ فرددتهُ رد متبرم معتقد ان لا فائدة في هذا العلم فقال لي اشترِ مني هذا فانهُ رخيص ابيعكهُ بثلاثة دراهم وصاحبهُ محتاج الى ثمنهِ فاشتريتهُ فاذا هو كتاب لابي نصر الفارابي في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة. فرجعت الى بيتي واسرعت الى قراءتهِ فانفتح عليَّ في الوقت اغراض ذلك الكتاب بسبب انهُ قد صار على ظهر القلب. وقال (اي ابن سينا) واصفاً كيفية انكبابهِ على الدرس « كنت ارجع بالليل الى داري واضع السراج بين يديَّ واشتغل بالقراءة والكتابة حتى اذا غلبني النوم او شعرت بضعف عدلت الى شرب قدح من الشراب ريثما تعود اليَّ قوتي ومتى اخذني النوم احلم بتلك المسائل باعيانها حتى ان كثيراً منها انفتح عليَّ وجوهها في المنام . » وهذا شأن كل العلماء العظام فان العلم لا يهبط عليهم بالوحي والشهرة لا تأتيهم عفواً بل لا بدَّ لهم من الدرس الكثير نهاراً وليلاً

واكثر الذين الفوا في التاريخ والجغرافية من علماء الاسلام كانوا ينزعون الى الارتحال والتجوال طلباً لاسباب العلم والتقاطاً لدررهِ ويجمعون في اسفارهم شتات الاخبار ونوادر الآثار ويتفحصون عن خواص البلدان وامزجة الاقاليم . فالمسعودي لم يؤلف كتبهُ النفيسة حتى طاف اكثر الممالك الاسلامية ودخل الهند وتفحص عن اقطارها

وجاب سواحل افريقية الشرقية واجتاز منها الى جزيرة العرب

وابن حوقل كان تاجراً من تجار بغداد فاقبل على التجوال في البلدان واستمر في حلّ وارتحال ثمانياً وعشرين سنة . ثم دوّن اخبار رحلتهِ في كتاب المسالك والممالك ووصف فيهِ الاقطار والاصقاع التي طاف فيها ومدنها وانهارها ومناهلها وغدرانها وسباسبها وقفارها والمع الى ثروتها وتجارتها

والهروي جاب بلاد الشام ومصر والمغرب وجزائر البحر وبلاد الروم والجزيرة والحرمين واليمن وبلاد العجم والهند قبلما الف كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات

وياقوت الحموي الرومي كان يشتغل بالتجارة فقضى سنين كثيرة في الرحلة والتجوال في بلاد العرب ومصر والشام والجزيرة وخرسان حتى تمكن من تأليف كتابهِ « معجم البلدان » وهذا الكتاب من اجلّ الكتب الموضوعة في فن الجغرافية لانهُ « احاط بجميع اقسام المعمورة وذكر اسماء البلدان والجبال والاودية والغيطان والقرى والمحال والاوطان والبحار والانهار والغدران والاصنام والاوثان وتعرّض للكلام على صفة الارض وما فيها من الجبال والبحار وذكر امزجة البلدان واهواءها ومطالع نجومها وانواءها » ولقد لقي في تأليفهِ من المشقة والعناءِ ما يحلهُ في المحل الاول بين رجال الاقدام والثبات

وابن بطوطة الرحّالة الشهير صاحب تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار خرج من طنجة مسقط رأسهِ عام ٧٢٥ للهجرة ولهُ من العمر اثنتان وعشرون سنة وجوّل في المغرب وافريقية وطرابلس وبرقة ومصر والشام والعراق واليمن وسواحل افريقية الشرقية وجزائر بحر فارس ودخل الاناطول وجال فيها وقدم بلاد القرم وساح في جنوبي روسيا ورحل الى بلاد البلغار والقسطنطينية ثم جال في البلاد الواقعة شرقي بحر الخزر ودخل خوارزم وبخارى

وخراسان وقندهار ووادي السند واقام بدهلي حاضرة ملك الهند ونُصب على القضاءِ فيها ثم ساح في الاقطار الصينية والتترية ودخل سيلان وسمطرة وجاوة وباكين قاعدة الصين . ثم انقلب الى المغرب وكان قد بارح بلادهُ منذ ٢٤ سنة وما لبث ان وصل طنجة حتى عاد الى الرحلة فدخل الاندلس وتطوّف فيها . وذهب رسولاً من سلطان مراكش الى بلاد السودان ثم عاد الى فاس والف رحلتهُ المشهورة ووصف فيها ما شاهدهُ من الامصار وما علق بحفظهِ من نوادر الاخبار

—

الفصل الخامس

في الفُرَص ومعدَّات النجاح

قال الفيلسوف باكون. لا يقدر العقل ولا اليد ان يفعلا كثيراً اذا تركا وحدهما ولا يتم عمل الا بادوات ومعونات يحتاج اليها العقل كما تحتاج اليها اليد

وقيل في اللاتينية . ان الفرصة عجوز شمطاء قد تناثر شعر قذالها وتكاثر شعر ناصيتها فان ابتدرتها من قبل مسكتها واذا تركتها حتى جاوزتك لم تقدر على مسكها انت ولا زفس نفسه

فضل الصدفة في الاعمال العظيمة طفيف جدًّا والسبيل الاكيد للنجاح انما هو الاجتهاد والثبات . واكثر ما ينسب الى الصدف او ما يقال عنهُ انهُ رمية من غير رامٍ انما هو نتيجة مزاولة طويلة . يحكى ان المصوّر ولسن كان اذا صوّر صورة يبعد عنها قليلاً ويضع قلماً في رأس عصاً طويلة ويحدق بنظرهِ الى الصورة ثم يلمسها برأس القلم لمسات قليلة فتزيد جمالاً ورونقاً . ولكن ما كل مَنْ وضع قلماً في راس عصا يقدر ان يفعل كما فعل ولسن لان ولسن لم يبلغ هذا المبلغ الاّ بعد المزاولة الطويلة فمن حاول ذلك ولم يكن متمرناً كان خطأُهُ اكثر من صوابهِ

والانتباه الشديد والاجتهاد الدائم صفتان لازمتان للعامل الحقيقي . والرجال العظام لا يغفلون عن امر مهما كان صغيراً ولا يملون من التعب والمزاولة .حكي ان الشهير ميخائيل انجلو كان مرة يبين لاحد اصدقائهِ ما فعلهُ في تمثال كان امامهُ بعد زيارة ذلك الصديق لهُ فقال انني قد رفعت هذا الجزء وخفضتُ ذاك ودققتُ هذا وغلَّظتُ ذاك . فقال صديقهُ ولكن ذلك امر طفيف جدًّا . فقال لعلك مصيب في ما قلتَ

ولكن اعلم ان الكمال مجموع امور طفيفة. ويروى ان المصور نقولا بوسن جعل دستوراً لاعماله ان كل ما يستحق ان يُعمَل يجب ان يعمَل جيداً . وقيل انهُ بعد ان تقدم في السن سألهُ ده مرڤيل بم حصلتَ هذا الاسم العظيم بين مصوري ايطاليا فاجابهُ على الفور بعدم اهمالي شيئاً

ومن الاكتشافات ما ينسب الى الصدفة ولكننا اذا امعنا النظر وجدنا انهُ قلما يوجد ما يستحق ان ينسب الى الصدفة . ويمكننا ان نقول ان مايدعى صدفة ليس الا فرصة مناسبة انتهزها اولو الدراية . ومن هذه الاكتشافات التي ينسبها البعض الى الصدفة سقوط التفاحة امام نيوتن . ولكن الا يعلم هؤلاء ان عقل نيوتن كان مشتغلاً منذ سنين عديدة بالبحث عن سبب الثقل وكان سقوط التفاحة وسيلة لتوجيهِ افكارهِ الى حقيقة هذا الموضوع. ومن ظن ان فقاقيع الصابون تقود الفيلسوف ينغ الى اكتشافهِ المتعلق بانحلال النور. والمتعارف ان الرجال العظام لايلتفتون الاَّ الى الامور العظيمة ولكن ذلك ليس بسديد لان نيوتن وينغ كانا يلتفتان الى الامور الصغيرة كما يلتفتان الى الكبيرة وهما من اعظم رجال الدنيا

ان من اكبر علل التفاضل بين الناس عدم تساويهم في الانتباه . قال المثل المسكوبي «ان عديم الانتباه يطوف في الغابات ولا يرى فيها خشباً يصلح للوقود» وقال الجامعة «الحكيم عيناهُ في راسهِ اما الجاهل فيسلك في الظلام» وقال جونسن لظريف عند رجوعهِ من ايطاليا «قد يستفيد البعض من مرسح همستد اكثر مما يستفيد غيرهم من السياحة في كل اوربا» . وحيث لايرى الجهال شيئاً يرى العقلاء اموراً كثيرة ويخترق نظرهم ما امامهم من الحوادث فيرون ما بينها من المشابهة والمخالفة ويقيسون بعضها على بعض ويعرفون اسبابها . مثال ذلك ان كثيرين رأوا جسماً معلقاً بحبل يتحرك الى الامام والوراءِ ولكن ما منهم

من استنتج من ذلك شيئاً سوى غليليو فأنهُ رأى يوماً قنديلاً يتحرك في قبة كنيسة بيزا فانتبه لهُ مع انهُ كان فتى في الثامنة عشرة وما زال يعمل فيهِ فكرتهُ مدة خمسين سنة حتى استتب لهُ ان يستخدم حركتهُ لقياس الوقت. وما من احد من رجال العلم ينكر اهمية هذا الاكتشاف او يقيس بهِ اكتشافاً آخر. وسمع غليليو مرة ان انساناً هولندياً اسمهُ ليبرشي صانع عوينات اهدى الى الكونت موريس آلة اذا نظر بها الى الاشباح البعيدة بانت قريبة فاشتغل بهذا الموضوع وما زال يعمل فكرتهُ فيـهِ حتى صنع التلسكوب الذي هو اساس علم الهيئة الحديث . فلا يمكن لاحد ان يكتشف اكتشافات مثل هـذه مالم يكن شديد الانتباه

قيل ان السر صموئيل برون كان يتأمل كثيراً في اقامة قنطرة لنهر تويد تكون متينة وقليلة النفقة فحدث انهُ شاهد عنكبوتاً مادةً خيطها من شجرة الى اخرى وكانت تسير عليهِ كما تسير على جسر فخطر على بالهِ انهُ يمكن ان تصطنع حبال او سلاسل من حديد وتعلق من جانب الى آخر فيكون منها جسر متين رخيص فاصطنع الجسر (الكبري) المسمى بالجسر المعلق على هذا المبدأ . وقد تعلم السر ايسمبرد برونل طريقة عمل النفق المشهور تحت نهر التمس من الارضة التي تنقر الخشب بمشفريها وتدهن الازج الذي تنقره بمادة لزجة القوام فمثل هذا العمل تماماً واحتفر ذلك النفق العجيب

والرجل اليقظ يستفيد من الحوادث التي يراها مهما كانت طفيفة ألا ترى ان كولمبس مكتشف اميركا سكَّت شغب بحارتهِ واقنعهم انهم مصيبون برّاً اذ راى شيئاً من العشب طافياً على وجهِ الماء . وما من امر الاَّ ولهُ شيء من المنفعة مهما كان طفيفاً . فعلى بال من خطر ان اكثر الجبال والصخور الكلسية بنتها حيوانات صغيرة لا ترى الاَّ بالمكرسكوب . فليس بعجيب اذا توقفت الكبائر من الصغائر

ونتجت النتائج العظيمة من المبادىء الطفيفة بل ان سرّ تقدم العلوم والفنون والصنائع والحرف هو ملاحظة الامور الدقيقة الطفيفة. وما العلوم الاّ مجموع ملاحظات الاجيال السالفة والحاضرة واختباراتها وقد جمعت حتى صار منها بناء فخم كالاهرام مع ان كثيراً منها بان في اول الامر طفيفاً لا طائل تحتهُ وربما بقي زماناً طويلاً من غير ان تنتج منهُ فائدة. ألا ترى ان علم القطوع المخروطية الذي وضعهُ ابولونيوس برجيوس بقي اكثر من عشرين قرناً قبل ان استُخدم لشيء اما استخدامهُ فكان في علم الفلك الذي لا ينكر احد فائدتهُ في امور كثيرة ولاسيما في سلك البحار. ولو لم يشتغل الرياضيون قروناً عديدة ليعرفوا نسبة الخطوط والسطوح بعضها الى بعض ما تمت الاختراعات الميكانيكية التي نراها في هذا العصر

قيل انهُ لما اكتشف فرنكلين وحدة البرق والكهربائية قال لهُ البعض ازدراء ما منفعة هذا الاكتشاف فاجاب انهُ سيشبُّ كما يشب الطفل فترى منفعتهُ. وعلى بال مَنْ خطر ان اكتشاف كلفني لحركة عضلات الضفدع اذا اتصل بها معدنان مختلفا النوع تنتج منهُ نتائج عظيمة مثل التلغراف الذي ربط العالم بعضهُ ببعض كما تربط الاعصاب اعضاء الجسد. او ان نقب قطع صغار من الحجارة والاحافير يولّد علمين جليلين وهما علم الجيولوجيا وعلم المعادن وفوائد هذين العلمين اشهر من ان تذكر ولاسيما علم المعادن. والآلات العظيمة التي تدير المعامل وتسيّر المراكب وتخترق الجبال وتعمل كل عمل صغيراً كان او كبيراً يتوقف فعلها على نقط صغيرة من الماء تمددت بالحرارة حتى صارت بخاراً. وهي على صغرها اذا حُصرت في آلة فعلت بقوة تزيد على قوة ربوات من الخيل وهذه القوة نفسها تفعل في جوف الارض فتسبب براكينها وزلازلها

قيل ان مركز ... ستر انتبه لموضوع البخار لما كان مسجوناً في برج

لندن من ملاحظتهِ ارتفاع غطاءِ اناء فيهِ ماء غال وبحث في هذا الموضوع طويلاً ودوَّن كل ما لاحظهُ في كتابهِ المسمى عصر الاختراعات ثم قام سفري ونيوكمن وغيرهما وحاولوا استخدام ملاحظات وستر فصنعوا الآلة البخارية واوصلوها الى الدرجة التي رآها فيها وط لما استدعي لاصلاح آلة نيوكمن الخاصة بمدرسة غلاسكو الجامعة كما تقدم. اما وط فلم يدع هذه الفرصة تذهب سدًى بل انتهزها فجعلتهُ يقضي عمرهُ في اصلاح الآلة البخارية

وانتهاز الفرص ومراقبة الحوادث العرضية وتحويلها الى مقصد من المقاصد سر عظيم من اسرار النجاح . ومن قصد النجاح في امر لا بدَّ من ان يجد فرصاً تيسّر لهُ ذلك الامر وان لم يجدها اوجدها لنفسهِ . وليس النجاح متوقفاً على الدرس في المدارس الكبيرة والانتظام في المجامع العلمية لان اكثر العلماء والمخترعين لم يكن لهم شيء من الوسائل العلمية بل انهم افلحوا بواسطة المصاعب . وافضل الصناع لم يكن لهُ ادوات تصلح للعمل ولكن ليس الصانع بادواتهِ بل بحذقهِ ومواظبتهِ

قيل سأل بعضهم اوبي المصور بم تمزج الالوان حتى تصير بديعة بهذا المقدار فاجابهُ على الفور اني امزجها بدماغي . وهذا شأن كل صانع ماهر . الا ترى ان فرغوسن صنع ساعة خشب ولم يكن معهُ من الادوات غير سكين صغيرة مما يوجد مع كل ولد ولكن ليس كل ولد فرغوسناً. والدكتور بلاك اكتشف الحرارة المختفية بواسطة كوبة من الماء وترمترين فقط . والفيلسوف نيوتن حل النور وعرف أصل الالوان بواسطة موشور وعدسيات وقرطاس . قيل زار احد العلماء الدكتور ولستون العالم الطبيعي وطلب اليهِ ان يريهُ محل امتحاناتهِ الذي اكشف فيهِ تلك الاكتشافات العظيمة فادخلهُ الى غرفة صغيرة واراه طبقاً عتيقاً عليهِ قليل من زجاجات الساعات واوراق

الكشف وميزان صغير وبوري وقال لهُ هذه كل الآلات التي استعملتها. وستوثرد تعلم صناعة تركيب الالوان من اجنحة الفراش وقد قال ما من احد يعرف كم انا مديون لهذا الحيوان الصغير . وولكي شرع يتعلم التصوير وقلمهُ فحمة وقرطاسهُ باب مذود . وبيوك تعلم الرسم وقلمهُ الطباشير وقرطاسهُ الابواب ايضاً . وفرغوسن عمل خريطة للاجرام السماوية على هذه الكيفية وهي انهُ كان يذهب الى البرية ويلتحف بازار وينام على ظهرهِ ويقيس البعد النسبي بين كوكب وآخر بواسطة سبحة . وفرنكلين عرف ماهية الصاعقة بواسطة الطيارة . ووط استعمل حقنة صغيرة في مثال الآلة البخارية التي صنعها. وجفرد كان يحل المسائل الرياضية وهو صانع عند اسكاف على قطعة من الجلد بعد ان يصقلها بالتطريق . ورتهوس الفلكي كان يحسب الكسوفات والخسوفات على مقبض المحراث

وحوادث الحياة التي اعتدنا مشاهدتها يوميًّا فيها ما يكفي الانسان من الفرص والوسائل اذا لم يتأخر عن انتهازها .فالاستاذ لي الشهير تنبه الى درس اللغة العبرانية اذ كان نجاراً برؤيتهِ توراةً في العبرانية في كنيس دعي اليهِ ليصلح مقاعدهُ فاشترى كتاب نحو عتيقاً في العبرانية بثمن زهيد واخذ يدرس تلك اللغة بجد حتى اتقنها وصار مدرّساً فيها . قيل سأل دوق ارجيل ادمند ستون كيف امكنك وانت ولد فقير ان تقرأ كتاب المبادىء لنيوتن باللاتينية فاجابهُ « اذا تعلم الانسان الحروف الهجائية امكنهُ ان يقرأ كل ما يريد »

ان السر ولتر سكت وجد سبيلاً لتوسيع معارفهِ في كل عمل اخذ فيهِ وكان يستفيد من كل حادثة ولو حدثت صدفةً فلما كان كاتباً اضطرهُ عملهُ ان يزور البلاد العالية (في اسكتسيا) فتعرف بمن بقي من الابطال الذين خاضوا معامع الحروب سنة ١٧٤٥ واقتبس منهم اخباراً كثيرة جعلها اساساً لاكثر تآليفهِ . ثم لما تقدم في السن جُعل رقيباً

على جراية الفرسان في ادنبرج فاتفق ان فرساً لبطهُ فتعذر عليهِ المشي ولازم بيتهُ مدة ولكنهُ كان مطبوعاً على بغض الكسل فاخذ في التأليف ونظم الجزء الاول من شعرهِ المسمى اغنية المغني الاخير في ثلاثة ايام وهذا الشعر من اول مبتكراتهِ التي اشتهر بها

واول شيء نبه الدكتور بريستلي الى موضوع الكيمياء رؤيتهُ الواناً مختلفة في الاقباس التي تنطفيء في الغازات المتصعدة عن السائلات المختمرة وعند ما لاحظ ذلك كان ابن اربعين سنة ولم يكن يعرف شيئاً من علم الكيمياء فاخذ يفتش في الكتب عساهُ ان يجد سبباً لذلك لانهُ لم يكن يُعرَف شيء من هذا الموضوع حينئذٍ. فصنع بعض الادوات وشرع يمتحن بها وتدرَّج من امتحان الى آخر فاوجد علماً قائماً بنفسهِ هو علم الكيمياء الغازية وفي ذلك الحين كان شيل الاسوجي يشتغل بهذا الموضوع في قرية من اسوج فاكتشف غازات كثيرة ولم يكن عندهُ من الادوات سوى قليل من الزجاجات والمثانات

والسر همفري داڤي امتحن امتحانات كثيرة وهو صانع عند صيدلاني بادوات صغيرة جدًّا مثل المقالي والقدور والخناجر وغيرها. وحدث مرة ان سفينة فرنسوية غرقت قرب لندس اند ونجا جراحها فتعرف بداڤي واهدى اليهِ حقنة عتيقة كان قد خلصها من الغرق ففرح بها فرحاً لا مزيد عليهِ وصنع بها آلة لتفريغ الهواء استخدمها في البحث عن ماهية الحرارة ومصادرها

والاستاذ فرداي خليفة السر همفري داڤي امتحن اول امتحان في الكهربائية بزجاجة عتيقة وهو صانع عند مجلد كتب. ومن الغريب انهُ مال الى درس الكيمياء بسماعهِ خطبة فيها من السر همفري داڤي في المدرسة الملكية . وفي ذات يوم اتى الى حانوت الجلد رجل من عمدة تلك المدرسة فوجد داڤي عاكفاً على درس الكهربائية في انسكلوبيذيا كان يجلدها ووجد انَّ لهُ رغبة شديدة في درس هذا

العلم فاذن لهُ في دخول المدرسة فدخل وسمع فيها اربع خطب من السر همفري داڤي فدوَّن شيئاً من هذه الخطب واراهُ للخطيب فوجدهُ صحيحاً واندهل لما علم ان ذلك الشاب لم يكن سوى صانع عند مجلد كتب . ثم ان فرداي اطلع السر همفري على قصدهِ وهو ايقاف نفسهِ على الدروس الكيماوية فنهاهُ عن ذلك فلم ينتهِ بل لازم الدرس الى ان صار معاوناً للسر همفري . واخيراً جلس صانع مجلد الكتب في منصب صانع الصيدلاني (اي السر همفري داڤي) .

وكتب داڤي في مفكرتهِ وهو ابن عشرين سنة يقول « ليس لي غنىً ولا قوة ولا نسب ولكن اذا فسَّح الله لي في الاجل خدمت جيلي اكثر مما لو كنت غنيًّا قويًّا ذا حسب ونسب » . وكان لهُ استطاعة على توجيه كل قوى عقلهِ الى الموضوع الذي يبحث فيهِ والى كل متعلقاتهِ . ومن كانت هذه الصفة صفتهُ فلا بد من ان يأتي بنتائج كثيرة . قال كلردج في وصف داڤي ما معناهُ ان عقلهُ كسيف فيهِ صفتا المرونة والصلابة فلم ينبُ عن مسألة الاَّ رجع اليها حالاً وفصلها كيف لا ولم يُعرض عليهِ مشكل الأَّ حلَّهُ وانار ظلمتهُ بنور حكمتهِ وبرهانهِ السديد . اما داڤي فقال في كلردج ما مفادهُ انهُ شديد الذكاء واسع الفكر رحب الصدر ولكنهُ عديم النظام قليل التدقيق

وكيڤيه العظيم كان من اشد الناس اعتناءً واكثرهم اجتهاداً وتدقيقاً قيل انهُ مال الى درس التاريخ الطبيعي وهو صبي برؤيتهِ مجلَّداً من كتاب بفون فاخذ من ساعتهِ في نقل الصور التي فيهِ وتلوينها حسب الشرح . ولما كان في المدرسة اهدى اليهِ احد معلميهِ كتاب نظام الطبيعة للينيوس النباتي فكان هذا الكتاب كل ما يملكهُ من الكتب في التاريخ الطبيعي مدة عشر سنين . ولما بلغ الثامنة عشرة جُعل معلماً لاولاد عائلة ساكنة قرب البحر وكان ماشياً ذات يوم على شاطىء البحر فرأى [illegible] على الشاطىءِ واستغرب منظرها واخذها

الى بيتهِ ليشرّحها ومن ثم شرع في درس الحيوانات الرخوة وهو العلم الذي اشتهر بهِ بعدئذٍ شهرة فائقة. وكان كل يوم يرى اموراً جديدة فتؤثر فيهِ رؤيتها اكثر من صورها واوصافها. فمر عليهِ ثلاث سنوات قابل فيها بين الحيوانات البحرية والاحافير (ما يحفر من الاصداف والاسماك المتحجرة) التي في تلك النواحي وشرَّح كل حيوان بحري وصلت اليهِ يدهُ وبعد البحث المدقق مهَّد السبيل للاصلاح الكامل في ترتيب انواع المملكة الحيوانية. ونحو ذلك الوقت تعرَّف بالعالم الشهير الاب تسيه فكتب هذا الى اصدقاء لهُ في باريس من جملتهم جسيو يمدح كيڤيه ومعارفهُ الطبيعية وبالغ لهم في مدحهِ حتى انهم طلبوا من كيڤيه ان يرسل بعض ما كتبهُ الى جمعية التاريخ الطبيعي ثم عينوهُ معاوناً لمدير جردن ده بلنت (بستان الحيوانات). قال تسيه في كتابهِ الى جسيو «الا يخطر ببالك انني انا الذي قدمت دلمبر الى الاكادمي وانا الآن اقدم لها دلمبراً آخر». ومن ينكر ان نبوءة تسيه تمت وزادت عما قدَّر

يظهر مما تقدم ان ليس الفضل للصدف في نجاح الذين نجحوا ولا للفرص بل للاجتهاد والمواظبة. واحسن الفرَص وافضل الوسائط لا تنفع الكسلان المهمل لانهُ يتجاوزها ولا يرى فيها نفعاً ولكن النجاح الذي يحصل من اغتنام الفرص والانتفاع بها يفوق التصديق فان وط مثلاً درس الكيمياء والميكانيكيات وهو يصنع الآلات الرياضية وكان في ذلك الحين يتعلم اللغة الالمانية من صبَّاغ سويسراني. وستفنسن درس الحساب والمساحة في بَدل الليل وهو يوقد في آلة بخارية وكان يحل المسائل الحسابية في فرص الاكل بقطعة طباشير على جوانب مركبات الفحم. ويروى عن دلتن الشهير انهُ كان يقيم في المدرسة شتاء ويعود في الصيف الى معاونة ابيهِ في الزراعة وكان يتبارى هو ورفاقهُ في الدرس على رهان يكسبهُ السابق فكسب

مرة ما مكّنهُ من ابتياع شموع تكفيهِ فصل الشتاء . وقيل انهُ دام على اخذ الارصاد الميتيورولوجية الى يوم او يومين قبل وفاتهِ وبلغ عدد الارصاد ٢٠٠٠٠٠ رصد

ان اهل المواظبة يستخدمون فضلات الوقت لمقاصد جليلة وينتفعون بها نفعاً عظيماً . والانسان الذي قواهُ العقلية في درجة متوسطة يقدر ان يتقن بعض العلوم في اقل من عشر سنوات اذا درسها ساعة فقط كل يوم . ويجب ان لا تصرف ساعة من الوقت بدون ثمرة عقلية او مادية ولله در القائل

اذا فاتني يوم ولم اصطنع يداً ولم اكتسب علماً فما ذاك من عمري

قيل ان الدكتور مازون غود ترجم لكرتيوس في جولانهِ من بيت مريض الى بيت مريض آخر . والدكتور دارون الف كل كتبهِ تقريباً على هذه الطريقة والدكتور برني تعلم الفرنسوية والايطالية وهو ذاهب الى بيوت تلامذتهِ ليعلمهم الموسيقى . وكرك هويت تعلم اليونانية في ذهابهِ الى مكتبهِ ورجوعهِ منهُ . والمؤلف يعرف رجلاً يشغل منصباً سامياً تعلم اللاتينية والفرنسوية وهو يحمل التحارير الى اربابها في اسواق منشستر . ودغسو احد مشيري فرنسا الف كتاباً ضخماً في الفترات بين طعام وطعام وهو على المائدة . ومدام ده جنلي صنفت كثيراً من كتبها في الدقائق القليلة التي كانت تمضيها في انتظار الاميرة التي كانت تدرسها . واليهو برت نسب نجاحهُ الى اغتنامهِ فضلات الوقت فانهُ اتقن ثماني عشرة لغة بين قديمة وحديثة عدا عشرين لهجة من لهجات اوربا وهو يحصل معيشتهُ من صناعة الحدادة

الوقت ثمين وهو راس مالنا الوحيد وان فات لا يرجع. قال جكسن الاكستري اذا اسرف الانسان في مالهِ اليوم امكنهُ ان يقتصد غداً بما يعوض الخسارة ولكن من يمكنهُ ان يقول سأقتصد في ساعات الغد ما يعوض عن ساعات اليوم. قيل ان ملنكثون كان يدوّن كل ساعة

اضاعها حتى يزيد اجتهاداً يعوض عنها . كتب احد العلماء الايطاليين على بابهِ من دخل هذا البيت يجب ان يشترك مع الذين فيهِ في عملهم . وقيل ان قوماً دخلوا مكتبة بكستر قصد الزيارة وقالوا لهُ من باب التجمل نخاف ان نكون قد اضعنا وقتك فاجابهم حقاً قد اضعتم

وقد يعاني بعض الناس في اتمام عملهم تعباً يفوق التصديق فان نيوتن كتب كتابهُ المسمى بالخرونولوجيا خمس عشرة مرة قبلما اتم تهذيبهُ . وغبون كتب مذكراتهِ تسع مرات . وهل درس سنين عديدة وكان معدل درسهِ ست عشرة ساعة كل يوم ولما كان يتعب من درس الحقوق كان يريح نفسهُ بدرس الفلسفة والرياضيات . وهيوم كان يكتب ثلاث عشرة ساعة كل يوم وهو يؤلف تاريخ انكلترا . وقال منتسكيو لاحد اصدقائهِ انك تقرأُ هذا الكتاب في ساعات قلائل ولكني اؤكدلك انني قد تعبت في تأليفهِ تعباً شيب رأسي

ومن الامور المفيدة التي يمارسها اكثر رجال العلم تدوين كل ما يخطر لهم من الافكار او يسمعونهُ من الفوائد مخافة ان يضيع من حيز الذاكرة . فان اللورد باكون ترك بعد وفاتهِ كتب خط كثيرة سماها افكاراً فجائية كتبت لتستعمل . والدكتور باي سمث كان يلخص الكتب التي يقرأها وهو عامل مع ابيهِ في صناعة التجليد وينتقدها ويكتب الملخص والانتقاد وجرى على ذلك حياته كلها حتى قال فيهِ كتَّاب سيرتهِ انهُ كان على الدوام عاملا جامعاً متقدماً . اما الكتب التي جمعها على هذا الاسلوب فكمعدن للعلم والمعرفة. وقدجرى هذا المجرى الشهير جون هنتر تعويضاً عما بهِ من ضعف الذاكرة وشبَّه من يقرأ كتاباً ولا يدوّن ما يبقى في ذاكرتهِ منهُ بتاجر لا يكتب كشفاً ببضائعهِ ليعلم كم عندهُ من كل صنف . ويليق بنا ان نذكر طرفاً من سيرة هذا الشهير فنقول

انهُ لم يتعلم الاَّ بعد ان بلغ السنة العشرين من عمرهِ وعمل

بالنجارة في غلاسكو ثم انضم الى اخيهِ الذي كان مقيما في لندن معلماً للتشريح وعاونهُ في التشريح العملي لكنهُ فاقهُ بعيلهِ الطبيعي وخصوصاً باجتهادهِ ومواظبتهِ . وكان اول من وقف نفسهُ في البلاد الانكليزية على علم تشريح المقابلة وجمع فيهِ مجموعاً كبيراً رتبهُ فيما بعد الدكتور أُون ولكن لزم لهُ لترتيبهِ مدة عشر سنين .وفي هذا المجموع اكثر من عشرين الف راموز ولم يجمع انسان واحد مجموعاً مثلهُ قط . وكان مع ذلك يمارس صناعة التطبيب في بيتهِ والجراحة في المستشفى وبين الجنود ويخطب خطباً في هذا الفن ويدير مدرسة تشريحية في بيتهِ . ومع هذه الاشغال الكثيرة الَّف كتباً علمية وامتحن امتحانات عديدة في نظام الحيوان . وكان ينام اربع ساعات فقط في الليل وساعة بعد الغداء ولولا ذلك ما قام بهذه الاعمال الكثيرة العظيمة . قيل سألهُ بعضهم ماذا فعلت حتى نجحت في كل اعمالك فقال اني قبل ان اشرع في عمل اقف واتأمل في هل هو ممكن فان لم يكن ممكناً تركتهُ والاَّ اخذت فيهِ وما زلت حتى اكملهُ ولومهما نالني منهُ من التعب والعناء . هذا هو سر نجاحي

واقام زماناً طويلاً يجمع اموراً كثيرة يعدُّها اهل عصرهِ طفيفة لا طائل تحتها ولا يرجى منها كبير فائدة فقد اتَّهمهُ معاصروهُ انهُ اضاع وقتهُ في ملاحظة نمو قرن الغزال الاَّ انهُ كان يرتإِي ان لا شيء من التدقيق في الامور العلمية خال من الفائدة. وكانت نتيجة بحثهِ في نمو قرن الغزال انهُ عرف كيف تضيق الشرايين وتتسع حسب دواعي الحال فتجاسر مرةً على ربط جذع شريان فرعي حدث فيهِ انيورزم فانقذ العليل من الموت ولم يجسر احد على هذه العملية قبلهُ . وسار كل حياتهِ معتمداً على نفسهِ ولم يرَ معاصروهُ غاية ابحاثهِ الاَّ انهُ واظب عليها بهمة عالية حاسباً الجري فيها من الواجبات التي لا يفشل من يهتم بها

وهاك مثالاً آخر للانتباه والصبر والاقدام والمواظبة في حياة امبروز بارى الجراح الفرنساوي الشهير. ولد هذا الرجل في لاڤال سنة ١٥٠٩ من ابوين فقيرين جداً فلم يقدرا ان يرسلاهُ الى مدرسة بل وضعاهُ عند كاهن قريتهما خادماً املاً بان يقتبس منهُ شيئاً من العلوم. ولكن الكاهن المذكور استخدمهُ في سياسة بغلتهِ وغيرها من الاعمال الدنيئة حتى لم يجد وقتاً للدرس. وبينما هو في خدمتهِ دُعي الشهير كوتو لعملية حصاة المثانة في لاڤال وكان بارى حاضراً مع من حضر فرأى من تلك العملية ما جعلهُ يعزم من ساعتهِ على دروس فن الجراحة. فترك خدمة الكاهن وخدم عند حلاق جراح وتعلم منهُ الفصد وقلع الاسنان وعمل بعض العمليات الصغيرة. وبعد مضي اربع سنوات انتقل الى باريس وطلب في مدرسة التشريح والجراحة وكان يحصّل من الحلاقة ما يقوم بمعيشتهِ ثم صار معاوناً في مستشفى هوتل ديه وكان يُضرَب المثل بحسن سلوكهِ واجتهادهِ حتى ان غكوبل راس الجراحين سلمهُ المرضى الذين لم يقدر ان يقف عليهم هو. ولما انتهت المدة المعينة للطلب عُين معلماً في المدرسة ثم جراحاً لجنود منمورنسي فلم يكتفِ بما اقتبسهُ من العلم ولا بالسبيل الذي سار فيهِ من تقدمهُ من الاطباءِ بل كان كثير الافتكار والتأمُّل في اسرار صناعتهِ واصولها ومصدر الامراض ومسيرها والبلوغ الى العلاج الشافي

وكان الجراحون في ايامهِ وما قبلها يعذبون جرحى الحرب اكثر مما يعذبهم الاعداء لانهم كانوا يوقفون الدم من جروح الرصاص بالزيت الغالي ويوقفون النزف الدموي بالكي بالحديد المحمى. واذا الجأهم الامر الى بتر عضو كانوا يبترونهُ بسكين محماة الى درجة الحمرة. وكان بارى يداوي الجروح على هذا الاسلوب ولكنهُ حدث يوماً انهُ لم يكن تحت يدهِ زيت غالٍ فآسى الجرح بمضادات الالتهاب ونام ليلتهُ في قلق شديد مخافة ان يكون اخطأ في العلاج. ولكنهُ رأى

في الصباح ان الذي عالجهُ هذه المعالجة مقبل على الشفاء والذين عالجهم المعالجة المعتادة في عذاب اليم . هذا اصل الاصلاح الذي احدثهُ في علاج جروح الرصاص فصار يعتمد عليهِ دائماً . ثم ادخل اصلاحاً آخر اهم من الاول وهو قطع النزف بربط الشرايين بدلاً من الكي. فقام عليهِ الجراحون وقالوا ان معالجتهُ هذه شديدة الخطر وغير اصولية واعتصبوا عليهِ عصبةً واحدةً وطعنوا فيهِ وقالوا انهُ عديم العلم ولاسيما الجهلهِ اللاتينية واليونانية واثبتوا غلطهُ بعبارات اقتبسوها من كتب الاوائل لم يقدر ان يثبتها ولا ان ينفيها . وافضل ما قدر ان يجيبهم بهِ هو نجاح معالجتهِ . وكان الجرحى يدعون باسمهِ دائماً ولم يقبلوا علاج احد غيرهُ . فعالجهم بالشفقة والحنو وكان بعد ان يضمد جراحاتهم يقول لهم قد عملت ما عليَّ وعلى الله الشفاء. وبعد ان مضى عليهِ ثلاث سنوات في خدمة الجند رجع الى باريس ولهُ شهرة عظيمة فعين جرَّاحاً للملك

ولما اتى كارلوس الخامس بجيوش اسبانيا وحاصر متس هلك من المحاصرين خلق كثير وكان الذين ماتوا بيد الجراحين اكثر من الذين قتلهم العدو فارسل دوق غيز قائد المحاصرين يتضرع الى الملك ان يرسل اليهِ باري فارسلهُ . وبعد معاناة مشاق كثيرة واخطار شديدة اخترق جيوش العدو ودخل متس فرحَّب بهِ الدوق والقواد والرؤساء واما الجنود فلما سمعوا بقدومهِ صرخوا « لسنا نخاف الموت من جراحنا بعد الآن لان صديقنا صار بيننا »

وفي السنة التالية كان باري في مدينة هسدن ففتحها دوق سافوى واخذهُ اسيراً الاَّ انهُ شفى بعض قواد جندهِ فاطلق سبيلهُ بلا فدية فرجع الى باريس وقضى غابر حياتهِ في الدرس والتأليف والمبرَّات . والح عليهِ البعض من اشهر علماءِ عصرهِ ان يكتب نتائج اعمالهِ الجراحية فكتبها في ثمانية وعشرين مجلداً طُبعت في ايامهِ . وكتاباتهُ من الطراز

الاول ولاسيما لكثرة ما فيها من الحوادث التي عالجها ونجح مجتنباً كل علاج لم يتأكد فعلهُ بالتجربة . وبقي جرّاحاً للملك مع انهُ كان بروتسطنتي المذهب . ونجاهُ الملك كارلس التاسع من القتل في مذبحة مار برثلماوس لانهُ كان قد شفاهُ من جرح مميت اوقعهُ بهِ جرّاح غبي في فصدهِ اياهُ . وقد ذكر برَنتوم في كتاب السير قصة انقاذ الملك لباري من مذبحة مار برثلماوس فقال ان الملك ارسل فدعاهُ اليهِ وابقاهُ معهُ الليل كلهُ قائلاً انهُ ليس من العدل ان يُقتل انسان قد خلص حياة كثيرين . فنجا من اهوال تلك الليلة الرهيبة وعاش بعدها سنين عديدة ومات حتف انفهِ بشيبة صالحة واكرام يليق بمثلهِ

ومن الذين اشتغلوا بلا ملل في ترقية صناعة الطب هارفي الشهير مكتشف دورة الدم فانهُ بحث وامتحن ثماني سنوات قبلما اشهر هذا الاكتشاف . وقد اشهرهُ على اسلوب بسيط مقنع ولكنهُ عومل بكل نوع من الاهانة والاحتقار وبقي وقتاً طويلاً ولم يصادف انساناً يحتم على صحة قولهِ بل كان الجميع يزعمون انهُ جاء امراً فريّا مناقضاً آراء الاوائل والكتاب المقدس والديانة والآداب ورماهُ البعض بالجنون والخداع وهجرهُ اصحابهُ وخلانهُ وآل حالهُ الى اسوإِ الاحوال ولكن هذا الحق المبين الذي دافع عنهُ سنين عديدة دخل بعض العقول واينع فيها ولم يمض عليهِ الاّ خمس وعشرون سنة حتى عُدَّ من اثبت الحقائق الطبية

والمصاعب التي قاساها الطبيب ادورد جنر مكتشف تطعيم الجدري كانت اشد من المصاعب التي قاساها الدكتور هارفي وهاك طرفاً من سيرتهِ

لا بد من ان كثيرين شاهدوا جدري البقر قبل هارفي وسمعوا الكلام الجاري على السنة الحلاّبات وهو ان الذي يجدر بجدري البقر يسلم من الجدري العادي ولكنهم عدوهُ اشاعة كاذبة وما منهم من

ظنهُ يستحق الامتحان حتى طرق مسامع جنر . وذلك ان ابنة دخلت حانوت معلمهِ لكي تستشيرهُ في مسئلة ما وحدث حينئذٍ ان بعض الحاضرين ذكر ما كان من امر الجدري فقالت الابنة انا لا اعدى بهذا المرض لانني جُدرت بجدري البقر . فانتبه جنر لهذا الامر واخذ من ساعتهِ يراقبهُ ويبحث عنهُ ثم كاشف البعض من معارفهِ الاطباء بذلك فضحكوا منهُ وتهددوهُ بالطرد من بينهم اذا تجاسر مرة اخرى وذكر لهم ذلك . ثم درس على جون هنتر الفسيولوجي وكاشفهُ بما في نفسهِ فقال لهُ لا تظن ظنًّا بل امتحن امتحاناً وكن صبوراً مدققاً في بحثك . فتقوَّت عزائمهُ بهذا الكلام . واخذ من وقتهِ يمارس صناعتهُ ويمتحن التطعيم ودام على ذلك عشرين سنة وكانت ثقتهُ بالتطعيم قوية جدًّا فطعم ابنهُ ونشر وصف تجاربهِ في رسالة ذكر فيها انهُ طعَّم ثلاثة وعشرين شخصاً بجدري البقر فلم يُعْدَ احد منهم بالجدري العادي بعد ذلك لا بالمخالطة ولا بالتلقيح . فلم يكترث لهُ احد في اول الامر

ثم قام عليهِ خصوم كثيرون حتى انهُ لما اتى لندن قصد استعمال التطعيم بقي ثلاثة اشهر من غير ان يطعم احداً ولم يقبل احد من الاطباء ان يستعمل التطعيم فرجع على عقبهِ وقام عليهِ خصومهُ ونسبوا اليهِ اموراً يضحك منها الاطفال في هذا العصر مثل انهُ قصد ان يحوّل البشر الى بهائم بادخال مادة بقرية الى بنيتهم . ونادى رجال الدين في الكنائس بان التطعيم صناعة شيطانية شريرة وتطرَّف بعضهم فقال ان الاولاد المتطعمين تصير وجوههم مثل وجوه البقر وينبت لهم نتوات على شكل قرونها وتتغير هيئتهم رويداً رويداً الى هيئة البقر ويصير مزاجهم بقريًّا وصوتهم خواراً . وكانوا يرجمون المتطعم اذا خرج من بيتهِ . ومع كل هذه المقاومات وهؤلاءِ الاضداد كان التصديق بالتطعيم يشيع يوماً بعد يوم . واول من اقدم على استعماله

السيدتان الشريفتان السيدة دوسي والكونتة بركلي فطعمتا اولادهما فانكسرت شوكة المقاومين ومال الاطباء الى تصديق جنر . ومنهم من حاول ان يسلبهُ شرف هذا الاكتشاف ولكن خاب مسعاهم وثبت الحق لجنر وجوزي علانية . ثم دعي للسكنى في لندن واكد لهُ البعض انهُ يكتسب هناك عشرة آلاف جنيه سنويًّا فاجابهم اني في شبيبتي فضَّلت وادي الحياة على جبلها والآن في شيخوختي لا يليق بي ان اطمع بثروة ولا بشهرة

اما التطعيم فانتشر في كل البلدان المتمدنة في حياة جنر واقر لهُ الجميع بالفضل من عالٍ ودون . قال كيڤيه اذا كان التطعيم هو الاكتشاف الوحيد الذي اكتشف في ذلك العصر فبهِ الكفاءة لاشهارهِ الى الابد ولوانهُ قرع ابواب المدارس عشرين مرة قبلما قبلتهُ

ومن الذين اظهروا حزماً وعزماً ومواظبة واقداماً السر تشارلس بل الذي اكتشف اموراً كثيرة في المجموع العصبي فان كل ما عرفهُ العلماء قبل ايامهِ عن هذا الجهاز اوهن من بيت العنكبوت ولم يزيدوا شيئاً تقريباً على ما كان يعرفهُ ديموقريطس وانكساغوراس من مضي ثلاثة آلاف سنة . واما السر تشارلس بل هـذا فابتدأ سنة ١٨٢١ ينشر رسائل في هذا الموضوع مبنية على ابحاث مدققة وامتحانات متوالية تتبع فيها ارتقاء المجموع العصبي من ادنى الحيوانات رتبةً حتى الانسان اعلاها وشرح ذلك شرحاً وافياً . وهو الذي قال ان الاعصاب الشوكية مزدوجة الوظيفة وانها تنشأ باصلين من الحبل الشوكي وان احدهما للحس والآخر للحركة . ودام هـذا الموضوع شاغلا ذهنهُ اربعين سنة . ولكن اصابهُ ما اصاب هارڤي وجنر وهو انهُ بعد ان تعب تعباً جزيلاً في اسكات المستهزئين والخام المضادين وجد اناساً كثيرين قد قاموا وادعوا اكتشافاتهِ . ثم ثبت انهُ هو المكتشف واقر لهُ الجميع بالفضل من قاصٍ ودانٍ حتى ان كيڤيه

لما رأى وجههُ قد انحرف وهو على فراش الموت اشار الى الحاضرين وقال ان هذا برهان قاطع على صدق مذهب السر تشارلس بل

ومن الذين يجب ذكرهم في هذا المقام الطبيب مرشل هول فان هذا الفاضل مارس صناعة الطب بنشاط وامانة وكان يبحث في اسرارها ويتعمق في غوامضها باجتهاد لا يفوقهُ اجتهاد منتبهاً لكل حادثة مهما كانت طفيفية. والاكتشاف العظيم الذي اكتشفهُ وخلد بهِ اسمهُ بين رجال العلم وهو الفعل العصبي المنعكس نبهتهُ اليهِ اسباب بسيطه لانهُ كان مرة يمتحن الدورة الرئوية في عظاية من نوع السمندل فقطع رأسها ونزع ذنبها ووكزها صدفة في عشائها الخارجي. فتحركت وتلوت مرات كثيرة ولم يكن قد لمس عضلة ولا اعصاباً عضلية. ويحتمل ان كثيرين شاهدوا هذه الحادثة قبلهُ ولكنهُ كان اول من نظر اليها نظر الخبير المدقق واخذ من تلك الساعة يجرب ويمتحن عساهُ ان يعرف سبب هذه الحركة. ويقال انهُ اقام خمسة وعشرين الف ساعة باحثاً في هذا الموضوع حتى عرفهُ تماماً وكان في ذلك الوقت يطبب ويدرّس في مستشفى مار توما وفي مدارس اخرى طبية. ومن العجيب ان الجمعية الملكية رفضت التسليم باكتشافهِ هذا ولم تسلم بهِ الا بعد مضي سبع عشرة سنة حينما قُبل في كل الاقطار

وممن هم مثال للاجتهاد والمواظبة ايضاً السر وليم هرشل الالماني الشهير الاصل. كان ابوهُ موسيقياً فقير الحال ولهُ اربعة بنين علمهم حرفتهُ فاتى احدهم وليم الى انكلترا في طلب الرزق وانتظم في جوقة فرقة حربية وفي احد الايام مر بهِ الدكتور ملر فسمعهُ يغني على الكمنجة فاعجبهُ غناؤهُ وتحدث معهُ مدة فسُرَّ بحديثهِ وطلب اليهِ ان يقيم في بيتهِ فاجابهُ الى طلبهِ وكان في بيتهِ مدة وهو يستغنم كل فرصة للدرس في كتب ذلك الدكتور وحينئذ صُنع ارغن لكنيسة هليفكس وطُلب لهُ موسيقي يعزف عليهِ فوقع الانتخاب على هرشل

هذا . ونحو ذلك الوقت اكتشفت اكتشافات جديدة في علم الهيئة فانشغل بالهُ بها ومال الى البحث في هذا العلم فاستعار من احد اصدقائهِ نظارة من النوع الغريغوري وكان يرصد بها ثم سام تلسكوباً لابتياعهِ فطلب فيهِ مبلغ كبير جداً فعزم من ساعتهِ على اصطناع تلسكوب مهما كلفهُ من التعب . والذين يعرفون ما هو تلسكوب الانعكاس وما يقتضي عمل مرآتهِ من العناء والمهارة يعرفون عظم العمل الذي اقدم عليهِ هرشل ولكنهُ نجح ولو بعد تعب شاق وصنع تلسكوباً عاكساً طولهُ خمس اقدام نظر بهِ حلقات زحل واقمارهُ ولم يكتف بذلك بل صنع نظارات عديدة منها ما طولهُ سبع اقدام وعشر اقدام واخيراً صنع واحدة طولها عشرون قدماً . ولما كان يعمل التي طولها سبع اقدام صنع اكثر من مئتي مرآة قبل ان وجد واحدة صالحة وهذا دليل على شدة مواظبتهِ وكان في غضون هذه المدة يحصل معيشتهُ من الموسيقى. ثم اكتشف السيار اورانوس وحسب فلكهُ ومعدل حركتهِ وارسل النتيجة الى الجمعية الملكية فاشتهر بذلك شهرة عظيمة وعُيّن فلكيًّا ملكياً ورقاهُ الملك جورج الثالث الى منصب يليق بهِ. فبقي مع ما حازهُ من الرفعة والشهرة متضعاً رقيق الجانب كما كان قبل ان عرف شيء من امرهِ . ولعلهُ لم يقم بين البشر من ضاهاهُ في الرقة والصبر والنجاح

وممَّن هم مثال للصبر والاجتهاد وانتهاز الفرص وليم سمث ابو الجيولوجيا الانكليزية فانهُ ولد سنة ١٧٦٩ من فلاح ومات ابوهُ وهو صبي صغير فكان يُرسل الى مدرسة في قريتهِ فلم يتعلم الاَّ شيئاً يسيراً لانهُ كان طائشاً يفضل اللعب على الدرس . ثم تزوجت امهُ وتركتهُ فضمهُ عمهُ اليهِ وهو فلاح ايضاً. وكان مغرماً بجمع الحجارة المتنوعة فلم يستحسن عمهُ ذلك بل اشترى لهُ كتباً في مبادىء الهندسة والمساحة لكي يدرس فيها ويصير مسَّاحاً . وامتاز وهو حدَثٌ بدقة النظر

وقوة الذاكرة حتى انهُ لم ينسَ شيئاً امعن فيهِ نظرهُ . ثم اخذ يتعلم صناعة الرسم والتلوين والمساحة وقياس الاراضي كل ذلك بدون ان يدرس على استاذ فصار معاوناً لمهندس كبير فدعاهُ عملهُ ان يجول مراراً كثيرة في مقاطعة اكسفرد وما جاورها وكان اول شيء وجَّه اليهِ افكارهُ انواع تربة تلك الاراضي وترتيب طبقات صخورها. ودُعي مراراً كثيرة لمساحة مناجم الفحم فزاد فحصاً واختباراً حتى انهُ لما بلغ السنة الثالثة والعشرين من عمرهِ عزم ان يصنع مثالاً يمثل طبقات الارض

وبينما كان يمسح بعض الاراضي لحفر ترعة لاحظ ان الطبقات التي فوق الفحم الحجري لم تكن افقيَّة بل مائلة الى الشرق وتأكد ذلك فيما بعد بملاحظتهِ الطبقات في واديين متوازيين فرأى انها جميعها تنحدر نحو الشرق فتغور من طرفها الشرقي ويظهر فوقها نضد آخر. ثم مكنتهُ الفرصة من ان يتأكد ذلك اذ عُين لفحص الاراضي الموافقة لحفر الترع في انكلترا وويلس. فجال فيهما وكان يراقب هيئة اراضيهما وصخورهما ويعي كل ما يراهُ في ذاكرتهِ فاثبتت لهُ المراقبة ان الصخور في الانحاءِ الغربية من انكلترا تميل الى الشرق والجنوب الشرقي وان الحجر الرملي الاحمر الذي فوق طبقات الفحم يمر تحت الطبقات الطفالية والكلسية وهذه تمر تحت الرمال والصخور الكلسية الصفراءِ وهذه تمر ايضاً تحت الرواسب الطباشيرية في الاجزاءِ الشرقية من انكلترا. ولاحظ ايضاً ان لكل طبقة من الطفال والرمل والكلس نوعاً خاصًّا من الاحافير. وبعد التأمل الطويل في هذا الامر استنتج منهُ نتيجةً لم يسبقهُ اليها احد قط وهي ان كل مجتمع من الحيوانات البحرية المتحجرة في هذه الطبقات يدل على انها كانت في قاع البحر وقتاً ما وان كل طبقة من الطفال والرمل والطباشير والحجر تدل على حصة مخصوصة من تاريخ الارض

فشغف بهذا الموضوع حتى لم يعد يفتكر ولم يعد يتكلم الا بهِ . فصار اذا حضر حفر الترع او جز الغنم او غير ذلك من الاعمال يطرق هذا الموضوع ويفيض فيهِ فلقب سمث الطبقات . ومع هذا كلهِ بقي مجهولاً لدى رجال العلم . ثم اخذ في عمل خريطة لانكلترا حسب ترتيب طبقاتها . ولم ينفك عن البحث والتنقيب والمراقبة حتى صار يعرف بناء طبقات الارض من هيئتها الظاهرة وصار الناس يستشيرونهُ في نزح مياه الارض واشتهر بذلك شهرة فائقة

وحدث ذات يوم انهُ اطلع على مجموع الاحافير الذي جمعهُ القس صموئيل رتشردسن في باث فقلب ترتيبهُ ورتبهُ ترتيباً آخر قائلاً ان هذه الاصداف خرجت من الطبقة الفلانية وتلك من الطبقة الفلانية فاندهل القس المشار اليهِ كل الاندهال وصدق قول سمث وصار من انصارهِ . الا ان جيولوجيي العصر لم يقبلوا آراءه بل لم يريدوا ان يعرفوا ان مساحاً خامل الذكر يقوم ويعلمهم علم الجيولوجيا وكانوا يجهلون ان له عيناً حادة البصر تخترق طبقات الارض وتكشف خفياتها كيف لا وقد املى مرة على رتشردسن شرح ثلاث وعشرين طبقة متوالية وما فيها من الاحافير فكتب رتشردسن ذلك وطبعهُ سنة ١٨٠١

ثم شرع في فحص الاراضي التي تبعد عن باث حسبما سمحت لهُ وسائطهُ فجال سنين عديدة وهو يعتاض بسرى الليل عمَّا يضيع من سير النهار وكان اذا دعي الى اماكن بعيدة لعمل مساحي يعتسف عن الطريق لكي يلاحظ صفات الارض الجيولوجية . وبقي سنين عديدة يسافر من مكان الى آخر في انكلترا وايرلندا . وكان يقطع اكثر من عشرة آلاف ميل سنويًّا وفي كل ذلك لم يدع امراً يتخطى عينيهِ مهما كان طفيفاً بدون ان يمعن فيهِ نظرهُ ولم يترك فرصة تذهب سدى . وتظهر سعة معرفتهِ الجيولوجية من القصة الآتية وهي انهُ كان مارًّا ذات يوم قرب تنزل ضباشيرية فقال لرفاقهِ اذا رأينا ارضاً

مكسورة عند سفح هذه التلال وجدنا فيها اسنان كلب البحر فلم يتقدموا مسافة طويلة حتى التقطوا سنًّا منها من جانب حفرة محفورة حديثاً

وكان يقول ان عادة الملاحظة رسخت في ذهنهِ وصارت ملكة فيهِ وكانت تهيج عند اول فكر بالسفر حتى انهُ كثيراً ما كان يسير مصحوباً بخريطات وقد كتب عليها موضوع بحثهِ في سيرهِ والامور التي يشاهدها فصار ذهنهُ كقرطاس معد لرسم كل شيء يراهُ من اول وهلة

ولكن مع كل اجتهادهِ ومهارتهِ تصدَّت لهُ موانع كثيرة منعتهُ عن اشهار خريطة طبقات انكلترا وولس التي صنعها ودام على ذلك الى سنة ١٨١٤ حينما تمكن من نشر ثمرة اتعابهِ بمساعدة بعض اصدقائهِ وقد التزم ان ينفق كل ما حصلهُ من صناعتهِ وان يبيع ما لهُ من الاملاك لكي يتمكن من الطوفان في الاماكن البعيدة . ونحو ذلك الوقت فتح مقالع الحجارة بقرب باث نخسر بها والتزم ان يبيع مجموعهُ الجيولوجي للميوزيوم البريطاني وباع ايضاً اثاث بيتهِ ومكتبتهُ ولم يبقِ الاَّ اوراقهُ وخرائطهُ التي لا تنفع احداً غيرهُ. واحتمل كل هذه المصائب والخسائر بصبر جميل ولم ينفك عن البحث برغبتهِ المعتادة وتوفي سنة ١٨٣٩ وهو ذاهب ليحضر مجمع تقدم العلوم البريطاني في برمنهام

اما الخريطة الجيولوجية التي صنعها فانها وان كانت الاولى من نوعها فهي في غاية الدقة حتى يعجز القلم عن وصفها وهي اساس كل ما تلاها من الخرائط الجيولوجية . ولم تزل في الجمعية الجيولوجية شاهدة بفضل مخططها مع ما مرَّ عليها من السنين لاننا اذا قابلناها بالخرائط الحديثة وجدنا بينها موافقة عجيبة في كل الامور الجوهرية . وقد فاتنا ان نذكر ان اهل عصرهِ اقروا لهُ بالفضل ففي سنة ١٨٣١

اهدى اليهِ مجمع لندن الجيولوجي نيشان وُلَسْتن على اكتشافاتهِ الجيولوجية كوحدة طبقات الارض في كل الجهات وتمييزها بما تتضمنهُ من الاحافير . ولقد اجاد من قال انهُ ما من اكتشاف في العالم يضاهي هذا الاكتشاف الاَّ اذا كُشف اصل الحياة . وسيبقى اسم هذا الفاضل مكرَّماً مشرَّفاً ما دام هذا العلم

ومن الذين كانت قوة الانتباه قوية فيهم جدًّا وبلغوا بها شأواً بعيداً هيو ملر الذي درس العلوم برغبة وصبر لا مثيل لهما وكتب تاريخ حياتهِ في كتاب قيم هو غاية في الفائدة ويظهر منهُ ما كان في هذا الانسان من التعويل على نفسهِ . وهاك جملة وجيزة من سيرتهِ وهي انهُ لما كان فتى صغيراً مات ابوهُ غرقاً فلم تمكنهُ الفرص من الدرس على اساتذة كبار الاَّ انهُ طالع كتباً كثيرة فارتشف اليسير من بحر المعرفة من مصادر مختلفة وعاشر اقواماً متنوعة صنَّاعاً ونجارين وصيادين وملاحين واستفاد منهم جميعاً وكان يجول وبيدهِ مطرقة كبيرة يكسر بها الحجارة ويجمع كسرها . وكان في بعض الايام يقضي يوماً كاملا في الغابات متأملاً في مناظرها الجيولوجية . ولما ترعرع وُضع عند بنَّاء ليتعلم صناعة البناءِ وكان مغرماً بها فابتدأ يعمل في مقلع (محجر) فانفتح لهُ باب واسع لتعلم الجيولوجيا في ذلك المقلع وكان يرى فيهِ اموراً كثيرة تدهشهُ بينما لا يرى احد من العاملين شيئاً . فاخذ يقابل بين ما يراهُ من طبقات الارض فيرى ما بينها من المطابقة والمخالفة وما يمتاز بهِ بعضها عن بعض وجرى على هذا النمط معتمداً على بصرهِ وبصيرتهِ وكان رصيناً مجتهداً مواظباً وهذا هو سر نجاحهِ

ومما زاد تعجبهُ وانتباههُ البقايا الآلية التي رآها في الحجارة التي كسرها او في الصخور التي سحلتها امواج البحر كالاسماك والاصداف والاشنان . ودام هذا الموضوع شاغلا عقلهُ سنين عديدة وفي آخرها الَّف كتابهُ في الحجر الرملي الاحمر القديم فحاز بهِ شهرة عظيمة بين

رجال العلم وعدُّوهُ من علماءِ الجيولوجيا . وكان هـذا الكتاب ثمرة اشتغالهِ سنين عديدة قضاها في التفتيش والتنقير بصبر وجـلـد عظيمين. ولقد قال في سيرته التي ألَّفها « اني انسب نجاحي الى اعتمادي في البحث والتنقيب على الصبر الامر الذي يقدر كل انسان ان يجاريني او يفوقني فيهِ ولا ريب عندي ان الصبر اذا استُعمل حق الاستعمال نتجت منهُ نتائج خارقة العادة لا يقدر على بلوغها من كانت لهُ موهبة خاصة »

وجون برون الجيولوجي كان في اوَّل حياتهِ بنَّاءً مثل ملَّر فنبهتهُ الاحافير الكثيرة التي كانت تقع تحت نظرهِ الى درسها فدرسها وجمع منها مجموعاً كبيراً من افضل المجاميع الانكليزية . وهو الذي اكتشف بقايا عظيمة من بقايا الفيل والكركدن واهداها الى المتحف البريطاني . ثم عكف في آخر حياتهِ على درس الاصداف التي في الطباشير واكتشف اكتشافات مهمة في ذلك . وتوفي سنة ١٨٥٩ ولهُ من العمر ثمانون سنة وكان شهماً مفيداً لابناءِ جيلهِ ومكرماً من الجميع

من مدة وجيزة اكتشف السر رُدرك مرتشسن رئيس الجمعية الجيولوجية جيولوجيًّا كبيراً وهو خبَّاز في شمالي اسكتسيا يسمى روبرت دِك ولما زارهُ في فرنهِ رسم لهُ (روبرت دِك) هيئة بلادهِ الجيولوجية بالطحين واشار الى الخطاءِ الذي في الخريطات الموجودة حينئذٍ قائلاً انهُ قد تأكَّد ذلك بطوفانهِ في البلاد في ايام العطلة . وبعد البحث وجد السر ردرك ان ذلك الخباز كان جيولوجيًّا بارعاً ونباتياً من الطراز الاول وهاك ما قالهُ في هذا الصدد وهو انني وجدت ذلك الخباز يعرف علم النبات احسن مما اعرفهُ بعشرة اضعاف وعندهُ مجموع نباتي حاوٍ كل انواع النبات الا عشرين او ثلاثين صنفاً من ذوات الازهار وهو مرتب افضل ترتيب وتحت كل صنف اسمهُ العلمي

اما السر رُدرك مر تشيسن المذكور فعالم مشهور بهذه العلوم واشباهها وهاك ما قالهُ فيهِ بعضهم في جريدة الكورتولي رفيو . قال ان هذا الفاضل كان في اوائل حياتهِ جنديًّا ثم عكف على طلب العلم باجتهاد ورغبة لا مثيل لها فنال شهرة بعيدة واسماً خالداً وذلك لانهُ ابتاع ارضاً قفراء واقام سنين كثيرة يبحث في تركيب صخورها ثم رتبها حسب بنائها الطبيعي مشيراً الى ما في كل طبقة منها من انواع الاحافير . وهو اول من حل قضيتين كبيرتين من تاريخ الارض الجيولوجي وهما تذكار لا يمحى لاسمهِ وعلمهِ ولم يكتفِ بذلك بل جال في بلدان كثيرة وفحصها فحصاً جيولوجيًّا مدققاً واكتشف اموراً كثيرة في هذا الفن ولم يقتصر على علم الجيولوجيا بل عكف على علوم كثيرة حتى صار يعد من اشهر رجال العلم

وهنا يجدر بنا ان نذكر شيئاً من اقوال العرب وطرفاً من ترجماتهم مما يناسب المقام فنقول قال الامام علي كرَّم الله وجههُ « قليل مدُوم عليهِ خير من كثير مملول » وقال ايضاً « من اطاع التواني ضيَّع الحقوق » . وقال الامام الشافعي « احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس »

وقال الشيخ السابوري

وانتهز الفرصة اما مرَّت ۝ فربما طلبتها فاعيت

والامر ان اعيا عليك من علِ ۝ فاطلبهُ قبل فوتهِ من اسفلِ

وقال بعضهم

على المرءِ ان يسعى لما فيهِ نفعهُ ۝ وليس عليهِ ان يساعدهُ الدهرُ

وقال ابن لئون التجيبي

زاحم اولي العلم حتى ۝ تُعدُّ منهم حقيقه

ولا يردك عجز ۝ عن اخذ اعلى طريقه

فانَّ من جدَّ يمضي ۝ في ما يحب لحوقه

وقال ابن سعيد المغربي في وصيته لابنه

ولا تزل محققاً طالباً من دهرك الفرصة في رتبتك
وكلما ابصرتها امكنت ثب واثقاً بالله في مكنتك
ولج على رزقك من بابه واقصد له ماعشت في بكرتك
وانم نمو النبت قد زاره غب الندى واسم الى قدرتك
ولا تضيع زمناً ممكناً تذكاره يذكي لظى حسرتك

وقد اشتهر كثيرون من اهل العربية بانتهاز الفرص فان ابن خلدون المؤرخ المشهور اضطرته احوال السياسة مرة ان يقيم في البادية اربع سنوات فاتخذها فرصة الف في غضونها مقدمته المشهورة واستقصى حينئذ احوال العرب والبربر وزنانة وكتب اخبارهم في تاريخه كما فعل ولتر سكوت عند ما كان في جبال اسكتلندا. ثم انتهز فرصة اقامته بالقاهرة فاكمل تاريخه فيها معتمداً على ما وجده في مكاتبها من الكتب. وياقوت الحموي كان مولاه ينفذه للاتجار الى البلدان البعيدة فانتهز هذه الفرصة وراقب احوال هذه البلدان واثبتها في معجمه. ثم اتجر بالكتب فلم يرض لنفسه ان يحمل اسباب العلم لغيره ولا ينتفع بها هو بل اكب على الدرس حتى احاط بعلوم كثيرة

وقال ابراهيم الموصلي المغني ان اول شيء أعطيته بالغناء اني كنت بالري انادم اهلها وانفق من بقية مال كان معي من الموصل فمر بنا خادم انفذه ابو جعفر المنصور الى بعض عماله برسالة فسمعني اغني فشغف بي وخلع علي دواج سمور له قيمة ومضى بالرسالة ورجع وقد وصله العامل بسبعة آلاف درهم وكساه كسوة فاخرة فجاءني الى منزلي فاقام عندي ثلاثة ايام ووهب لي نصف الكسوة والفي درهم فكان ذلك اول ما اكتسبته بالغناء فقلت لا انفق هذه الدراهم الا على الصناعة التي افادتنيها قال ذلك وفعل ففاق كل المغنين

وممن اشتهر بانتهاز الفرص ومعرفة قيمة الوقت ابن رشد الفيلسوف

الاندلسي المشهور .قال ابن الابار انهُ سوّد في التأليف عشرة آلاف طبق ورقاً وانهُ لم يصرف ليلة من عمرهِ بلا درس او تصنيف الاّ ليلة عرسهِ وليلة وفاة ابيهِ .ويروى ان ابن الصابوني لما صار خازناً للكتب المستنصرية ببغداد لم يرتض ان يكون خازناً للكتب ينتفع بها غيرهُ ولا ينتفع بها هو بل اكبّ على الدرس والتحبير فألف مجمع الآداب في خمسين مجلداً ودر الاصداف في عشرين مجلداً

ومما يدلُّ على الثبات في الاعمال وتوخي اتقانها ان ابن القسيس البغدادي نسخ قانون ابن سينا كلهُ بخطهِ وهو كتاب ضخم يقع في عشرين مجلداً ثم خرجت النسخة منهُ بحكم شرعي وحصلت لخزانة المدرسة المستنصرية فلما اسنّ طلبها وقابلها وصححها واعادها الى مكانها فنسبهُ مبغضوهُ الى فضول ومحبوهُ الى مثوبة يتوخاها . فقال كلا الفريقين مخطىءٌ وانما فعلت ذلك لئلا يزرى عليّ بعد موتي

الفصل السادس

في المصورين والنقَّاشين

قال الشاعر ملتس مامعناه

على الانسان بالدأب اذا أخطا ولم يصب
فان الفضل في الطاب وليس الفضل في الجاب

وقال جوبر . ارتق تحي

لايفوق الانسان غيرهُ الاَّ بالاجتهاد سواءٌ كان في التصوير والنقش ام في غيرهما . ولا يمكن لاحد ان يصور صورة جميلة بالصدفة ولا ان ينقش تمثالاً بديعاً بالاتفاق لان كل لمسة من لمسات قلم المصور وكل ضربة من ضربات ازميل النقاش نتيجة درس متصل . كان من رأي السر يشوع رينلدز احد آحاد المصورين ان كل انسان يقدر ان يكون مصوراً ماهراً ولو نسبت المهارة في التصوير الى الموهبة او العبقرية او العطية السموية . وكتب الى بري يقول « كل من يقصد ان يمهر في التصوير او في اي صناعة كانت يجب ان يوجه كلَّ انتباههِ الى تلك الصناعة من ساعة قيامهِ الى ساعة منامهِ » . وقال في مكان آخر « ان الذين يقصدون ان يمهروا يجب ان يأخذوا في عملهم نهاراً وليلاً إن اختياراً وان قسراً » . اننا لا ننكر ان الاجتهاد والانصباب لا يصيّران الانسان مصوراً اذا لم يكن ذا قريحة للتصوير ولو كانا ضروريين لجعلهِ مصوراً ماهراً . لان النبوغ امر طبيعي ولكنهُ يتقوى بالتهذيب الشخصي الذي هو اقوى من كل تهذيب المدارس

والبعض وهم من اعظم المصورين نبغوا من وسط الفقر والمسكنة ونجحوا رغماً عن الصعوبات الكثيرة المحيقة بهم مثل كلود لورين

الحلواني وتنتورتو الصباغ وكرَفدجو ساحق الاصباغ وكرفدجو حمَّال الطين وسلفاتور روزا رفيق اللصوص وجيتو الفلاَّح وزنكارو الغجري وكافدونا الشحاذ وكنوفا القطاع فهؤلاء وكثيرون غيرهم برعوا بواسطة الاجتهاد تحت اشد المصاعب

والذين اشتهروا في التصوير في البلاد الانكليزية اكثر من غيرهم لم تكن احوالهم افضل من احوال هؤلاء كثيراً فان غنسبرو وباكون ابنا خياطين وبري ابن بحري ايرلندي ومكليز كان صانعاً عند بنكي واوبي ورمني وانيغوجونس كانوا نجارين ووست ابن فلاح ونرثكوت كان صانع ساعات وجكسن خياطاً واتي طباعاً ورينلدز وولسن وولكي اولاد قسوس ولورنس ابن صاحب خان وترنر ابن حلاق. وفلكسمن كان ابوهُ يبيع تماثيل جبسين. وبرد كان ينقش صواني الشاي ومرتن كان يدهن المركبات وريت وغلبن كانا يدهنان المراكب وتشنتري كان حفاراً ومذهِّباً وداود كوكس وستنفيلد وروبرتس كانوا يصورون صور المراسح. فلم يتقدم هؤلاء الرجال كلهم ويمهروا في التصوير بالصدفة ولا بالاتفاق بل بالجهد والتعب والنصب والسهر والارق. والبعض منهم اثروا ولكنهم قلائل جدًّا بالنسبة الى البقية بل لا يمكن ان ينكر الصانع نفسهُ ويعكف على صناعتهِ اذا كان طامعاً بالربح. وما من جزاء انتظرهُ هؤلاء الصناع او نالوهُ الاَّ اللذة التي يجدها كل عامل في عملهِ. اما ما كان يتبع ذلك من الغنى فامر ثانوي لا يعتدُّ بهِ فضلاً عن كونهِ نادراً. وقد آثر كثير من الصناع اتباع ميلهم في اتقان صناعتهم على مساومة الناس. قيل سُئل ميخائيل انجلو ذات يوم عن رأيهِ في مصوّرٍ صوَّر صورة وتعب فيها تعباً جزيلاً قصد الربح فقال سيبقى فقيراً ما دام راغباً في الربح

وكان ميخائيل انجلو هذا يعتقد مثل السر يشوع رينلدز ان كل ما تتصوَّرهُ المخيلة تسطع اليد عملهُ على شرط ان تكون مطيعة للعقل

وكان لا يتعب من العمل ولا يمل ونسب قدرتهُ على مداومة العمل الى بساطة معيشتهِ فانهُ لم يكن يأكل في اكثر الايام الاَّ قليلاً من الخبز والخمر وكثيراً ما كان يقوم في منتصف الليل ويأخذ في عملهِ وهو لابس قلنسوة من الورق الثخين في راسها شمعة مضيئة . وكان ينام احياناً بالثياب التي يلبسها وقت العمل لكي يقوم الى عملهِ حالما يرى انهُ قد استراح . وكان عندهُ صورة مجسمة وهي صورة شيخ في مركبة عليها ساعة رملية وعلى الساعة هاتان الكلمتان Ancora imparo اي لم ازل متعلماً

وتيشان الشهير كان لا يملُّ من العمل وقد عمل في صورة بطرس الشهيد ثماني سنوات وفي صورة العشاء الاخير سبع سنوات. وقال في كتاب ارسلهُ الى الملك كارلوس الخامس انني مرسل الى جلالتكم صورة العشاء الاخير بعد ان عملت فيها سبع سنوات كاملات

وقليلون يعرفون مقدار الصبر والجلد والمزاولة الطويلة التي يقضيها المصور حتى يتمرن على صناعتهِ وتصير فيهِ ملكة او حتى تسهل عليهِ . قال بعضهم لنقاش « اتطلب مني خمسين ديناراً بتمثال عملتهُ في عشرة ايام » فاجابهُ النقاش « الا تعلم انني تعلمت ثلاثين سنة حتى امكنني عمل هذا التمثال في عشرة ايام » . وقيل ان السر اوغسطس كلكوت صنع اكثر من اربعين رسماً قبلما اكمل صورتهُ الشهيرة بصورة روشستر ولا عجب لان التكرار الكثير شرط لازم للنجاح في الصناعة وفي غيرها

ولا بد من العناء الطويل في اتقان الصناعة ولو مهما كانت مواهب الانسان عظيمة وقريحتهُ متوقدة . وكثيرون من الصناع كانوا اذكياء من صغر سنهم ولكنَّ الذين لم يجتهدوا منهم لم ينفعهم ذكاؤهم شيئاً . قيل ان المصور الشهير وست رأى وهو في السابعة من عمرهِ ابن اختهِ نائماً فاخذ قلماً وقرطاساً ورسم صورتهُ بحبر اسود واحمر ثم عكف على الرسم والتصوير حتى صار صرفهُ عنهما متعذراً . ولكنَّ نجاحهُ وهو

صغير اضرَّ بهِ كثيراً لانهُ لم يصادف صعوبات كثيرة ولم تعلمهُ التجارب بل اكتفى بما وصل اليهِ بغير تعب

ورتشرد ولسن كان وهو ولد صغير يمسك فحمة ويرسم بها صور الرجال والحيوانات على جدران بيت ابيهِ وكان مغرماً برسم الاشخاص ولكن حدث مرة وهو في رومية انهُ اتى بيت زكارلي وكان زكارلي غائباً فاخذ يصور الاراضي التي تجاه كوة الغرفة التي كان فيها . ثم اتى زكارلي رأى الصورة فاندهش من حسن منظرها وقال لهُ هل تعلمتَ تصوير الاراضي فاجابهُ كلا فقال لهُ اذن انصحك ان تتعلمهُ واوكد لك انك مصيب نجاحاً عظيماً فانتصح بهذه النصيحة وتعلم هذا الفن وتعب على اتقانهِ تعباً جزيلاً فصار راس مصوري الانكليز في تصوير الاراضي

ولما كان السر يشوع رينلدز صغيراً كان يترك دروسهُ ويلتهي بالرسم وقد نهاهُ ابوهُ عن ذلك مراراً كثيرة فلم يزدد الاَّ ولعاً وانشغافاً وبقي على ذلك حتى صار مصوراً شهيراً . وغنسبرو كان يمضي الى الغابات وهو ولد ويمارس التصوير ولم يبلغ الثانية عشرة حتى صار مصوراً ماهراً . قيل انهُ لم يرَ منظراً يستحق التصوير الاَّ صوَّرهُ . وليم بلاك كان ابوهُ يبيع الجوارب وكان هو يسلّي نفسهُ وهو صغير برسم صور على ظهر قوائم ابيهِ وعلى مائدتهِ . وادورد بردكان يصعد على كرسي وهو ابن اربع سنوات ويرسم على الحائط ما دعاهُ صور الجنود الفرنساوية والانكليزية ولما كبر قليلا وضعهُ ابوهُ عند رجل يصنع صواني الشاي فتعلم هذه الصناعة ثم ارتقى بدرسهِ واجتهادهِ حتى صار من اعضاءِ مدرسة التصوير الملكية . وهوغرس لما كان في المدرسة كان مشهوراً بالكسل وكان متأخراً في دروسهِ الاَّ انهُ كان متقدماً على كل التلامذة في الكتابة وفي تجميل ما يفرض عليهِ المعلم كتابتهُ . ثم وضعهُ ابوهُ عند صائغ فتعلم الرسم على الملاعق والنقش عليها .

واولع بنقش صور الغيلان والتنانين وما اشبه مما كان يستعمله اهل الفروسة سمة لهم ومن ثم تقدم الى رسم الصور البشرية واظهار ما فيها من الامارات فبلغ في ذلك شأواً بعيداً باجتهاده وتدقيقه . وكان اذا رأى صورة غريبة رسخت في ذهنه بكل تفاصيلها حتى يرسمها على القرطاس حينما يريد . ومرّن هذه العادة وقوّاها بالممارسة الطويلة حتى صارت فيه ملكة . وكان اذا رأى صورة بديعة او هيئة نادرة يرسمها حالاً على ظفر ابهامه لكي ينقلها الى القرطاس عند ما تمكنهُ الفرصة وكان يجد لذة خاصة في كل شيء جديد او غريب حتى لم يفت نظره شيء . وكثيراً ما كان يعرّج عن الطريق لكي يرى المناظر الجديدة نخزن في ذاكراته كثيراً من الرسوم والاوصاف التي ظهرت اخيراً في مصنوعاته فلذلك ترى في تصاويره رسماً واضحاً لعادات اهل عصره واخلاقهم وافكارهم . ولقد كان من رأيه ان لا مدرسة لتعليم التصوير الاّ مدرسة الطبيعة . غير انه لم يكن متضلعاً من العلوم والمعارف لانهُ لم يتعلم في المدرسة اكثر من القراءة والكتابة . ولم يكن ذا ثروة لكنهُ كان مقتصداً وكان يفتخر بذلك حتى بعد ان صار من ذوي الشهرة واليسار . وقال من كلام لهُ انني لم انسَ الزمان الذي كنت اطوف فيه في الاسواق منكسر الخاطر صفر اليدين ولكنني كنت اذا حصلت بضعة دنانير تقلدت سيفي ومشيت بين الناس كمن في جيبه الف دينار

قيل ان النقاش بنكس الشهير جعل اشعارهُ هاتين الكلمتين « الاجتهاد والمواظبة » وجرى على موجبهما وحثّ الغير على ذلك . ولقد اشتهر امرهُ باللطف والانس وسداد الرأي واخلاص النصح حتى كان يقصدهُ الشبان ليستنصحوهُ ويستعينوا به . روي ان فتى قصدهُ ذات يوم لهذه الغاية فقرع الباب شديداً فخرجت اليه الخادمة مغضبة وانتهزتهُ واوشكت ان تطردهُ فسمعها بنكس وخرج بنفسه

وقال للفتى ماذا تريد يا ابني فقال يا مولاي ارغب في ان تدخلني الى مدرسة التصوير . وكان بيدهِ بعض الصور التي صورها فقال لهُ بنكس (بعد ان افهمهُ ان ادخال التلاميذ غير منوط بهِ) ارني هذه الصور فاخذها وتروَّى فيها ثم التفت اليهِ وقال لهُ لا تستعجل في الدخول الى المدرسة بل اذهب الآن الى بيتك وواظب على دروسك واجتهد لكي تصور صوراً احسن من هذه وتعال اليَّ بعد شهر وارني تصويرك. فذهب وعكف على التصوير باجتهاد شديد ورجع اليهِ بعد شهر فرأى بنكس ان تصويرهُ صار احسن الآن انهُ نصحهُ لكي يداوم على الدرس والتصوير فرجع اليهِ بعد اسبوع واذا بتصويرهِ قد تحسن كثيراً فطيب قلبهُ وقال لهُ اذا فسح الله لك في الاجل صرت من المصورين العظام وهكذا كان

. ان السبب الاكبر لشهرة كلود لورين اجتهادهُ العظيم فانهُ ولد في شمبانيا من والدين فقيرين ووضع في صباهُ عند حلواني ليتعلم صناعتهُ وكان لهُ اخ اكبر منهُ حرفتهُ حفر الخشب فنقلهُ الى حانوتهِ ليتعلم هذه الحرفة فاظهر فيها مهارةً فائقة . وحدث ان رجلاً مرَّ بهِ وطلب من اخيهِ ان يسمح لهُ باستصحابهِ معهُ الى ايطاليا فقبل طلبهُ وارسلهُ معهُ فوصلا الى رومية ودخل كلود في خدمة اغستينو تسي مصور الاراضي فتعلم منهُ هذه الصناعة . وطاف في ايطاليا وفرنسا والمانيا وكان ينفق من بيع ما يصورهُ في طريقهِ من المناظر الطبيعية. ثم رجع الى رومية فتقاطر الناس عليهِ يطلبون صورهُ فحاز شهرة عظيمة انتشرت في كل اوربا . وكان يقضي جانباً كبيراً من وقتهِ في تصوير الابنية والاراضي والاشجار والاوراق وما اشبهُ ويبقي صورها الى حين الحاجة لكي يدخلها في ما عساهُ ان يصوره . وكان يراقب الجو اياماً كثيرة من الصباح الى المساء ويلاحظ تغيراتهِ بمر السحاب واختلاف النور . وبمواظبتهِ على ذلك مهر في صناعتهِ مهارة فائقة فنال الاسم

الاول بين مصوري الاراضي

وترنر الذي لقب كلود الانكليز لم يكن دون كلود هذا جدًّا واجتهاداً. قيل انهُ كان مراد ابيهِ ان يعلمهُ حرفتهُ وهي الحلاقة ولكن حدث انهُ رسم صورة على صينية من الفضة فرآها واحد من زبناء ابيهِ واعجبهُ منظرها فعزم ابوهُ ان يدعهُ يتعلم التصوير حسب ميلهِ وفعل. فصادف صعوبات كثيرة كغيرهِ من الصناع ولاسيما لضيق ذات يدهِ الاَّ انهُ كان يحب العمل ولا يستعفي منهُ مهما كان حقيراً لانهُ كان يربح بهِ شيئاً من المال ويمهر في صناعتهِ. ومما اشتهر بهِ انهُ لم يتهامل قط في اتقان صورة من الصور ولو كانت اجرتها بخسة بل كان يعمل كل شيء بكل ما يمكنهُ من الاتقان حتى انهُ لم يترك رسماً الا بعد ان اجادهُ اكثر من سلفهِ. ومن يا ترى يشك في نجاح شخص هذا حالهُ. فنجح نجاحاً عظيماً وخلد اسمهُ بما صورهُ ولاسيما في الصور التي وهبها للامة

ولطالما كانت بغية المصورين والنقاشين زيارة رومية لانها مركز ارباب الفنون. والسفر اليها يقتضي نفقة كبيرة والصناع غالباً فقراء الا انهم كثيراً ما كانوا يأتونها رغماً عن كل الموانع كما فعل فرنسوى بَرْيه المصور الفرنسوي الذي تمكن من بلوغها قائداً لشحاذ اعمى وكما فعل جاك كالو الذي كان ابوهُ من اكبر مضاديهِ وممانعيهِ عن تعاطي التصوير الاَّ ان ذلك لم يكن ليثني عزمهُ لانهُ هرب الى ايطاليا ولما لم يكن معهُ نفقة السفر اختلط بقوم من الغجر (النور) وجال معهم من مكان الى آخر شريكاً لهم في السراءِ والضراءِ. ودرس في غضون ذلك هيئات البشر واطوارهم وظهرت نتيجة درسهِ في الصور التي حفرها بعدئذٍ. ولما وصل الى فلورنسا راقت حذاقتهُ في عيني رجل من اعيانها فوضعهُ صانعاً عند حفار الاَّ انهُ لم يقنع بالاقامة هناك بل طلب البلوغ الى رومية فسدد خطواتهِ اليها ولم يلبث ان دخلها حتى

تعرف بيوريجي ونومسين اللذين تنبآ انهُ سيكون من رجال الفن الماهرين لما رأيا الرسوم التي رسمها بالكريون . وصادفهُ هناك احد اصحاب عائلتهِ فالزمهُ ان يرجع معهُ الى بلادهِ واهلهِ وكان قد أُولع بالجولان فترك البيت ثانية وضرب في البلاد فذهب اخوهُ في طلبهِ وارجعهُ قسراً ولما رأى ابوهُ منهُ ذلك سلَّم لهُ مكرهاً بالذهاب الى رومية والدرس فيها . فمضى اليها واقام فيها مدة طويلة وهو يدرس الرسم والحفر على مهرة رجال الفن . ولما كان راجعاً الى فرنسا شجعهُ كسمو الثاني على الاقامة في فلورنسا فاقام فيها سنين عديدة ممارساً صناعتهُ . ولما توفي كسمو المذكور عاد كالو الى بيت ابيهِ في ننسي فاشتهر فيها شهرة عظيمة واثرى اثراء وافراً . ثم لما أُخذت ننسي في الحروب الاهلية طلب منهُ رشليه ان يحفر رسم تلك الحادثة فلم يجبهُ الى طلبهِ لانهُ لم يرد ان يبقي ذكراً لما اصاب وطنهُ من البلايا فلم ينثنِ رشليه عن طلبهِ ولذلك طرحهُ في السجن فوجد في السجن بعضاً من اصحابهِ الغجر الذين سافر معهم . ولما بلغ امر سجنهِ الملك لويس الثالث عشر امر باطلاقهِ ووعدهُ بأن يعطيهُ مهما اقترح عليهِ فلم يقترح سوى ان يطلق سبيل اصحابهِ الغجر ويؤذن لهم في الاستعطاء في باريس فأعطي طلبهُ على شرط ان يحفر صورهم فحفرها وطبعها في كتاب سماهُ الشحاذين. وقد عرض هذا الملك على كالو ثلاثة آلاف جنيه جعلاً سنويًّا على ان لا يباين باريس فلم يرتضِ محبةً بوطنهِ فرجع الى ننسي وواظب على حرفتهِ الى ان ادركتهُ الوفاة فترك وراءهُ ما ينيف على الف وستمائة صورة محفورة وهذا يدل على انهُ كان من احذق الحفارين واكثرهم جلداً وانصباباً هذا فضلاً عما في صورهِ من الدقة والاتقان العظيمين

وهاك سيرة من فاق كل من ذكرناهم في اقتحام المخاطر وهو بنفنيتو سليني الصائغ والمصور وصانع التماثيل والحفار والمهندس والمؤلف . كان ابوهُ جوفاني سليني من اللاعبين على آلات الطرب في بلاط

لورنزو دي مديشي في فلورنسا وكان يود ان يعلّم ابنهُ العزف بالفلوت ولكنهُ لم يلبث طويلاً حتى أُخرج من منصبهِ فاضطر ان يعلمهُ حرفة أُخرى فوضعهُ صانعاً عند صائغ وكانت لهُ رغبة شديدة في الرسم والتصوير فمهر في صناعة الصياغة . وحدث ذات مرة انهُ دخل في خصام حدث في المدينة فنفي من وطنهِ سنةً فذهب الى سينّا وكان يعمل عند صائغ فيها فازداد خبرة في في الصياغة والجوهرية

وكان لم يزل من عزم ابيهِ ان يعلمهُ الغناء فبقي يمارس العزف بالفلوت كرهاً لانهُ لم يكن يلتذ الاَّ بالنقش ثم رجع الى فلورنسا ودرس اعمال ليونردو دا فنشي وميخائيل انجلو ومن ثمَّ قصد رومية ليتقن صناعة الصياغة فاتقنها ورجع الى فلورنسا ولهُ شهرة عظيمة. ولكنهُ كان نزقاً سريع الغضب فوقع في ما الجأهُ الى الهرب من فلورنسا في زي راهب فاتى سينّا وسار منها الى رومية. وصادف في رومية حظاً وافراً وادخل في خدمة البابا كصائغ وموسيقي وكان يدرس مصنوعات امهر رجال الفن ويرصع بالجواهر وينقش الخواتم ويحفر الذهب والفضة والنحاس ففاق كل معاصريهِ ولم يسمع بصائغ مشهور في عمل من اعمال الصياغة الاَّ عزم ان يفوقهُ فيهِ ولم يترك فرعاً من صناعتهِ الاَّ حاز فيهِ قصب السبق . وكان مع اجتهادهِ الجزيل سريع التنقل لانك تراهُ مرةً في فلورنسا واخرى في رومية واخرى في منتوى ثم في رومية فنابولي ففلورنسا فباريس . وكان يسافر من مكان الى آخر على على ظهر الخيل فلم يستطع ان يأخذ معهُ امتعةً كثيرة ولا ادوات ولكن كان حيثما حلَّ صنع الادوات اللازمة له . ولم تخرج من يدهِ قطعة من الحلى كبيرة كانت او صغيرة الاَّ وهي في غاية الاتقان في شكلها وصوغها ونقشها لانهُ كان يصنع كل شيء بيدهِ . قيل ان جرَّاحاً دخل ذات يوم دكان صائغ ليعمل عملية جراحية في يد ابنتهِ فالتفت سليني (وكان مع من حضر) الى سكين الجراح واذا بها ضخمة عديمة

الاتقان فطلب اليهِ ان يتمهل بضع دقائق ثم هرع الى دكانهِ واخذ قطعة من الفولاذ الجيد وصنعها سكيناً جميلة المنظر بديعة الاتقان واعطاها للجراح فعمل العملية بها

ومن اعظم التماثيل التي صنعها سليني تمثال جوبيتر صنعهُ للملك فرنسيس الاول وتمثال فرساوس من النحاس صنعهُ للغران دوق كسمو الفلورنسي وصنع تماثيل اخرى من المرمر لابلو وهياسنثوس ونرسسوس ونبتون . اما تمثال فرساوس فأنهُ صنعهُ اولاً من شمع واراهُ للغران دوق فقال انهُ لمن المحال ان يسبك تمثال من نحاس مثل هذا فدبت الحمية في رأس سليني وقال لابد من ان اسبكهُ هكذا ومضى من ساعتهِ وصنع تمثالاً من الخزف وسواهُ ثم غطاهُ بالشمع وجعل ظاهر الشمع بهيئة التمثال تماماً ثم غطى الشمع بطبقة اخرى من الخزف وشواهُ ثانية في حفرة محفورة تحت الاتون الذي ذرّب فيهِ النحاس فذاب الشمع وترك خلاء بين الخزفين لكي يسكب فيهِ النحاس المصهور . ولكنهُ اوقد حطباً من الصنوبر وهو كثير المواد القلفونية فاحتدمت النار حتى احترق المكان الذي كان العمل فيهِ ثم عصفت الرياح وهطلت الامطار فاخمدت النار ولم يصهر المعدن . فمضى عليهِ ساعات كثيرة وهو يحاول ابقاءها محتدمة وقاسى في ذلك تعباً شديداً فاعيا من شدة التعب حتى خاف ان يقضي نحبهُ قبل ان يكمل سبك التمثال. فترك العمل الى معاونيهِ ومضى الى سريرهِ ولكن لم يمض الاَّ برهة يسيرة حتى دخل واحد منهم وقال لهُ قد فسد كل عملك فهرع لساعتهِ الى الاتون واذا بالنار قد خمدت والمعدن قد جمد فاتى بحطب سنديان يابس من عند جارٍ لهُ واخذ يوقد بكثرة فاحتدمت النار وصهر المعدن الاَّ ان الرياح كانت لم تزل تعصف شديداً والامطار تهطل غزيرة فاقام سترة من الموائد والنُسُج وجاس تحتها يزج بالوقود ثم رمى في الاتون قطعة من اللحام فوق المعدن وحركهُ جيداً فذاب

كلهُ وحان الوقت لسبكهِ في القالب واذا بصوت شديد اشبه بالرعد القاصف ووميض برق لاح امام عينيهِ فالتفت واذا بسدادة الاتون قد انفتحت وانبثقت منهُ الصهارة ولكنها لم تجرِ بالسرعة المطلوبة فاسرع الى المطبخ واخذ كل آنيتهِ النحاسية والمصنوعة من القصدير والرصاص وكانت تنيف على مائتي اناء وطرحها في الاتون فاستقام جريان الصهارة وهكذا سبك تمثال فرساوس الشهير . واسراع سليني الى المطبخ وتعريتهُ اياهُ من آنيتهِ يذكرنا بما فعلهُ بالسي لما حرق اثاث بيتهِ كما تقدم في الفصل الثالث

وممَّن لهم المقام الاول بين المصورين نيقولا بوسن الذي كان من كبار العقول الرائعي المناقب . وهاك طرفاً من سيرتهِ . ولد في اندليس قرب روان . وكان ابوهُ يعلّم في مدرسة صغيرة فتعلم فيها الاَّ انهُ كان يتغاضى عن دروسهِ ويقضي اكثر وقتهِ في التصوير على حواشي كتبهِ . فحدث ان مصوراً رأى صورهُ فاعجبتهُ وطلب من والديهِ ان لا ينهياهُ عن التصوير ثم اخذ يتعلم عند هذا المصور فنجح نجاحاً عظيما حتى انهُ فاق معلمهُ . وكان قد زاد ولعهُ بهذا الفن فترك معلمهُ ومضى الى باريس وهو اذ ذاك ابن ثماني عشرة سنة وكان يحصل ما يقوم بمعيشتهِ من تصوير ارمات الحوانيت . فصادف في باريس ميداناً واسعاً للتصوير والنقش ووجد فيها ما اذهلهُ فدخل مجامع التصوير ونقل صوراً عديدة ولم يلبث طويلاً حتى عزم على زيارة رومية ام المدائن ومرضعة المصورين فحرك ركابهُ نحوها ولكنهُ عجز عن البلوغ اليها وابعد مكان وصل اليهِ فلورنسا فاقام فيها مدة يسيرة ثم قفل راجعاً الى باريس وبعد قليل سدد خطواتهِ مرة اخرى نحو رومية فلم يمكنهُ ان يتخطى ليون الاَّ انهُ لم يدع باباً يستفاد منهُ الاَّ قرعهُ ولم يترك ينبوعاً يستقى منهُ الاَّ وردهُ . ومضى عليهِ اثنتا عشرة سنة يعمل في اتقان فن التصوير وهو بين تصويب وتصعيد الى ان

ساعدتهُ التقادير فاتى رومية العظمى واجال طرفهُ مليًّا في اعمال ارباب الفن ولاسيما في التماثيل القديمة العهد . واقام عند دوكانوى النقاش الشهير وساعدهُ في تمثيل اشهر تماثيل رومية القديمة. ودرس في غضون ذلك علم التشريح ومارس تصوير الاشخاص وطالع مؤلفات كثيرة في فن التصوير استعارها من اصحابها . وكان كل هذه المدة على غاية الفقر الاَّ انهُ لم يضجر من ذلك لانهُ كان يتقدم في اتقان الفن . وكان يبيع صورهُ باي ثمن كان فباع صورة نبي بثمانية جنيهات وباع صورة الوباء الذي اصاب الفلسطينيين بستين ريالاً وقد بيعت هذه الصورة ثانية للكردينال ده رشليه بالف ريال. ثم اعتراهُ مرض شديد فوق ما المَّ بهِ من التعب فانهك جسمهُ ولكن رزقهُ الله من اعتنى بهِ وهو الشافليه دل بُسُّو فلما نقه صوَّر لهُ صورة الراحة في البرية مجازاةً لهُ على اعتنائهِ بهِ فوفاهُ واوفى. ولم يكتفِ بما حازهُ من النجاح فانطلق الى فلورنسا والبندقية ووسع دائرة معارفهِ فظهرت ثمار جهادهِ في صور كبيرة اخذ في تصويرها نحو ذلك الوقت. منها صورة موت جرمانيكس وصورة المن وغيرهما من الصور الشهيرة . فاشتهر صيتهُ ولكن بطيئاً لانهُ كان مائلاً الى العزلة ومجانبة الناس حتى وصفهُ بعضهم بالتفكير اكثر مما وصفهُ بالتصوير فانهُ كان يقضي اوقات العطلة جائلاً في البراري متأملاً في كيفيات جديدة للتصوير. وكان يحب رومية ويفضلها على ما سواها لان ليس فيها تغيرات كثيرة تزعج البال فآلى على نفسهِ انهُ اذا حصَّل فيها ما يقوم بمعيشتهِ لا ينتقل الى غيرها .وكان في هذا الوقت قد انتشر صيتهُ الى خارج رومية وعُرض عليهِ ان يرجع الى باريس ويكون رأس مصوري الملك فتردد في اول الامر في قبول هذه الدعوة قائلاً انهُ عاش خمس عشرة سنة في رومية وتزوج فيها فلا ينتظر الاَّ دنو الاجل ولكن كثر الالحاح عليهِ فترك رومية وعاد الى باريس فصادف فيها الجم الغفير من الحاسدين وود الرجوع الى رومية.

وصوّر مدة اقامتهِ في باريس صوراً عديدة مثل صورة القديس زفير وصورة المعمودية وصورة العشاء الاخير وكان يصور كل ما يطلب منهُ مثل الصور التي توضع في فاتحة الكتب الملكية والرسوم اللازمة لنقش اللوفر والبسط وغير ذلك فتشكى الى دوشنتلوب قائلاً « انني لا استطيع القيام بهذه الاعمال كلها على اختلاف انواعها لان ليس لي الاَّ يدان ورأس ضعيف ولا احد يساعدني ويخفف اتعابي »

قلنا ان نجاحهُ في باريس اهاج عليهِ كثيرين من الحاسدين فلم تطب لهُ الاقامة فيها ولذلك تركها حالما سنحت لهُ الفرصة ورجع الى رومية وسكن في بيتهِ القديم على تل بنشيو وواظب على صناعتهِ باجتهاد وكان يعيش بالبساطة ويقضي القسم الكبير من وقتهِ في المطالعة. وقال من جملة كلام لهُ انني كلما اتقدم في السن تزيد رغبتي في احراز الدرجة العليا بين المصورين. فدام على اجتهادهِ الى ان حضرتهُ الوفاة سنة ١٦٦٥ ولم يخلف ولداً وكانت زوجتهُ قد توفيت قبلهُ فارسلت تركتهُ الى اقربائهِ في أندليس وكانت تبلغ عشرة آلاف ريال

ومن المتأخرين الذين تستحق سيرهم ان تدون في بطون التاريخ اري شفر الذي وقف نفسهُ على فن التصوير . ولد في درترخت من والد الماني حرفتهُ التصوير فاظهر في حداثتهِ ميلاً الى هذا الفن ومات ابوهُ وهو حدث فانتقلت بهِ امهُ الى باريس لكي تمكنهُ من الدرس فيها مع انها لم تكن من ذوي اليسار فباعت كل حلاها وانكرت على نفسها كل تنعم لكي يمكنها ان تقوم بتعليم اولادها . فوضعتهُ عند غرن المصور ولكن لم يمكنها ان تسمح لهُ بتخصيص كل وقتهِ لتعلم التصوير . فلما بلغ الثامنة عشرة شرع يصور صوراً صغيرة ويبيعها باثمان بخسة فراجت رواجاً عظيماً . ومارس ايضاً تصوير الاشخاص فربح وتقدم في اتقان صناعتهِ . واول صورة عرضها واشتهر بها صورة المعمودية . وما زال يتقدم في صناعتهِ الى ان بلغ صيتهُ

الدرجة العليا ولا سيما حينما صوَّر صورة الفوست وصورة فرنسيسكا ده ريميني وصودة يسوع المعزي وصورة النساء القديسات وصورة القديسة مونيكا والقديس اوغسطينوس وغيرها

قال المستر غروت ان مقدار التعب الذي كابدهُ شفر في عمل صورة فرنسيسكا يفوق الوصف وذلك لان معرفتهُ باصول العلوم اللازمة لفن التصوير كانت نزرة جدًّا حتى اضطر ان يتسلق في عراقيبها الشاهقة وليس لهُ دليل سوى عقلهِ الثاقب . وكان عليهِ ان يجرب اموراً كثيرة في تركيب الالوان قبل ان يصل الى المطلوب . وكثيراً ما كان يصور الشيء ثم يمحوهُ ويصورهُ ثانية وثالثة حتى يوافق ذوقهُ . فكان الطبيعة قد وهبتهُ قوة الصبر والمزاولة بدل نقص معارفهِ

ومن الصنَّاع الذين كان شفر يُعجب بهم فلكسمن قال مرة لاحد اصحابهِ اذا كنتُ قد اقتبست شيئاً في صورة فرنسيسكا وان يكن عن غير قصد فمن صور فلكسمن . اما فلكسمن هذا فهو ابن رجل فقير حرفتهُ بيع تماثيل الجبسين وكان في صغرهِ نحيف الجسم فكان يوضع في دكان ابيهِ ويُسند بالمساند ويتسلى بالقراءة والرسم. وحدث ذات يوم ان زار دكان ابيهِ القس متيوس وهو رجل فاضل فرأى هذا الولد عاكفاً على قراءة كتاب فتطلع واذا الكتاب نسخة من كُرنيليوس نبوس اشتراها لهُ ابوهُ من بعض المكاتب فتحدث معهُ قليلاً ثم قال لهُ ان هذا الكتاب لا تناسبك قراءتهُ ولكني سآتيك بكتاب افضل منهُ فاتى في اليوم التالي وبيدهِ نسخة من هوميروس ونسخة من دون كوزوت فقرأهما بلذة وللحال شغفت قلبهُ حماسة هوميروس وكان في دكان ابيهِ كثير من التماثيل التي تشخص اجكس واكلس فعزم ان يصور صور الابطال الذين قرأ سيرهم . فكانت هذه الصور خالية من كل اتقان مثل صور غيرهِ من الاحداث المبتدئين .

وفي احد الايام اخذ ابوهُ هذه الصور واراها لروبلياك النقاش فتأفف من رؤيتها ولكن ما كان ذلك ليوهن عزم فلكسمن بل زادهُ رغبة وما لبث ان صار يصنع تماثيل من الجبسين والشمع وبعض هذه التماثيل باقٍ تذكاراً لاول اثمار قريحتهِ

ثم ان القس متيوس المتقدم ذكرهُ دعاهُ الى بيتهِ فقرأ على امرأتهِ هوميروس وملتون وعلَّماهُ كلاهما اليونانية واللاتينية وكان تصويرهُ قد تحسن في هذا الوقت حتى ان احدى السيدات طلبت منهُ ان يصور لها ست صور تشخص اموراً مذكورة في هوميروس فصنعها واجاد فاعطتهُ اجرةً حسنة واثنت عليهِ ثناءً جميلاً وكانت هذه الاجرة باكورة ما كسبهُ من التصوير

ولما بلغ الخامسة عشرة تتلمذ في مدرسة التصوير الملكية وفي وقت قصير اشتهر امرهُ بين الطلبة مع انهُ كان يحب العزلة فانتظروا منهُ اموراً كثيرة ولم يخب انتظارهم لانهُ نال الجائزة الفضية وهو في الخامسة عشرة وكان في السنة التالية بين المستحقين الجائزة الذهبية وظن الجميع انهُ سينالها ولكن نالها تلميذ آخر لم يعرف عنهُ شيء بعد ذلك . واستفاد فلكسمن كثيراً من خيبتهِ هذه لان الفشل لا يوهن عزم اولي الهمة بل يزيدهم حزماً واقداماً فاسمع ما قالهُ لابيهِ حينئذٍ قال «اعطني وقتاً فاصنع اعمالاً تفتخر بها مدرسة التصوير». ثم اخذ يرسم ويصور باجتهاد لا يفوقهُ اجتهاد ولكن كان بيت ابيهِ في ضنك عظيم لان تجارة التماثيل الجبسينية لم يكن منها ربح كافٍ فطرح هوميروس جانباً واخذ يسعف اباهُ في عملهِ فتدرب على احتمال المشقات واستقبالها بالصبر الجميل

وحدث ان شهرتهُ في الرسم طرقت اذني يوشيا ودجود الخزاف المار ذكرهُ في الفصل الثالث فاستدعاهُ لكي يصنع لهُ رسوماً للخزف الصيني الذي كان يصنعهُ . وربما ظهر ان هذا العمل لا يليق بمصور

ماهر كفلكسمن وليس الامر كذلك لان الآنية التي يقع نظر الناس عليها دائماً تفيدهم رؤيتها ماديا وادبيّا اكثر من الصور الثمينة التي تباع بالوف من الدنانير لتعلق في بيت رجل غني حيث لا يراها الاّ قليلون . وكانت رسوم الآنية الخزفية قبل ايام ودجود بل قبل ان استخدم فلكسمن شنيعة الى الغاية فابدلها فلكسمن برسوم جديدة تمثل اشخاصاً وحوادث مذكورة في كتب الاقدمين . واقتبس امثلة من الكؤوس الاترسكانية ونقشها نقشاً جميلاً .وحينئذٍ نشر ستورت كتابهُ عن اثينا وفيهِ رسوم الآنية فاقتبس فلكسمن اجملها منظراً وتفنن في رسمها ونقشها فوضح لهُ انهُ عاملٌ عملاً ذا طائلٍ لا يقل عن تهذيب الجمهور كلهِ . وكان يفتخر عند ما تقدم في السن انه هذب ذوقهُ بهذا العمل وبث محبة التصوير والرسم في اذهان العامة وكسب مالاً غير قليل واغنى ودجود مستخدمهُ

وسنة ١٧٨٢ ترك بيت ابيهِ واستأجر بيتاً صغيراً ثم تزوج بفتاة تدعى حنة دَنمَن وكانت تحب الشعر والتصوير وتعجب بمهارة زوجها. ويقال ان السر يشوع رينلدز المصور الشهير التقى بفلكسمن بعد زواجهِ بايام قليلة وقال لهُ بلغني انك تزوجت فاذا كان الامر كذلك فلم تعد من رجال الفن . وكان رينلدز عزباً . فمضى فلكسمن الى بيتهِ وجلس الى جانب امرأتهِ وقال لها ألاَ ترين يا حنة اني قد عدمت صناعتي فقالت من اعدمكها قال انتِ قالت وكيف ذلك اصدقني الخبر فقصّ عليها ما قالهُ لهُ السر يشوع رينلدز واخبرها بما يرتئيهِ وهو ان من يقصد اتقان الفن يجب ان يصب كل قوى عقلهِ عليهِ من الصباح حتى المساء وانهُ لا يتسنى لاحد ان يكون من رجال الفن الماهرين مالم يذهب الى رومية وفلورنسا ويشاهد اعمال رافائيل وميخائيل انجلو وغيرهما ثم التفت اليها وقال وانا مرادي ان اكون ماهراً . فقالت وستكون وتزور رومية ان كان ذلك لابد منهُ للمهارة. قال وبمَ قالت بالاجتهاد

والاقتصاد لاني لااريد ان يقال ان حنة دمن اعدمت يوحنا فلكسمن صناعتهُ. فقال اذن امضي الى رومية وتكونين معي وسوف اري الرئيس (يريد بهِ ريلندز لانهُ كان رئيس مدرسة التصوير) ان الزواج يأول الى خير الرجل لا الى ضرهِ

فبقيا خمس سنوات في بيتهما الصغير واضعين زيارة رومية نصب اعينهما ولم ينفقا درهماً واحداً في غير محلهِ بل كانا يذخران كل ما يمكنهما ذخرهُ لينفقاهُ في ذلك السفر الطويل ولم يكاشفا احداً بما اضمراهُ ولم يطلبا مساعدة المدرسة بل اعتمدا على عمل ايديهما وميل قلبيهما . ولم يكن فلكسمن قادراً على ابتياع المرمر ونقش التماثيل المبتكرة ولكنهُ صنع عدة تماثيل مما يوضع فوق اللحود حسب طلب اهلها فكسب بها ما يكفي لنفقة بيتهِ وذخر اجرتهُ التي كان يأخذها من ودجود

ولما صار لديهِ ما يكفيهِ للسفر قام هو وامرأتهُ وتوجها الى رومية ولما وصلاها اخذ ينسخ المصنوعات القديمة ويبيع ما ينسخهُ للزوار وفي ذلك الوقت رسم هوميروس واسكيلوس ودنتي وباع كل رسم بخمسة عشر شلناً وصنع رسماً لكوبد (اله الحب) واورورا (الهة الفجر) وصنع صورة فوري (الهة النقمة) ثم اخذ يتأهب للرجوع الى انكلترا لانهُ كان قد نال بغيتهُ . وقبلما ترك ايطاليا انتخبتهُ جمعيتا فلورنسا وكارارا عضواً فيها . ولما وصل الى لندن وجد ان شهرتهُ قد سبقتهُ اليها وان اعمالاً كثيرة مهيأة لهُ منها التمثال العظيم الشهير الذي صنعهُ لينصب فوق لحد لورد منسفيلد في وستمنستر ولم يزل هذا التمثال تذكاراً لمهارة فلكسمن . قال بنكس النقاش وهو في معظم شهرتهِ عند ما رأى هذا التمثال «قد قصَّرنا كلنا عن هذا القصير» يريد بهِ فلكسمن

ولما سمع اعضاء مدرسة التصوير الملكية برجوعهِ ورأوا ما اذهلهم من المهارة التي اظهرها في تمثال منسفيلد طلبوا اليهِ بلجاجة ان يدخل

بينهم عضواً ولم يمض عليهِ الاَّ وقت قصير حتى انتخب استاذاً للنقش في المدرسة الملكية ولم يكن اليق منهُ لهذا المنصب كيف لا وقد حصل كل ما حصلهُ بالسعي والاجتهاد متغلباً على ما حال دونهُ من المصاعب

وعاش فلكسمن زماناً طويلاً في الراحة والتوفيق ولم يكدر صفاء عيشهِ الاَّ موت امرأتهِ وعاش بعدها سنين عديدة صنع فيها شيئين من اعظم ما صنعهُ وهما ترس اكاس وتمثال ميخائيل رئيس الملائكة قاهراً الشيطان

وهاك ترجمة نقاش آخر وهو تشنتري الشهير الذي كان يفخر بانهُ تغلب على الصعوبات الكثيرة المحدقة بهِ باجتهادهِ . مات ابوهُ وهو صغير فتزوجت أُمهُ وكان عملهُ حينئذٍ ان يحمل حماراً وَطَبي لبن ويسوقهُ الى شفيلد فيبيعهما فيها ولكنَّ زوج أُمهِ تذمر من وجودهِ في بيتهِ فوضعهُ صانعاً عند بدَّال (بقَّال) فمرَّ يوماً امام دكان نقاش ينقش الخشب ويذهبهُ فرأى فيهِ من المصنوعات المذهَّبة ما اذهلهُ فاحب ان يتعلم هذهِ الصناعة واخذ يتوسل الى اقاربهِ لكي يضعوهُ عند النقاش فاستحسنوا ذلك ووضعوهُ عندهُ صانعاً ليتعلم النقش والتذهيب على شرط ان يبقى عندهُ سبع سنوات وكان يقضي كل ساعات العطلة في الرسم والتمثيل والدرس حتى انهُ كان يحيي جانباً كبيراً من الليل في مثل ذلك. ولما بلغ الحادية والعشرين وكان لم ينتهِ الاجل المعين لبقائهِ تلميذاً عند معلمهِ دفع لهُ كل ما كان يملكهُ حينئذٍ وهو خمسون جنيهاً لكي يفاسخهُ العقد الذي بينهما ففسخهُ وانطلق الى لندن واخذ يعمل عند نقاش فيها وكان يمضي اوقات الراحة في درس فن التصوير والتمثيل. ومن جملة الاعمال التي عملها وحدهُ نقش غرفة المائدة لرجرس الشاعر . وكثيراً ما كان يدعى بعد ان اشتهر امرهُ ليأكل في تلك الغرفة فكان يري المدعوين معهُ عملهُ الذي عملهُ في اوائل حياتهِ

ثم اقتضى عمله ان يذهب الى شفيلد فذهب اليها واعلن في الجرائد انهُ يصوّر الناس بالكربون وبالزيت واول صورة صورها بالكربون باعها بجنيه انكليزي واوّل صورة صوّرها بالزيت باعها بخمسة جنيهات وحذاء. ثم رجع الى لندن ليدرس في المدرسة الملكية ولم يلبث طويلاً حتى عاد الى شفيلد واعلن في الجرائد انهُ يصنع تماثيل الناس بالجبسين ويصورهم تصويراً. فطلب منهُ ان يعمل تذكاراً لقسيس متوفّى فعملهُ عملاً متقناً. ولما كان في لندن صنع تمثال رأس الشيطان لكي يعرضهُ في معرض التصوير وهو اول مبتكراتهِ وكان في غاية المهابة والغرابة. قيل ان صاحباً لهُ زارهُ في اواخر حياتهِ والتفت الى هذا الرأس فاندهش من منظرهِ فقال تشنتري ان هذا الرأس اول مصنوعاتي في لندن وقد صنعتهُ وانا ساكن بين السقف والقرميد وعلى رأسي قلنسوة من الورق ولم يمكني حينئذٍ ان اشتري اكثر من شمعة واحدة فكنت اركزها في قلنسوتي لكي تدور معي كيفما درت. ولما عرض هذا الرأس في معرض المدرسة الملكية رآهُ فلكسمن المار ذكرهُ فاعجبهُ حسن صنعتهِ وكان قوم يطلبون منهُ نحّاتاً ليعمل اربعة تماثيل نصفية لاربعة قواد فاشار عليهم بتشنتري فعمل التماثيل واجاد. وحينئذٍ دعي لعمل تماثيل أُخرى فترك فن التصوير واخذ في النحت مع انهُ كان قد استعمل النحت قبل ذلك ثماني سنوات ولم يكسب منهُ اكثر من خمسة جنيهات. ومن اشهر ما نحتهُ راس هورن توك وكان هذا التمثال سبباً لتشغيلهِ باثني عشر الف جنيه. فعُدَّ بين مهرة النحاتين واختير من بين ستين نحاتاً لعمل تمثال الملك جورج الثالث لمدينة لندن. وبعد ذلك بقليل عمل التمثال البديع تمثال الاولاد النائمين. ومن ثم اخذ صيتهُ ينتشر في الآفاق وشهرتهُ تزيد يوماً فيوماً. وقد نال كل ما نال بالصبر والمواظبة. نعم انهُ كان ذا موهبة طبيعية فائقة ولكنهُ اجتهد في استعمالها حق الاستعمال. وقد ادخل البساطة

التامة في جميع مصنوعاتهِ فان تمثال وط الذي صنعهُ لكنيسة هنسورث بلغ فيهِ الدرجة القصوى من الاتقان والبساطة. وكان كريماً على ابناء فنهِ ووهب الجانب الاكبر من تركتهِ لمدرسة الفنون الملكية لترقية فن التصوير والنحت

وهاك مثالاً آخر للاجتهاد والمواظبة في حياة داود ولكي المصور وهو ابن قسيس اسكتلندي. فقد لاحت عليهِ منذ حداثتهِ امارات الذكاء والميل الى فن التصوير فكان يمضي اكثر اوقاتهِ في رسم الوجوه والاشكال مغتنماً كل فرصة لذلك فكنت ترى جدران البيوت ورمال الانهار مغطاة برسومهِ. وكان يستعمل كل قلم صادفهُ ولو قطعة من الفحم ويصور على كل سطح وجدهُ ولو صخراً املس. وقلما زار بيتاً الاّ رسم شيئاً على جدارهِ علامة لمجيئهِ اليهِ ولو على غير ارادة صاحبة البيت. وكان ابوهُ يكره هذه الصناعة محرماً اياها ولكن ما كان ولكي ليرتدع بردع ابيهِ لهُ بل اعطى نفسهُ هواها وركب مركباً خشناً محفوفاً بالمصاعب. فعرض نفسهُ عضواً على مدرسة الفنون في ايدنبرج فرفض لان صورهُ كانت بعيدة عن الاتقان فاخذ يجتهد في اتقان التصوير الى ان قُبل فيها. وكان نجاحهُ بطيئاً جدًّا الاّ انهُ عقد قلبهُ على النجاح التام فنجح ولم يقتدِ بغيرهِ من الشبان الذين لا يبالون بالاجتهاد لزعمهم ان لهم موهبة فائقة بل كان ينسب كل نجاحهِ الى اجتهادهِ الدائم. ثم عزم على المجيء الى لندن لان فيها باباً واسعاً للعلم والعمل فاتاها وصوَّر فيها صورتهُ المسماة بڤلدج بوليتيشنس (اي رجال السياسة القرويين) فراقت هذه الصورة في عيون الجمهور وفتحت لهُ باباً واسعاً للعمل ولكنهُ بقي فقيراً وذلك لانهُ كان يقيم وقتاً طويلاً على تصوير كل صورة حتى مهما كان ثمنها كثيراً يصير قليلاً نظراً الى الوقت الذي يضيعهُ فيها. ووضع لنفسهِ قاعدة مثل قاعدة رينلدز وهي ان كل ما يستحق ان يصنع يجب ان يصنع جيداً. وكان يكرهُ

المصورين الثرثارين ويقول ان المتكلم يزرع والساكت يحصد. ويوبّخ الذين يلهونهُ بالحديث بقولهِ لهم هلموا نعمل عملاً ما. وقال مرة لاحد اصحابهِ انني لما كنت ادرس في المدرسة الاسكتسية كان من عادة المعلم غراهم ان يقول لنا بكلام رينلدز اذا كان لكم موهبة فالاجتهاد يقويها وان لم يكن لكم موهبة فالاجتهاد يقوم مقامها ولذلك عزمت ان اكون مجتهداً الى الغاية القصوى لانني اعلم ان ليس لي موهبة

وهاك مثالا آخر للاجتهاد العظيم والمواظبة المستمرة في حياة وليم أتي وهو ابن صانع كعك وامهُ ابنة صانع حبال وقد وُضع في صغرهِ عند طبّاع ليتعلم صناعة الطباعة ولكنهُ كان يغتنم كل فرصة ويمارس الرسم فكان يملأ الحيطان برسومهِ ولو بفحمة. ولما انتهت مدة تلمذتهِ للطباع عزم ان يتبع ميلهُ الطبيعي فساعدهُ عمهُ واخوهُ حتى طلب في مدرسة الفنون الملكية ولم يكن ذكيًّا الاَّ انهُ كان مجتهداً فارتقى باجتهادهِ الى اسمى المراتب

ان اكثر الصناع قاسوا مشاق عظيمة واحتملوا ضنك المعيشة الشديد قبل ان نجحوا النجاح المطلوب وكثيرون منهم برَّحت بهم المصائب ولم تنفرج حتى اوردتهم حتفهم. مثال ذلك ان مرتن المصور اصابتهُ ضيقات شديدة قلَّ من اصابهُ نظيرها لانهُ مراراً كثيرة اوشك ان يموت جوعاً وهو يصور الصورة الاولى الكبيرة. روى بعضهم انهُ لم يكن في كيسهِ الاَّ شلن واحد وكان قد عني بحفظهِ لانهُ وجدهُ لامعاً اكثر من غيرهِ ثم اضطرَّ ان يبتاع بهِ خبزاً لسد رمقهِ فمضى الى الخباز واشترى بهِ خبزاً وهمَّ بالخروج فنظر الخباز واذا بالشلن زائف فردهُ عليهِ واخذ منهُ الخبز. فرجع الى منزلهِ منصدع الفؤاد واخذ يفتش في مزودهِ عساهُ ان يجد شيئاً من فتات الخبز يسد بهِ رمقهُ. وقد احتمل هذا الضنك الشديد بالصبر الجميل وجدَّ في عمل الصورة

حتى اكملها وعرضها وللحال اشتهر امرهُ بها وصار يعدّ بين المصورين العظام. وحياة هذا الرجل تبين كما تبين حياة سائر المصورين ان الموهبة المعززة بالاجتهاد تكفي للنجاح مهما كانت الاحوال ضيقة وان الشهرة وان تأخرت فلا بدّ من ان ينالها مَن يستحقها

وافضل الوسائل التي تستعملها مدارس الفنون لا يمكنها ان تجعل الانسان مصوراً ماهراً ما لم يجتهد هو في ذلك. وهذا الامر يصدق على كل نوع من العلوم والفنون. يروى او بوجن المهندس البناء قال بعد ان تعلم من ابيهِ كل ما كان يعرفهُ من صناعة الهندسة المعمارية انهُ لا يعرف الاّ شيئاً يسيراً وانهُ يجب عليهِ ان يبتدئ من الاول فاخذ يعمل كمهندس بسيط في بعض المراسح وتقدم رويداً رويداً الى ان صار يعمل الاعمال الدقيقة ثم لما اغلق المرسح الذي كان يعمل فيهِ اخذ يتاجر في سفينة شراعية بين انكلترا وفرنسا وكان كلما سنحت لهُ الفرصة يرسم ما يقع نظرهُ عليهِ من الابنيةِ القديمة كالاديرة والصوامع والكنائس وكان يضرب في البلاد طويلاً لهذا المقصد وما زال على مثل ذلك حتى بلغ درجة عليا بين ارباب هذا الفن

ومن قبيل ذلك نجاح جورج كمب راسم مدفن سكت الشهير فانهُ ابن راعٍ فقير مقامهُ بين تلال بنتلند وهناك تربى غير متمتع برؤية شيء من الفنون ولما بلغ السنة العاشرة ارسلهُ صاحب الغنم التي كان يرعاها ابوهُ الى رزلين فراى قلعتها وكنيستها الشهيرتين واندهش من حسن منظرهما وبقيت صورتهما في ذهنهِ زماناً طويلاً. ثم طلب من ابيهِ ان يضعهُ صانعاً عند نجار ففعل ولما انتهت ايام تعلمهِ مضى الى غلاشيلس يطلب عملاً واذ كان مارًّا في وادي نهر تويد وادواتهُ في صندوق على ظهرهِ مرت بهِ مركبة فسألهُ السائق اين تقصد فقال انهُ ذاهب الى غلاشلس فاشار اليهِ ان يصعد الى المركبة فصعد واذا بالسر ولترسكوت راكب فيها وكان هو الذي امر السائق ان

يصعده الى المركبة . ولما كان يعمل في غلاشلس سنحت له فرص كثيرة لزيارة الاديرة القديمة والاطلاع على ما فيها من صناعة البناء . فطاف في اكثر شمالي انكلترا ولم يترك بناءً غوطيًّا الاَّ زارهُ ورسمهُ بعد ان نظر فيهِ نظراً دقيقاً . ولما كان في لنكشير ذهب الى يورك ماشياً وذلك مسافة خمسين ميلاً وبقي اسبوعاً كاملاً وهو يمعن نظرهُ في بناءِ كنيستها الكبيرة ثم رجع ماشياً . وبعد ذلك انتقل الى غلاسكو واقام فيها اربع سنوات وكان يذهب الى الكنيسة الكبرى كلما مكنتهُ الفرصة وينظر في بنائها. ثم انتقل الى الجنوب ودرس كنائس كنتربري وونشستر وتنترن وغيرها من الابنية الشهيرة . وسنة ١٨٢٤ عزم على الطوفان في اوربا لهذه الغاية وكان يعول نفسهُ على الطريق من عمل يديهِ فوصل الى بولون ومنها الى باريس فاقام فيها بضعة اسابيع وكان يرسم كل ما ظنهُ يستحق الرسم وكان ماهراً في عمل الآلات والمطاحن فوجد عملاً يعمل بهِ حيثما توجَّه وكان يفضل الاقامة قرب بناء غوطي قديم لكي يمعن النظر فيهِ كلما سنحت لهُ الفرصة . فبقي سنة في هذه السياحة ثم انقلب راجعاً الى اسكتلندا وواظب على بحثهِ حتى صار ماهراً في الرسم. وكانت خرائب دير ملروز احب الخرائب اليهِ وقد رسم لها رسوماً عديدة ثم اخذ يرسم رسوماً لواحد كان شارعاً في طبع كتاب مصور على مبدإِ كتاب برتون في آثار الكنائس وكان هذا العمل يلذ لهُ جدًّا وقد عمل فيهِ برغبة شديدة واضطر ان يطوف في نصف اراضي اسكتلندا لاجلهِ الاَّ ان المؤلف مات فجأة وتوقف عمل الكتاب فطلب كمب باباً آخر للرزق . ولم يشتهر امرهُ كثيراً مع ما وصل اليهِ من المهارة واتساع العلم وطول الباع لانهُ كان يميل الى الصمت وعدم التظاهر ولو بما في الواقع . ولما عينت لجنة مدفن سكت جائزة لمن يرسم الرسم الافضل لذلك المدفن اختير رسمهُ من بين رسوم كثيرة صنعها امهر صناع العصر فأُرسل اليهِ كتاب يعلمهُ باختيار رسمهِ

ولكنهُ لم يعش بعد ذلك الاَّ وقتاً قصيراً ولم يرَ شيئاً من ثمار اتعابهِ العظيمة راسخة في حجارة ذلك المدفن الذي هو اعظم مدفن اقيم لرجل من رجال الانشاء

ومن المشهورين بين ارباب الفن جون جبسن . كان ابوهُ بستانيًّا فرأى ميلهُ الى التصوير والنقش في الخشب مما كان ينقشهُ بسكين صغيرة فارسلهُ الى لفربول ووضعهُ صانعاً عند نقاش خشب فاتقن هذه الصناعة في وقت قصير وادهش الجميع بجمال منقوشاتهِ ثم انتقل من نقش الخشب الى نحت التماثيل في الحجارة . ولما كان ابن ثماني عشرة سنة صنع تمثالاً للوقت بديع المنظر فاخذهُ اولاد فرنسيس النحاتون بعد ان اطلقوهُ من عند معلمهِ الاوَّل ووضعوهُ عندهم ست سنوات اظهر فيها الغرائب . ثم انتقل الى لندن ومن ثم الى رومية وحينئذٍ انتشر صيتهُ في كل اقطار اوربا

ونوبل باتون المصور الشهير ابتدأ في صناعتهِ يرسم رسوماً لتطريز اغطية الموائد وكان يرسم الصور البشرية ايضاً ولم يشتهر امرهُ حتى عينت جوائز لصور البرلمنت فصور صورة روح الديانةِ ونال جائزة من الجوائز الاولى واشتهر بها شهرة فائقة ثم عرض صورة مصالحة اوبرون وتيتانيا وصورة الوطن وغيرهما مما بان منهُ انهُ كان يتقدم في اتقان هذه الصناعة تقدماً مستمرًّا

ومنهم جمس شاربلس الحداد ولد هذا الرجل سنة ١٨٢٥ واخوتهُ واخواتهُ اثنا عشر وهو الثالث عشر وكان ابوهُ يعمل في سبك الحديد ولم يعلّم احداً من اولادهِ في مدرسة بل كان يرسلهم الى معمل حالما يصيرون قادرين على العمل . ولذلك صار جمس هذا عاملاً في مسبك قبلما بلغ العاشرة ولما بلغ الثانية عشرة دخل معمل الآلات وكان عملهُ فيهِ احماء المسامير وتقديمها لصانع الخلاقين . وقد حاول ابوهُ في غضون ذلك ان يعلمهُ القراءة مع انهُ كان يقيم في المعمل من

الساعة السادسة قبل الظهر الى الثامنة بعدهُ . وكان من عادتهِ ان يمسك خيط الطباشير لناظر المسبك عند ما يرسم رسوم الخلاقين على الارض ويساعدهُ في الرسم فأُغرم بالرسم وصار حينما يرجع الى البيت يجلس على ارضهِ ويرسم عليها رسوم الخلاقين. وذات يوم أُخبرت امهُ ان واحدة من نسيباتها آتية لزيارتهم فنظفت البيت لاستقبالها بقدر ما يمكن وخرجت فلاقتها واتت بها وكان جمس قد عاد في غيبتها من المسبك وجلس يرسم رسم خلقين على الارض كجاري عادتهِ فاغتاظت امهُ غيظاً شديداً الاَّ ان نسيبتهم مدحت عملهُ وطلبت من امهِ ان تعطيهُ ما يحتاج اليهِ من انورق والاقلام

ثم اخذ يرسم صور الاشخاص وينقل الصور المطبوعة وكان يجهل قوانين النور والاظلال ولكنهُ استمر على ما هو فيهِ الى ان برع في النقل . ولما بلغ السادسة عشرة دخل المدرسة الميكانيكية لكي يتعلم صناعة الرسم وكان معلم الرسم فيها حلاَّقاً قد تعلم الرسم من نفسهِ وكان جمس يتعلم في هذه المدرسة يوماً واحداً كل اسبوع ودام على ذلك ثلاثة اشهر فنصحهُ معلمهُ ان يستعير من المكتبة مقالات برنت في التصوير ولم يكن يعرف القراءة فكانت امهُ تقرأ لهُ وهو يسمع فشقَّ عليهِ جهله القراءة وخصوصاً لرغبتهِ في هذا الكتاب فترك الذهاب الى المدرسة واكبَّ على تعلم القراءة والكتابة في البيت فنجح سريعاً ثم رجع الى المدرسة وصار يقرأُ في كتاب برنت ولم يكتف بالقراءة بل كان يكتب ملخص امور كثيرة منهُ ويبقيها معهُ الى حين الحاجة . وكان يقوم الساعة الرابعة صباحاً ويعكف على القراءة الى الساعة السادسة صباحاً وحينئذٍ يذهب الى المسبك ويبقى فيهِ من الساعة السادسة صباحاً الى الثامنة مساءً فيرجع الى البيت ويعود الى القراءة ويبقى قارئاً الى نصف الليل وكثيراً ما كان يحيي الليل كلهُ في نقل بعض الصور . ثم قصد ان يمارس التصوير بالزيت

فاشترى قطعة جنفيص ومدها على برواز ودهنها بالاسفيداج وابتاع ادهاناً واخذ يصور عليها ولكنهُ لم ينجح لان الجنفيص كان خشناً ولم يجف الدهان عليهِ فشاور معلمهُ الحلاق في ذلك فاخبرهُ من اين يمكنهُ ان يبتاع جنفيصاً وادهاناً محضرة للتصوير . فلما صار معهُ ما يكفي لابتياع المواد اللازمة للتصوير ابتاعها واتى معلمهُ الحلاّق فعلمهُ بعض المبادىء فلم يلبث طويلا حتى فاق معلمهُ . واول صورة صورها نقلها عن صورة مطبوعة تدعى جز الغنم فباعها بستة غروش. ثم اشترى رسالة صغيرة في فن التصوير بالزيت وصنع لنفسهِ الادوات التي استطاع صنعها واشترى البقية بدراهم حصلها مما عملهُ في المسبك فوق المطلوب منهُ وهذا كل ما استطاع والداهُ ان يسمحا لهُ بهِ لكبر عائلتهما .وكان يذهب الى منشستر ماشياً لكي يجلب شيئاً من الادهان والجنفيص وهي على ثلاث ساعات ويرجع والتعب آخذ منهُ كل مأخذ. وما يأتي ماخوذ من كتاب كتبهُ المؤلف قال « والصورة الثانية التي صورتها صورة ارض واوقع عليها نور القمر ثم صورت صورتين او اكثر وحينئذٍ خطر ببالي ان اصوّر مسبكا وكان ذلك في فكري منذ زمان طويل ولم أجسر عليهِ قبلاً خوفاً من الفشل ولكني رسمتهُ حينئذٍ على القرطاس وشرعت في تصويرهِ على الجنفيص ولم يكن صورة مسبك خاص ولذلك يمكنني ان احسبهُ صورة مبتكرة لانني لم انقلهُ عن شيءٍ . وبعد ان رسمت حدودهُ رأيت انهُ يلزمني ان ادرس علم التشريح لكي يمكنني ان اصور اعضاء العمال وعضلاتهم تصويراً صحيحاً . وهنا يجب ان اعترف بفضل اخي عليَّ لانهُ اشترى لي كتاب فلكسمن في التشريح ولم يكن في طاقتي ان اشتريهُ لان ثمنهُ اربعة وعشرون شلناً فاعتبرتهُ ككنز ثمين ودرستهُ باجتهاد لا يفوقهُ اجتهاد فكنت اقوم الى درسهِ الساعة الثالثة صباحاً واعري اخي واوقفهُ امامي لكي ادرس عليهِ وارسمهُ . وما زلت على ذلك

الى ان تيقنت انني صرت كفوءًا للشروع في صورة المسبك ولكنني وجدت صعوبة في الاظلال فاستحضرت كتاباً في هذا الموضوع واخذت ادرس فيهِ . وحينئذ طلبت من رئيس المسبك ان يسمح لي بالعمل في الادوات الكبيرة لانها تقتضي وقتاً طويلاً لاحمائها فيمكنني في مدة احمائها ان ارسم رسوماً كثيرة على صفيحة الحديد التي على واجهة الكور »

وما زال يدرس ويعمل حتى اتقن فن التصوير وكل متعلقاتهِ وصوَّر اباهُ صورة بديعة ثم اكمل صورة المسبك ولما رأى رئيس المسبك منهُ ذلك طلب اليهِ ان يصور لهُ عائلتهُ فصورها صورة متقنة فلم يكتفِ باعطائهِ الاجرة التي قاولهُ عليها وهي ثمانية عشر جنيهاً بل اعطاهُ فوقها ثلاثين شاناً . ولما كان يصور هذه الصورة ترك العمل في المسبك وقصد ان يتركهُ دائماً ويقتصر على التصوير فصوَّر صوراً عديدة بين منقول ومبتكر ولما لم ترجْ بضاعتهُ كما يجب عاد الى صناعة الحدادة. وكان يقضي اوقات العطلة في حفر صورة المسبك التي صورها. اما سبب اخذهِ في حفرها فهو انهُ اراها ذات يوم لبائع صور فقال لهُ لو حفرها حفار ماهر وطبعها لخرجت ذات رونق بديع . فقال في نفسهِ علامَ لا احفرها انا الا انهُ كان يجهل صناعة الحفر على الاطلاق وهاك وصف المشقات التي عاناها في حفرها

قال « رأيت اعلاناً في بعض الجرائد من رجل يصنع صفائح الفولاذ لحفر الصور وقد عرضها للبيع باثمان ذكرها في الجريدة فاخترت واحدة ذات قدر مناسب وارسلت اليهِ الثمن المطلوب وزدتهُ قليلاً من الدراهم طلبت منهُ ان يرسل اليَّ بهِ بعض ادوات الحفر اللازمة ولم يمكني ان اذكر لهُ انواع الادوات لانني لم اكن اعرف ما هي فاتتني الصفيحة مع الادوات . ولما كنت احفر هذه الصورة اعلنت جمعية المهندسين انها تعطي جائزة لاحسن صورة تشخيصية تقدَّم لها فاعتمدت ان اتطفل

على ارباب هذه الصناعة واطلقت فرسي في ميدانهم ولحسن حظي نلت الجائزة. ثم انتقلت الى بلكبرن ودخلت معمل الخواجات يتس حداداً للآلات وكنت اقضي اوقات العطلة في الرسم والتصوير وحفر صورة المسبك وصادفت مصاعب كثيرة في حفرها لانهُ لم يكن عندي الادوات اللازمة فخطر لي ان اصنع هذه الادوات بيدي وبعد تعب كثير صنعت منها ما يوافق ذوقي . وكنت محتاجاً الى زجاجة مكبرة لاني حفرت قسماً كبيراً من صورة المسبك بعوينات ابي قبل ان وجدت زجاجة مكبرة تفي بغرضي . وحدثت حادثة بينما كنت احفر هذه الصورة كادت تجعلني اترك حفرها وذلك انهُ كان من عادتي ان اضع الصفيحة جانباً عندما ادعى لعمل آخر بعد ان ادهن الجزء المحفور بالزيت حذراً من الصدإِ وذات مرة افتقدتها بعد ان تركتها زماناً طويلاً فوجدت الزيت قد جمد عليها فحاولت اخراجهُ بالابرة فوجدت ان اخراجهُ يقتضي وقتاً قدر وقت الحفر فاسقط في يدي وساءني الامر جدًّا ولكنهُ خطر ببالي ان اغليها في ماءِ الصودا ففعلت ومسحتها بفرشاة ناعمة فزال الزيت عنها . ولما زالت هذه الصعوبة رأيت انهُ لم يبقَ عليَّ الاَّ الاستمرار على حفرها بالصبر ولم يكن من يساعدني ولا مَنْ يرشدني في شيءٍ ولذلك اقول بكل جرأة انهُ اذا كان في هذه الصورة شيء من الفضل فجميعهُ لي وليس لي فيهِ شريك ومامن شيءٍ يدعوني لاشهارها الاَّ اظهار ما يمكن ان يعمل بواسطة الاجتهاد والمواظبة وهذا هو فخري » وقال ايضاً ان زوجتهُ كانت تجلس الى جانبهِ وهو آخذ في حفر هذه الصورة وتقرأُ لهُ في الكتب المفيدة فتسليهِ وتعينهُ على السهر الطويل

وليس من قصدنا ان نطيل الكلام على هذه الصورة وما تستحقهُ من الاعجاب لان جرائد التصوير قد استوفت ذلك وانما نقول انهُ حفرها في اوقات العطلة مدة خمس سنوات ولم يرَ قط صورة محفورة

قبل ان اتم حفرها واتى بها الى المطبعة

وما رأيناهُ من الاجتهاد والمواظبة في المصورين نراهُ في الموسيقين لان فن الموسيقى من اخوات فن التصوير . والموسيقى للاصوات كالتصوير للالوان وكالشعر للكلمات . فهندل الموسيقي المشهور لم يكن يمل من المواظبة ولم ييأس من الفشل بل كان يزيد همة كلما زاد الدهر لهُ عناداً وعمل وحدهُ اعمالاً يعجز عنها اثنا عشر رجلاً . وقال هيدن ان تعلُّم فن الموسيقى يقوم بالمواظبة . وقال موزار « ان العمل لذتي العظمى » . وقال بيتوفن « لا شيء يصد المجتهد عن التقدم » . قيل عرض مشلز كتاب موسيقى على بيتوفن فرآهُ قد كتب في آخرهِ انتهى بعون الله فكتب تحتها « يا انسان عِنْ نفسك » . وقال يوحنا سبستيان باخ « على قدر الاجتهاد النجاح » . اما مير بير فقد قال فيهِ بيل انهُ يمارس الموسيقى خمس عشرة ساعة كل يوم وهو ليس بذي موهبة خاصة ولكنهُ مفطور على الاجتهاد

ولم يشتهر الانكليز كثيراً بوضع الالحان الموسيقية حتى الآن ولكن قام منهم موسيقيون يحق لهم ان يفتخروا بهم مثل ارن وهو ابن منجد وكان ابوهُ عازماً ان يعلمهُ الحقوق ولكنهُ كان مغرماً بالموسيقى حتى لم يمكن صرفهُ عنها فتعلم اللعب على الكمنجه خفية عن ابيهِ . وحدث مرة ان اباهُ دخل بيتاً فرأى فيهِ نفراً من الموسيقيين وارن بينهم فتركهُ الى هواهُ بخسر الناس محامياً ولكنهم كسبوا موسيقياً حسن الذوق

ووليم جكسن وهو ابن طحان غلب المصاعب بالمواظبة . ويظهر ان محبة الغناءِ كانت وراثية في بيتهِ لان اباهُ كان مرتلاً في الكنيسة وجدهُ كان رأس المرتلين ولما بلغ وليم السنة الثامنة من عمرهِ كان ينفخ على صافور ابيهِ وكان فيهِ بعض الخلل فاشترت لهُ امهُ فلوتاً صغيراً ذا مفتاح واحد ثم اهدى اليهِ رجل فلوتاً من الفضة ذا اربعة

مفاتيح فدخل في زمرة الموسيقيين وتعلم مبادىء الموسيقى حسب الاسلوب الانكليزي القديم ونجح سريعاً ثم تعلم اللعب على البيانو . ونحو ذلك الوقت اشترى واحد من جيرانهم ارغناً صغيراً مختلاً واجتهد لكي يصلحهُ فذهب تعبهُ سدى فأعطاهُ لجكسن هذا ليصلحهُ لانهُ كان قد اصلح ارغن الكنيسة فاصلحهُ على اتم المراد . وحينئذٍ خطر ببال جكسن ان يصنع ارغناً مثلهُ فاخذ هو وابوهُ في هذا العمل مع انهما لم يكونا نجارين . وبعد معاناة مشقات كثيرة استتب لهما عمل ارغن يدق عشر انغام فنظر الجميع اليهِ بعين الاندهاش وصاروا يدعون جكسن لاصلاح الاراغن فكان يأتي بالغرائب

وفي ذلك الوقت تألف صف من المغنين فصحبهم جكسن فعينوهُ قائداً لهم وكان يلعب على كل آلاتهم ونظم لهم الحاناً كثيرة ثم اختير للدق على ارغن جديد كان قد اهدي الى الكنيسة وكان قد ترك صناعتهُ الاولى الطحانة واخذ في عمل الشمع الابيض وصار يقضي اوقات العطلة في ممارسة الموسيقى . وسنة ١٨٣٩ نشر اغنية مطلعها « لتغنِّ الاودية المخصبة فرحاً » وفي السنة التالية نال الجائزة الاولى لاغنية نظمها اسمها اخوات المرج ثم نظم ترنيمة مطلعها يارب كن لي راحماً ونظم غناء مزدوجاً للمزمور المئة والثالث . وفي غضون ذلك كان آخذاً في نظم خروج بني اسرائيل من بابل ثم طبعهُ في اجزاء بين سنة ١٨٤٤ و١٨٤٥ وقد انتهى من طبعهِ يوم بلوغهِ السنة التاسعة والعشرين . ثم صار استاذاً للموسيقى في برَدْفرد ومثل بين يدي الملكة فكتوريا في قصر بكنهام وفي قصر البلور وغنى لها شيئاً من نظمهِ ونال منها الثناء الجميل . وقبل ان انتهت الطبعة التي ترجم منها هذا الكتاب وردت الاخبار بموت هذا الشهير وله من العمر خمسون سنة اما ما كتب عنهُ في هذا الفصل فقد نقلهُ المؤلف عن لسانهِ حينما كان يصنع الشمع . وهنا نختم الكلام على المصورين والنحاتين والمغنين الذين ارتقوا الى اسمى

درجات الشهرة باجتهادهم في العمل ومواظبتهم وتغلبوا على كل المصاعب التي حالت في طريق تقدمهم

وكنا نود ان نضيف الى هذا الفصل شيئاً عن الذين اشتهروا في المشرق بالتصوير والنحت والغناء من المصريين والاشوريين والبابليين وغيرهم من أُمم المشرق ولكن المعروف من ذلك نزر لا يعتد بهِ مع ان امم المشرق اتقنت هذه الفنون الى الغاية القصوى ولاسيما فن النحت اي عمل التماثيل كما تشهد الآثار المصرية . اما العرب ومن قام في دولهم فلم يتعاطوا فن التصوير والنحت ولكن قام من بينهم مغنون مشهورون بالغناء مثل ابرهيم الموصلي وابن جامع وغيرهما وحازوا اسمى المراتب بجدهم واجتهادهم في اتقان هذه الصناعة كما سترى

ولد ابرهيم الموصلي سنة ١٢٥ للهجرة وتوفي ابوه بالطاعون وهو ابن سنتين او ثلاث فنشأ مع أُمهِ واخوالهِ ولما ادرك صحب الفتيان ومال الى الغناء فضيَّق عليهِ اخوالهُ بذلك فهرب الى الموصل واقام بها فلقب بالموصلي . ثم اتقن صناعة الغناء فبلغ خبرهُ الى الخليفة المهدي فاستدعاهُ وسمع منهُ وامرهُ ان يلازمهُ . وكان امياً يجهل القراءة والكتابة وفرط منهُ ذنب حبسهُ المهدي عليهِ فتعلم القراءة والكتابة وهو في الحبس . ثم مات الخليفة المهدي وتولى ابنهُ موسى الهادي الخلافة بعدهُ فقرَّب ابرهيم لحسن غنائهِ وواصلهُ بالعطايا الكثيرة . قال ابنهُ اسحق لو عاش لنا الهادي بنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة . وقال ايضاً ان اباهُ صنع تسع مئة صوت تقدَّم بثلثمئة منها جميع الناس . وقيل سأل الرشيد يوماً ابرهيم الموصلي كيف تصنع اذا اردت ان تصوغ الالحان فقال يا امير المؤمنين « اخرج الهمَّ من فكري وامثل الطرب بين عينيَّ فتسرع اليَّ مسالك الالحان فاسلكها بدليل الايقاع فارجع مصيباً ظافراً بما أُريد » وهو مثل قول الفيلسوف اسحق نيوتن عند ما سئل بمَ اكتشفت هذه الاكتشافات العظيمة

كما جاءَ في الفصل الاول من هذا الكتاب . ومما يشهد بمهارة ابرهيم في هذه الصناعة ما رواهُ علي بن عبد الكريم قال زار ابن جامع ابرهيم فاخرج اليهِ ثلاثين جارية فضربنَ جميعاً طريقة واحدة فقال ابن جامع في الاوتار وتر غير مستوٍ فقال ابرهيم يا فلانة شدي مثناكِ فشدتهُ فعجبتُ اولاً من فطنة ابن جامع لوتر غير مستو في مئة وعشرين وتراً ثم ازداد عجبي من فطنة ابرهيم لهُ بعينهِ

ومرض ابرهيم بداءِ القولنج فلزمهُ وعادهُ الرشيد يوماً في مرضهِ وقال لهُ كيف انت يا ابراهيم فقال كما قال الشاعر

سقيمٌ ملَّ منهُ اقربوهُ واسلمهُ المداوي والحميمُ

فقال الرشيد انا لله وخرج فلم يبعد حتى سمع الناعية عليهِ . وكانت وفاتهُ سنة ١٨٨ هجرية ولهُ من العمر ٦٣ سنة واسف عليهِ الناس ورثاهُ كثير من الشعراءِ من ذلك قول ابنهِ اسحق

ستبكيهِ اشراف الملوك اذا رأوا محل التصابي قد خلا منه جانبهْ
ويبكيهِ اهل الظرف طرًّا كما بكى عليه امير المؤمنين وحاجبه

اما ابن جامع المذكور فمغنٍّ من اشهر المغنين من طبقة ابرهيم الموصلي ومن معاصريهِ وهو عربي الاصل قدم من مكة على الرشيد وكان حسن السمت متضلعاً بعلوم الدين حتى ظنهُ ابو يوسف القاضي من الفقهاءِ . قيل وكان ابن جامع باراً بامهِ فاحتال عليهِ الرشيد مرة واخبرهُ انها ماتت فاندفع يغني بصوت حزين حتى ابكى كل من كان حاضراً فامر لهُ الرشيد بمال كثير واعلمهُ ان الخبر حيلة ليسمع غناءهُ المحزن

ومن المغنيين المشهورين ابرهيم ابن المهدي اخو هرون الرشيد كان لهُ اليد الطولى في الغناءِ والضرب بالملاهي وكان اسود اللون لان امهُ جارية سوداء . ولم يرَ في اولاد الخلفاءِ قبلهُ افصح منهُ لساناً ولا

احسن منهُ شعراً. وبويع لهُ بالخلافة ببغداد والمأمون يومئذٍ بخراسان واقام بها خليفة نحو سنتين ثم خلعهُ اهل بغداد ودعوا للمأمون بالخلافة

ومنهم ابن سريج وهو تركي الاصل وكان من احسن الناس غناء. غنَّى في خلافة عثمان بن عفان ومات في خلافة هاشم بن عبد الملك وهو اول مَنْ ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة وكان مثلاً في حسن الغناء

ومنهم ابن مسجح وهو اول من نقل غناء الفرس الى غناء العرب. رحل الى الشام واخذ الحان الروم والبربطية والاسطوخوسية وانقلب الى فارس واخذ بها غناء كثيراً وتعلَّم الضرب ثم قدم الحجاز وقد اخذ محاسن تلك النغم والتى منها ما استقبحهُ وغنى على هذا المذهب فكان اول من اثبت ذلك ولحنهُ وتبعهُ الناس بعد ذلك

والمغنون والمغنيات كثار ونوادرهم عديدة وكثيرون منهم بذلوا جهدهم في اتقان هذه الصناعة فتقربوا بها من الملوك واثروا اثراء وافراً. ومن اراد الاسهاب في هذا الموضوع فعليهِ بما جاء في كتاب الاغاني

الفصل السابع

في العمل واعيان الامة

قال مركيز منتروز . من لا يعرّض نفسه للربح والخسارة فهو جبان او صعلوك
وقيل في انجيل لوقا . انزل الاعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين
وقال الامام الايوزاعي اذا اراد الله بقوم سوءا اعطاهم الجدل ومنعهم العمل

ذكرنا في ما مضى ان كثيرين من العامة ارتقوا من ادنى الطبقات الى اعلاها بالعمل والاجتهاد والآن نقول ان كثيرين من الخاصة واعيان الامة نحوا هذا النحو لاننا اذا بحثنا عن سبب تقدم اشراف الانكليز واحتفاظهم بما لهم من السيادة جيلاً بعد جيل خلافاً لاشراف سائر الممالك رأينا سبب ذلك انهُ انتظم في سلكهم من وقت الى آخر اناس من اعظم الناس اجتهاداً واكثرهم عملاً

الناس كلهم من دم واحد وان كان كثيرون لا يقدرون ان يمتدوا في انتسابهم الى اكثر من جد واحد فالجميع بلا استثناء يقدرون ان ينتسبوا الى آدم وحواء . والجاه والمجد لا يدومان لفئة من الناس فكم من عظيم انحط ووضيع سما والدهر في الناس قُلَّب ان دان يوم لشخص ففي غدٍ يتغلب

والعباد كالبلاد تشقى وتسعد والناس بين تصويب وتصعيد . فاذا راجعنا كتاب برك في نوائب الاسر رأينا ان بلايا الخاصة اكثر واشد من بلايا العامة . فقد ذكر مؤلف هذا الكتاب انهُ لا يوجد الآن رجل واحد في مجلس الاعيان من نسل الخمسة والعشرين بارونا الذين انتخبوا ليجبروا ملك الانكليز على العمل بالبراءة العظمى (الدستور الانكليزي) لان الحروب الاهلية والثورات الوطنية اهلكت كثيرين من الاشراف

وشتت شمل اولادهم واكثر من بقي من نسلهم مختلط بالعامة وعائش بين ادنى رتبها . وقال فلر ان كثيرين من نسل بوهن ومُرْتيمر وبلنتجنت اختلطوا بالعامة حتى عفا أثرهم . وقال برك انهُ رأى اثنين من نسل ارل كنت ابن الملك ادورد الاوَّل احدهما جزار والآخر جاب وان حفيد مرغريتا بلنتجنت ابنة دوق كلارنس انحط الى ان صار اسكافاً . وان واحداً من نسل دوق غستر ابن الملك ادورد الثالث صار قندلفتاً في كنيسة . ويقال ان واحداً من نسل سمعان ده منتفُرت زعيم اعيان انكلترا يصنع الآن السروج . ويوجد واحد من عائلة برسي لهُ حق بان يكون دوق نُرثمبرلند وهو الآن يصنع صناديق في دبلن . ومن مدة وجيزة كان واحد يعمل في منجم فحم ويدَّعي بلقب ارل برث . وقال هيوملر انهُ لما كان يبني بعض البيوت قرب ادنبرج كان معهُ ولد يحمل الطين يدَّعي بارلية كروفرد ولم يكن ينقصهُ شيء لاثبات نسبهِ سوى كتاب زيجة فقدهُ . وكثيرون من الاشراف ماتوا على شجرة عائلتهم بعد ان التهموا كل اوراقها . وغيرهم داهمتهم المصائب فحطتهم الى حضيض الفقر والهوان . هذه نهاية امجاد الدنيا الغرور

ان اكثر الاعيان الحاليين في البلاد الانكليزية ارتقوا الى رتبة الاعيان حديثاً واكثرهم ارتقوا اليها بواسطة جدهم في عملهم . اما في قديم الزمان فكان الغنى مصدر السيادة فاول من انشأ ارلية كرنولس هو ثوماس كرنولس التاجر وارلية اسكس وليم كابل بائع المنسوجات وارلية كرڤن وليم كرڤن الخياط وارلية ورك الحديثة وليم كرڤل الصوَّاف ودوكية نرثمبرلند الحديثة هيوسمِثْسَن الصيدلاني والذي اسس بيت درتموث جلاد وبيت ردنور حائك وبيت دوسي خياط وبيت بمفرت تاجر . والذين اسسوا بيرية تنكرڤل ودرمر وكوفنتري كانوا بائعي انسجة . واسلاف ارل رمني ولورد ددلي وورد كانوا صاغةً . واللورد داكر كان بنكيًّا في عهد الملك تشارلس الاول كما كان اللورد

اوفرستون في عهد الملكة فكتوريا . وادورد اسبرن مؤسس دوقية ليدس كان صانعاً عند خياط غني وحدث ان ابنة معلمهِ سقطت في نهر التمس نخاطر بنفسهِ وانتشلها من الماءِ ثم تزوج بها . ومن الارليات التي اسسها ارباب الصنائع ارلية فتزوليم ولي وبيتر وكوبر ودرنلي وهل وكرنتون . واصل بيت فولي ونرمنبي رجلان في سيرتيهما فائدة جزيلة فنختار شيئاً منهما

كان ابو رتشرد فولي مؤسس بيت فولي ساكناً في جوار ستوربردج في عهد الملك تشارلس الاوَّل وكان ذلك المكان مركز معامل الحديد فتربى رتشرد في معمل منها وتعلم صناعة عمل المسامير. وكان يلاحظ مقدار التعب الشديد الذي يقاسيهِ العاملون في تقطيع الصفائح وعملها مسامير. ثم اخذت المسامير ترد من اسوج وكانت تباع باثمان بخسة فكسدت مسامير ستوربردج . وشاع ان الاسوجيين يصنعون المسامير بطريقة سهلة حتى يمكنهم ان يبيعوها بارخص الاثمان ويربحوا فعزم ان يمضي الى اسوج ويكتشف سر هذه الصناعة فاضمر ذلك في نفسهِ ولم يكاشف بهِ احداً مخافة ان يخيب مسعاهُ . ومضى الى هل ورأى سفينة ذاهبة الى اسوج فنزل فيها وكان يعمل فيها بما يقوم باجرة سفرهِ ولم يكن معهُ شيءٌ سوى ربابة يغني عليها . ولما وصل الى اسوج سدَّد خطواتهِ نحو معامل دنموزا وهو يتسول في طريقهِ ويلعب على الربابة وكان جيد اللعب لطيف المحضر فانس بهِ الحدادون واكرموا مثواهُ فكان يلاحظ اعمالهم والآلات التي كانوا يستعملونها ويذخر ذلك في ذهنهِ ولما ظن انهُ فهم كل شيءٍ طلبوهُ فما وجدوهُ . اما هو فرجع الى انكلترا وكاشف مستر نيط ورجلاً آخر بما فعلهُ وطلب منهما ان يمداهُ بالمال لبناءِ معمل وعمل الآلات اللازمة ففعلا ولكن لما ترتب كل شيءٍ رأى ان الآلات لا تصلح للعمل فاختفى ثانية وزعم البعض انهُ هرب خجلاً ولن يرجع ابداً ولكن لم

يكن الامر كذلك بل انهُ رجع الى اسوج لكي يعرف ما هو النقص في الآلات التي عملها فلما دخل معامل الحديد قابلهُ العمال بكل ترحيب وكان يلعب على الربابة كجاري عادته فنوَّموهُ بينهم داخل المعمل مخافة ان يهرب كما هرب اولاً ولم يخطر ببالهم انهُ اتى ليسرق صناعتهم. فاخذ يمعن نظرهُ في الآلات فعرف سبب النقص في آلاتهِ وبقي زمناً كافياً لطبع صورها في ذهنهِ بعد ان صوَّر البعض منها حسب طاقتهِ ثم ترك المعمل على حين غفلة ورجع الى بلادهِ وعاد الى مشروعهِ واصلح خللهُ ونجح فيهِ نجاحاً تاماً وكسب غنى وافراً وهيأ عملاً لكثيرين من الصناع وكان يساعد في كل الاعمال الخيرية وانشأ مدرسة مجانية في ستوربردج على نفقتهِ وابنهُ ثوماس انشا معهداً لتربية الاولاد في ألدسونفورد. وقد أدخل هذا البيت في سلك البيوت الشريفة في عهد الملك تشارلس الثاني

ووليم فبس مؤسس بيت نرمنبي ولد سنة ١٦٥١ وكان لهُ عشرون اخاً وخمس اخوات ولم يكن لهم ميراث من ابيهم الاَّ صحة ابدانهم اما وليم هذا فكان يحب سفر البحر ويفضلهُ على رعاية الغنم التي قضى صباهُ فيها وكان يشتهي دائماً ان يصير بحرياً ويجول في العالم. وحاول الدخول في مركب فلم يجد فدخل صانعاً عند باني مراكب وتعلم هذهِ الصناعة واتقن القراءة والكتابة في اوقات الفراغ ثم انتقل الى بُستن وتزوج بارملة غنية وانشأ داراً لبناءِ المراكب وبنى مركباً ونزل فيهِ واخذ يتجر بالخشب وبقي على ذلك عشر سنين

وحدث انهُ كان ماراً ذات يوم في اسواق بستن فسمع بحرياً يقول لآخر قد انكسر مركب اسبانيولي فيهِ مال كثير عند جزائر بهاما فلما سمع ذلك جمع جماعة من البحارة ونزل في مركبهِ وقصد السفينة المكسورة فاهتدى اليها وخلص كثيراً من شحنها ويسيراً من النقود التي فيها وكل ما خلصهُ لم يزد على النفقة التي انفقها الاَّ ان نجاحهُ اضرم فيهِ

رغبة شديدة في اقتحام المخاطر . ثم بلغهُ ان سفينة اخرى انكسرت قرب بورت ده لابلا تا منذ خمسين سنة وكانت مشحونة ذهباً وفضة فعزم ان يذهب في طلبها ويصطادها اصطياد السمك . ولكن هذا العمل يقتضي نفقة كبيرة ولم يكن معهُ شيءٌ منها فمضى الى انكلترا وكان خبر تخليصهِ شحن السفينة المكسورة في جزائر بهاما قد سبقهُ اليها فلما بلغها طلب مساعدة الحكومة واقنع رجال السياسة بصحة طلبهِ حتى ان الملك تشارلس الثاني سلمهُ قيادة سفينة فيها ثمانية عشر مدفعاً وخمسة وثمانون بحرياً فاقلع بهم الى شاطيءِ هسبنيولا لكنهُ رأى امامهُ شاطئاً واسعاً وبحراً لانهاية لهُ فاخذت رجالهُ تغوص الى اعماق البحر يوماً بعد يوم واسبوعاً بعد اسبوعٍ لعلها تجد اثراً يدل على بقايا تلك السفينة فلم تجد وكان فبس غايةً في شدة العزم وعلو الهمة وعظم الامل فدام على هذا العمل مدة حتى قلق النوتية ايَّ قلق واخذوا يتناجون قائلين ان رئيسهم من اضل الناس سبيلاً ثم جاهروا بالعصيان وهجم قوم منهم على قمرتهِ وطلبوا منهُ ان يرجع بهم . الاَّ انهُ لم يخف من وعيدهم بل قبض على رؤسائهم وقيدهم .
وعند ذلك اضطر ان يدنو من جزيرة لكي يصلح السفينة ففعل وانزل قسماً من المؤونة الى البر فاتفق اكثر البحرية على ان يقبضوا على السفينة ويقتلوهُ ويصيروا قرصاناً ويغزوا المراكب الاسبانيولية في الابحر الجنوبية ولكنهم رأوا انهُ يجب ان يكون معهم رئيس نجاري السفينة فكاشفوهُ بمكيدتهم فمضى واخبر فبساً بذلك فجمع فبس الذين يعلم انهم مطيعون لهُ وامر ان تحشى المدافع التي تجاه الجزيرة ويرفع سلم السفينة فلما اقبل البحرية الذين صمموا على العصيان منعهم عن الدخول اليها وهددهم باطلاق المدافع اذا اقتربوا من المؤونة التي كانت لم تزل على البر . فتنحوا عنها فامر ان ترجع الى المركب تحت حماية المدافع . فلما رأى العصاة ذلك خافوا ان يُتركوا على تلك الجزيرة

القفراء فيموتوا جوعاً فطرحوا سلاحهم وتوسلوا اليهِ ان يردهم الى السفينة ويعفوا عن ذنبهم فعفا عنهم وردهم . وحالما استطاع ترك المتذمرين منهم تركهم واستخدم غيرهم مكانهم . وحينئذٍ رأى نفسهُ مضطرًّا ان يرجع الى انكلترا لكي يصلح السفينة فرجع وعرض كيفية بحثهِ على وزير البحر . وكانت الحكومة وقتئذٍ في اضطراب فلم تسمح لهُ بمركب آخر ولكنه لم يعدل عن عزمهِ بل اخذ يحث الاغنياء والشرفاء على مساعدتهِ في هذا المشروع وانشاء لجنة لذلك وما زال يقرع آذانهم مدة اربع سنوات حتى انتظمت لجنة لهذا العمل رئيسها دوق البمارل ابن الجنرال منك وجمعت له الاموال اللازمة . فكان سفرهُ الثاني ناجحاً مثل سفر فولي لانهُ وصل سريعاً الى بورت ده لابلاتا في جوار الصخور التي كان يظن ان السفينة الاسبانيولية انكسرت عليها وبنى قارباً يسع ثمانية مجاذيف او عشرة وكان يعمل فيهِ بنفسهِ ويقال انه اخترع آلة تشبه ناقوس الغواصين ولم يكن هو اوَّل من اخترعها ولكنهُ لم يكن عارفاً بها والمرجح ان اختراعهُ اياها من باب توارد الخواطر . واستخدم ايضاً غواصين من الهنود لانهم اقدر من غيرهم على الغوص فبقي الغواصون يغوصون ويبحثون في قاع البحر بضعة اسابيع على غير فائدة . وذات يوم كان واحد من الملاحين يتطلع الى البحر وهو في القارب فنظر في العمق نوعاً من النبات غريب المنظر نامياً في شيء كنقر الصخر فطلب الى غوَّاص هندي ان يغوص ويأتي بهِ فغاص ولما طلع الى وجه الماءِ قال انه رأى كثيراً من المدافع فلم يصدق احد قولهُ ولكنهم وجدوا لدى البحث انهُ مصيب ثم وجد واحد من الغواصين سبيكة كبيرة من الفضة فلما رآها فبس قال الحمد لله قد نجحت مساعينا فانزل الغواصين والنواقيس حيث وجدت السبيكة وفي ايام قلائل استخرج من الفضة والذهب ما يساوي ثلثماية الف جنيه انكليزي فاقلع راجعاً

الى انكلترا ولما بلغها حسَّن قوم للملك ان يقبض عليهِ وعلى المال الذي رجع بهِ زاعمين انهُ لما اخبره بهذا الامر لم يفصله كما ينبغي فلم ينتقد الملك اليهم بل قال انا اعلم ان فبساً امين صادق ولذلك هو والذين ساعدوهُ احق بهذا المال من كل احد . فاقتسم فبس واعضاء اللجنة المال فكان لهُ منهُ عشرون الف جنيه . ثم ان الملك منحهُ لقب نيط اظهاراً لامانتهِ ونشاطهِ لخدم الدولة خدماً كثيرة ثم جُعل والياً على ولاية مستشوستس وبعد ذلك رجع الى انكلترا ومات فيها سنة ١٦٩٥ ولم يكن يخجل من ذكر اصلهِ الوضيع بل كان يفتخر انهُ ربي نجار مراكب فصار نيطاً ثم والياً . وحين كانت تشكل عليهِ المهام السياسية كان يقول انهُ يفضل الرجوع الى قدومهِ على تولي الولاية . وقد ترك اسماً مخلداً في الاستقامة والشجاعة ومحبة الوطن يحق لبيت نرمني ان يفتخر بهِ مدى الاجيال

ووليم بتي اصل بيت لنسدون ولد سنة ١٦٢٣ وكان مثل فبس في الاجتهاد والنفع للجمهور . كان ابوه خياطاً فقيراً فلم يتعلم في صباهُ الاَّ بعض المبادىءِ ثم انتقل الى مدرسة كاين الكلية وكان يبيع شيئاً من البضاعة فيربح مايقوم بنفقتهِ ثم رجع الى انكلترا وخدم ربان سفينة لكي يتعلم سلك البحر فاحتقره الربان لقبح منظرهِ فترك البحر وعزم على درس الطب . فمضى الى باريس واخذ يمارس التشريح العملي وكان في غضون ذلك يرسم اشكالاً هُبس اذ كان آخذاً في تأليف مقالاتهِ في فن البصريات . وكان ربحهُ من ذلك يسيراً جدًّا فوصل الى الفاقة الشديدة حتى انهُ اقتات ثلاثة اسابيع بالجوز . فعاد الى البيع والشراءِ ولم يمضِ عليهِ الاَّ القليل حتى ربح ما مكّنهُ من العودة الى انكلترا فعاد اليها واخذ يكتب في الفنون والعلوم ويستعمل الكيمياء والطبيعيات واشتهر امرهُ فيهما . ثم عرض على البعض من اصحابهِ العلماءِ انشاء جمعية علمية فوافقوهُ وانشأُوا الجمعية الملكية

وكانت جلساتها الاولى في بيتهِ . ثم عُين نائباً لاستاذ التشريح في اكسفُرْد . وسنة ١٦٥٢ عين طبيباً للجنود في ارلندا . وحين اخذت الحكومة تهب الاراضي المستصفاة للعساكر رأى ان مسحها لم يكن صحيحاً فاخذ على نفسهِ مسحها بالضبط ولما كثرت اعماله واجورهُ اتهمهُ الحساد بالارتشاءِ فعزل ثم رد الى منصبهِ بعد حين

وكان پتي من نوادر الزمان في الاجتهاد والاقدام والاختراع فقد اخترع اختراعات كثيرة منها مركب مزوج القعر يسير ضد المد والنوء. ونشر كتباً في الصباغة والفلسفة البحرية ونسج الصوف والحساب السياسي وفي مواضيع اخرى مختلفة واسس معامل حديد وفتح مناجم رصاص وانشأ تجارة في الاسماك والاخشاب ومع كل هذه الاعمال لم يتأخر عن القيام بما يطلب منهُ في الجمعية الملكية وترك لاولادهِ ثروة وافرة واكبرهم صار بارون شلبرن. ووصيتهُ في غاية الغرابة وتظهر منها صفاتهُ باجلى بيان فقد قال فيها «اما الفقراء والمساكين الذين يستعطون فلا اوصي لهم بشيء واما المصابون من الله فعلى الامة ان تعتني بهم واما الذين لا حرفة لهم ولا مقتنى فيجب ان يعتني بهم انسباؤهم»... الى ان قال « واني قد ساعدت كل انسبائي الفقراء ودربت بعضهم على تحصيل معيشتهم بكدهم وقد اشتغلت بالمصالح العمومية واخترعت اختراعات كثيرة قاصداً بها خير البشر واني اوصي الذين يرثون تركتي ان يفعلوا مثلي دائماً . ولكني جرياً على العادة المألوفة اهب عشرين جنيهاً لاشد المساكين فاقة في القرية التي اموت فيها » . ثم مات ودفن في كنيسة رمزي حيث وُلد ولم يزل قبرهُ الى الآن في تلك الكنيسة وعليهِ هذه الكتابة « ضريح السر وليم پتي »

ومن البيوت التي ارتقت الى مراتب الشرف في ايامنا بواسطة الاختراع والصناعة بيت سترت . واول من احرز لها الشرف جدّيا سترت سنة ١٧٥٨ لما اخترع آلة لاصطناع الجوارب المضلَّعة فكانت

سبب غناه وغنى نسله من بعده. كان ابوه فلاحاً ولم يعلّم اولاده الاّ قليلاً ولكنهم افلحوا جميعاً. وجدّيا هذا ثاني اولاده وكان يساعده في الفلاحة فاظهر من حداثته ميلاً الى عمل الآلات وحسّن كثيراً في ادوات الفلاحة التي كانت مستعملة وقتئذٍ. ثم مات عمه فاخذ حقله وتزوج بابنة رجل حرفته بيع الجوارب فاخبره اخوها ان كثيرين قد اجتهدوا في اختراع آلة لعمل الجوارب المضلعة ولم يقدروا فعزم ان يمتحن ذلك فاستحضر آلة لاصطناع الجوارب ونظر فيها مليًّا حتى عرف كيفية العمل بها ثم اخذ يغير تركيب ابرها ويزيدها حتى صارت تنسج جوارب مضلعة فعرضها على الحكومة فاجازت له استعمالها ثم انتقل الى دربي واخذ يعمل الجوارب المضلعة فيها. واشترك مع اركريت المار ذكره. وكان اولاد جدّيا مثله في الاجتهاد والمهارة وادورد بن وليم اخترع العجلة المعلقة وصنع ثلاث مركبات عجلاتها معلقة. وقد اشتهرت هذه العائلة شهرة فائقة لانها استخدمت ثروتها لاعمال حميدة ولاسيما لانها لم تترك واسطة لتهذيب اخلاق العاملين في معاملها الاّ استخدمتها. وكانت تشترك في كل الاعمال الخيرية بسخاء من ذلك ان يوسف سترت وهب روضاً واسعاً لاهل مدينته. وقد قال من خطبة وجيزة تلاها عليهم حينما وهبهم اياه «ان السعد قد خدمني مدة حياتي فلا يليق بي الآن ان اخصص قسماً من ثروتي بالذين ربيت بينهم واعتضدت بهم»

واكثر الذين احرزوا الشرف والسيادة برًّا وبحراً قديماً وحديثاً احرزوهما بكدهم وجدهم فمنهم من احرزهما في حومة الوغى كنلسن وسنت فنسنت وليونس وولنتون وهل وهردنج وكليد وغيرهم ممن نالوا شرفهم بذراعهم ولكن اكثر أشراف الانكليز ارتقوا الى سدة الشرف بالعمل والكدح لا بقيادة الجيوش. فان نحو سبعين شريفاً حصلوا القاب الشرف وعملهم القضاء او المحاماة. وكثيرون كانوا ابناء محامين

وبدالين وقسوس وتجار وغيرهم من اهل الكدح . فاللورد لندهرست ابن مصور وسنت ليونردس ابن مزيّن وادورد صفدن كان خادماً واللورد تنتردن ابن حلاق وقيل انهُ اخذ مرةً ابنهُ تشارلس بيده واراهُ دكاناً صغيراً وقال لهُ انظر الى هـذا الدكان فان ابي جدّك كان يحلق فيهِ ويأخذ على الرأس عشرين بارة وهذا هو فخري العظيم . وارتقاء كنيون والنبرُو الى منصب لورد تشنسلر (١) ليس اقل غرابة من ارتقاءِ اللورد تنتردن الى هذا المنصب وكذا ارتقاء اللورد كمبل وهو ابن مغنٍ

وبين كل الذين ارتقوا الى هذا المنصب ليس من ارتقاؤهُ اغرب من ارتقاءِ اللورد ألدُن فانهُ ابن بائع فحم من نيوكسل وكان في صغره مشهوراً بسرقة الجنائن فقصد ابوهُ ان يضعهُ صانعاً عند بدّال ولكنهُ عدل عن ذلك وعزم ان يعلمهُ حرفتهُ وهي بيع الفحم. وحينئذٍ ارسل اليهِ ابنهُ وليم (وهو الذي دعي فيما بعد لورد ستول) وكان تلميذاً في اكسفُرْد يقول ابعث جاكاً اليَّ لعلي ادبر لهُ عملاً مناسباً فمضى الى اكسفرد وتتلمذ فيها ولكنهُ لم يلبث طويلاً حتى هوي فتاة نخطفها ومضى بها وقطع الحدود بين انكلترا وسكتلندا وتزوج بها ولا بيت لهُ ولا مال فرُفض من المدرسة ومن الكنيسة (لانهُ كان معيَّناً للقسوسية) فعزم على درس الحقوق وكتب الى صاحب لهُ يقول قد تزوجت جهلاً ولكني عازم ان ابذل جهدي لاقوم بحاجات المرأة التي احببتها . ثم اتى لندن واستأجر بيتاً في زقاق كرسيتور واقام فيهِ يدرس علم الحقوق برغبة شديدة فكان يقوم الساعة الرابعة صباحاً (قبل الظهر بثماني ساعات) ولا يلقي الكتاب حتى يمضي اكثر الليل واذا دهمهُ النعاس ربط رأسهُ بمنديل مبلول بالماءِ حتى لا ينام . ولم يكن قادراً ان يدرس على محامٍ خاص فنسخ بيدهِ ثلاثة مجلدات

(١) لقب وزير الحقانية ورئيس مجلس الاعيان

كبار من كتب الدعاوي . ولما صار لورد تشنسلر قال لكاتم اسرارهِ وهما مارّان في ذلك الزقاق ههنا كان مقري الاول وكثيراً ما يخطر ببالي كم كنت امرُّ بهذه السوق وبيدي ثلاثة غروش لابتاع بها عشائي . ثم مضى الى المحكمة لكي يستعمل المحاماة فانسدت في وجههِ كل الابواب ولم يربح في السنة الاولى اكثر من تسعة شلنات وبقي اربع سنوات ملازماً محاكم لندن وغيرها وهو على مثل ذلك . فعزم ان يترك محكمة لندن ويقيم في بعض المدن الصغيرة محامياً . ولكنهُ نجا من ذلك كما نجا من ان يكون بدالاً وخاماً وقسيساً لانهُ صادف فرصة لاظهار كل معارفهِ القضائية وذلك انهُ كان يحامي في دعوى فحكم لخصمهِ فاستأنف الدعوى الى مجلس الاعيان فنقض اللورد ثرلو الحكم الاول وحكم لهُ وهذه اوَّل درجة في سلم ارتقائهِ

قيل كان من عادة اللورد منسفيلد ان يقول لا اعرف انهُ كانت فترة بين المدة التي كنت فيها بلا عمل والمدة التي صارت فيها اجرتي ثلاثة آلاف جنيه في السنة . وهذا يصح ان يقال في هذا الرجل فان نجاحهُ كان سريعاً جدًّا لانهُ عُين في النيابة العمومية وصار رئيس الدائرة الشمالية وعضواً في البرلمنت قبل ان ناهز الثانية والثلاثين من عمرهِ وما زال يرتقي من درجة الى اخرى بجدهِ واجتهادهِ حتى صار لورد تشنسلر وهو اعلى منصب يستطيع الملك ان يرقي احداً اليهِ وبقي في هذا المنصب نحو خمس وعشرين سنة

وهنري بكرستث كان ابن جراح ودرس الطب في ادنبرج واظهر في درسهِ اجتهاداً عظيماً . وبعد ان اكمل دروسهُ رجع الى بيت ابيهِ وكان يساعدهُ في الجراحة الاَّ انهُ كان يكرهُ هذه الصناعة فالحَّ على ابيهِ حتى ارسلهُ الى كمبردج وكان مرادهُ ان يأخذ ديبلوما تلك المدرسة لكي يسوغ لهُ التطبيب في لندن الاَّ ان اجتهادهُ العظيم في الدرس القاهُ في مرض فعرض عليهِ ان يكون طبيباً للورد اكسفرد وهو مسافر

فارتضى راجياً استرداد صحتهِ وسافر مع ذلك اللورد فدرس وهو في السفر اللغة الايطالية واغرم بآدابها ثم رجع الى كمبردج ونال الديبلوما وكان عازماً ان يدخل العسكرية فلم يتح لهُ ذلك فدخل مدرسة الحقوق وكل الذين رأوهُ تنبأوا بنجاحهِ لما رأوا فيهِ من الاجتهاد. ولما صار لهُ ثمان وعشرون سنة من العمر أُذن لهُ في المرافعة ومضت عليهِ سنوات قبل ان مسك دعوى. فضاق بهِ الامر واشتدت عليه الفاقة فكتب الى اصحابهِ الذين كانوا يساعدونهُ انهُ قد يئس من النجاح وعزم ان يرجع الى كمبردج فارسلوا اليهِ قليلاً من المال ونشطوه على الصبر ريثما يفتح الله باباً للفرج . فلم يلبث طويلاً حتى اقبلت عليهِ الدعاوي . ونجاحه في الدعاوي الصغيرة اتاهُ بدعاوي كبيرة فصار يربح ما يكفيهِ ثم زاد ربحهُ وكان مقتصداً فاوفى كل ما استقرضهُ مع الربا وما زالت تنقشع الغيوم عن سعدهِ حتى اضاء كالبدر وصار عضواً في مجلس الاعيان باسم البارون لنغدايل وقد نال ما نالهُ من الشرف والفخر بصبرهِ وكدهِ ومواظبتهِ

فهذه امثلة قليلة من الرجال العظام الذين مهدوا لانفسهم طريقاً للبلوغ الى اعلى الرتب باستعمالهم قواهم الطبيعية وتقويتها بالصبر والكد والثبات

اما اهل المشرق فالصناعة غير مكرَّمة عندهم غالباً ألا ترى ما قالهُ ابو العتاهية وهو

وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصة اذا صحَّح التقوى وان حاك او حجم

كأنَّ الحياكة والحجامة من الموبقات .وما ابعد هذا عن قول الامام عمر رضي الله عنه قال« اني لأرى الرجل فيعجبني فاقول أَلهُ حرفة فان قالوا لا سقط من عيني » . ولكن كان ذلك قبل ان اتسع ملك العرب واستولوا على اموال القياصرة والاكاسرة ولذلك قلما نجد من الصناع من حاز مراتب الشرف اذا استثنينا صناعة الانشاء . اما

اصحاب هذه الصناعة فلم يكن احد اقرب منهم الى دست الوزارة كما ترى في قصة ابن الزيات وابن الاثير وابن مقلة وابن هبيرة وغيرهم ممن يضيق المقام عن ذكرهم . فابن الزيات كان جدهُ يتجر بالزيت في بغداد وكان هو كاتباً في ديوان الخليفة المعتصم . ويقال انهُ ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأهُ وزيرهُ احمد ابن شاذي البصري وكان في الكتاب ذكرُ الكلإِ فقال لهُ المعتصم ما الكلأُ فقال لا اعلم فقال المعتصم خليفةٌ اميٌّ ووزيرٌ عاميٌّ ثم قال ابصروا من بالباب من الكتّاب فوجدوا ابن الزيات فادخلوهُ اليهِ فقال لهُ ما الكلأُ فقال العشب على الاطلاق فان كان رطباً فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش وشرع في تقسيم انواع النبات وكان بليغاً عالماً بالنحو واللغة فعلم المعتصم فضلهُ فاستوزرهُ وحكّمهُ وبسط يدهُ. ولما ولي الواثق بعد المعتصم وكان قد سخط على ابن الزيات وحلف يميناً مغلظة ان ينكبهُ اذا صار الامر اليهِ أمر الكتّاب ان يكتبوا ما يتعلق بامر البيعة فكتبوا فلم يرضَ بما كتبوهُ فكتب ابن الزيات نسخة فرضيها وكفّر عن يمينهِ وقال « عن المال والفدية عوضٌ وليس عن الملك وابن الزيات عوض » ولكن لم تدم لهُ النعمة لانهُ لما ولي المتوكل بعد الواثق اعتقله واماتهُ شر ميتة

وابن الاثير ضياء الدين صاحب المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر اتصل بالملك صلاح الدين وخدمهُ ثم انتقل الى خدمة ابنهِ الملك الافضل فاستوزرهُ واستقلَّ عندهُ بالوزارة وصار الاعتماد في جميع الاحوال عليهِ

وابن مقلة الكاتب المشهور كان في اول امرهِ يتولى بعض اعمال فارس ويجبي خراجها وتقلبت احوالهُ الى ان استوزرهُ المقتدر ثم صار وزيراً للقاهر بالله والراضي بالله

وابن هُبيرة من قرية ببلاد العراق دخل بغداد في صباهُ واشتغل بالعلم ولازم الكتابة وحفظ الفاظ البلغاء وتعلّم صناعة الانشاء

وتقلّب في المناصب الدولية حتى ترقى الى الوزارة عند الخليفة المقتفي وتوفرت لهُ اسباب السعادة ولم تلههِ مهام الوزارة عن الدرس والتصنيف فصنف كتباً كثيرة منها الافصاح عن شرح معاني الصحاح وكتاب المقتصد واختصر كتاب اصلاح المنطق لابن السكيت

وقد قام في عصرنا كثيرون من اولاد الصناع والفلاحين ورقوا اعلى مراتب الشرف بجدهم واجتهادهم نخصُّ منهم بالذكر العالم الشهير محمود باشا الفلكي . ولد هذا الفاضل ببلدة الحصة بمديرية الغربية وارسل الى مدرسة الاسكندرية سنة ١٢٤٠ هـ فاقبل على اجتناء ثمار العلوم ايما اقبال ثم اخذ يتنقَّل في المدارس العليا حتى جُعل استاذاً للعلوم الرياضية والفلكية في مدرسة المهندسين . وبعثتهُ الحكومة المصرية الى اوربا سنة ١٨٥١ ليتمم دراسة العلوم الرياضية والفلكية فمكث فيها تسع سنوات مكبًّا على الدرس والتحصيل . ثم عاد الى مصر وانيط بهِ رسم خريطة للقطر المصري فرسم خريطة للوجه البحري لم يأتِ احد باحسن منها . والَّف كتباً ورسائل كثيرة ذكرنا اكثرها في السنة التاسعة من المقتطف . وناب عن الحكومة المصرية في المجمع الجغرافي بباريس سنة ١٨٧٥ وبالبندقية سنة ١٨٨١ . وتقلَّب في الوظائف السامية الى ان بلغ مسند الوزارة فعهد اليهِ بنظارة الاشغال ثم عهد اليهِ بنظارة المعارف . هذا ومناصب الاستانة العلية والقاهرة المحمية غاصة بالرجال العصاميين الذين شرَّفوا الفقر الذي ولدوا فيهِ والعلوم التي اتخذوها سلماً الى اعلى مراتب الشرف ويجب ان تجمع ترجماتهم في كتاب ينشر على الملأ لكي يكون انموذجاً لمن يريد الترقي وذكراً خالداً لهمتهم واقدامهم

الفصل الثامن

في النشاط والشجاعة

قال جاكس كر . لا مستحيل على القلب الشجاع

وقال المثل الالماني . الارض للنشيطين

وقيل عن الملك حزقيا ان كل عمل ابتدأ به انما عمله بكل قلبه وافلح ٢ اي ٣١:٢١

رُوي ان احد جاهلية الالمان قال اني لا اركن الى الاصنام ولا اخاف من الشياطين بل انما ثقتي بقوة جسدي وعقلي. وقيل ان اهالي اسوج ونروج كان لهم الهٌ يحمل مطرقة وهذا دليلٌ على نشاطهم لان حمل المطرقة من علامات الهمة والنشاط . وقد يُستدل على اخلاق الانسان واحوالهِ من اعمال طفيفة يعملها. حكي ان رجلاً فرنساويًّا قال لصاحب لهُ وهو عازم على الانتقال الى ما بين قوم والسكنى في بلادهم « اياك وهؤلاء الناس لاني رأيت ضربة مطرقة اولادهم الذين يدخلون مدارس البيطرة ضعيفة فهم ليسوا من ذوي النشاط فاذا سكنت بلادهم خسرتَ ولم تربح » . ولقد اصاب فيما قال لانهُ كما يكون الآحاد يكون الشعب وكما يكون الشعب تكون البلاد

والنشاط والهمة اساس لكل نجاح وما احسن ما قالهُ بعض بلغاء العرب قال « الارتكاض باب الافلاح والنشاط جلبابهُ والفطنة مصباحهُ والقحة سلاحهُ . ويجب على طالبهِ ان يقرع باب رعيهِ بسعيهِ وان يجوب كل فج ويلج كل لج وينتجع كل روض ويلقي دلوهُ في كل حوض وان لا يسأم الطلب ولا يملّ الدأب لان من طلب جلب ومن جال نال والكسل عنوان النحوس ولبوس ذوي البوس

ومفتاح المتربة ولقاح المتعبة وشيمة العجزة الجهلة وشنشنة الوكلة النكلة وما اشتار العسل مَنْ اختار الكسل ولا ملأ الراحة مَنْ استوطأ الراحة . والخور صنو الكسل وسبب الفشل ومبطأة للعمل ومخيبة للامل »

والنشاط يوصل الانسان الى اعلى مراقي النجاح مهما حال دونهُ من الموانع ومن اتَّصف بهِ سبق المتكلين على مواهبهم غير معرِّض نفسهُ للفشل مثلهم . والموهبة من النشاط كالاهلية من الارادة . فاذا كان الانسان اهلاً لان يعمل عملاً ما فلا يعملهُ ما لم يكن مريداً . وكما ان الارادة هي التي تعمل كذلك النشاط هو العامل فينا وهو الانسان الادبي . والامل الحقيقي مبني على النشاط . قال الشاعر ما اضيق العيش لولا فسحة الامل وقال ابن سيراخ « ويل لخائر العزم » . فلا بركة تضاهي ثبات العزم وحسن الرجاء فانهُ وان خابت اكثر مساعي الانسان يبقى باله مطمئناً انهُ قد فعل ما في طاقتهِ . ومن يضع ملاك الامل نصب عينيهِ يحتمل المتاعب بالصبر الجميل ويلقَ المحن متهللاً مسروراً . واتعب الناس واكثرهم شقاءً من قصرت مقدرتهُ واتسعت مطامعهُ

واتعب خلق الله من زاد همهُ   وقصَّر عما تشتهي النفسُ وجدُهُ

ومن كانَ غذاؤهُ الاماني عاش خائر القوى . واكثر الناس تعرُّضاً لهذا الداء العضال الشبان فيجب ان يدرَّبوا من صغرهم على اخراج كل شيءٍ من حيز الامل الى حيز العمل

قال اري شفر لا شيء يثمر الأَّ بتعب العقل والجسد . والحياة جهاد مستمر كما ارى بنفسي وما فخري الاَّ بنشاطي فان عزيز النفس شريف المطالب يستطيع ان يفعل كل ما يشاء . وقال هيو ملر « ان المدرسة الوحيدة التي تعلمتُ فيها العلم الحقيقي هي مدرسة العالم التي يُعلَّم فيها التعب والعناء معلمان صارمان ولكنهما شريفان » . ومن يتردد في عملهِ ولا يقتحم المصاعب بقدم راسخة وعزيمة ماضية تحبط مساعيهِ

ويعود بالفشل واما اذا نهض لعمله بهمة وحزم انقشعت غيوم مصاعبهِ كما ينقشع الضباب بحر الشمس. قال الشاعر

واني اذا باشرتُ امراً اريدهُ   تدانت اقاصيهِ وهان اشدهُ

والاكباب على الاعمال عادة كبقية العادات والمواظبة ملكة. وكل من اكب على عمله بجدٍ افلح فيهِ ولو كان معتدل القوى. قيل ان فول بكستن اتكل على الوسائط العادية والاكباب الشديد جارياً على قول الحكيم كل ما تجدهُ يدك لتفعلهُ فافعلهُ بقوتك. ونسب نجاحهُ الى اكبابهِ بكليتهِ على امرٍ واحد في وقت واحد. ولا يبلغ الانسان امراً ذا طائل الاَّ بالعمل المقرون بالشجاعة. والانسان يقوى باقتحام المصاعب وهذا هو الجهاد ونتائج هذا الجهاد تدهش كل من ينظر فيها حتى ان توقُّع المستحيل يصير المستحيل ممكناً. والآمال طلائع الاعمال. واما ضعيف الهمة والمتردد في اموره فيرى الممكن محالاً

حكي ان جنديًّا فرنسويًّا كان يتمشى في غرفتهِ ويقول لا بد من ان اصير مرشالاً. وما بهِ من شدة الامل هوَّن عليهِ كل امرٍ عسير فنال بغيتهُ وصار مرشالاً. وقيل ان واحداً مرض مرة فعزم ان يشفى فشفي من تلقاء عزمهِ. وان المولى مولك القائد المراكشي كان مصاباً بمرض عضال حين نشبت الحرب بين جيوشهِ والجيوش البرتوغالية فلما سمع صرخات الحرب نهض من عن سريرهِ واقتاد جيشهُ وبقي حيًّا حتى فاز بالغلبة على العدو

والارادة هي التي تمكّن الانسان من عمل ما يريد عملهُ. قال بعض الافاضل الانسان كما يريد. وحكى بعضهم انهُ رأى نجاراً يصلح كرسيًّا من الكراسي التي يجلس عليها القضاة وكان يعتني باصلاحهِ اكثر من المعتاد فقال لهُ ما لك تعتني باصلاح هذا الكرسي اعتناءً شديداً قال لاني اريد ان اجلس عليهِ يوماً ما. وهكذا كان لان ذلك النجار درس

علم الحقوق وجلس على ذلك الكرسي . ولا داعي لما اقامهُ المنطقيون من الادلة على ان الانسان حر الارادة لان كل انسان يحس بانهُ متروك الى حريتهِ ولهُ ان يختار الخير او الشر . وليس الانسان ورقة ترمى في النهر لتدل على سرعة مجراه بل هو سبَّاح نشيط يقاوم المجاري ويصارع الامواج ويسير الى حيث اراد بقوة ذراعيهِ . نعم اننا احرار ولنا حرية ادبية لنعمل ما اردنا ولسنا مرتبطين بطاسم او سحر يربطنا بعمل من الاعمال . ومن لا يشعر هذا الشعور لا يرجى منهُ كبير فائدة

ومهام الحياة وعلاقات البشر العائلية والمدنية والعلمية تصرّح بلسان واحد ان الانسان حر الارادة ولولا ذلك ما كان الانسان مطالَباً ولا كانت فائدة من التعليم ولا من النصح ولا من الوعظ ولا من الحث . ولولا حرية الارادة ما وُجدت الشرائع لان وجودها يستلزم كون الانسان حرًّا ان يطيعها او يعصاها حسب رؤيتهِ لها صالحة او غير صالحة . ونحن نحس في كل دقيقة من حياتنا ان لنا ارادة حرة سواء استعملناها في المليح او في القبيح . وليس الانسان عبداً لعاداتهِ وتجاربهِ بل هو سيد عليها ويرى في نفسهِ ما يحثهُ على مقاومتها واذا اطاعها فلا يصعب عليهِ قهرها اذا اراد . قال لامنيس لاحد الشبان قد بلغتَ السن الذي يجب ان تنهج فيهِ منهجاً لا تحيد عنهُ والا فستثئ داخل القبر الذي تحتفره لنفسك غير قادر ان تزحزح غطاءه عنهُ . والارادة اسهل القوى انقياداً واسرعها تملكاً لذلك تعلَّم من الآن ان تكون قوي الارادة شديد العزم لئلاَّ تبقى

كريشة بمهبّ الريح ساقطةٍ لا تستقرُّ على حالٍ من القلق

كان بكستون يرى ان الشاب يستطيع ان يكون كما يريد على شرط ان يكونٍ حازماً . وكتب مرةً الى احد بنيهِ يقول لهُ « قد حان لك ان تميل يمنةً او يسرةً فعليك ان تظهر حزمك واقدامك والاَّ فستكون خامل الذكر ضعيف الهمة وتتملك منك صفات الكسل والتواني واذا

سقطت في مثل ذلك لاسمح الله صعب عليك النهوض . واني لمتيقن ان كل شاب يقدر ان يكون كما يشاء . وانا جريت هذا المجرى فنتجت كل سعادتي ونجاحي من المنهج الذي نهجتهُ لنفسي وانا في سنك . فاذا عزمتَ الآن ان تكون مجدًّا ومجتهداً فتُسَرّ كل حياتك بانك عزمت هذا العزم » . والارادة هي الدأب والمزاولة والمواظبة والثبات فلذلك لا تحتاج الا الى التدريب فاذا دُرِّبت على الشر كانت شيطاناً مريداً وكان العقل لها عبداً ذليلاً واذا دُرِّبت على الخير كانت ملكاً عادلاً وكان العقل لها وزيراً حكيماً وعكفا كلاهما على خير الانسان

والارادة لغةً نزوع النفس وميلها الى الفعل بحيث يحملها ذلك الميل عليهِ فمن اراد امراً فارادتهُ تحملهُ على عمله بل تسهّل لهُ العمل وتهوّن عليهِ المصاعب حتى ان « من اطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسهُ سؤالاً » . والعزم لغةً عقد القلب على الشيء فمن عقد قلبهُ على امرٍ وارادهُ قدر عليهِ ألا ترى ان رشليه ونبوليون الاول طلبا ان تلغى كلمة مستحيل من كتب اللغة . اما نبوليون فكان اكره شيء اليهِ هذه الكلمات « لا اقدر . لا اعرف . مستحيل » فكان جوابهُ عن الاولى حاول وعن الثانية تعلم وعن الثالثة جرّب . وكاتبو سيرة حياتهِ يقولون انها مثال للنشاط في استعمال القوى التي لا يخلو قلب من جراثيمها . ومن امثالهِ انَّ من الحزم لحكمة . ولا يمكن ان يظهر مقدار ما تفعلهُ الارادة اكثر مما ظهر في حياة هذا الرجل العجيب لانهُ صب كل قوى عقلهِ وجسدهِ على عملهِ فاخضع امماً وقهر ممالك وقيل لهُ يوماً ان جبال الالب الشاهقة تمنعك عن التقدم فقال يجب ان تلغى من الارض . وهو الذي قال ان كلمة مستحيل لا توجد الاَّ في قاموس المجانين . وكانت اشغالهُ تفوق الوصف فكان يشغل اربعة كتبة وينهكهم من التعب . وقد التى النخوة في قلوب كثيرين . وقال مرة انني صنعت قوادي من الطين . لكن يسوءنا ان نقول ان حبهُ

لنفسهِ اضرَّهُ واضرَّ قومهُ معهُ بعد ان تركهم فوضى . ويظهر من حياتهِ ان القوة التي لم تؤسس على المبادئ الصحيحة تضر باصحابها وان الفطنة بلا صلاح مبدأ شيطاني

واما ولنتون الشهير فلم يكن اقل من نبوليون عزماً واقداماً ولكنهُ كان منكراً نفسهُ عفيفاً محبّاً لوطنهِ كان غرض نبوليون الاقصى المجد وغرض ولنتون القيام بالواجب حتى قيل ان كلمة «المجد» لم ترد في كل كتاباتهِ واما كلمة «واجبات» فكثيراً ما وردت ولكن ليس بالعُجب والافتخار. واقوى الصعوبات لم توهن عزم هذا البطل بل كانت قوتهُ تعظم بتعاظم المصاعب المحيطة بهِ . وما اظهرهُ من الصبر والثبات والحزم في حرب اسبانيا يفوق وصف الواصفين لانهُ اقام هناك قائداً وحاكماً وكان غاية في حدة الطبع الاّ ان عقلهُ حكم على طبعهِ فظهر لمن حولهُ غايةً في الصبر والجلد ولم يشب اخلاقهُ الحميدة شيء من الطمع والحسد او الهوى فاجتمعت فيهِ مهارة نبوليون في القيادة وجسارة كليف وسياسة كرمول وعفة وشنطون وخلّد اسمهُ في سجل الحكمة والاقدام

واوّل ظواهر النشاط السرعة . قال الشاعر

وربما فات قوماً جل امرهمِ من التأني وكان الحزم لو عجلوا

قيل سألت اللجنة الافريقية لدبرد السائح متى تسافر الى افريقية (بعد ان عينتهُ للذهاب اليها) فاجاب غداً . ولما سُئل جون جرفيس (وهو الذي لقب بعدئذ ارل سنت ڤنسنت) متى تكون مستعدّاً للنزول في سفينتك اجاب « الآن » . ولما عين السر كولن كمبل قائد للجيش الهندي سُئل متى تكون مستعدّاً للسفر فاجاب غداً . وبالسرعة وانتهاز الفرص يُكتسب الظفر قال نبوليون انني انتصرت في واقعة اركولا بخمسة وعشرين فارساً وذلك انني انتهزت فرصة تعب العدو واقتحمتهُ بهم بعد ان اعطيت كلاً منهم بوقاً فتغلبت عليهِ .

والجيوش المتحاربة شبه رجلين يتصارعان وكلٌ منهما يحاول ارهاب الآخر فاذا ارتعب احدهما واغتنم الآخر فرصة رعبتهِ قهرهُ . وقال مرةً اخرى انهُ كسر النمساويين لانهم لم يعرفوا قيمة وقتهم

والعرب تقول الحرب خدعة اي تنقضي بخدعة ويقال ان معنى كون الحرب خدعة ان الظفر فيها يكون بحسن التدبير والحزم لا بمجرد الشجاعة والاقدام كما قال ابو الطيب المتنبي

ولربما طعن الفتى اقرانهُ بالرأي قبل تطاعن الاقرانِ

ومن هذا القبيل ما حكي عن عنترة العبسي انهُ قيل لهُ انت اشجع العرب واشدهم بطشاً فقال لا فقيل لهُ كيف شاع لك هذا الاسم بين الناس قال اني اقدم اذا رأيت الاقدام عزماً واحجم اذا رأيت الاحجام حزماً ولا ادخل مدخلاً الاَّ اذا رأيت لي منهُ مخرجاً واعتمد الضعيف الساقط فاضربهُ ضربة يطير منها قلب الشجاع فانثني عليهِ فآخذهُ والحرب خدعة

ولقد كانت بلاد الهند في القرن الماضي ميداناً للنشاط الانكليزي فانهُ قام من كليف الى هفلوك وكليد حكام وقواد طارت شهرتهم في الآفاق كولسلي ومتكلف واترم وادوردس ولورنس وهستنس . وهستنس هذا من عائلة قديمة شهيرة دهمها الفقر لتبذيرها وانتصارها لآل ستورت فانحط شأنها وساءت حالها فالجأها الفقر الى بيع دالسفرد بعدما ملكتها مئات من السنين . ولما ولد هستنس كانت العائلة قد افتقرت فتعلم في مدرسة القرية مع اولاد الفلاحين وكان يلعب في الاملاك التي كانت تخص اسلافهُ الاَّ انهُ لم يبرح من بالهِ ما كان لهم من المجد والسودد. قيل انهُ وهو في السابعة اتكا على ضفة غدير جارٍ في املاك اسلافهِ وجعل يتأمل في ما كانوا عليهِ فختم على نفسهِ ان يسترجع املاكهم واسمهم. فكرُ صبيٍّ غرٍ ولكنهُ عاش حتى اخرجهُ من حيز الفكر الى حيز الفعل لانهُ ربي معهُ واصبح جزءًا من حياتهِ .

وبعزمهِ واقدامهِ صار من اعظم رجال عصرهِ فاستردَّ املاك اجدادهِ وبنى بيت اسرتهِ . قال فيهِ ما كولي انهُ بينما كان يتسلَّط على خمسين مليوناً من اهالي اسيا ويقوم بادارة امورهم كانت آمالهُ كلها متجهة الى رد دالسفرد ولما انتهت اعمالهُ اعتزل اليها ليموت فيها

والسر تشارلس نپير قائد آخر من قواد الهند يضرب بهِ المثل في الشجاعة والحزم . قال مرة عن الشدائد الكثيرة التي كانت تحيط بهِ في احدى المواقع انها لا تزيدني الاَّ ثباتاً ورسوخاً. وواقعة مياني التي انتصر فيها من اعجب الوقائع لانهُ تغلب فيها على خمسة وثلاثين الف بلوخي شاكي السلاح بالفي رجل وذلك انهُ كان يثق بنفسهِ وبقوة جنودهِ فاقتحم بهم الاعداء بلقب اشد من الحديد ودام القتال ثلاث ساعات متواصلة فقهرهم واضطرهم الى الهزيمة بعد ان قتل منهم خلقاً كثيراً . ولم يفز الاَّ بثباتهِ وبما بثَّهُ في صدور رجالهِ من الحمية والبسالة. وكثيراً ما يكون بين الغالب والمغلوب فرق يسير وقد لا يوجد فرق سوى ان الغالب يثبت بضع دقائق اكثر من المغلوب وثبات خمس دقائق كافٍ للظفر كما ان المجلّي من خيل الرهان لا يفوت المصلي الاَّ مسافة يسيرة جدًّا . قال شاب اسبرطي لابيهِ وقد قلدهُ سيفاً يا ابتِ هذا السيف قصير فقال لهُ ابوهُ تقدم بهِ خطوة فيصير طويلاً

وما من وسيلة استخدمها نپير لبث الحماسة في قلب جنودهِ الاَّ شجاعتهُ الشخصية فكان يتعب كما يتعب كل جندي ويقول ان القيادة لا تقوم الاَّ بمقاسمة الجنود اتعابها ولا ينجح القائد مالم يصبَّ كل قوى عقلهِ وجسدهِ على عملهِ ويحتمل كل المتاعب ويعرّض نفسهُ لكل الاخطار . قال بعض الشبان في واقعة كتشي وكان تحت قيادتهِ «كيف يمكنني ان اتكاسل وانا ارى هذا الشيخ (يريد بهِ نپير) على ظهر جوادهِ دائماً فلو امرني ان ازج بنفسي في فم مدفع محشو لفعلت» وبلغ نپير هذا الكلام فقال ان هذا جزاء كافٍ على كل ما عانيت من

المشاق . ومما يظهر شجاعة هذا البطل وانصافهُ الحادثة التي وقعت لهُ مع المشعوذ الهندي وهي ان مشعوذاً هنديّاً شهيراً لعب امامهُ وامام عائلتهِ وحاشيتهِ العاباً كثيرة ومنها انهُ وضع ليمونة صغيرة كالجوزة في كف رفيقهِ وضربها بالسيف فقطعها شطرين فارتاب الجنرال نبير في صحة ذلك ونسبهُ الى مواطأة بين السيّاف ورفيقهِ ودفعاً للريب طلب ان يمسك الليمونة بيدهِ ومد يمينهُ فنظر اليها السياف وقال لا يمكنني ان اضربها هنا فقال نبير هكذا ظننت . فقال السياف مدّ شمالك فمدها فقال له اذا كنت قادراً ان تثبتها فانا اضرب الليمونة فيها فقال ولمَ لا تضربها في اليمنى فاجاب لان كفك اليمنى مقعرة فاخاف ان اقطع ابهامك واما اليسرى فليست كذلك فيكون الخطر اقل . قال نبير وحينئذٍ ارتعدت فرائصي لانني تأكدت انهُ يضرب الليمونة حقيقة ولو لم اكن قد نسبتهُ الى الخداع امام رجالي لعدلت عن المخاطرة بيدي فمددت شمالي ووضعت الليمونة في كفها فاستل سيفهُ وضربها فقطعها شطرين وشعرت كأن خيطاً بارداً مرّ على يدي . الى ان قال انظروا الى مهارة فرسان الهند الذين غلبهم رجالنا في واقعة ميانى

والحوادث الاخيرة التي حدثت في الهند اظهرت جلياً همة الامة الانكليزية وتعويلها على نفسها ففي شهر مايو سنة ١٨٥٧ ثارت الفتنة في كل بلاد الهند وكانت الجيوش الانكليزية حينئذٍ على اقلها وكانت مشتتة في كل انحاءِ البلاد والجنود البنغالية عصت روساءها وانطلقت الى دهلي . وانتشرت الثورة في كل الولايات والتي النفير في كل البلاد وقام جميع الاهالي على الانكليز حتى خيل لعين الرائي ان الدولة الانكليزية فقدت بلاد الهند وفقدت رجالها الذين فيها . وقبلما امتدت الثورة استشار احد امراءِ الهند المنجمين فقالوا لهُ اذا لم يبقَ من الاوربيين الّاً رجل واحد فلا بد ان يتغلب علينا اخيراً . وكان في لكنو قليلون من الانكليز فتحصنوا هم ونساؤهم وبقوا اشهراً ولا

اتصال بينهم وبين الانكليز الذين في باقي الجهات وهم لا يعلمون هل البلاد باقية في حوزة دولتهم او تحررت منها الا انهُ لم يخر عزمهم ولم تضعف ثقتهم بابناء وطنهم بل كانوا متأكدين انه مادام في الهند رجل انكليزي فهو يفكر فيهم . ولم يخطر على بالهم الا الثبات الى آخر نسمة من حياتهم فاظهر الجميع شجاعة تفوق الوصف من قواد العساكر حتى النساء والاولاد . ولم يكن هؤلاء الناس منتخبين من بين قومهم وممتازين عليهم بل كانوا كغيرهم ممن يقع نظرنا عليهم كل يوم في الشوارع والمعامل والحقول والمزارع ولكن لما داهمتهم المخاطر اظهر كل منهم من البسالة والاقدام ما يفوق التصديق قال منتالنبر ما من احد منهم خاف او ارتعب بل الجميع من القواد العظام حتى الاولاد الصغار دافعوا عن نفوسهم الى آخر نسمة من حياتهم . ففي مثل هذه الاحوال تظهر فائدة التربية الانكليزية التي تدعو كل انكليزي لكي يستخدم قوتهُ ومقدرتهُ في كل حال من احوال الحياة

ويقال ان دهلي أخذت والهند أنقذت بمناقب السر جون لورنس لان اسمهُ في الولايات الشمالية الغربية كان رمزاً الى القوة ومناقبهُ تساوي قوة جيش جرار . وما قيل فيهِ يقال في اخيهِ السر هنري لورنس . وكان الجميع يحبون هذين الاخوين محبة فائقة ويثقون بهما ثقة قوية لما رأوهُ فيهما من الشفقة والصلاح . قال الكولونل ادوردس « انهما طبعا في عقول الشبان من الاخلاق والمحامد ما فعل فعل الديانة فكانهما انشأا ديانة جديدة » وكان مع السر جون لورنس منتغمري ونكلصن وكُتن وادوردس وكلهم من النبلاء الحاذقين الحازمين ونكلصن كان من اشجع الناس واكملهم خَلقاً وخُلقاً حتى لقبهُ الاهالي حكيماً ودعاهُ اللورد دلهوسي برج قوة . وكانت كل اعمالهِ من الطراز الاول لانهُ ما عمل شيئاً الا انصب عليهِ بكليتهِ ولذلك قام قوم من الدراويش وعبدوهُ فقاصَّ بعضهم لجهلهم الا انهُ لم يقدر ان يردهم عن عبادتهِ

اما حصار دهلي والضيقة التي اصابت الجنود الانكليزية الذين لم يكونوا اكثر من ثلاثة آلاف وسبع مئة وعدد جنود العدو المحصور اكثر من ٧٥٠٠٠ فمن الامور النادرة المثال لان تلك الشرذمة من الانكليز غلبت اخيراً كل قوات الهند وفتحت دهلي ورفعت فوقها الراية الانكليزية بعد ان هاجمها الهنود ثلاثين مرة فردتهم . وقد اظهر كل جندي من الجنود الانكليزية بسالة يعجز القلم عن وصفها . ولا ينكر ان هذا الفصل من تاريخ الامة الانكليزية قد كلفها كلفة باهظة ولكن اذا اعتبرنا العبر الجزيلة الفائدة التي يراها من يطلع عليها من اولادها رأينا ان المثمن ليس دون الثمن

وقد ذهب الى الهند وغيرها من بلاد المشرق اناس من امم مختلفة واظهروا همةً واقداماً في امور انفع للجنس البشري من الحرب . واذا ذكرنا ابطال السيف وجب ان لا ننسى ابطال الدين فاننا اذا تتبعنا حياة هؤلاء الافاضل من زفير الى مرتين وولمس رأينا عدداً من الدعاة الذين ضحوا بحياتهم ومصالحهم على مذبح محبة الجنس البشري غير مفتشين عن شيء من الفخر والشرف العالميين وغير قاصدين سوى خلاص البشر . كيف لا وقد احتملوا كل نوع من المتاعب والبلايا وكانوا عرضة لكل نوع من المخاطر حتى الاستشهاد ومع ذلك لم ينثنوا عن عزمهم ولا خارت عزائمهم . ومن اوّل هؤلاء الدعاة واشهرهم فرنسيس زفير فانهُ ولد من عائلة شريفة وكان مخنوفاً من صغره بالغنى والشرف الاَّ انهُ اثبت بحياتهِ وجود امور اشرف من امجاد العالم امور تستحق الاقتناء اكثر من كل مقتنياتهِ . وكان من افضل الرجال مناقب واشجعهم قلباً والينهم عريكة واصدقهم فعالاً والحمهم حجةً واكثرهم جلداً

لما عزم الملك يوحنا الثالث ملك البرتوغال على نشر الديانة المسيحية في الولايات الهندية الخاضعة لهُ اختار زفير لهذا العمل فقام

ورفاً جبتهُ الحلق واخذ كتاب الصلوات وانطلق الى لسبون واقلع منها الى المشرق وكان ذاهباً في السفينة التي ذهب فيها حاكم غوى ومعهُ كتيبة من الف جندي فعينت لهُ قمرة لينام فيها فاختار النوم على ظهر السفينة ووسادتهُ لفة حبال وكان يأكل مع الملاحين ويسليهم ويعتني بهم اذا اصابهم الدوار فاحبوهُ واكرموهُ اكراماً جزيلاً

ولما وصل الى غوى دهش من فساد السكان من اوربيين ووطنيين لان الاوربيين جلبوا معهم كل معايب اوربا والوطنيين لم يقتدوا بهم الاَّ في القبيح فجال في الشوارع وكان يدعو الناس ويستعطفهم ليرسلوا اليهِ اولادهم لكي يعلمهم ولم يمضِ الاَّ مدة قصيرة حتى صار عندهُ كثيرون من التلامذة فبذل جهدهُ في تعليمهم وكان مواظباً على افتقاد المرضى والمجذومين والبئسين من كل صف ورتبة لكي يخفف مصائبهم ولم يسمع بانسان مصاب الاَّ زارهُ وفرَّج كربهُ بقدر امكانهِ. وسمع مرة ان الغواصين في منار في حالة يرثى لها فمضى اليهم حالاً وجعل يعمدهم ويعلمهم بواسطة الترجمان. واما تعليمهُ الاعظم فكان بواسطة اعمال الرحمة التي عملها لهم واقام ثلاثين كنيسة في رأس كومورن وعين لها ثلاثين معلماً. ومن ثم انتقل الى ترافنكور وجال في قراها وهو يعمد ويعلم حتى كلَّت يداهُ وبُح صوتهُ. ولقد قال ان نجاحهُ فاق انتظارهُ كثيراً جدًّا. وكثيرون اعتنقوا الديانة المسيحية من نظرهم الى طهارة سيرتهِ

ثم مضى الى ملقا واليابان فوجد نفسهُ بين اقوام يجهل لغاتهم كل الجهل فكان يصلي ويبكي ويعود المرضى والمصابين وكان مفعماً من الايمان والاجتهاد راجياً كل شيء وغير خائف من شيء. ومن جملة ما قالهُ اني مستعد ان احتمل كل نوع من الموت والعذاب لاجل خلاص نفس واحدة. وما من احد يقدر ان يصف مقدار الاتعاب التي كابدها والمخاطر التي وقع فيها مدة احدى عشرة سنة. وفيما كان عازماً

على الوصول الى الصين اصابتهُ حمى شديدة في جزيرة سنكيان قضت على حياتهِ السعيدة وتوجتهُ بتاج المجد . ولعلهُ لم يدس دنيانا رجل اشجع منهُ ولا انبل غاية

وحذا حذو زفير مبشرون آخرون منهم شورتر وكاري ومرشمن وكتزلف ومريصن ووليمس وكمبل ومُفات ولفنستون . اما وليمس فكان في صباهُ صانعاً عند رجل يبيع الادوات الحديدية . وكان ماهراً في الحدادة ومغرماً بتعليق الاجراس وبكل عمل يبعدهُ عن دكان معلمهِ .وحدث انهُ سمع عظة مؤثرة اثرت فيهِ تأثيراً عميقاً فصار معلماً في مدرسة من مدارس الاحد ثم طرق اذنيهِ امر التبشير في الاصقاع البعيدة فعزم ان يقف نفسهُ على هذا العمل وعرض خدمتهُ على جمعية التبشير الانكليزية فارسلتهُ الى جزائر الاوقيانوس الباسيفيكي وكان يعمل بيديهِ في الحدادة والحراثة وبناءِ السفن واجتهد في تعليم الاهالي هذه الصنائع وهو يبشرهم بالديانة. وبينما هو في وسط عملهِ قام عليهِ البرابرة في ارومنكا وقتلوهُ وانهُ لجدير بلبس اكليل الاستشهاد

اما الدكتور لفنستون فكان أسلافهُ فقراء ولكنهم كانوا مشهورين بالصدق والامانة وان واحداً منهم مشهوداً لهُ بالحكمة والفطنة دعا اولادهُ عند ما حضرتهُ الوفاة وقال لهم انني قد نظرت في كل اخبار اسرتنا التي وصلت اليها فلم اجد بين كل اسلافنا رجلاً عديم الاستقامة فلذلك اذا سار احدكم او احد اولادكم في طرق معوجة فلا يكون ذلك لاصل وراثي . ووصيتي الاخيرة لكم ان تسيروا بالاستقامة

ولما بلغ لفنستون العاشرة من عمرهِ وُضع في معمل قطن بالقرب من غلاسكو فاخذ اجرة الاسبوع الاوَّل واشترى بقسم منها كتاب نحو لاتيني وعكف على درس هذه اللغة في مدرسة ليلية وكان يحيي اكثر من نصف الليل في الدرس فقرأ فرجيل وهوراس وكل كتاب

وصلت اليهِ يدهُ الاَّ القصص والروايات. وكان مغرماً بقراءة الكتب العلمية والرحلات وعكف ايضاً على درس علم النبات مع ضيق وقتهِ وطاف في اراضي كثيرة ليجمع منها النباتات وكان يأخذ كتبهُ معهُ الى المعمل ويضع الكتاب امامهُ وهو آخذ في عملهِ فارتشف قدراً جزيلاً من بحار المعارف. ولما تقدم في السن قام فيهِ ميل شديد الى تبشير الوثنيين فعزم على درس الطب لكي يصير اهلاً لهذا العمل واخذ يقتصد في نفقتهِ حتى صار معهُ ما يكفيهِ لدرس هذا الفن فدخل مدرسة غلاسكو وكان يدرس الطب واليونانية واللاهوت ويعمل مدة الفرص في معمل القطن ولم يقبل مساعدة من احد بل كان يحصل كل ما يكفيهِ ويكفي لدفع اجرة المدرسة بتعب يديهِ. وقال بعد سنين عديدة انني حينما التفت الى حياتي الماضية حياة التعب اشكر الله لانني حصَّلت ما حصلتهُ بتعبي واجتهادي واود ان ابتدىء بحياتي جديداً على المنهج الاول من التعب والاجتهاد. وكان في نيتهِ ان يذهب الى الصين ولكن كانت الحرب ناشبة فيها فعدل عن الذهاب اليها وعرض نفسهُ على جمعية التبشير الانكليزية فارسلتهُ الى افريقية فوصلها سنة ١٨٤٠ ولم يكن شيءٌ يزعجهُ في ذهابهِ الى افريقية او يكدر صفاء عيشهِ الاَّ ذهابهُ اليها على نفقة غيرهِ لانهُ قال لا يليق بشخص اعتاد فتح طريقهِ بيدهِ ان يعتمد على غيرهِ. ولما وصل الى افريقية لم يرد ان يبشر حيث بشَّر غيرهُ بل اختط لنفسهِ قسماً من البلاد لم يبشر فيهِ احد قبلهُ وكان يبشر ويعلم ويعمل بيديهِ كل اعمال الفلاحة والنجارة والبناء وحفر الترع وتربية المواشي وعلَّم الاهالي هذهِ الصنائع ايضاً ولم يدع دقيقة من الوقت تذهب سدى. وذات يوم سافر مع نفر من الاهالي ماشياً فسمع البعض منهم يقولون انهُ ليس قوي البنية ولكن تظهر لهُ مهابة لانهُ لابس كيسين (يعني بنطلوناً) وهو دوننا قوة فحرك فيهِ هذا الكلام النخوة الاسكتسية

فواصل السير اياماً عديدة وهو دائماً امامهم الى ان اعياهم التعب وسمعهم يتعجبون من استطاعته على السير

ومن الرجال العظام يوحنا هوَرْد الذي دلَّت حياتهُ على ان الضعف الطبيعي يقدر ان يزحزح جبالاً من المصاعب . كان كل اهتمام هذا الرجل موجهاً الى اصلاح شأن المجسونين وقد تمكن فيهِ هذا الاهتمام حتى صار ملكه ولم يثنهِ عنهُ تعب ولا خطر ولا مرض ولا امر من الامور . وكان خالياً من المواهب الفائقة ومعتدلاً في قواه العقلية الاَّ انهُ كان ذا عزيمة ثابتة وصدر رحب فحاز شهرة عظيمة واثر تأثيراً عظيماً في المحاكم الانكليزية وغير الانكليزية ولم يزل تأثيره حتى يومنا هذا

ويونس هنوي رجل آخر من الرجال العظام الذين اوصلوا انكلترا الى ماهي عليهِ بجدهم ودأبهم وتركوا بعدهم ذكراً جميلاً وايادي لا تنسى . ولد هذا الرجل سنة ١٧١٢ ويتم من ابيهِ وهو صغير فانتقلت امهُ الى لندن لكي تعلم اولادها واجتهدت كثيراً في تربيتهم وتهذيبهم. ولما بلغ السابعة عشرة ارسل الى لسبون ليكون صانعاً عند تاجر من تجارها وبذكائهِ وتدقيقهِ واستقامتهِ اكتسب محبة كل من تعرف بهِ . ثم رجع الى لندن سنة ١٧٤٣ ودخل في شركة تجار مركزهم في بطرسبرج وتجارتهم في بحر قزبين فمضى الى هناك ولم يلبث ان وصل حتى انطلق الى بلاد فارس ومعهُ حمل عشرين مركبة من الانسجة الانكليزية فوصل الى استراخان واقلع الى استراباذ في الجنوب الشرقي من بحر قزبين وحالما وصل الى الشاطيء اعترضهُ قوم من العصاة ونهبوا بعض ما معهُ . ثم علم انهم كانوا قاصدين القبض عليهِ وعلى الرجال الذين معهُ فحذر الخطر قبل وقوعهِ ووصل الى غيلان بعد ملاقاة اخطار كثيرة . ونجاتهُ العجيبة في هذه النوبة جعلتهُ ان يقول الكلام الذي صيرهُ دستوراً لحياتهِ وهو « لا تيأس قط » ثم رجع الى بطرسبرج

واقام فيها خمس سنوات سائراً في سبيل النجاح . وفي غضون ذلك مات احد انسبائهِ وترك لهُ ميراثاً كبيراً وكان هو قد كسب غنى وافراً فرجع الى وطنهِ سنة ١٧٥٠ لاصلاح صحتهِ المنحرفة وعمل الخير لابناءِ جلدتهِ فقضى باقي حياتهِ في الاعمال الخيرية . واوَّل عمل خيري شرع فيه اصلاح طرق لندن فنجح في ذلك ايَّ نجاح . ثم شاع ان الفرنساويين عازمون على غزو انكلترا فوجه اهتمامهُ الى ايجاد وسيلة لتقوية رجال البحر فاستدعى مجلس شورى من التجار واصحاب السفن وذاكرهم في هذا الشأن وطلب منهم ان يعقدوا لجنة غرضها اعداد رجال متطوعين ليحاربوا في سفن الدولة فلبوا طلبهُ فتألفت لجنة لذلك وعين هو مديراً لها ولم تزل هذه اللجنة قائمة حتى يومنا هذا وقد اتت بفوائد عظيمة للامة وقبلما مضى عليها ست سنوات اعدت ١٠٢٣٨ من المتطوعة

ثم التفت الى انشاءِ المباني العمومية في العاصمة من ذلك اصلاح شأن مستشفى اللقطاءِ وانشاء مستشفى المجدلين . الاَّ ان معظم اهتمامهِ كان موجهاً الى تربية اطفال الفقراءِ فان اولئك الاطفال كانوا في حالة يرثى لها من الشقاءِ وكان يموت منهم عدد غفير لقلة الاعتناء بهم فعقد قلبهُ على هذا العمل الخطير وبحث في هذه القضية بنفسهِ حتى عرف اتساع خرقها لانهُ دخل مساكن الفقراءِ في لندن وسوادها ولاسيما المرضى منهم وعرف احوالهم تماماً . ثم انطلق الى فرنسا على طريق هولاندا وزار بيوت الفقراءِ المقامة ملاجىء لهم لكي يرى ما يمكن اقتباسهُ منها في اقامة بيوت مثلها في بلاد الانكليز فقضى في ذلك خمس سنوات ثم عاد الى انكلترا ونشر خلاصة بحثهِ في البلاد فكانت سبباً لاصلاح شؤون فقرائها . وقضى العمر يغيث الملهوف ويعين المحتاج وينهض رجال الدولة الى سن الشرائع التي تعود على الفقراءِ بالنفع . وكان لا يتعب ولا يمل ولا يأنف من امر مهما عدَّهُ الناس زريًّا اذا كان

متيقناً نفعهُ . وهو اوَّل من سار في شوارع لندن حاملاً مظلة ولا يخفى ما لحقهُ بذلك من الاهانة لمخالفتهِ زي البلاد ولكنهُ ما انفك يحملها مدة ثلاثين سنة حتى شاع استعمالها كثيراً . وكان همامًا صادقاً مستقيماً . خدم الدولة في منصب ابواب الرشوة واسعة فيهِ ولكنهُ كان يردُّ الهدايا الى اصحابها قائلاً اني حتمت على نفسي الأَ اقبل شيئاً مثل ذلك . ولما حضرتهُ الوفاة تأهب لها تأهبهُ للسفر فوفى كل ديونهِ ورتب كل اموره ِ وودَّع اصدقاءهُ وانضم الى آبائهِ وهو في الرابعة والسبعين ولم تبلغ تركتهُ سوى الفي جنيه وكان قد اوصى بها لبعض الايتام والبئسين اذ لم يكن لهُ وارث

وهاك مثالاً آخر للنشاط في حياة كرنفيل شرب الذي هو اول من اجتهد في الغاء العبودية ثم سلَّم هذا العمل العظيم الى اناس مشهورين مثل كلركسن وولبرفورس وبكستون وبروم وهؤلاء الرجال من الافراد النادري المثال ولكنَّ كرنفيل اشدهم نشاطاً وبسالة. وقد ابتدأ صانعاً عند رجل يبيع المنسوجات ولما انتهت خدمتهُ عندهُ جُعل كاتباً في دار الاسلحة وهناك شرع في هذا العمل العظيم اي عتق الرقيق . وكان من صغرهِ عالي الهمة لا يحجم عن عمل نافع من ذلك انهُ وهو صانع عند بائع الانسجة كان لهُ رفيق من الموحدين (فئة من النصارى تنكر التثليث) فتناظرا في بعض المواضيع الدينية فادعى الموحد ان كرنفيل بانِ اعتقادهُ في التثليث على آيات من الكتاب لا يفهمها لانهُ لا يعرف اللغة اليونانية فدبَّت الحمية في راسهِ واخذ يدرس اليونانية في ساعات الفراغ فلم يمضِ عليهِ وقت طويل حتى صار يعرفها معرفة كافية لغرضهِ . ثم حدثت مناظرة أُخرى بينهُ وبين رجل يهودي من جهة تفسير النبوات فتعلم اللغة العبرانية لكي يفحم خصمهُ

وكان لهُ اخ طبيب اسمهُ وليم كان يشاهد المرضى والمصابين فاستشارهُ رجل اسود مسكين اسمهُ يوناثان سترن في مسئلة جراحية

وكان هذا المنكود الحظ عبداً لمحام بربدوزي وقد اساء معاملته حتى كاد يصير اعمى واعرج ولما رأى انهُ صار عديم النفع طردهُ من بيتهِ ليموت جوعاً فاخذ يستعطي ليقوت نفسهُ مع ما بهِ من الادواءِ الى ان ساقهُ سعدهُ الى وليم شرب فعالجهُ ثم ادخلهُ مستشفى مار برتلماوس فبقي فيهِ الى ان شفي . ولما خرج من المستشفى عالهُ وليم واخوهُ الى ان وجدا لهُ عملاً عند صيدلاني فبقي في خدمة الصيدلاني سنتين . وحدث يوماً انهُ كان ذاهباً مع امرأة معلمهِ الصيدلاني فمر بهِ سيدهُ القديم اي المحامي ولما رأى انهُ قد تعافى استدعى اثنين من الشرط وامرهما بان يقبضا عليهِ عازماً ان يرسلهُ الى الهند الغربية ففعلا ووضعاهُ في محرس . فلما رأى نفسهُ في هذه الحالة تذكر كرنفيل شرب وما عملهُ معه من الاحسان فارسل اليهِ كتاباً يخبرهُ بحالهِ ويطلب مساعدتهُ . اما شرب فكان قد نسيهُ تماماً ولذلك ارسل رسولاً ليبحث ويرى مَن هو سترن هذا فانكر الشرطة ان عندهم رجلاً بهذا الاسم ولما أُخبر شرب بذلك كثرت عندهُ الظنون فقام لساعتهِ وانطلق الى المكان الذي كان فيهِ العبد ولم يرجع حتى رآهُ فعرفهُ واوصى رئيس السجن ان لا يسلمهُ لاحد حتى يعرض امرهُ على حاكم المدينة ثم قابل الحاكم وعرض لهُ واقعة الحال . فاستدعى الحاكم العبد واللذين مسكاهُ وكان سيدهُ السابق قد باعهُ من رجل آخر فحضر هذا ايضاً وادعى بهِ ولم يكن الحاكم قادراً ان يحكم بحريتهِ ولا بعبوديتهِ ولا كانت لهُ دعوى جنائية فاطلقهُ فتبع مستر شرب ولم يجسر احد ان يدنو منهُ الا ان سيدهُ استخرج امراً من الحكومة بارجاعهِ اليهِ

وكانت الحرية الشخصية في ذلك الوقت اي نحو سنة ١٧٦٧ قائمة بالقول لا بالفعل لانهُ كان في كل المدن الكبار قوم دأبهم خطف الناس وارسالهم الى الهند خداماً للشركة الهندية واذا استغنت الشركة عنهم في الهند كانت ترسلهم الى المهاجر الانكليزية في اميركا ليكونوا

فيها عبيداً . وكان بيع العبيد يُعلن في الجرائد بل كان يعلن حلوان من دلّ على عبد آبق . وكانت مسئلة الاستعباد غامضة والحكم فيها متقلباً غير ثابت وكان الرأي العام ان من دخل انكلترا نجا من ربقة العبودية الا ان اناساً كثيرين من ذوي الشهرة والمكانة كان رأيهم خلاف ذلك وهذا كان رأي المحامين الذين استغاث بهم شرْب على عتق سترن حتى ان وزير الحقانية اللورد منسفيلد واكثر كبار المحامين كان رأيهم ان العبد يبقى عبداً ولو دخل انكلترا وان ابق وجب ردهُ الى سيدهِ شرعاً . وهذا كان يجب ان يقطع آمال شرْب من اطلاق سبيل سترن ومن الانتصار للعبيد ولكنهُ زادهُ همةً ونشاطاً فعزم ان ينتصر لهم ويدافع عن حريتهم الى آخر نسمة من حياتهِ ولذلك رأى ان لا بدّ لهُ من تعلم الحقوق لان المحامين الذين التجأ اليهم لم يكونوا من رأيهِ . ولم يكن قد فتح كتاباً في علم الحقوق قبل ذلك فابتاع كتباً كثيرة واخذ يطالعها صباحاً ومساء لانهُ كان يعمل النهار كلهُ في بيت الاسلحة كما قدمنا فصار عبداً وهو يحاول تحرير العبيد . وكتب مرةً الى احد اصدقائهِ يقول لهُ اعذرني لاني لم ارد على كتابك في حينهِ لان الوقت الذي كنت املكهُ من الليل قد ملكتهُ لمطالعة بعض الكتب وهي تستدعي وقتاً طويلاً واجتهاداً عظيماً

ودام على مثل ذلك سنتين كاملتين وهو يطالع كتباً كثيرة ويدون كل ما يوافقهُ من احكام مشاهير القضاة وقرارات البارلمنت ولم يكن لهُ مساعد ولا مرشد بل لم يجد محامياً واحداً من رأيهِ . الاَّ ان نتيجة درسهِ كانت حسب رغبتهِ الامر الذي انذهل منهُ كل رجال القضاء. ومما كتبهُ حينئذٍ قولهُ الحمد لله انني لم ارَ في كل شرائع دولتنا الانكليزية ما يجيز استعباد البشر . ثم كتب نتيجة بحثهِ في ملخص سهل العبارة واضح الاشارة سماهُ بطلان اباحة العبودية في انكلترا ونسخ منهُ نسخاً كثيرة بيدهِ ووزعها على اشهر محامي عصرهِ . فلما

رأى سيد سترن من شرب ذلك حاول تأخير المرافعة ثم طلب ان يتراضوا بلا مرافعة فلم يقبل شرب بذلك واستمر على توزيع النسخ على رجال القانون حتى ان المحامين الذين اختارهم سيد سترن تنحوا عن المحاماة فالتزم ان يدفع ثلاثة اضعاف النفقات لانهُ لم يمكنهُ اثبات دعواهُ. وحينئذٍ طُبعت رسالة شرب المار ذكرها

ونحو ذلك الوقت حدثت في لندن حوادث كثيرة من اختطاف السود وارسالهم ليباعوا في الهند الغربية اما شرب فكان ينقذ بامر الحكومة كل من عثر عليهِ منهم ومن ذلك امرأة رجل افريقي اسمهُ هيلاس خطفها البعض وارسلوها الى بربادوز فانتصر لها شرب وخلصها بقوة الحكومة من النخاسين واجبرهم على ردها الى انكلترا. وكان في انكلترا زنجي اسمهُ لويس ادعاهُ رجل وارسل اثنين فمسكاهُ وقيداهُ ومضيا بهِ الى سفينة مسافرة الى جمايكا فسمع البعض صراخهُ ومضوا واخبروا شرب وكان قد اشتهر امرهُ حينئذٍ بتخليص العبيد. فعرض الدعوى للحكومة وحصل على امر باطلاق العبد ولما صدر الامر كانت السفينة قد سافرت فاستصدر اوامر مشددة من الحكومة تقضي باتباع السفينة ورد العبد فتتبعت قبل ان باينت شواطئ انكلترا واذا بذلك المسكين مقيد الى السارية مغتسل بدموعهِ فاطلق وجيء بهِ الى لندن والقي القبض على النخاس فرفعت الدعوى الى وزير الحقانية منسفيلد وقد تقدم ان رأيهُ يخالف رأي شرب فلم يرد ان يحكم في هذه الدعوى لا سلباً ولا ايجاباً ولكنهُ اطلق العبد لان النخاس لم يقدر على تقديم بينة ان العبد ملك لهُ

ولم تكن حرية العبيد مثبتة في لندن حتى ذلك الوقت غير ان شرب لم يكف عن انقاذ كل من مكنتهُ الفرصة من انقاذهِ واخيراً عُرضت دعوى جمس سمرست الشهيرة ويقال ان هذه الدعوى عرضت بتواطوء لورد منسفيلد ومستر شرب لكي يُثبَت الحكم في

مسئلة تحرير العبيد بتّاً قانونيًّا نهائيًّا . وسمرْست هـذا عبد جلبهُ سيدهُ معهُ الى لندن ثم قصد ان يرسلهُ الى جمايكا و يبيعهُ فيها فقام مستر شرب وانتصر لهُ فقال لورد منسفيلد ان هذه الدعوى مهمة جدًّا فيجب ان يؤخذ فيها رأي كل القضاة فقامت على مستر شرب جميع قوَّات المملكة الاَّ انهُ رأى نفسهُ كفئاً لها لما عندهُ من ثبات العزم . ولحسن حظهِ وجد كثيرين من القضاة قد غيروا رأيهم وصاروا من رأيهِ من قراءتهم رسالتهُ المار ذكرها فالتأم مجلس قضائي من لورد منسفيلد وثلاثة من رؤساءِ القضاة وجرت المذاكرة فيهِ في امر حرية الانسان في البلاد الانكليزية وانها امر واجب ولا تفقد الاَّ لعلة شرعية تزيلها وبعد مباحثات طويلة وتأجيل القضية من وقت الى آخر خرج حكم لورد منسفيلد (الذي كان قد غير رأيهُ بواسطة رسالة شرب) ان لا شيء في الشرائع الانكليزية يعضد العبودية او يجيزها ولذلك يجب ان يطلق سبيل سمرْست . وبهذا الحكم نُقضت تجارة العبيد التي كانت جارية علانية في اسواق لندن ولفربول واثبت شرب القول القائل ان العبد يعتق عند ما تطا رجلهُ ارضاً انكليزية

ولم يكتفِ هذا الشهم بالفوز العظيم الذي فازهُ بل لازم اعمال البر بهمَّة لا يخامرها كلل ولا ملل وبهمتهِ تأسس مهجر سرَّاليون لسكنى العبيد المعتقين واصلح شأن هنود اميركا والغي اجبار الناس على الخدمة البحرية. واجتهد ايضاً في ارجاع الصلات الحبية بين الدولة الانكليزية ومهاجرها في اميركا . ولما نشبت حرب الحرية بين انكلترا واميركا كانت ضد رأيهِ على خط مستقيم فتنحى عن وظيفتهِ في بيت الاسلحة لانهُ لم يطق ان يعمل في عمل لهُ شركة في تلك الحرب المشومة. وبقي الى آخر نسمة من حياتهِ مهتمًّا بالغاء العبودية وبمساعيهِ انتظمت لجنة لالغائها قام منها اناس متقدون غيرةً واجتهاداً واكبوا على تنفيذ مقاصدهِ. ولا عجب اذا فعلوا ذلك لانهم كانوا مضطرمين بما

بثّه في صدورهم من محبة عمل الخير . ولم يساعده هؤلاء وحدهم بل ساعدته الامة كلها الاّ ان اخصّ خلفائه هم كلاركصن وولبرفورس وبروَم وبكستون الذين عملوا في هذه المسئلة باجتهاد يوازي اجتهاده الى ان الغيت العبودية من كل السلطنة الانكليزية والفضل الاول في الغائها لغرنفيل شرب الذي شرع في هذا العمل وكل رجال المملكة ضده فصارعهم جميعاً قضاة ومحامين وتغلب عليهم بثباته واجتهاده وصيرهم له انصاراً . والناس كلهم مديونون لهذا الرجل لانهُ نزع من المسكونة شراً كبيراً حط شأن الانسان زماناً طويلاً . وكل ما حدث بعده هو نتيجة تعبهِ . فهو اول من مسك هذه الشعلة بيدهِ وانار بها بعض العقول فاستنارت وعم ضياؤها المسكونة

وقبلما تُوفي شرب قام كلاركصن ووجّه اهتمامهُ الى هذا الامر حتى انهُ اختارهُ موضوعاً لرسالة مدرسية (رسالة ينشئها الطالب عند ما ينتهي من المدرسة) ثم ترجم هذه الرسالة من اللاتينية الى الانكليزية وطبعها وكانت قد تألفت لجنة الغاء العبودية فانضم اليها وضحّى كل مصالحهِ لاتمام غرضها . وكان شغلهُ جمع البيّنات التي تعين على ابطال العبودية . وكان المحامون عن العبودية يدّعون ان العبيد انما هم اسرى أُخذوا في الحروب وابتياعهم خير لهم من العذاب والقتل حسب عادات بلادهم الاّ ان كلاركصن كان يعرف ان النخاسين يصطادون العبيد صيد الوحوش غير انهُ لم يقدر ان يثبت ذلك بالبينة. وحدث يوماً انهُ التقى بصاحب لهُ وفيما هما يخوضان في الحديث قال لهُ صاحبهُ انهُ يعرف نوتيّاً كان عملهُ اقتناص العبيد الاّ انهُ لا يعرف اسمهُ ولا يقدر على وصفهِ ولا يعرف مقرهُ وكل ما يعرفهُ من امرهِ انهُ في احدى السفن الحربية . فعزم كلاركصن ان يفتش عن هذا النوتي ويأتي بهِ شاهداً فتفقّد كل المرافيء بنفسهِ وفتش كل السفن واخيراً وجد النوتي المشار اليهِ في آخر مرفإٍ وصل اليهِ وفي آخر

-نمينة دخلها فاتى بهِ شاهداً على صدق دعواهُ فكان من اقوى شهودهِ.
وبقي سنين عديدة يفتش عن شهود وادلة اخرى فكاتب اكثر من اربع مئة رجل وسار نحو خمسة وثلاثين الف ميل حتى اضناهُ التعب وخارت قواهُ ولكنهُ لم يترك هذا الميدان حتى نبه افكار الجمهور اليهِ وحرَّك ذوي الشهامة الى المعاضدة على الانتصار للعبيد والشفقة عليهم

وبعد معاناة مشقات كثيرة الغيت تجارة العبيد تماماً . ولكن بقي امر اهمُّ من الغاء التجارة وهو الغاء العبودية نفسها وعتق العبيد وهذا ايضاً تمَّ بهمة ذوي الهمم. واشهر الذين لهم اليد الطولى في اتمامهِ فول بكستون . كان هذا الرجل في صباهُ مشهوراً بالعناد والمكابرة فانهُ يتم من ابيهِ وهو حدث وكانت امهُ فاضلة حكيمة فاجتهدت كثيراً في تربيتهِ تربية صالحة وردع اهوائهِ ولكنها كانت تبيح لهُ الحكم في بعض الامور الطفيفة مرتئية ان الارادة القوية صفة حميدة. وكان معارفها يلومونها لانها ربّت في ولدها هذه القوة فتجيبهم بقولها لا بأس عليهِ من ذلك فان هذه الارادة سيكون منها افادة. ثم ارسلتهُ الى المدرسة فلم يستفد منها شيئاً لطيشهِ وكسلهِ ورجع الى البيت وهو في الخامسة عشرة وكان مولعاً بالصيد وركوب الخيل . وفيما هو في السن التي تبتدىء فيها حياة الشاب اما في المليح واما في القبيح القتهُ التقادير في بيت غرني بيت مشهور بالفضل والتهذيب . وقد شهد من فمهِ بعد دخولهِ في هذا البيت انهُ غيَّر منهاج حياتهِ فهو الذي ساعدهُ على تهذيب نفسهِ وعلى الدخول في مدرسة دبلن الكلية . وقد افلح في تلك المدرسة وكان احب شيء لديهِ ان يري اهل ذلك البيت ان تعبهم لم يذهب سدًى . ثم تزوج بواحدة من بناتهم وصار كاتباً عند اخوالهِ في لندن . والملكة التي تاسست فيهِ وهو ولد ظهرت الآن في كل اعمالهِ وسببت كل نجاحهِ لانهُ قدر بواسطتها ان يعمل كل ما وصلت اليهِ يدهُ بلا كلل ولا ملل . وكان يصب كل قوته على كل عمل اخذ

فيه . ونجح في كل اعماله لانهُ عملها بكل قوته . وبعد ان بقي مدة كاتباً صار شريكاً ثم صار المعمل كلهُ تقريباً في يده وكان نجاحهُ يزداد يوماً فيوماً. ولم يكتف بالتقدم والغنى بل خصص لياليهُ لترويض عقله بالدرس فقرا بلاكستون ومنتسكيو ومؤلفات كثيرة في الحقوق وجعل دستوراً لحياته ان يأتي على آخر كل كتاب شرع فيه وان لا يحسب انهُ اتم قراءة كتاب ما لم يكن قد استوعبهُ جيداً

ولما صار لهُ اثنتان وثلاثون سنة من العمر صار عضواً في البرلمنت فاهتم بعتق العبيد في المهاجر الانكليزية . وكان يقول ان الذي وجه افكارهُ الى هذه المسئلة السيدة برسكلا غرني وهي امرأة مشهورة بالفضل وسمو العقل . ولما كانت على فراش الموت سنة ١٨٢١ استدعتهُ مراراً وحثتهُ على جعل عتق العبيد غرضهُ من الدنيا وهذا كان كلامها الاخير . فلم ينسَ وصيتها قط وسمى واحدة من بناته باسمها تذكاراً لها. ولما تزوجت هذه الابنة في اول اغسطس سنة ١٨٤٣ يوم تحرير العبيد كتب الى صديق لهُ يقول الآن تركتنا برسكلا وذهبت مع عريسها وقد تمَّ كل شيء كما نحب ولم يبقَ عبد في كل المهاجر الانكليزية

ولم يكن بكستون ذا موهبة فائقة ولا من ذوي العقول الثاقبة ولكنهُ كان شديد العزم عالي الهمة وتظهر اخلاقهُ من قوله الذي يحق لهُ ان يطبع على قلب كل شاب وهو انني ارى بالاختبار ان الفرق بين البشر بين القوي والضعيف وبين الحقير والعظيم هو في قوة العزم حتى اذا عزم المرء على امر لا يرتد عنهُ الاَّ بالغلبة او المنيَّة. ومن كان ذا عزم قوي استطاع ان يفعل كل ما يمكن فعلهُ ولا تستطيع المواهب ولا الاحوال ولا الفرص ان تجعل الرجل رجلاً اذا لم يكن عزوماً

وقد قام في بلاد المشرق رجال مشهورون بالهمة والاقدام قادوا الجيوش ودوخوا البلدان واقاموا لهم اسماً بين اعظم الفاتحين مثل صلاح

الدين وجنكيز خان وتيمورلنك وابراهيم باشا وغيرهم من القواد العظام . وهاك طرفاً من سيرة كلٍّ من هؤلاءِ الاربعة

ولد صلاح الدين بقلعة تكريت سنة ٥٣٢ للهجرة الموافقة سنة ١١٣٧ للمسيح ودخل مصر مع عمهِ شيركوه ولما مات شيركوه واستقرت وزارة مصر لهُ بذل الاموال وملك قلوب الرجال وتقمَّص بقميص الجد والاجتهاد

وكان الافرنج قد زحفوا على بلاد الشام منذ اكثر من ثمانين سنة واستولوا على انطاكية والقدس ومدن الساحل وحاولوا الاستيلاء على دمشق والقطر المصري كلهِ . فعزم صلاح الدين على طردهم من البلاد فالتقاهُ بلدوين الرابع ملك القدس قرب مدينة الرملة وكسرهُ فعاد الى الديار المصرية واقام فيها ريثما لمَّ شعث رجالهِ ثم عاد يطلب الشام فنازل حلب سنة ٥٧٩ واستلمها من صاحبها عماد الدين زنكي وسار الى دمشق ومنها الى الكرك وكان صاحبها الامير رينود ده شاتيليون قد نكث عهود الصلح وقطع السابلة فدافعهُ بعساكر الافرنج فرحل عنها ونازل الموصل . ومرض بعد ذلك مرضاً شديداً حتى يئسوا منهُ ثم عوفي وجمع ثمانين الف محارب ونازل عساكر الافرنج قرب طبرية وحجز بينهم وبين الماءِ فقتل منهم خلقاً كثيراً واسر غاي ده لوزينيان ملك القدس والبرنس رينود صاحب الكرك . وسميت هذه الواقعة وقعة حطين نسبة الى جبل هناك . ولم يُصَب الافرنج من حين خروجهم الى الشام بمصيبة مثل هذه

ثم نازل عكاءَ واخذها واستنقذ من كان فيها من الاسارى وتفرقت عساكرهُ في بلاد الساحل فاخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة وسار هو يطلب تبنين وكانت قلعة منيعة ونصب عليها المجانق فتسلمها واسر من بقي فيها حيًّا ورحل الى صيدا فنزل عليها واستلمها وسار عنها الى بيروت وركب عليها المجانق وداوم الزحف

والقتال حتى اخذها . وامتنعت عليهِ صور فتركها وقصد عسقلان وحاصرها اربعة عشر يوماً واقام عليها المجانق حتى تسلمها . ثم قصد القدس فاجتمعت اليهِ العساكر التي كانت في الساحل فنصب عليها المجانق وشدَّد عليها الحصار فسلم اهلها لهُ على ان يؤدي الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والطفل من الذكور والاناث دينارين . ويظهر من تواريخ الافرنج انهُ شفق على السكان وردَّ لهم اسراهم وعاملهم بالرفق اكثر مما تستدعيهِ شروط الصلح الذي عقدهُ معهم

ثم خلَّف اخاهُ الملك العادل في القدس يقرّر قواعدها ودوَّخ كل المدن والحصون التي في شمالي بلاد الشام وصالح اهل انطاكية ولم يمتنع عليهِ الاَّ صور سيدة البحار

وكان شجاعاً مهاباً ماهراً في فنون الحرب والجلاد كريماً حسن الاخلاق صبوراً كثير التغافل عن ذنوب اصحابهِ حسن السياسة عظيم الهيبة وافر العدل كثير التواضع واللطف قريباً من الناس كثير الاحتمال والمداراة . وكان يحب العلم والشعر والعلماء والشعراء ويقربهم اليهِ ويحسن اليهم . ولما ملك الديار المصرية لم يكن فيها شيء من المدارس فعمر مدارس كثيرة ووقف عليها اوقافاً واسعة وبنى مدرسة بالقدس ووقف عليها وقفاً كبيراً

وجنكيز خان ولد سنة ١١٥٥ للميلاد وابوهُ شيخ قبيلة صغيرة من قبائل المغول فيها نحو ثلاثين او اربعين بيتاً ومات ابوهُ وتركهُ صغيراً في الثالثة عشرة من عمرهِ فتولى امر القبيلة مكانهُ ولكن لم يخضع لهُ بعض رجال قبيلتهِ استخفافاً بهِ بل ولَّوا عليهم رجلاً آخر منهم ونشبت بينهم الحروب فانجلت عن انهزام جنكيز خان وكان اسمهُ حينئذٍ تموجين فالتجأ الى انغ خان صاحب كرايت فازوجهُ من ابنتهِ وولاَّهُ قيادة فرقة من جنودهِ . وكان جنكيز شجاعاً مقداماً فحسدهُ انغ خان حموهُ ودسَّ لهُ من يقتلهُ سرًّا وبلغ جنكيز ذلك فجمع

جنوده وهاجر بهم الى بلاده وجمع هناك جيشاً كبيراً وعاد لمحاربة حميهِ فتغلب عليهِ واستولى على مملكتهِ. وخاف التتر منهُ واعتصبوا عليهِ عصبة واحدة فنازلهم ومزّق شملهم واستولى على كل بلاد المغول. ثم طمحت نفسهُ الى توسيع نطاق مملكتهِ فجمع نوّاب قبائل التتر الخاضعين لهُ وكاشفهم بما في نفسهِ فقام واحد من كهانهم وامنهُ بانهُ سيملك المسكونة وغيّر اسمهُ وسماهُ جنكيز خان اي عظيم الخانات تفاؤلاً بذلك. فهابتهُ القبائل فحمل بهم على بلاد الصين واكتسح شماليها وتسوّر السور الصيني المنيع وهاجم باكين وافتتحها. ثم عاد الى بلادهِ ووطّد الامن فيها وعقد لابنهِ جوجي على سبع مئة الف محارب وسيرهُ على خوارزم وصاحبها علاء الدين محمد وكانت سلطنتهُ ممتدة من الشام الى بلاد السند ومن نهر سيحون الى خليج العجم فالتقى بهِ ونشب بينهما القتال فتغلب جوجي على سمرقند وبخارا واحرق مكتبتها الشهيرة

وقسم جنكيز خان جيوشهُ ثلاثة اقسام قسماً ارسلهُ الى الشمال الغربي فاكتسح كل بلاد فارس والقوقاس واجتاز الى بلاد الروس ونهب البلاد التي بين الفلغا والنيبر. وقسماً ارسلهُ الى الجنوب فاكتسح جنوبي اسيا. وقسماً بقي يوغل في بلاد الصين. ثم جمع جنودهُ كلها وقطع بهم صحراء غوبي قاصداً مملكة طنجوت في الشمال الغربي من بلاد الصين وحاصر فنهي قصبتها وكان قد انهكهُ الكبر فوافتهُ المنية قبل ان يستلمها وكانت وفاتهُ سنة ١٢٢٧ ولهُ من العمر اثنتان وسبعون سنة وكان عالي الهمة شجاعاً مهاباً منصفاً في الرعية اباح الحرية الدينية لكل المذاهب وعفا الاطباء والكهنة والمشايخ من الجزية وشدّد الوطأة على اهل البغي والفساد وكان يقاص الزناة والسرقة اشد القصاص وانشأ البريد في سلطنتهِ الواسعة ووطّد الامن فيها حتى كان الواحد يسير وحدهُ من طرفها الواحد الى الآخر آمناً. وكان يكرم العلماء

ويقربهم منهُ الاَّ انهُ كان سفاكا للدماء كاكثر الفاتحين الاقدمين فقد قيل انهُ قُتِل في حروبهِ الكثيرة لا اقل من خمسة ملايين من النفوس

وتيمورلنك ولد قرب كش في الثامن من ابريل سنة ١٣٣٦ للميلاد ولما صار لهُ من العمر اربع وعشرون سنة كان القلموق قد اخضعوا كل تركستان وطردوا منها الامراء الذين لم يخضعوا لهم . وكان عمهُ اميراً على كش فهرب من وجههم فلم يتبعهُ تيمور بل قدم على رئيس القلموق فاعجبتهُ فصاحتهُ وطلاقة وجههِ فاقطعهُ كش وجعلهُ وزيراً لابنهِ الذي اقامهُ على تركستان. ثم اجتمع امراء تركستان ونبذوا طاعة القلموق وولوا عليهم الامير حسين والامير تيمور فحكما بالاتفاق مدة ثم نشبت الحرب بينهما فقتل حسين واستقل تيمور فنصب واحداً من نسل الملك على سرير السلطنة واكتفى بلقب امير وكان هو الآمر الناهي فانتقم من الذين نقموا على القلموق وغزا قبائل خوارزم التي كانت قد نهبت بخارا ودعا امير هرات وامراء خراسان ليتحالفوا معهُ على رد السلطنة الى حدودها الاولى فلم يلبوا دعوتهُ فزحف عليهم واخضعهم . ثم عصى عليهِ اهل هرات وقتلوا رسلهُ فزحف عليها وقبض على الفين من حاميتها وبنى هرماً من اجسادهم والطين والاجر واكتسح سجستان ايضاً ثم عاد الى سمرقند واقام فيها فصل الشتاءِ وعاد في السنة التالية الى الغزو . ولم تنصرم سنة ١٣٨٧ حتى اخضع كل البلاد التي عبر دجلة من تفليس الى شيراز . وكان طقتمش خان قد اجتاح بعض ولاياتهِ فاغار عليهِ وطردهُ من بلادهِ وتأثرهُ الى توبول وقطع جبال اورال . وسنة ١٣٩٨ شنَّ الغارة على البلدان الغربية فعبر دجلة واخضع القبائل التي شرقي الفرات ودار الى الشمال حتى وصل الى الفلكا وتحوَّل الى الغرب حتى وصل الى النيبر ثم نزل الى موسكو وعاد بطريق استراخان واخضع كل البلدان التي مرَّ بها . وسنة ١٣٩٨ قصد بلاد الهند واثخن في اهاليها وعاد بالغنائم الوافرة .

وفي السنة التالية عاد الى غربي اسيا وفتح حلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وحارب السلطان بيازيد العثماني قرب انقرة وتغلب عليهِ واسرهُ وفتح اسيا الصغرى كلها وطرد فرسان مار يوحنا من ازمير وضرب الجزية على امبراطور القسطنطينية . ثم عاد الى بلاد الكرج واقام فيها فصل الشتاءِ وعاد منها بطريق مرو وبلخ وبلغ سمرقند سنة ١٤٠٤ واستعد لغزوة بلاد الصين وزحف عليها بجيش جرار ولكنهُ مرض في اثناءِ الطريق بالحمى ومات في السابع عشر من ففريه (شباط) سنة ١٤٠٥ وكان مع ما اشتهر عنهُ من الفتك ليّن العريكة محبّاً للعلم والعلماءِ ولهُ مؤلفات كثيرة باللغة الفارسية

وابرهيم باشا المشهور ابن محمد علي باشا عزيز مصر ولاَّهُ ابوهُ قيادة قسم من الجيش وهو ابن ست عشرة سنة وسيرهُ سنة ١٨١٦ لمحاربة الوهابية في بلاد العرب وكانوا قد خرجوا على الدولة العلية فذهب اليهم وقاتلهم وهزمهم وفتح مدنهم وقبض على اميرهم عبدالله ابن سعود. وكان يؤدي للعرب ثمن ما يعوزهُ من الميرة كما فعل ولنتون في اسبانيا فاستمال اليهِ قلوبهم . ولمَّا قطع شأفة العصيان وقتل شيوخ الوهابية صرف عنايتهُ الى اصلاح البلاد وتأمين السابلة فانفتحت ابواب التجارة ونشرت راية العدل بين الاهالي فدانوا لهُ واجتمعت قلوبهم على ولائهِ فبنى قلاعاً منيعة لتأمين البلاد واحتفر آباراً كثيرة وعاد الى مصر ظافراً غانماً . ووقائعهُ في بلاد الشام مشهورة ومآثرهُ فيها مبرورة فانهُ قصدها بثلاثين الفاً واستولى على كل مدن الساحل من غزة الى طرابلس ثم استولى على دمشق وحمص وحلب وقونية ولبث في سورية يدبر امورها احسن تدبير الى ان اتفقت الدولة العلية مع دول اوربا على اخراجهِ منها فعاد الى مصر وتولاها سنة ١٨٤٧ وتوفي فيها في السنة التالية وكان عالي الهمة ثابت العزم يعد من افراد هذا الزمان في النشاط والشجاعة

الفصل التاسع

في رجال الاعمال

قال سليمان الحكيم . ارأيت رجلاً مجتهداً في عمله امام الملوك يقف (ام٢٢: ٢٩)
وقال الامام عمر بن الخطاب اني لارى الرجل فيعجبني فاقول أله حرفة فان قالوا لا سقط من عيني
قال اون فلثام . من لم يتعلم صناعة ولا عملاً فهو حقير

شبَّه هزلِت رجل العمل بانسان محتقر مقيَّد بنير حرفتهِ لا يقدر ان يحيد عنهُ يمنة ولا يسرة وليس عليهِ سوى ان يسير في السبيل المطروق الذي سار فيهِ من احترف هذه الحرفة قبلهُ . ولكن هذا القول على حرف بل هو عن الصحة بمعزل ومع هذا لا ننكر ان بين اصحاب الاعمال من عقلهُ محصور في دائرة ضيقة لا يتجاوزها كما بين اصحاب الاقلام ورجال العلم والسياسة . ولكن هذا لا ينفي ان بين اصحاب الاعمال اناساً كبار العقول يستطيعون ان يتعاطوا اوسع الاعمال فقد قال بُرك انهُ يعرف رجالاً من اشهر رجال السياسة كانوا تجاراً وباعة

واذا التفتنا الى ما تستدعيهِ الاعمال الواسعة لنجاحها من الاهلية والسرعة وحسن الادارة والعلم بطبائع البشر ونحو ذلك رأينا جلياً ان مدرسة العمل ليست ضيقة النطاق بل واسعتهُ وتقبل الاتساع الى ماشاء الله . ولقد اصاب مستر هلبس اذ قال ان رجال العمل الماهرين نادرون كالشعراءِ المفلقين واندر من القديسين والشهداءِ الحقيقيين . الاَّ ان من الجهال من يزعم انهُ لا يليق بذوي المواهب الفائقة ان يتعاطوا الاعمال العادية . ومن عهد قريب انتحر شاب لانهُ مولود

على مازعم ليكون من ذوي الوجاهة وحكم عليهِ ان يكون بدلاً فاثبت بعملهِ هذا انهُ لا يستحق ان يكون شيئاً . والحرفة لاتحط شأن الرجل بل الرجل يحط شأن الحرفة . وكل الاعمال الجسدية و العقلية مكرّمة على جدٍّ سوى اذا كان ربحها جائزاً . وقد تغوص الاصابع في الاقذار ويبقى القلب طاهراً لان النجاسة امر ادبيٌّ لاماديٌّ . وما احسن ما قالهُ المتنبي

يهون علينا ان تصاب جسومنا وتسلم اعراض لنـا وعقول

وقال ايضاً

غثاثة عيشي ان تغثّ كرامتي وليس بغثّ ان تغث المآكل

واشهر الرجال لم يستنكفوا من تعاطي الاعمال لكسب معيشتهم وهم يطلبون اسمى المطالب فان طاليس المليطي رأس الحكماءِ السبعة وصولون المؤسس الثاني لاثينا وهيبراتيس الرياضي كانوا من رجال الصناعة . وافلاطون الحكيم كان يبيع الزيت وهو يطوف في بلاد مصر وينفق مما يربحهُ منهُ . وسبينوزا حصّل معيشتهُ بصقل الزجاج لما كان آخذاً في ابحاثهِ الفلسفية . وليذيوس النباتي العظيم تتبّع العلم وهو يعمل في السكافة . وشكسبير رأس شعراءِ الانكليز كان يدير الملاعب ويفتخر بادارتها اكثر مما بالنظم . وقد ارتأى الشاعر بوب ان قصارى ما كان يتوخاهُ شكسبير في اتقانهِ الشعر والانشاء تحصيل معيشتهِ والظاهر انهُ لم يقصد الشهرة ولا نبع شيئاً من نظمهِ ولكنهُ كسب مالاً وافراً من الملاعب حتى صار لهُ منهُ دخل كاف فاعتزل الى المدينة التي ولد فيها . وتشوسر الشاعر كان في اول امرهِ جندياً ثم دخل بيت المكوس وصار ناظراً على الخراج والاراضي الاميرية . وسبنسر كان كاتب سر لحاكم ارلندا . وملتن كان معلماً ثم ارتقى الى رتبة كاتب سر لمجلس ادارة البلاد في ايام الثورة . والسر اسحق نيوتن كان في مضرب النقود والنقود التي ضربت سنة ١٦٩٤ ضربت تحت

مراقبتهِ . وورد- ورث كان يوزع طوابع البريد . وسكوت كان كاتباً في محكمة وكلاهما كان مثلاً في المحافظة على الوقت . وداود ريكردو كان سمساراً بالاوراق المالية فحصل على ثروة وافرة ووضع علم الاقتصاد السياسي وهو آخذ في عملهِ فجاء علماً نفيساً مبنيّاً على اختبار تاجر حاذق وفيلسوف نفريس . وبيلي الفلكي كان سمساراً والن الكيماوي حائكاً

وفي عصرنا هذا اناس كثيرون يبين منهم ان اسمى القوى حليف للعمل والتعب فان غروت المؤرخ كان صرّافاً ويوحنا ستورت مل الفيلسوف الشهير كان فاحصاً في شركة الهند الشرقية وكان العاملون معهُ يحترمونهُ احتراماً عظيماً لا لآرائهِ الفلسفية بل لنشاطهِ في عملهِ . والنجاح في الاعمال مثل النجاح في العلوم تماماً لا يحصل الاَّ بالصبر والاهتمام والانصباب . قال قدماء اليونان لا ينجح الانسان في عمل الاَّ بالرغبة والدرس والمزاولة . وسر النجاح المزاولة . ورب قوم ينجحون بالصدفة ولكن نجاح الصدفة كربح المقامر آلة لخرابهِ . كان من عادة الفيلسوف باكون ان يقول ان الاعمال كالطرق فالمعاجيل اوعرها ومن طلب الراحة فعليهِ بالجادة الطويلة وان اضاع فيها وقتاً طويلاً .

وما قيل في خرافات اليونان عن هرقل ومشقاتهِ التي عاناها قبل ان نجح يصح ان يكون مثالاً لنجاح كل البشر . فليعلم كل شاب ان سعادتهُ وارتقاءهُ يتوقفان عليهِ وعلى اجتهادهِ لا على مساعدة الغير لهُ . وما احسن ما كتبهُ المرحوم اللورد ملبرن الى اللورد جون رسل جواباً عن كتاب توصيه باحد اولاد الشاعر جون مور . قال ايها العزيز ارى ان الافضل لنا ان نساعد موراً نفسهُ لا ابنهُ لان مساعدة الشبان تضرُّ بهم اذ تجعلهم يظنون ان عندهم اكثر مما يحتاجون اليهِ فلا يعولون على انفسهم

ويجب ان لا نخاطب الشاب الاَّ بقولنا لهُ اعتمد ايها الشاب على

نفسك فان تكاسلت ومتّ جوعاً فدمك على راسك

والاعمال المبنية على مبادىء صحيحة لغايات حميدة لا بد من ان تنتج منها نتائج حميدة هذا فضلاً عن انها ترقي شأن الانسان وتصلح اخلاقهُ وتحرك همة غيرهِ للاقتداء بهِ . ولا يحق لنا ان نطمع بان ينجح الجميع على حدٍّ سوى ولكن كلاًّ ينجح على قدر اجتهادهِ واستحقاقهِ كما قال المتنبي

على قد اهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وعلى كلّ لا يصلح للناس ان تكون طرقهم سهلة . والافضل للانسان ان يكونٍ مضطرًّا ان يعمل بالكدح ويعيش بالتقتير من ان يكون رزقهُ سهلاً ميسوراً ومهدهُ رطباً طريًّا . ومن المؤكد ان الذين يدخلون ميدان الحياة وزادهم قليل يكونون اكثر رغبة من غيرهم في العمل وذلك شرط لازم للنجاح . قيل سُئل احد القضاة بمَ يرتقي الناس الى منصب القضاءِ فقال «البعض يرتقون بالذكاءِ والبعض بالنسب والبعض بالمعجزة والاكثرون بالفقر»

والعمل اصل نجاح العباد وعمران البلاد ولا بلية على الانسان اشد من ان يتمتع بكل امانيهِ هنيئاً مريئاً بلا تعب ولا كد . والامة التي ليس في افرادها ميل الى العمل والكد والاستقلال يجب حذفها من سلك الامم . قيل سأل المركيز ده سبنولا السر هوراس فير قائلا مِمَّ مات اخوك فاجابهُ من عدم العمل فقال المركيز اصبت ولعلَّ ذلك كافٍ لان يميت كل جنرال منا

ومن الغريب ان الذين تخيب مساعيهم ينسبون خيبتهم غالباً الى غيرهم . وحسبنا دليلاً على ذلك ان احد الكتّاب الَّف كتاباً من عهد قريب وعدَّد فيهِ الاعمال الكثيرة التي اخذ فيها ولم ينجح وذكر من جملة ما ذكرهُ انهُ يجهل جدول الضرب . وبعد كلام طويل قال ان عدم نجاحهِ حدث من ان العصر الذي هو فيهِ عصر عبادة المال .

ولمرتين الشاعر لم يخجل من ذكره ازدراءهُ بعلم الحساب ولو قدر هذا العلم الشريف حق قدره لما رأينا اصحابهُ يهتمون بجمع الاحسان لهُ في شيخوخته

ومن الناس من يزعم انهُ وُلد في طالع نحس فلا يمكنهُ ان ينجح في عمل يأخذ فيه. قال واحد انهُ لو كانت صناعتهُ عمل الطرابيش لولد الناس بلا رؤوس . اما المثل المسكوبي فيقول ان النحس جار الكسل. واذا دققنا النظر رأينا ان الناس الذين يشكون من النحس هم الذين يحصدون ثمر اهمالهم وعدم اهتمامهم وقلة انصبابهم وهم الجديرون بان يقولوا

نعيبُ زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا
ونهجو دهرنا من غير ذنبٍ ولو نطق الزمان بنا هجانا

قال الدكتور جنسن (الذي اتى لندن وفي جيبه دينار واحد) انَّ شكوى الناس من الدهر بطلٌ وظلم لانني لم ارَ رجلا نشيطاً مهمَلا وكل من تخيب مساعيه لومهُ غالباً على نفسه . وقال ابو العلاء

يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسدَ الزمان

وقال وشنطون ارڤن الكاتب الاميركي الشهير «اني كثيراً ما اسمع الكَسِل الوكل يتشكي من ظلم الزمان وجوره على ذوي الفضل وما ذلك الاَّ تعلة باطلة لانهُ ما من احد من ذوي الفضل الاَّ ويفلح اذا كان من ذوي التدبير والسعي لا من الجبناء الذين ينزوون في بيوتهم ويتوقعون ان يسوق القدر اليهم رزقهم . ومن الاقوال المتداولة ان الدهر يخفض الفضلاء ويرفع الجهلاء ولعلَّ ذلك لا يخلو من الصحة لان جهلاء القوم قد يكونون من اهل النشاط والهمة . والكلب النابح خير من الاسد النائم

والنجاح في العمل يستدعي الانصباب عليه والانتباه لهُ والتدقيق فيه والترتيب والمحافظة على الوقت . واذا نظرنا الى هذه الصفات

رأيناها من اول وهلة اموراً طفيفة ولكن بعد التروي نجد انها امور جوهرية لراحة البشر وتقدمهم ونجاحهم وان كانت صغيرة فالعالم مركب من الصغائر. وصفات الامم مؤلفة من تكرار اعمال صغيرة مثل هذه . وما من شعب حط شأنهُ الّا بسبب اهماله هذه الامور الطفيفة وامثالها. وعلى كل احد واجبات إما عائلية كتدبير المنزل او خارجية كاحتراف الحرف او جمهورية كسياسة الامة ولا بد في كل حال من القيام بها

اما الانصباب فقد تقدمت امثلة كثيرة عليهِ من الذين نجحوا في كل نوع من الصنائع والعلوم والفنون فلا حاجة الى تكرار ذلك . والانتباه ليس اقل من الانصباب لزوماً للنجاح . والتدقيق صفة ضرورية وسمة من سمات حسن التهذيب. ولا بد من التدقيق في الملاحظة وفي الكلام وفي اجراء الاعمال . وخيرٌ للانسان ان يعمل عملاً صغيراً مدققاً فيهِ من ان يعمل عشرة اضعاف ذلك العمل من غير تدقيق. ولكن كثيرين لا يبالون بهذه الصفة مع انهم يشعرون بالمضار الناتجة من اهمالها .ومن لم يكن مدققاً في اعمالهِ لا يؤتمن عليها ولو كان اميناً ماهراً لانهُ لا يعملها عملاً متقناً يحكى ان تشارلس جمس فكس لما عُين وزيراً للداخلية عيبت عليهِ رداءة خطهِ فلم يستنكف ان أتى معلماً يعلمهُ الخط وواظب على ذلك حتى اجاد خطهُ .وتدقيقهُ في هذا الامر الصغير يدل على تدقيقهِ في الامور الكبيرة.والترتيب ضروري لانهُ يعين على اتمام قدر جزيل من العمل في وقت قصير اتماماً مرضياً . قال رتشرد سسل ان الترتيب في الاعمال يشبهُ وضع الامتعة في الصناديق فالانسان الماهر يضع في الصندوق مضاعف ما يضعهُ فيهِ غير الماهر . وترتيب سسل هذا يُضرَب بهِ المثل حتى انهُ جعل لهُ دستوراً « ان الطريق الاخصر لاتمام الاعمال ان لا يُعمل في وقت واحد الّا عمل واحد » ولم يترك عملا حتى اكملهُ تماماً ولما كانت الاعمال تتكاثر عليهِ كان

يواصل العمل بها حتى يتمها . وكان دستور ده وت مثل دستور سسل اي ان يعمل عملٍ واحد في الوقت الواحد . وقال انهُ ما ترك عملاً وشرع في آخر الاّ بعد ان اتم الاول جيداً . سُئل احد الوزراء الفرنساويين وكان ينجز اعمالاً كثيرة في وقت قصير بمَ تنجز هذا المقدار من الاعمال فقال بعدم تأخيري الى الغد ما يمكنني عملهُ اليوم. فكأنهُ قال بلسان الشاعر العربي

ولا أُؤخر شغل اليوم عن كسل الى غدٍ ان يوم العاجزين غدُ

وقال اللورد بروم ان احد رجال السياسة اخذ هذا القول وجرى على ضدهِ اي انهُ لم يعمل في يومهِ الاَّ ما لا يمكن تأخيرهُ الى غدهِ. والظاهر ان كثيرين ينهجون هذا المنهج ناسين انهُ دأب الكسالى الذين يتكلون على غيرهم لإِتمام اعمالهم ولكن اسمع ما قال المثل « ان اردت قضاء حاجتك فاقضها بنفسك واذا لم ترد قضاءها فوكّل بهِ غيرك » وما حك ظهرك مثل ظفرك

روي ان احد الاغنياء الكسالى كان لهُ ارض دخلها خمس مائة جنيه في السنة فكثرت عليهِ الديون حتى اضطرَّ ان يبيع نصفها لاحد الفلاحين النشيطين ويؤجرهُ النصف الآخر . وبعد مضي مدة من الزمان اتى هذا الفلاح الى صاحب الارض وطلب منهُ ان يبيعهُ النصف الباقي فقال لهُ وهل تقدر ان تشتريهُ قال نعم اذا اتفقنا على الثمن فقال ان في ذلك عجباً فاخبرني لماذا لم يكن الدخل من مضاعف هذه الارض يكفيني ولم اكن ادفع ايجاراً واما انت فتدفع لي مائتي جنيه كل سنة ايجاراً وقد صرت قادراً ان تشتري كل الارض وليس لك مدة طويلة فيها فاجابهُ ان سبب ذلك واضح جدًّا وهو انك تجلس في بيتك وتقول اذهب ولكنني انا اقوم واقول تعال . انت تنام في سريرك وتبذر اموالك وانا اقوم صباحاً وادير اعمالي

كتب احد الشبان الى السر ولتر سكوت يطلب نصحهُ وكان قد

دخل في منصب فكتب اليهِ الجواب بهذه الصورة «احترس من البطالة ولا تؤخر عملا يجب عملهُ ولتكن اوقات الراحة بعد العمل لا قبلهُ. اذا سار جيش واضطربت مقدمتهُ قليلاً حدث اضطراب عظيم في ساقتهِ وهكذا الحال في الاعمال فان لم تكمل ما بيدك من العمل فعمَّا قليل تزدحم عليك الاعمال فتضيق بها ذرعاً»

اما المحافظة على الوقت فلا يهتم بها الاَّ من يعتبر قيمة الوقت. قال واحد من الفلاسفة الايطاليين ان الوقت عقار كل انسان ولكن هذا العقار لا ينتج شيئاً ما لم يفلح ويُصلح فمن اهتمَّ بهِ جنى ثمر اتعابهِ ومن اهملهُ لم يحصد منهُ سوى الشوك والحسك وكل المضار. ومن فائدة المحافظة على الوقت انها تمنع ارتكاب الشرور. قال المثل رأس الكسلان خان الشيطان وفي عقل البليد شيطان مريد. ألا ترى انهُ اذا كان الانسان بطالاً وكانت ابواب ذهنهِ مفتوحة تجد التجارب اليهِ سبيلاً وتتقاطر الهواجس الى عقلهِ. ولقد لوحظ ان النوتية تكثر بينهم الفتن عند ما يكونون بطالين ولذلك كان من عادة احد الربانين انهُ اذا لم يبقَ عملٌ للملاحين امرَهم بصقل المراسي

ومن عادة رجال الاعمال ان يعتبروا الوقت مالاً ولكنهُ اكثر من مال واغتنامهُ يزيد الانسان علماً وتهذيباً وشهرة. ولو قضى الانسان ساعة كل يوم في تهذيب نفسهِ بدلاً من ان يقضيها في الكسل او في امور لاطائل تحتها لصار حكيماً في سنين قليلة. ومن خصَّص ربع ساعة كل يوم لتوسيع معارفهِ رأى لها نتيجة كبيرة في سنة واحدة. والواسطة الفضلى لجعل الوقت كافياً للعمل والراحة هي انجاز الاعمال في اوقاتها والاَّ تراكمت على الانسان فضاق بها ذرعاً وصار عملها كلها فوق طاقتهِ. ومن الناس من لا يعرف قيمة الوقت حتى يفوت كما ان منهم من لا يعرف قيمة المال حتى ينفد. فاذا اعتاد الانسان البطالة تملكتهُ هذه الخلة حتى اذا اراد النهوض للعمل رأى نفسهُ مقيداً

بسلاسل الكسل التي ارتبط بها بارادتهِ . ومن يضيع مالهُ يسترده بالاجتهاد ومن يضيع علمهُ يستردهُ بالدرس ومن يضيع صحتهُ يستردها بالدواء واما من يضيع وقتهُ فلا يقدر ان يستردهُ بواسطة من الوسائط

واعتبار الوقت يعين على المحافظة عليهِ . قال الملك لويس الرابع عشر « المحافظة على الوقت من كمالات الملوك » وهي ايضاً من واجبات الاشراف، وضروريات الصنَّاع ولا شيء يقوي ثقتنا بانسان مثل وجود هذه الصفة فيهِ ولا شيء يقلل ثقتنا مثل اهمالهِ اياها فمن انجز كل شيء في وقتهِ ظهر انهُ يعرف قيمة وقتهِ ووقت غيرهِ ومن ارتبط بعمل ولم يأخذ فيهِ كل يوم في الوقت المعين عُد مخلفاً الوعد حانثاً بل كاذباً بل مجرماً. ومن لا يهتم بالوقت لا يهتم بالعمل ولا يستحق ان يؤتمن على اعمال ذات طائل . حكي ان كاتب اسرار وشنطون تاخر يوماً عن المجيء اليه في الوقت المعين والقى اللوم على ساعتهِ فقال لهُ وشنطون ابدل ساعتك بأخرى والاَّ بدلتُكَ بآخر

والذين يتأخرون عن عمل كل شيء في وقتهِ يذهبون الى السفينة بعد ان تسافر ويكتبون مكاتيبهم بعد ان يسير البريد فتكون كل اعمالهم في ارتباك واضطراب دائمين . والاختبار يرينا ان الذين لا يحافظون على الوقت لا يصلون الى النجاح بل يطرحهم العالم وراء ظهرهِ ليرثوا نصيب الكسالى المهملين الذين دأبهم التذمر من صروف الدهر

وعلى رجال العمل ان يكونوا سريعي الخاطر ايضاً في اجراء مقاصدهم شديدي الثبات في اتمامها . وسرعة الخاطر والثبات ضروريان جداً وهما وان كانا بالطبع لا بالوضع فالاختبار والملاحظة يقويانهما ومَن قاما فيهِ يرى من اول وهلة منهج العمل الذي يقصد الاخذ فيهِ حتى اذا كان ذا عزم جرى في عملهِ وبلغ منهُ امانيهُ . وهاتان الصفتان اعني سرعة الخاطر والثبات ضروريتان جداً لكل احدٍ ولاسيما للذين عليهم

ادارة الاعمال الكبيرة مثل قيادة الجيوش لانهُ لا يكفي ان يكون القائد بطلاً محنكاً بل يجب ان يكون متيقظاً خبيراً باحوال البشر واخلاقهم قادراً على ادارة عدد وافر من الرجال لكي ان يطعمهم ويكسوهم ويدبر امر منامهم ورحيلهم ونزولهم وصفهم في الحرب والاعتناء بالجرحى منهم الى غير ذلك . والمرجح انهُ ليس بين قواد الارض من هو اشهر من نبوليون وولنتون فنبوليون كان قوي التصور متدبراً للامور وناظراً في عواقبها نظر الخبير الحازم وكان غاية في الزكانة والفراسة ينظر الى الرجل فيعرف اطوارهُ ولذلك قلما اخطأ في اختيار رجالهِ ولكنهُ لم يعتمد عليهم كثيراً في المسائل الكبيرة ذات القدر. ومن اراد الاطلاع على أطوار هذا الرجل العظيم بالتفصيل فعليهِ بمراسلاتهِ المطبوعة في باريس بامر نبوليون الثالث وبالمجلد الخامس عشر منها المتضمن مكاتيبهُ التي كتبها وهو في حدود بولونيا سنة ١٨٠٧ بعد غلبة ايلو. فانهُ كان في ذلك الوقت نازلاً على نهر بَسَرْج والروسيون امامهُ والنمساويون عن يمينهِ والبروسيانيون وراءهُ وكان عليهِ ان يراسل فرنسا في امور مهمة جدًّا وهو في بلاد العدو ولكنهُ كان قد سبق ودبر امر ذلك فواصل الرسائل ولم يفقد لهُ كتاب واحد . وكان يلتفت الى حركات العساكر وطَلَبِ النجدات من اقاصي فرنسا واسبانيا وايطاليا والمانيا وفتح الخلجان وتمهيد الطرق لجلب المؤونة من بولونيا وبروسيا وكانت اوامرهُ تصدر لجلب الخيل وعمل السروج والاحذية واستحضار المؤونة الكافية من الخبز والاشربة معيناً انواعها ومقاديرها . وفي الوقت نفسهِ كان يكتب الى باريس في شأن ترتيب مدرستها الكلية وسن قوانين التعليم العمومي ويكاتب جريدة المونيتور ويراجع تقارير وكلاءِ المال ويرشد العاملين في التويلري وفي كنيسة المدلين ويرد على جرائد بروسيا ويندد بمدام ده ستايل ويسعى لازالة النزاع من الملعب الكبير ويكاتب سلطان تركيا وشاه العجم الى غير

ذلك من الاشغال الكثيرة . فكان جسده في فنكنستن وعقله يشتغل في اكثر من مئة مكان في باريس واوربا وفي كل الدنيا وكان يهتم بالكبائر والصغائر على حدٍّ سوى فانك تراهُ يكتب الى ناي يسألهُ هل وصلت اليهِ البنادق في حينها والى البرنس جيروم يرشده في امر القمصان والجبب والاحذية والشواكي(١) والاسلحة التي يريد ارسالها الى كتائب ورتمبرج . والى كمبسره ليسرع بارسال الحنطة الكافية للجنود قائلاً لهُ ان « إنْ ولكن » لا محل لهما في ذلك الوقت. والى دارو ان الجنود في احتياج الى القمصان . والى غراندوق برج قائلاً ان الجنود تحتاج الى السيوف فارسل مَن يجلبها من بوزن والخوذ فمُرْ ان تصنع في ابلنغ . الى ان قال ولا يمكننا ان نتمم عملاً ونحن نيام . وقد فعل كل ذلك في وقت واحد ولم يترك امراً صغيراً كان او كبيراً الاّ اعطاهُ حقهُ الواجب من التروي والاجراءِ وكان يقضي اكثر اوقاتهِ في افتقاد احوال جيوشهِ فيضطر احياناً ان يسير ثلاثين او اربعين غلوة في اليوم راكباً ومع ذلك لم يهمل شيئاً من مهام السلطنة بل كان يشتغل اكثر لياليهِ بمراجعة الحسابات وتعديل الدخل والخرج وكتابة الاوامر وسن القوانين وتدبير بقية امور السلطنة التي كان مركز دولابها في راسهِ

ودوق ولنتون يُعَدُّ من رتبة نبوليون في الاقدام على الاعمال الكثيرة . ومن المعلوم انهُ انتصر في كل حروبهِ بلا استثناء وقد نسب البعض ذلك الى طاقتهِ على العمل . فانهُ لما كان جنديًّا لم يكتفِ بالتقدم البطيء الذي كان يتقدمهُ فانتقل من المشاة الى الفرسان ولكن بدون تقدُّم. فطلب من اللورد كمدن الذي كان حينئذٍ حاكماً على ارلندا ان يستخدمهُ في الخزينة ولو استخدمهُ فيها لافلح وصار رئيس العمل ولكنهُ لم يستخدمهُ والاَّ لما صار اعظم قواد الانكليز .

(١) جمع شاكوكة تلبسها الجنود

واوَّل ما انتظم في الجندية كان في جيش دوق يُرك والجنرال ولمودن في هولندا والفلمنك فتعلم في وسط البلايا الكثيرة التي المت بذلك الجيش ان سوء القيادة يفسد آداب الجند . ولما قضى عشر سنوات في الجندية صار كولونالا في الهند وكان ممدوحاً من رؤساء الجيش الذين كانوا يقولون انهُ غاية في الاقدام والانصباب . اخذ ينظر في اسرار عمله واجتهد في اصلاح شأن رجاله حتى ان الجنرال هرس كتب سنة ١٧٩٩ ان كتيبة الكولونل ولسلي (ولسلي اسم اسرة دوق ولنتن) قدوة لبقية الكتائب في النظام والترتيب والتهذيب والانقياد حتى ان القلم قاصر عن القيام بمدحه ومدحها . فاعدَّ نفسهُ لمناصب اسمى من منصبهِ ولم يمضِ عليهِ الاَّ مدة يسيرة حتى عُين حاكماً لقصبة ميسور . ثم لما نشبت حرب المهرتّات جُعل جنرالاً ولهُ من العمر اربع وثلاثون سنة وانتصر في واقعة اساي الشهيرة ولم يكن معهُ سوى ١٥٠٠ جندي من الانكليز و ٥٠٠٠ من الهنود وجيش المهرتا مؤلف من عشرين الف راجل وثلاثين الف فارس . ثم حدث ما اظهر حكمتهُ وانصافهُ وذلك انهُ ولي بُعيَد الغلبة ادارة ولاية ذات اهمية كان غرضهُ الاوَّل تنظيم رجالهِ الذين اخذوا يتورطون في السكر والخلاعة بعد الظفر كما هو شأن الجنود فقتل المذنبين منهم فرجع النظام الى الجيش كلهِ . ومن نظر الى هذا العمل رآهُ في بادىء الامر قساوة بربرية الاَّ انهُ اذا تروَّاهُ رآهُ خيراً عظيماً للجنود كفاهم شر الانكسار مراراً عديدة . والقتل انفى للقتل . ثم وجَّه اهتمامهُ الى فتح الاسواق وارجاع دولاب الاعمال لكي يبتاع مؤونة كافية للجيش بأثمان مناسبة فنجح ايَّ نجاح . ومما يستحق الالتفات انهُ كان يقدر وهو في ميدان الحرب وحومة الوغى ان يجمع افكارهُ ويوجهها الى كل امر ارادهُ

وسنة ١٨٠٨ عُقد لهُ على عشرة آلاف جندي معدة لتحرير

البرتوغال فمضى اليها وحارب العدو وانتصر في واقعتين عظيمتين وامضى معاهدة سنترا . ثم عُقد لهُ على جيش آخر بعد وفاة السرجون مور ولكنهُ كان كل مدة بقائهِ في اسبانيا في مركز خطر لقلة جيشهِ في جنب جيش عدوهِ فان جيشهُ لم يزد على ثلاثين الفاً وجيوش عدوهِ كانت تنيف على ثلاثمائة وخمسين الفاً ممَّن حنكتهم الحروب المتواصلة وقوادهم من افضل قواد نبوليون . الاَّ انهُ سلك منهجاً يخالف المنهج الذي سلكتهُ جنود اسبانيا اي انهُ كف عن ملاقاة جنود فرنسا في السهول وارتد الى البرتوغال ونظم جنوداً من البرتوغاليين واقام عليهم ضباطاً من الانكليز وترك الحرب مدة من الزمان لكي يضعف حماسة الجيوش الفرنساوية التي لا تثور الاَّ عند الانتصار عازماً ان يقع عليها عندما يرى جيوشهُ مستعدة وهي (اي الجيوش الفرنساوية) متكاسلة من جرى البطالة . ومن تتبع الوسائل التي استعملها في حروب اسبانيا ونال بها الظفر رأى مقدار الحكمة المذخرة في رأس ذلك الرجل العظيم . كيف لا وقد كان محفوفاً بصعوبات لا تصدق واكثرها ناتج من النفاق والمين وسوء التدبير وغير ذلك من الشرور التي كانت رائجة حينئذٍ في الحكومة الانكليزية ومن جبانة الشعب الذي مضى لانقاذهِ وبلادتهِ وعجبهِ حتى يمكننا ان نقول انهُ قام بحروب اسبانيا بنفسهِ وبثبات عزمهِ الذي لم يفارقهُ قط . وكان عليهِ ان يحارب ابطال فرنسا ويقاوم مجالس اسبانيا والبرتوغال . وكان اصعب شيء عليهِ تحصيل القوت والكسوة لجنودهِ . ومما يستحق الذكر ان جنود اسبانيا التي هربت في واقعة تلافرا مرَّت على امتعة عساكر الانكليز ونهبتها وهو مع العدو في ساحة النزال فاحتمل هذه البلية وغيرها بصبر وجلد عجيبين . ولما رأى ان الطعام بطل ورودهُ من انكلترا ولا يرجى ورودهُ منها اخذ يتجر بالحنطة واتفق مع السفير البريطاني في لسبون واصدر سندات وابتاع بها الحنطة من لسبون

وغيرها فجعلت السفن تجلب لهُ الحنطة من اساكل بحر الروم وجنوبي اميركا فملأ مخازنهُ وباع ما فاض للبرتوغاليين الذين كانوا حينئذٍ في احتياج شديد الى الحنطة . فأعدَّ كل شيء واهتم بكل شيء ولم يتكل على الصدف . وكان يهتم بالاشياء الطفيفة ايضاً كالاحذية والقدور والعليق ونحو ذلك وتغلب على خصومهِ في اسبانيا بحسن ادارتهِ التي جعل بها رعاع الناس من افضل جنود اوربا تعليماً وتهذيباً وكان مستعدًّا ان يلتقي بهم اقوى جيوش الارض

اشرنا سابقاً الى صفة عجيبة فيهِ وهي قدرتهُ على سلخ افكارهِ عن الامور التي في يده مهما كانت مهمة وتوجيهها الى امور بعيدة عنها كل البعد ومن ذلك ما حكاهُ نبير عنهُ وهو انهُ بينما كان آخذاً في الاستعداد لواقعة سلامنكا كان يكتب الى الوزراءِ في لندن مبرهناً لهم عدم فائدة الاعتماد على القرض . وحينما كان في ساحة القتال على اعالي سان كريستوفال اثبت عدم امكان انشاء بنك برتوغالي . ولما كان في خنادق برغس حلل مذهب فنكل في المالية واظهر جهل من ارتأى بيع اوقاف الكنائس . والخلاصة انهُ اظهر نفسهُ عارفاً بحقائق هذه الامور مثل معرفتهِ بقوانين الحروب

ومما يظهر كونهُ من رجال العمل المستقيمين امانتهُ العظيمة وشرف نفسهِ انهُ حيثما سار سار على نفقتهِ حتى في ارض العدو . ولما اجتاز تخوم فرنسا تبعهُ اربعون الف اسبانيولي قاصدين الغنيمة فوبخ رؤساءهم ثم لما قنط من اصلاحهم ردهم الى بلادهم . ومما يستحق العجب ان فلاحي فرنسا كانوا يهربون من وجه جنود بلادهم ويحملون امتعتهم ويأتون ويحتمون عند جنود الانكليز . وفي ذلك الوقت نفسهِ كتب الى انكلترا يقول قد تراكمت علينا الديون من كل ناحية ولا اجسر على الخروج من بيتي لان كثيرين من المداينين ينتظرونني خارجاً طالبين ايفاء ما لهم عليَّ . قال يوليوس مرل « ان هذا البطل قد خاف من مداينيهِ وهو

يقود عسكراً جراراً في بلادهم فلا شيءَ اعجب من ذلك ولا اشرف منهُ . وهذا الخوف لم يخامر قلب منتصر قط » اما هو فلم يفعل ذلك طمعاً بتخليد ذكره واكتساب المدح بل حسب ان ايفاء ديونه في ميقاتها من افعل الوسائل لاجراء مقاصده

ومن الامور الجوهرية لنجاح رجال الاعمال الامانة وهي لازمة للصانع لزوم الشجاعة للجندي ولا ينجح صانع غير امين . وكل الصناع مهما اختلفت صنائعهم لهم باب واسع لاظهار امانتهم . قيل ان رجلا صناعتهُ عمل البيرة كان يجول في معمله ويذوق البيرة وهي تعمل فيقول للصناع زيدوا الملت لئلاَّ تخرج ضعيفة فاشتهرت بيرتهُ بجودتها في بلدان كثيرة فربح ربحاً وافراً وصار من الاغنياءِ الكبار . وقال هيوملر عن البنَّاءِ الذي تعلَّم منهُ صناعة البناءِ انهُ كان يوقف امانتهُ امامهُ كلما بنى حجراً

لا يخفى ان في التجارة امتحاناً لامانة الانسان وانكاره ذاته واستقامته وصدقهِ والذين يخرجون من بوتقة هذا الامتحان ولا غش فيهم يستحقون اكراماً نظير اكرام الجنود الذين اثبتوا بسالتهم امام افواه المدافع . ويحق للشعب الانكليزي ان يفتخر بان اكثر رجاله الذين يمتحنون هذا الامتحان يثبت انهم خالصون كيف لا واكثرهم يؤتمنون على اموال وافرة وهم لا يملكون الاَّ جانباً صغيراً منها . والنقود التي تمر في ايديهم يوميًّا تفوق الاحصاء وقلَّ من يختلس منها شيئاً . والامانة اشرف الاخلاق اذا لم يرافقها العُجب

واركان الناس بعضهم الى بعض الذي نراهُ كل يوم في اسواقنا هو اعجب اعمالهم ولو لم نكن قد اعتدناهُ لحسبناهُ من الخوارق . قال الدكتور تشلمرس ان اركان التجار الى عملائهم وائتمانهم اياهم على مبالغ كبيرة من المال وهم لم يعرفوهم ولا دخلوا بلادهم افضل نوع من الاكرام بل يقرب من الاكرام الديني . ولكن لا تخلو قاعدة من شذوذ

لان من الناس من يقتاده طمعهُ الى تلبيس الباطل بالحق وارتكاب الغش والخداع فتراهُ يغش بضاعة باخرى ويجعل وجه البضاعة من نوع وباطنها من نوع آخر الى غير ذلك من ضروب الغش التي تزيد بازدياد العمران . ولكن الذين يفعلون ذلك لا يؤمل نجاحهم وان نجحوا وكسبوا شيئاً من المال فكثيراً ما لا يتمتعون بهِ وعلى كلٍ يكون اسمهم مرذولاً مهاناً. اما الامناء فقد لا يتقدمون في اول امرهم كالخداعين ولكن تقدمهم يكون ثابتاً وان كان بطيئاً ولا بدَّ من ان يربحوا كثيراً في الآخر وان لم يكن ربحهم الاَّ الاسم الطيب ففيهِ الكفاءة لان الاسم ثروة ومجلبة للغنى والشرف قال الشاعر وردسورث ما معناهُ

وانما رجلُ الدنيا الذي شهدَتْ   لهُ التجاربُ انَّ الصدقَ شيمتهُ
يغار للحقِّ لا قسراً ولا طمعاً   بثروةٍ او بجاه فيهِ رغبتهُ
لكنما المالُ والجاهُ اختصاصهما   بالحازم الندْب إِن صحتْ طويتهُ

وليس بين التجار على ما نظن من هو اشهر من داود بركلي الذي يضرب المثل بصدقهِ واستقامتهِ فانهُ بقي زماناً طويلاً يتجر بين انكلترا واميركا ولما نشبت الحرب بين الانكليز والاميركيين ساءهُ امرها كثيراً فعزم على ترك التجارة مطلقاً . وقد اشتهر وهو تاجر بالذكاء والخبرة كما اشتهر بعد ان ترك التجارة بالشهامة وعمل الخير وكان مثلاً للصدق والامانة وسداد الرأي حتى ان الوزراء كانوا يستشيرونهُ في المسائل الكبيرة . ثم لما اعتزل التجارة لم يختر عيشة الكسل والترف بل عيشة العمل والتعب في خير الجمهور فاقام داراً للصناعة انفق عليها النفقات الوافرة فجاءت ملجأً للفقراء ومرقّية لشؤونهم . ثم ابتاع ارضاً في في جاميكا وعتق عبيدها وغمَّهم عشرة آلاف جنيه وارسل سفينة نقلتهم الى ولاية من ولايات اميركا فقطنوا فيها ونجحوا نجاحاً عظيماً رغماً عن الذين حاولوا اقناعهُ ان العبيد اجهل من ان يستأهلوا العتق .

وعوضاً عن ان يترك امواله ليقتسمها ورثته بعد موته مدَّهم بها في حياته . ولم يمت حتى رأى كثيرين منهم راقين قمم النجاح . ولم يزل حتى يومنا هذا رجال اغنياء في انكلترا مصدر نعمتهم منهُ . فرجل مثل هذا يحق للتجار ان يفتخروا بهِ ويتخذوهُ مثالاً لهم

وكان العرب في صدر الاسلام يكرمون العمل ويجلون اربابهُ ويعظمون قدر رجال السعي . قال الامام عمر بن الخطاب لا يقعدن احدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهمَّ ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضةً . وقال ايضاً اني لارى الرجل فيعجبني فاقول ألهُ حرفة فان قالوا لا سقط من عيني . وقيل

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمةً ان القعود مع العيال قبيحُ

وقيل ايضاً

على المرء ان يسعى لما فيهِ نفعهُ وليس عليهِ ان يساعدهُ الدهرُ

وقيل في امثالهم احذر من مجالسة العاجز فان من سكن الى عاجز اعداهُ من عجزهِ وامدَّهُ من جزعهِ وعوَّدهُ قلة الصبر ونسَّاه ما في العواقب وليس للعجز ضدٌ الاَّ الحزم . وقال الامام الشافعي احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس فانهُ لا سبيل الى السلامة من السنتهم . وقال بعض الحكماء من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير . وسأل بعضهم معاوية عن المروءة فقال هي العفة والحرفة. وقال رجل للحسن اني انشر مصحفي فاقرأهُ بالنهار كلهِ فقال اقرأهُ بالغداة والعشي ويكون يومك في صنعتك وما لا بدَّ منهُ

فما بعد هذه الامثال المفيدة والاقوال السديدة من ريب في ان الاوائل كانوا يكرمون رجال الاعمال ويقدرونهم قدرهم . ولكن لم يطل الامر حتى اسكرتهم خمرة الفتوحات فلم يعودوا يرتاحون الى غير الامارة والامامة ولهذا لم يقم بينهم كثيرون من المشتهرين في الاعمال

ولا طال زمان تمدنهم . اما اهل هذا العصر فقد حذا بعضهم حذو الافرنج في الهمة والاقدام ولاسيما في بلاد الشام . والفضل الاوّل في ذلك لبعض المرسلين الاميركيين الذين نزلوا الديار الشامية وبهم همة تنال الثريا وعزم لا تردعهُ المصاعب فتألّب حولهم بعض السوريين وتعلموا منهم الحزم والاقدام فعمّ نفعهم بلاد المشرق ولذلك اخترنا ان نذكر هنا طرفاً من سيرة كبير المرسلين الاميركيين في بلاد الشام ومثال الهمة والفضل الذي انتدبنا الى ترجمة هذا الكتاب افادة لابناءِ العربية استاذنا العلاّمة المشهور الدكتور كرنيليوس ڤانديك. وطرفاً من سيرة مقدام السوريين واعلاهم همة الطائر الصيت في الآفاق المرحوم المعلم بطرس البستاني فان كلاًّ منهما من نخبة رجال الاعمال الذين قاموا في كل زمان ومكان

اما المرحوم المعلم بطرس البستاني فقد ولد سنة ١٨١٩ في الدبيَّة قرية من قرى جبل لبنان من اسرة مشهورة بين اسر الطائفة المارونية وتلقى العلوم العربية والفلسفة واللغات السريانية واللاتينية والطليانية في مدرسة عين ورقة. ثم جاء مدينة بيروت واتصل بالمرسلين الاميركيين وتعلم فيها العبرانية واليونانية والانكليزية . وقد سمعنا من استاذنا الدكتور ڤان ديك انهُ كان يسكن مع البستاني بيتاً واحداً ويدرسان اللغة العبرانية معاً . وسنة ١٨٤٦ تعاضدا على انشاءِ مدرسة عبيه الشهيرة وفيها وضع المترجَم فيهِ كتابهُ الموسوم بكشف الحجاب في علم الحساب فذاع وتداولتهُ ايدي الطلاّب وعليهِ المعوَّل في هذا العلم الى يومنا هذا . والَّف ايضاً كتاباً في النحو لا يزال غير مطبوع.

وبعد ان اقام سنتين في مدرسة عبيه يدرّس فيها عاد الى بيروت وجعل يعاون الدكتور عالي سمث في ترجمة التوراة من العبرانية الى العربية ثم تقدَّم الى تأليف قاموسيهِ المشهورين محيط المحيط وقطر المحيط وشهرة هذين الكتابين تغني عن التطويل . ولما فرغ من تأليف محيط

المحيط قدَّمهُ الى الحضرة السلطانية فاجازتهُ بالجائزة الاولى التي تجيز بها المؤلفين وهي النيشان المجيدي من الطبقة الثالثة و ٢٥٠ ليرة عثمانية
وسنة ١٨٦٣ انشأ المدرسة الوطنية وتولى رآستها بنفسهِ فتقاطر اليها الطلبة من جهات سورية ومصر والعراق وكانوا يحترمونهُ احتراماً يقرب من العبادة ويتخذونهُ مثالاً للهمة والنشاط وسنة ١٨٧٠ انشأ صحيفة الجنان وهي الاولى بين الصحف العربية التي تضمنت ضروب المباحث السياسية والعلمية والادبية والتاريخية والفكاهية. وفي منتصف تلك السنة انشأ صحيفة الجنة ثم الجنينة. وعام ١٨٧٥ شرع في تأليف كتابهِ العام المشهور باسم دائرة المعارف على نسق الانسكلوبيذيات الافرنجية واعدَّ لهُ مكتبة واسعة من الكتب العربية والافرنجية وبقية المعدات اللازمة وتوفي وهو على بدءِ طبع الجزء السابع منهُ. ولهُ عدا ذلك كتب اخرى مثل مسك الدفاتر ومفتاح المصباح وبلوغ الارب في نحو العرب.
وقد لقَّبهُ صديقهُ الدكتور ڤان ديك «بالجبَّار» لانهُ كان جباراً في التأليف والتصنيف وادارة الاعمال والاشغال وفي المسائل العلمية والسياسية والادارية. وكان مع كثرة اشغالهِ التي تفوق اشغال اربعة رجال بشوشاً رحب الصدر طلق الوجه حسن المحاضرة مقصوداً في الحاجات لا يردُّ سائلاً ولا يخيب طالباً. مكرَّماً من رجال السياسة وولاة الامور مستشاراً منهم في المهام. بعيد النظر في العواقب لسناً فصيحاً اذا أُستشير في امر انبأ بمصادره ومواردهِ كانهُ من حوادث الامس. ولبث بين الكتب والدفاتر والصحائف والمحابر الى ان اختطفتهُ المنية سنة ١٨٨٣ فمات شهيد العلم والعمل وقد هزَّ منعاهُ البلاد وذكرت سيرتهُ بالتفصيل في السنة السابعة من المقتطف
واما الدكتور كرنيليوس ڤان ديك فولد في ١٣ آب (اغسطس) سنة ١٨١٨ في قرية كندرهوك من اعمال ولاية نيويورك باميركا ووالداهُ هولانديا الاصل هاجرا الى الولايات المتحدة باميركا وولدا غيرهُ سبعة

هو اصغرهم . وكان في صغرهِ يتعلَّم في مدرسةٍ في قريتهِ فامتاز بالاجتهاد والثبات وبرع في اليونانية واللاتينية حتى حاز قصب السبق على رفقائهِ الذين كانوا كلهم اكبر منهُ سنًّا . وينقل لنا اولادهُ ما سمعوهُ من بعض اعمامهم عن اجتهاد والدهم في صباه وكلفهِ بالعلم والعمل معاً وهو انهُ حفظ اسماء كل النباتات البرية التي تنمو في تلك النواحي وتعلَّم بنفسهِ ترتيبها وتقسيمها الى رتبها وصفوفها وفصائلها وانواعها حسب نظام لينيوس النباتي الشهير وجمع رواميزها وجفَّفها ورتَّبها وسماها باسمائها حتى صار عنده منبتة ذات شأن وهو صبي صغير وكل ذلك رغبة منهُ في العلم لا اجابةً لطلب ولا امتثالاً لامر

واصابت اباهُ مصيبة ذهبت بمالهِ واورثتهُ الفقر وذلك انهُ كفل صديقاً لهُ على مبلغ من المال فخان الصديق وغدر فاضطرَّ كفيلهُ الى بيع كل ما يملكهُ من متاع وعقار صوناً لشرفهِ من العار وايفاء لدين القادر . ولذلك لم يستطع ان يوازر ابنهُ الاَّ بالنزر اليسير مما يحتاج اليهِ من الكتب ولوازم التعلُّم . فكان مدة بقائهِ في بيت ابيهِ يدبر الكتب بوسائط شتى فتارةً يستعيرها من رفاقهِ وتارةً يستأجرها بدريهمات قليلات يجمعها وتارة يحفظ ما فيها بالسماع من قارئيها وتارةً يتذرع بالسعي في مصلحة انسان الى قراءة كتاب يقتنيهِ وتارةً يجدُّ ويرجع خائباً . وكان في تلك القرية طبيب كريم الاخلاق يقتني مكتبة فلما رأى اجتهاد الصبي كرنيليوس في تحصيل المعارف وجهادهُ للتغلُّب على مصاعب الفاقة اخذتهُ الحمية ففتح له ابواب مكتبتهِ وامتعهُ بمشتهى نفسهِ واماني صباهُ . وكان فيها كتاب كيفيه الشهير في علم الحيوان فاكبَّ على درسهِ ولم ينثنِ عنهُ حتى اغترف كل ما فيهِ ثم تعلم بنفسهِ كل ما تيسر لهُ تعلُّمهُ عن حيوان بلادهِ . ولم يمضِ عليهِ زمان طويل حتى جرى في ميدان المعارف شوطاً يذكر فجعل يخطب في علم الكيمياء على صفٍّ من بنات بلادهِ وهو ابن

ثماني عشرة سنة . وربما توهم الذين يعرفونهُ اليوم او الذين اطّلعوا على مؤلفاتهِ وسمعوا بواسع علمهِ انهُ كان كل ايامهِ محفوفاً بوسائط العلم والتعليم حاصلاً على ما يلزم من معدات التأليف والتدريس حتى حصّل ما حصّل والّف ما الّف ولكن الذين يعرفون احوالهُ حق المعرفة يعلمون انهُ قاسى في صغرهِ اشقّ المصاعب حتى تسهل لهُ تحصيل المعارف وانهُ قضى اكثر ايامهِ في ضنك فصار ابن خمسين وهو لا يقدر ان يبتاع الاّ ما ندر من الكتب الجديدة ولم يسعهُ الانفاق على تحصيل ما يشتهي من الكتب والمجلات والادوات العلمية الاّ بعد سنة ١٨٦٧

وكان ابوهُ طبيباً فجعل يدرس الطب في صباهُ عليهِ وكان يخدم في صيدليتهِ فاتقن فن الصيدلة فيها علماً وعملاً ولما حصّل ما تيسر لهُ الحصول عليهِ عند ابيهِ جعل يتلقى الدروس الطبية في سبرنجفيلد ثم اتمّ دروسهُ في مدرسة جفرسن الطبية بمدينة فيلادلفيا من مدن الولايات المتحدة حيث نال الدبلوما والرتبة الدكتورية في الطب . وكان تعلّمهُ في هذه المدرسة على نفقة ذويهِ فكانت مساعدتهم هذه لهُ اساساً للاعمال العظيمة التي عملها في سورية من التعليم والتهذيب والبرّ والخير والاحسان

وفي الحادية والعشرين من عمرهِ فارق الخلان والاوطان واتى الى سورية مرسلاً من قِبَل مجمع المرسلين الاميركيين وحلّ في بيروت في ٢ نيسان (ابريل) سنة ١٨٤٠ ولكن لم تطل اقامتهُ فيها حتى قام منها بايعاز المجمع المذكور واتى القدس طبيباً لعيال المرسلين الذين كانوا فيها ايام فتوح ابرهيم باشا في بر الشام . فاقام فيها تسعة اشهر ثم قفل راجعاً الى بيروت حيث شرع في درس العربية وحينئذٍ تعرّف بالمرحوم بطرس البستاني وكانا كلاهما عزبين فسكنا معاً في بيت واحد وارتبطا من ذلك العهد برباط المودة والصداقة وبقيا على ذلك طول الايام حتى صار يضرب المثل بصداقتهما . ولما توفي البستاني كان

صديقهُ ڤان ديك اشدّ الناس حزناً على فقده حتى انهُ لما طُلب منهُ تأبينهُ خنقتهُ العبرات وتلعثم لسانهُ عن الكلام وبقي برهةً يردّد قولهُ « يا صديق صباي » حتى لم تعد ترى بين الحاضرين الاَّ عيناً تدمع وقلباً يتوجع. وقد انتقلت صداقتهُ من الوالد الى اولادهِ فغيرتهُ على بيت البستاني في ايامنا لا تقلُّ عن غيرتهِ على بيت ابيهم في زمانهِ

وجعل يدرس العربية على الشيخ ناصيف اليازجي ثم على الشيخ يوسف الاسير وغيرهما من علماء اللغة وبذل الجهد في درسها والاخذ بجذافيرها حتى صار من المعدودين في معرفتها وحفظ اشعارها وامثالها وشواهدها ومفرداتها واستقصاء اخبار اهلها وعلمائها وتاريخها وتاريخهم . فهو بلا ريب اوّل افرنجي اتقن معرفة العربية والنطق بها والبيان والتأليف فيها حتى لم يعد يمتاز عن اولادها . وبقي على ذلك الى خريف سنة ١٨٤٢ ثم انتقل الى عيتات وهي قرية بلبنان واقترن هناك بالسيدة جوليا بنت مستر ابت قنصل انكلترا في بيروت المشهورة بلطفها وحسن اخلاقها . ثم انتقل من عيتات الى قرية عبيه وهناك انشأ مع صديقهِ بطرس البستاني مدرسة عبيه الشهيرة وشرع من يومهِ في تأليف الكتب اللازمة للتدريس في تلك المدرسة فالّف كتاباً في الجغرافية وآخر في الجبر والمقابلة وآخر في الهندسة وآخر في اللوغارثمات والمثلثات البسيطة والكروية وفي سلك الابحر والطبيعيات وقد طبع بعضها وبعضها لم يطبع. وبعد ان قضى في عبيه اربع سنوات على ما ذكرنا في التدريس والتأليف دعاه مجمع المرسلين الى صيدا وعهد بمدرسة عبيه الى المرحوم سمعان كالهون رجل اشتهر بالفضل والاستقامة والتقوى وبقي الدكتور ڤان ديك مع صديقهِ الفاضل الدكتور طمسن في صيدا وتوابعها معلماً واعظاً مبشراً جائلاً من مكانٍ الى مكان حتى توفي المرحوم عالي سمث سنة ١٨٥٧ فانتدب الدكتور ڤان ديك لترجمة التوراة والانجيل مكانهُ

ذن عالي سمث المذكور كان قد باشر ترجمة الكتاب المقدس من اللغتين الاصليتين بمعاونة المعلم بطرس البستاني واتم ترجمة سفر التكوين وسفر الخروج الا الاصحاح الاخير منهُ وراجعهما وصححهما وترجم اسفاراً اخرى ولكن لم يراجعها فلما انتدب الدكتور فانديك مكانهُ ابقى السفرين الاولين على حالهما وترجم وراجع ما بقي وعانى في غضون الترجمة من الاتعاب ما لا يعرفهُ الا الذين يعرفون تدقيق النصارى في التفتيش عن اصل كل لفظة من الفاظ كتابهم وعن معنى كل آية من آياتهِ. وتولّى مع الترجمة ادارة المطبعة الاميركية المشهورة وحسّن فيها وزاد الحركات على الحروف حتى صارت من احسن مطابع المشرق واشهرها. واتمّ الترجمة سنة ١٨٦٤ وبعثهُ مجمع المرسلين الى الولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ ليتولى امر طبعها وعمل الصفائح بالكهربائية لها هناك فاقام في الولايات المتحدة سنتين حتى اتمّ ذلك وعاد الى سورية سنة ١٨٦٧ . وليس من غرضنا الآن ان نصف هذه الترجمة التي شهد لها اعظم علماءِ الارض بالدقة والصحة ومطابقة الاصل وقد صارت النسخ المطبوعة منها الوفاً والوف الالوف حتى لم يبق مكان في المشرق الا بلغتهُ وانتشرت فيهِ

وكان اثناء وجوده في اميركا يدرّس العبرانية في مدرسة يونيون اللاهوتية وكان الطلبة يعافون درس هذه اللغة قبل تدريسهِ لها ويأبون الحضور في ساعة تدريسها لصعوبتها وعدم مناسبة اسلوب تدريسها. فلما شرع في تدريسها غيّر اسلوب التدريس ولطول باعهِ فيها جعل يعلمهم اياها كلغةٍ حيّة لا ميتة بحيث صار الطالب يجد في درسها معنًى ولذة ويرغب في تحصيلها. فتقاطر الطلبة الى درسها وتكاثر عددهم فلما رأت عمدة المدرسة ذلك عرضت عليهِ ان يشغل منصب استاذ العبرانية فيها وعينت لهُ راتباً كبيراً فاعتذر عن قبولهِ قائلاً « اني تركت قلبي في سورية فلا لذة لي الا بالعودة اليها » وفي

تلك الاثناء تم امر انشاء المدرسة الكلية السورية في بيروت على نفقة جماعة من اهل الخير في الولايات المتحدة باميركا فعرضت عليهِ عمدتها التي في اميركا ان يكون استاذاً فيها فاجابها الى ذلك ثم طلبت اليهِ ان يعين راتبهُ السنويّ بنفسهِ فكتب ٨٠٠ ريال مع ان اصغر استاذ فيها لا يقلُّ راتبهُ عن ١٥٠٠ ريال وقد فعل ذلك حبًّا بخير البلاد ونفع اهلها

ولما وصل الى بيروت باشر تأسيس الفرع الطبي من المدرسة الكلية مع صديقهِ الفاضل يوحنا ورتبات . ووضعا نظاماً لدروسها وشرعا في التعليم من ساعتهما لا يحاسبان على اتعابٍ ولا ينتظران من احد تبجيلاً لقدرهما ومدحاً لاسميهما . بل ان الدكتور ڤان ديك لمَّا رأى ان المدرسة تفتقر الى استاذٍ يدرّس الكيمياء فيها اقبل من فورهِ على تدريسها حال كونهِ معيَّناً استاذاً لعلم الباثولوجيا لا لغيرهِ. ولم يكن في المدرسة حينئذٍ من ادوات الكيمياءِ الاَّ قضيبٌ من زجاج وزجاجة عتيقة فانفق من مالهِ مئتي جنيه انكليزيَّة لابتياع ما يلزم من الادوات. والَّف كتابهُ المشهور في مبادىءِ علم الكيمياءِ لتدريس التلامذة وطبعهُ على نفقتهِ وهو عالم انهُ لا يسترجع نفقات طبعهِ قبل مماتهِ. وبقي يدرّس هذا الفن ست سنوات متوالية وهو ينفق على لوازم التدريس من جيبهِ . وجاء استاذ الكيمياءِ وبقي سنتين من الزمان يدرس العربية ويقبض اجرتهُ والدكتور ڤان ديك يدرّس مكانهُ مجاناً حبًّا بالمدرسة وخير ابناء البلاد . ولمَّا تولج استاذ الكيمياء اشغالهُ اعتزل الدكتور ڤان ديك عنها وترك للمدرسة كل ما انفق عليها

ولم يقتصر على هذا التبرُّع بل انهُ تولج منصب استاذ ثالث وهو استاذ علم الفلك . وذلك ان المدرسة لم يكن عندها مال يقوم بنفقة استاذ فتبرَّع الدكتور ڤان ديك بتدريس هذا الفن مجاناً والف لهُ كتاباً وطبعهُ على نفقتهِ ايضاً كما طبع كتاب الانساب والمثلثات والمساحة

والقطوع المخروطية وسلك الابحر . ولم يكن في المدرسة آلات فلكية يعتدُّ بها فما لبثت ان شرعت في بناء مرصدها حتى ابتاع لهُ آلات بسبعمائة جنيه من مالهِ الخاص وانشأهُ على نفقتهِ

وانشأ للمرصد اسماً كبيراً حتى صار معروفاً في المشارق والمغارب مقصوداً من القريبين والبعيدين مراسلاً لاشهر مراصد الارض . ولما خلفهُ معاونهُ في تدريس علم الفلك الوصفي ألَّف كتاباً في الفلك العملي وجعل يعلم الطلبة على الآلات . وكان مع تدريسهِ علم الباثولوجيا وعلم الكيمياء وعلم الفلك يتولى ادارة المطبعة الاميركية فينتقد ما يطبع فيها من الكتب ويهتم بتأليف النشرة الاسبوعية ويطبب في مستشفى ماري يوحنا حيث كان يتقاطر اليهِ المرضى افواجاً افواجاً حتى يبلغ عددهم الالوف في السنة . وما بقي من الوقت الذي يخصصهُ غيرهُ بالنزهة والرياضة والراحة والنوم كان يقضيهِ في تأليف الكتب العلمية والطبية والدرس والمطالعة والامتحانات العلمية وحضور الجمعيات النافعة ومراسلة العلماء في سائر اقطار الارض حتى كان اهل بيتهِ لا يرونهُ اكثر مما يرىهُ الغريب. وكل ذلك قياماً بالواجبات التي يعجز جماعة من الرجال عن القيام بها

ومن مزاياه انهُ لا يؤخر الى الغد عملاً يقدر ان يعملهُ اليوم ولذلك تراهُ معدّاً كلَّ ما يطلب منهُ قبل زمان طلبهِ . وكان كلما طلب منهُ اهل بيتهِ ايام اشتغالهِ في المدرسة الكلية ان يستريح بين عمل وآخر ويؤخر الاشغال الى اوقاتها حرصاً على صحتهِ يجيبهم . اخاف ان يفاجئني مرض او يعارضني معارض فاكون سبب خسارة لكل من تتعلق اشغالهم ومصالحهم بي فالواجب عليَّ ان اكون سابقاً في انجاز اشغالي حذراً من ذلك . ولكثرة اهتمامهِ باشغال المدرسة واشتغالهِ بمصالحها عن غيرها كان اصحابهُ يكلمونهُ في ذلك فلا يسمع لهم حتى صار من الاقوال الشائعة بين معارفهِ انك اذا رمتَ ان تكون على رضى مع ڤانديك

فاياك ان تشغلهُ بشاغل عن المدرسة الكلية واذا اردت ان تسرّ قلبهُ فكلّمهُ عن المدرسة والتلامذة والمرصد والتأليف . وقد ألّف اثناء وجودهِ في المدرسة الكلية كتابهُ في الباثولوجيا وهو مجلّد ضخم وفي التشخيص الطبيعي وفي الكيمياء وفي الفلك الوصفي والمثلثات والمساحة وغيرها وطبع هذه الكتب . والف كتاباً في الفلك العملي وآخر في تخطيط السماء وآخر في امراض العينين

وفيما هو لاهٍ باشغال التأليف والتدريس والرصد والمراسلات العلمية عما سواها من مطامع البشر نكبت المدرسة الكلية بحادث لا نحبّ ان نسوّد صفحات هذا الكتاب بشرحهِ . فاعتزل عنها محتملاً آلام فراقها وملام ذوي الاغراض محافظة على مبادئهِ . وبقي يطبب في مستشفى ماري يوحنا على جاري عادتهِ حتى سعى البعض في صدّ فوائدهِ عن بني الوطن فترك المستشفى على غير رضى منهُ . لكنهُ انما تركهُ ليحيي في الوجود مستشفى طائفة الروم الارثوذكسيين الذي صار لهُ الآن ايادٍ تذكر في الرحمة بالمساكين ومعالجة المرضى والبائسين

وقد صار الدكتور ڤانديك (حينما نشرنا ترجمتهُ هذه في سر النجاح سنة ١٨٨٦) شيخاً ومنظرهُ يوهم انهُ اكبر من سنهِ فقد وهن جسمهُ وكلّ بصرهُ من طول السهر ومشقات التأليف وتراكم الاشغال ولكنهُ لا يزال من ابش خلق الله وجهاً والطفهم معشراً واكثرهم انساً يقتحم الاشغال بهمة الفتيان فتراهُ تارةً في الكنائس واعظاً وتارةً في المجمع العلمي الشرقي خطيباً يحث اعضاءهُ على التبحر في العلوم وتنشيط المعارف وتارة في احتفالات جمعية الشبان المعروفة بجمعية شمس البر حاثّاً على اتباع الفضيلة والاقتداء بالافاضل وتارةً في المدارس ممتحناً وتارةً في الجمعيات الخيرية مشيراً فضلاً عن اشغالهِ في مجمع المرسلين الذي لا يزال متعلقاً بهِ ولم تفتر همتهُ عن التأليف فقد ألّف منذ عهد قريب كتباً متسلسلة في العلوم قصد بها تعليم الصغار مبادىء العلوم

في المدارس البسيطة وهي لا تزال تحت الطبع . والقارىء يعلم بالطبع ان انساناً مثلهُ قد قضى العمر في خدمة العالم واتمَّ احسن الاعمال يكون علَماً مقصوداً من الاقارب والاباعد وغرضاً منظوراً لرسائل القوم ومسائلهم وزد على ذلك مكاتبات تلامذتهِ المتفرقين في اقطار المشرق فهو مع ادعائهِ باعتزال الاشغال والانقطاع الى الراحة لا يزال يشتغل ما لا يشتغلهُ الاَّ الفائقون جدًّا واجتهاداً العظيمون همة واقداماً

فهذه صورة اوضحنا بها للقارىء مثال هذا الرجل العظيم من حيث ارتقاؤهُ بجدهِ وعلوّ همتهِ حتى صار اعظم نعمةٍ أُنعم بها على الشرق بعد ان كان في صبوتهِ لا يملك ما يبتاع بهِ كتاباً . ولو اردنا ان نورد سيرتهُ من اوجه اخرى لاستغرق الكلام معنا فصولاً اطول مما يحتملهُ هذا المقام. فالذين يعرفونهُ عن بعد انما يرون عظمتهُ واقتدارهُ على الاعمال وهذا سبب ما لهُ في نفوسهم من المهابة والوقار ولكن الذين يعرفونهُ عن قرب يرون فيهِ مع العظمة مناقب من اشرف ما تتجمَّل بهِ الفطرة البشرية وهذا سبب محبة معاشريهِ لهُ واشتياق تلامذتهِ الى القرب منهُ وتسابق الناس الى ابداءِ ثنائهم عليهِ واعترافهم بفضلهِ عليهم . فاذا تأملناهُ من حيث معاملتهُ للناس لم نجد معاملاً لهُ الاَّ كان (اذا صفا طبعهُ) من احب الناس اليهِ واولهم اعترافاً باستقامتهِ وحسن طويتهِ . والعارف باخلاق البشر يعلم ان ذلك لا يحصل عليهِ الانسان الاَّ بعد ان يتحقق الناس انهُ يؤْثر مصلحة غيرهِ على مصلحتهِ. واذا اعتبرناهُ من حيث انصافهُ وجدناهُ مثلاً في الاعتراف بما لهُ وما عليهِ بل عندنا من الشواهد ما لا يحصى على ظلمهِ نفسهُ في انصاف غيرهِ حذراً من ان يكون حب النفس قد حاد بهِ عن جادة الانصاف. وحسبنا ان نذكر منها شاهداً واحداً وهو اعترافهُ بفضل رصيفهِ المرحوم عالي سمث في ترجمة التوراة. فالظاهر ان موت عالي سمث قبل ان يتمَّ من الترجمة شيئاً كثيراً حوَّل اذهان العموم عن ذكرهِ حتى

خيفَ ان يُنسى فضلهُ . وذلك ساءَ الدكتور ڤان ديك اكثر مما ساءَ غيرهُ فصار احرص الناس على ذكر اسم عالي سمث قبل اسمهِ . ولا نتذكر اننا سمعناهُ مرةً يذكر ترجمة التوراة الاَّ قدَّم فيها اسم عالي سمث بقولهِ « لما ابتدأ فيها فلان واتممتها انا » . واتفق انهُ لما اتى امبراطور البرازيل الى سورية سنة ١٨٧٧ قصد الدكتور ڤان ديك الى مرصد المدرسة الكلية وقال لهُ على مسمع منا « اني سمعت بترجمتك الشهيرة للتوراة » فقاطعهُ الدكتور ڤان ديك قائلاً « لعلهُ لم يبلغ جلالتكم اني انا لست مترجمها الوحيد فقد شرع في ذلك المرحوم عالي سمث واتممت انا ما بقي بعد موتهِ »

واذا نظرنا اليهِ من حيث اخلاص الطوية وصفاء النية وحبّ حرية الضمير وجدناهُ مثالاً لها بين عارفيهِ . بل لم نسمع احداً خالي الغرض يعيبهُ الاَّ بالمدح في معرض الذم مثل قولهِ انهُ لسلامة طويتهِ يجوز عليهِ خبث الخبثاء ولصفاءِ جبلتهِ يغلبهُ اهل الدهاءِ ولحريتهِ قولاً وفعلاً لا يقدر ان يجازي اهل البغي والرياءِ

وهو ابعد الناس عن ذكر شيءٍ تشمُّ منهُ رائحة المدح لنفسهِ فقد قضينا معهُ عشر سنوات في عشرة مستمرة فلم نسمع منهُ ذكر ادنى عمل من اعمالهِ في معرض الاستحسان وحاولنا المرار الكثيرة ان نستشفَّ منهُ القليل عن سيرة حياتهِ فكان يحوّل مسائلنا الى غير المقصود ثم يستطرد منها الى ما يتخلص بهِ من الجواب ويسد علينا باب السؤال . ولذلك عانينا المشقات حتى وقفنا على طرف من سيرتهِ نقلاً عن اولادهِ واقاربهِ . ولاتضاعهِ يجتنب كل معرض يمدحهُ الناس فيهِ ويرتبك امام من يقابلهُ بالمدح فاما ان يصرفهُ عن مدحهِ بجواب حسن او يتخلص بوجه آخر . اتاهُ جماعة من علماءِ دمشق يوماً وفي صدرهم شيخ كبير يعدُّ بينهم من الفطاحل فمدحهُ واطنب ثم قال متعجباً وبايّ المواهب يبلغ الناس هذا المبلغ فأجابهُ الدكتور

فانديك . « يبلغهُ احقرهم بالاجتهاد فمن جدَّ وجد » واستطرد من ذلك الى وجوب الاجتهاد في سبيل احراز العلم على الطلاب .
ووصف بعضهم يوماً علو همتهِ وعجيب سرعتهِ في انجاز اعمالهِ وصبرهِ على المشاق واستشهد على ذلك بانهُ كان يقوم في الصباح ويذهب من بيروت الى صيدا في نحو اربع ساعات ثم يعود منها الى بيروت في مثل ذلك ويقضي بقية نهارهِ ومساءهُ فيها في التطبيب والتأليف .فاستغربنا الخبر وسألناهُ عن ذلك فأجاب « اني كنت اركب حينئذٍ حصاناً قويًّا سريع العدو فلا ابطىء على الطريق » كأنهُ لا يريد ان يبقي لنفسه فضلاً

ولهذه المناقب وامثالها مما يصح الاستشهاد بهِ في كل فصل من فصول هذا الكتاب ولحبهِ لاهل المشرق حتى اقتبس عوائدهم وتزيا بزيهم زماناً في الماكل والملبس والمشرب تجد سكان بر الشام قد اجمعوا على حبهُ وولائهِ واعترفوا بكونهِ مصدر فضل وعلم وخير في بلادهم . واذا بحثتَ وجدت شبَّانهم وشاباتهم يحترمونهُ احتراماً يقرب من العبادة ولا عجب فانهُ مع تقدمهِ عنهم سنًّا وعلماً وعقلاً يجري في مقدمتهم ويسهل الصعاب امامهم ويقوّي عزائمهم ويبقي في صدرهِ محلاًّ رحباً لاعتبار ما يجدُّ من الامور المختصة بزمانهم وعدم احتقار آرائهم ومشاربهم وعاداتهم خلافاً لما يعهد في اكثر الذين يتقدمون سنًّا فانهم لا يرضون الاَّ عما كان في زمانهم ولا يعتبرون الاَّ عادات عصرهم

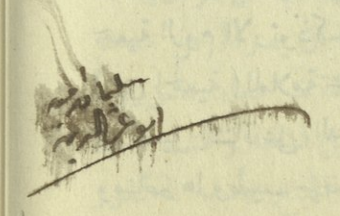
واذا رمتَ ان تعرف احترام القوم لهُ وحكمهم فيهِ فاسمع ما قالتهُ جمعية الروم الارثوذكسين في تقريرها لسنة ١٨٨٥ وهو « ولا ترى (اي الجمعية) للملامة محلاًّ اذا وضعها الحق ترجماناً عن المحسنين جميعاً في تجميل الثناء على الدكتور كرنيليوس فان ديك فهو موازرها ومناصرها وطبيب مرضاها ومرشد مستشفاها والمتصدق اليها فوق ما

لم يُعرَف بما يُرى في هذه الباكورة من صداقتهِ المنفردة في بابٍ لها لتفرُّدهِ في هذا الباب

« وحسبهُ اجراً وفخراً وجودهُ على رغم الشيخوخة في مخدع التطبيب والمرضى شاخصون اليهِ شخوص الملسوعين الى موسى ورمزهِ . هذا يستنيلهُ قليلا وذاك يسألهُ الدواء عجولاً وذلك يرجوهُ الشفاء عليلا وهو يحبو هذا بالعطاءِ وذاك بالدواء وذلك بكلمةٍ اشفى من دواء

«والجمعية وان تكن لا تزيد الناس علماً بهِ تجني اذا لم تعترف علناً في هذا المعرض انهُ لا تنفتح في الصبح عيناهُ الاَّ على لائذٍ بجنابهِ . ولا تسير في النهارِ قدماهُ الاَّ الى معونة اعدائهِ واصحابهِ . ولا يغلق في المساءِ بابهُ الاَّ على منصرفٍ مرتضٍ واقفٍ في بابهِ . ولا يأوي في ليلتهِ غرفتهُ الاَّ لينكبَّ على مكتوباتهِ وكتابهِ — حياة امتلأت بطاعة الحداثة ونشاط الصبا ومروءة الفتوة واقدام الشباب ومقدرة الكهولة وحكمة الشيخوخة — وهي في كل ادوارها ذكاءٌ وفطنة . ودرس ومعرفة . وعلم وعمل . واستفادة وافادة . وعبادةٌ لله . وحبٌّ للقريب وخدمةٌ للانسانية

« نعم . ولولا اشتهار فضلهِ ونبلهِ والعجز عن ايراد ما يصلح لمثلهِ لقامت الجمعية الى مديحهِ قيامهُ الى نصرة البشرية . فهي تجتزىء بالذكر والشكر وتسأل الله ان يسرهُ فيما يسوءهُ وان لا يسوءهُ فيما يسرهُ وربنا المنَّان »



الفصل العاشر

في استعمال المال

قال الشاعر برنس ما ترجمته

وما المال للاخفاء في طيّ حفرة ولا للتباهي بالمواكب والعليا
ولكن ليغني المرء عن مال غيره هذا قصارى الحر في دارنا الدنيا

وقال شكسبير ما معناه

لا استدين ولا ادين فانما — الدين طريق للخراب

قال السر بلورلتون اياك واحتقار المال لان المال كالصيت.

اكتساب المال وحسن القيام بهِ وانفاقهُ امور تستدعي حكمة وافرة ولا يليق باحد ان يزدري المال كما يفعل كثيرون من المدَّعين الفلسفة ولا يحسن ايضاً ان يحسبهُ غايتهُ العظمى . والمال اصل لكثير من الفضائل والرذائل فبهِ الكرم والامانة والاستقامة والاحسان والاقتصاد والتدبير وبهِ ايضاً الطمع والبخل والرشوة ومحبة الذات والاسراف . قال الحريري في مدح الدينار

اكرم بهِ اصفر راقت صفرتهْ جواب آفاق ترامت سفرتهْ
قد قارنت نجح المساعي خطرتهْ بهِ يصول من حوتهُ صرتهْ
كم آمر بهِ استتبت امرتهْ وجيش همّ هزمتهُ كرّتهْ

وقال ايضاً في ذمهِ

وحبهُ عند ذوي الحقائقِ يدعو الى ارتكاب سخط الخالقِ
لولاهُ لم تقطع يمين سارقِ ولا بدت مظلمة من فاسقِ
ولا اشمأزَّ باخل من طارقِ ولا استعيذ من حسود راشقِ

وكل الناس جديرون بالراحة في هذه الدنيا على شرط ان يستعملوا

لذلك وسائط محللة لانهم اذا نالوا راحتهم المادية تمكنوا من اصلاح شأنهم الادبي والقيام بواجباتهم العائلية. ومن لا يعتني باهل بيتهِ فهو شرٌّ من غير المؤمن. ومما يستحق الالتفات انهُ بمقدار ما يستفيد الانسان من فرصهِ ووسائطهِ يزداد احترامهُ في عيون الناس. قال ابن كثّير

الناس اتباعُ من دانت لهُ نعمُ والويل للمرءِ ان زلّت بهِ القدم

ومن سار واضعاً نصب عينيهِ اجتناء الفائدة من كل فرصة تقوّت قواه العقلية وازدادت ثقتهُ بنفسهِ وتعويلهُ عليها وتملكت منهُ افضل الصفات المعدّة للنجاح كالاجتهاد والصبر والمواظبة وما اشبه. ومن كان عليهِ ان يهتمّ بغيرهِ ويدخر لمستقبلهِ يصر حريصاً مقتصداً منكراً على النفس لذّاتها. قال جون سترلن علمٌ رديءٌ يعلّم انكار الذات خير من علم جيد يعلم كل شيء الاّ انكار الذات. ومنزلة انكار الذات من القوى الادبية منزلة الشجاعة من القوى الجسدية. ونريد بانكار الذات تضحية اللذة الحاضرة لاجل نيل الخير المقبل

وعلى الذين يعملون الاعمال الشاقة ان يحرصوا على الدراهم اليسيرة التي يربحونها ولكنهم بشرههم في المعيشة ينفقون حالاً ما يصل الى يدهم فيمسون في غاية العوز وتضرسهم انياب الحاجة. ومنهم من دخلهُ يكفي لنفقتهِ ويزيد عليها اذا تدبّرهُ جيداً ولكنهُ يتوغل في الاسراف غير ناظر الى المستقبل فاذا حدث ضيق وانقطع عملهُ امسى في اسوإ حال. قيل تشكّى بعضهم الى اللورد يوحنا رسل من الضريبة التي وضعتها الحكومة على الفعلة فقال لهُ اللورد يا هذا ان الحكومة لا تأخذ من الفعلة ربع ما تأخذهُ منهم المسكرات

واصلاح شأن الفقراء معضلة لم يهتدِ الناس الى وجهها حتى الآن. ولكنهم مجمعون على ان علاجها تعليم الفقراء الاقتصاد والتدبير. قال صموئيل درو الفيلسوف الاسكاف « الفطنة والاقتصاد والتدبير من خير مصلحات الاحوال وهي تشغل حيزاً صغيراً من المنزل ولكنها

افعل من لانحات الاصلاح. ولا اصلاح الاَّ اذا اصلح كل امرءٍ نفسهُ وهذا يخالف اميال البشر لانهم الى اصلاح غيرهم اميل منهم الى اصلاح نفوسهم»

وكل من لا تلبث الدراهم ان تصل الى يدهِ حتى ينفقها يظل في الذل عرضة لصروف الزمان. قال مستر كبدن «الناس رجلان مقتصد ومسرف اي موسر ومعسر فالبيوت العظيمة والمعامل الوسيعة والسفن الكبيرة والقصور الشاهقة انشأها المقتصد الموسر على كتف المسرف المعسر هذا ناموس طبيعي وكل من يعد الناس بالتقدم بواسطة الاسراف والكسل فهو كذاب خداع» ويماثل ذلك ما قالهُ مستر بريت وهو «ليس الاَّ سبيل واحد لبقاء الانسان في الحالة التي هو فيها اذا كانت حسنة ولارتقائهِ الى احسن منها اذا كانت رديئة وهو ممارسة الاجتهاد والاقتصاد والنزاهة والاستقامة هذا هو السبيل الوحيد للتقدم وهذهِ هي الواسطة التي يتقدم بها الناس على الدوام».

وما من مانع يمنع الفقراء عن الجري حسب ذلك وبالنتيجة عن الارتقاء الى اسمى المراتب. وقد ارتقى بعضهم اليها وما كان ممكناً للبعض فهو ممكن للكل لان الاسباب الواحدة نتائجها واحدة. ولا بد من قوم يعيشون بتعبهم لان ذلك ضروري للهيئة الاجتماعية وهو ترتيب الهي ولكنَّ بقاءهم في الجهل والاحتياج الى الغير ناتج من ضعفهم وطمعهم واعطائهم الانفس هواها ولا سيما لان افتقارهم الى الكدح من الاسباب التي يجب ان تربي فيهم قوَّة التعويل على النفس وهي تتكفل لهم بمساواتهم بمن هم ارقى منهم شاناً. قال منتانيه «كل انسان حقيق بالجري بموجب قواعد الفلسفة الادبية لانهُ حاوٍ كل شروط الانسانية»

وعلى العاقل ان يستعد للقاءِ ثلاثة. العطلة والمرض والموت. اما الاوَّلان ففي طاقتهِ تجنبهما وليس كذلك الثالث ولكنهُ على كل حال يجب ان يعيش عيشة تمكّنهُ من مقابلة كل بلية من هذه البلايا الثلاث حتى يخلي مرارتها ما امكن سواء كانت نتيجتها عائدة عليهِ فقط او على

عائلته ايضاً . وبناء على ذلك يكون اكتساب المال بالحق وانفاقهُ بالقصد من اهم الامور لان الاول عنوان الاجتهاد والاستقامة والثاني عنوان سداد الرأي والنظر في العواقب . وما المال لسدّ الحاجات من اكل وكسوة فقط بل هو اساس عزة النفس والاستقلال

وما رفع النفس الدنيئة كالغنى ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

والمال المذخور لطوارق الدهر حصن منيع يلجأ اليهِ عند الحاجة فيسد الاحتياج ويزيل الهم الى ان تنقضي ايام الشدَّة وتنفتح ابواب الفرَج وما احسن ما قالهُ احيحة بن الجلاَّح

كلُّ النداءِ اذا ناديتُ يخذلني الاَّ ندائي اذا ناديتُ يا مالي

وما قالهُ الآخر

والمال يرفع بيتاً لا عماد لهُ والفقر يهدمُ بيت العز والشرف

ومن كان غرضهُ ارتقاء المعالي وشمَّر لهُ ذيل الاجتهاد علت همتهُ وتقوت عزيمتهُ فيذلُ لهُ الدهر وتتمهد امامهُ الصعاب . واما من كان دائماً على حافة الفاقة فهو عبد وقيدهُ في يد مستخدميهِ يشترطون عليهِ ما شاءوا فيرونهُ اطوع من مطية الركاب. واذا نزلت بهِ طوارق الدهر اضطرَّ الى التسول او الموت جوعاً . والموت خيرٌ من سؤال بخيل. واذا انقطع عملهُ من مكان لا يمكنهُ الرحيل الى مكان آخر لان ليس في يدهِ ما يقوم بنفقة سفرهِ فيتربَّص في مكانهِ كرهاً متجرعاً غصص الهوان

ومن اراد ان يكون غير مفتقر الى غيرهِ فما عليهِ سوى الاقتصاد والتدبير . وليس الاقتصاد امراً صعباً ولا يقتضي قوى خارقة ولا عقولاً ثاقبة بل هو فى طاقة كل انسان (١) وقد اثبت السيد المسيح

(١) الاقتصاد لغة التوسط بين الاسراف والتقتير قال الاصمعي سمعت بعض العرب يقول من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر ويقال اقتصد في انفاق الدراهم فانه لجراح الفاقة مراهم وقال بعضهم

انفق بمقدار ما استفدت ولا تسرف وعش فيه عيش مقتصد

من كان فيما استفاد مقتصداً لم يفتقر بعدها الى احد

وجوب الاقتصاد بقولهِ لتلاميذهِ « اجمعوا الكِسَر الفاضلة لكي لا يضيع شيء » بعد ان بيّن قدرتهُ على كل شيء . ولم يبين اهتمامهُ بتلك الكسر الطفيفة الاَّ ليعلّم الناس وجوب الاعتناء بكل شيء

ويدخل تحت مفهوم الاقتصاد ترك اللذة الوقتية لاجل احراز الخير المقبل الامر الذي يمتاز بهِ عقل الانسان عن غريزة الحيوان الاعجم . وبين الاقتصاد والتقتير بونٌ شاسع لان المقتصد مستعدٌ دائماً للكرم ولا يحسب المال معبوداً بل آلةً لقضاء اغراضهِ . ولقد اصاب دِيَن سوفت اذ قال «يجب ان نحمل الدراهم في رؤوسنا لا في قلوبنا» ويمكننا ان نعدَّ الاقتصاد ابناً للحكمة واخاً للنزاهة واباً للحرية وحافظاً للصيت والراحة العائلية والنجاح الاهلي وعنواناً للتعويل على النفس . قال شبيب بن شبة لبنيهِ ان كنتم تحبون المروءة والفتوة فاصلحوا اموالكم . وقال ابو فرنسيس هرنر لابنهِ عند اول خروجهِ الى الدنيا انني اودُّ من كل قلبي ان اراك متمتعاً بالراحة والرفاهة ولكن لا يمكنني الاَّ ان احضّك على الاقتصاد — وإن احتقرهُ بعض سخفاءِ العقول — لانهُ يقود الى الاستقلال والاستقلال غاية كل شهم عزيز النفس . والافضل لمن قصد الاثراء ان يتوقَّع نجاحهُ من التدبير لا من الربح الكثير كما قال اللورد باكون لان الدراهم اليسيرة التي ننفقها يوميًّا لغير فائدة قد تصير ثروة وافرة تغنينا زمن الاحتياج . والمسرفون اعداء لداد لنفوسهم ومن لم يكن لنفسهِ صديقاً فكيف ينتظر صداقة الغير . والمدبِرون عندهم دائماً ما يساعدون بهِ غيرهم واما المسرون فلا . على ان التقتير اخو الاسراف والكرم افضل المناقب ومرقاة الفلاح . ولا حاجة لتعداد الشواهد على ذلك لانها كثيرة وعلى كل انسان ان يجتهد لكي يعيش على قدر دخلهِ ولا يمكن ان يكون مستقيماً الاّ اذا فعل ذلك لان من لا يقصر نفقتهُ على دخلهِ فهو

عائش من دخل غيره ولا يخفى ما في ذلك من مخالفة الذمة والدين . ومن كانت هذه الحال حاله لا يلبث طويلاً حتى يرى لزوم المال ولكن عند ما يكون قد فات الوقت فيأخذ يستدين ويستعير بعد ان يكون قد بذَّر مالهُ فيغرق في بحر من الدين لاخلاص لهُ منهُ ويفقد صيتهُ وحريتهُ ومروءتهُ . قال المثل « العدل الفارغ لايستقيم » وهذا حال المديون . ويصعب على المديون ان يتكلم بالصدق لذلك يقال ان الكذب راكب على متن المديون كيف لا ودأبهُ تلفيق الاعذار لدائنيهِ لسبب تأخرهِ عن دفع مالهم عليهِ فضلاً عن مماطلتهِ اياهم . وكل احد يستطيع ان يتجنب الدين اول مرَّة ولكن استدانتهُ في المرَّة الاولى تيسر الدين عليهِ ثانيةً وثالثةً فلا يلبث ان يغرق فيهِ فيمسي عاجزاً عن الايفاء . ومن يخطو الخطوة الاولى في هذا السبيل يتهافت الى هوة لاخلاص لهُ منها كمن يخطو الخطوة الاولى في الكذب . قال هيدن المصور ان انحطاطي ابتدأ في الوقت الذي استعرت فيهِ شيئاً من الدراهم فصدق عليَّ قول المثل « العارية عار » . ووجد في الكتاب الذي كتب فيهِ حوادث حياتهِ الكلام الآتي « هنا ابتدأ ديني الذي لايمكنني ان اتخلص منهُ مدى الحياة » . ومن يطالع سيرة حياتهِ يجد فيها مقدار ما يحدثهُ الاحتياج من ضعف العزم وقلق الفكر . قيل طلب منهُ احد الشبان نصيحة فكتب اليهِ يقول لا تبتغ شيئاً لا تستطيع ابتياعهُ بلا اقتراض ولا تستعر فالعارية عار . وقد ارتأى الدكتور جنصن ان الدين الباكر خراب . وكلامهُ في هذا الصدد جدير بالذكر قال « لا تحسب الدين امراً غير لائق بل احسبهُ مصيبة كبيرة واجتنب الفقر بكل قوتك لان الفقر يمنع عن اعمال البر ويعرّض الانسان لشرور كثيرة مادية وادبية وليكن اهتمامك الاول تجنُّب الدين والفقر لانَّ الفقر عدو الراحة ومبطل الحرية ومزيل الفضائل ومن يفتقر الى مساعدة الناس لهُ لا يقدر ان يساعد احداً » . وقال بعضهم

عرفت صروف الدهر كهلاً وناشياً وجرَّبتُ حاليهِ على العسر واليسرِ
فلم ارَ بعد الدين خيراً من الغنى ولم ارَ بعد الكفر شرًّا من الفقرِ

وقال آخر

رزقت لبًّا ولم أُرزق مروءته وما المروءة الاَّ كثرة المالِ
اذا اردتُ مساماة تقيدني عمَّا ينوّهُ باسمي رقة الحال

وقال آخر

ارى نفسي تتوق الى امور يقصّر دون مبلغهنَّ مالي

وقال آخر

اذا قلَّ مال المرء قلَّ صديقهُ ولم يحلُ في عين الصديق لقاؤهُ

وعلى كل احد ان يلتفت الى امواله بعين التدقيق ويكتب كل ما يكسبهُ وكل ما ينفقهُ لان الحكمة تستدعي ان يعرف الانسان مقدار دخلهِ ويجعل نفقتهُ اقل منهُ. وما من سبيل الى ذلك الاَّ بكتابة الدخل والخرج . قيل ان دوق، ولنتون الشهير كان يكتب كل دخلهِ ونفقتهِ بالتفصيل . وقال مرَّة لمستر كليك انني كنت محوّلاً ايفاء ما يُطلَب مني لخادم اركن اليهِ واما الآن فادفعهُ بيدي واشير على كل احد ان يقتدي بي لانني وجدت ذلك الخادم الذي كنت أأتمنهُ قد قامر باموالي ولم يوفِ ديوني

ومن الذين كانوا يدققون في هذا الامر مثل ولنتون وشنطون الشهير الذي لم يستصعب ان يتفقد كل شيء في بيتهِ لكي يعيش ضمن دائرة دخلهِ حتى لما كان رئيساً على الولايات المتحدة الاميركية

قال الاميرال جرفس وهو المعروف بأرل سنت فنسنت كان ابي من المتوسطي الحال الاَّ ان عائلتهُ كانت كبيرة ولذلك لما انطلقتُ الى عملي (في البحر) لم يعطني الاَّ عشرين جنيهاً وهذا كل ما اخذتهُ منهُ من الاول الى الآخر . الاَّ انني بعد برهة من الزمان سحبت عليهِ تحويلاً بمبلغ عشرين جنيهاً فارجعهُ مقيماً الحجة عليَّ (بروتستو) ولا

يخفى كم تألمت من ذلك الاّ انّي حتمت على نفسي ان لا اسحب تحويلا اخر الا اذا كنت متأكداً انهُ يقبل حالا وللوقت غيّرتُ شكل معيشتي وتركت رفاقي الذين كنت اتناول الطعام معهم وصرت آكل وحدي واخذت العلوفة التي سمح لي بها من السفينة فوجدتها كافية وفائضة وصرت اغسل ثيابي وارفئها بيدي وعملت بعض الاكسية من غشاء فراشي وما زلت على مثل ذلك حتى وفّرت قيمة ذلك التحويل ومن ذلك الوقت حتى الان لم يزد خرجي على دخلي قط . اه وقد ارتقى هذا الرجل الى اعلى المناصب باجتهادهِ وتحملهِ ضنك المعيشة بالصبر الجميل

وقال المستر هيوم ان نسق المعيشة في لندن شاط جدّاً فان المتوسطين ينفقون كل دخلهم او اكثر منهُ ولاسيما لانهم يرفهون اولادهم ويلبسونهم كالاغنياء حاسبين ذلك شرطاً للكياسة مع انهُ ما من آفة للكياسة والامانة مثل التظاهر بما ليس في الواقع . ومن لم يكن غنيًّا ولبس ما يوهم الناس انهُ غني لا يفرق عن المزوّر . أوَ يخجل الانسان ان يظهر بالحال التي هو فيها ارضاءً للزي أوَ لا يرى نتائج التظاهر بالغنى وشرورهُ الطامية على هامة الابرياءِ فان العالم باسرهِ يئنُّ من اثقالها

لما استعفى السر تشارلس نبير من قيادة الجنود في الهند احتجّ على رؤساءِ الجند الشبان لتوغلهم في الاسراف والدَّين وقال انهم ليسوا رجالاً لانهم وان كانوا لا يهابون الموت يخافون ان ينكروا على النفس لذاتها ولو تمتعوا بها دَيناً فترى القائد الباسل يرافعهُ خادمهُ لاجل مالٍ استدانهُ منهُ وعجز عن ايفائهِ

والشاب الشارع في خوض بحر الحياة تحيط بهِ التجارب من كل ناحية فاذا غلبت عليهِ حطتهُ الى ادنى دركات الهوان واذا جاراها نزعت منهُ قوّة الدفاع رويداً رويداً حتى تجعلهُ غير قادر على تجنبها

اصالة . فعليهِ ان يبتعد عنها اوَّل ما تتصدَّى لهُ غير مبالٍ بعواقبها سواء كانت شديدة الضرر ام قليلتهُ بل عليهِ ان لا يقف ويتأمل في نتائجها لان التأمل في مثل ذلك الحين غير سليم العاقبة . ومن سلَّم للتجربة ولو مرة واحدة ضعف عن مقاومتها واما من يقاوم التجربة حالما تعرض لهُ فيتخلص من طائلتها حياتهُ كلها . ثم لا تلبث مقاومتهُ للتجارب ان تصير عادة فيهِ ولا يخفى ان اكثر اعمال الانسان مرجعها الى العادة فمن درَّب نفسهُ على العادات الحسنة تملكت منهُ ونجتهُ من مخاطر كثيرة وسهَّلت امامهُ سبل النجاح

اخبر هيوملر انهُ حتم على نفسهِ مرة ان يتجنب تجربة واحدة فنجا من اكبر الشرور وذلك انهُ لما كان يعمل في صناعة البناءِ قُدِّم لهُ مرةً كاسان من الهوسكي فشربهما وانطلق الى بيتهِ وفتح كتاباً كان يحب المطالعة فيهِ فللحال اخذت الحروف ترقص امام عينيهِ من فعل سورة المسكر براسهِ فختم على نفسهِ من تلك الساعة ان لا يذوق مسكراً فيما بعد ولا يضحي بقواهُ العقلية على مذبح اللذة الوقتية . فكان هذا الختم كدفة ادار بها سفينتهُ نحو المجد والشرف حالما رأى الصخر العظيم الذي اصطدمت بهِ سفن كثيرة فتكسرت . وتجربة السكر قائمة في طريق كل شاب وهي من اشد التجارب خطراً والسعيد من نجا منها . كان من عادة السر ولتر سكوت ان يقول « لا شيء يحط شأن الانسان مثل السكر » . والسكر آفة الاقتصاد وعدو الاستقامة ومخرب الصحة . والامتناع المطلق عن المسكر اسهل من الاعتدال فيهِ

قال ابن الوردي

واهجر الخمرة ان كنت فتىً كيف يسعى في جنونٍ من عقل

وعلى العاقل ان يتجنب كل خلة ذميمة ولكن لا يليق بهِ ان يقف عند هذا الحد بل يجب عليهِ ان يجدَّ في طلب كل منقبة حميدة . والوعود والعهود قد تنفع ولو بعض النفع ولكن ما من شيء انفع

من السعي لبلوغ اعلى درجات الكمال واحراز اسمى المناقب ولا يتم ذلك الاَّ بالسهر ومعرفة الذات والاحتراس من كل زلة والامتناع عن كل لذة وقتية اذا كانت تمنع خيراً مقبلاً لان من لا يقوى على كبح جماح نفسهِ فالعبد اكثر حرية منهُ

ولقد أُلّفت كتب كثيرة تدّعي انها تعلّم الناس سر اكتساب الغنى ولكن ليس في ذلك سرٌّ لان لغات البشر ملأى من الامثال التي تبين ان الاجتهاد باب الغنى مثل من جدَّ وجد ومن سعى رعى ومن جال نال ومن تأنّى نال ما تمنى ومن حرص على الدراهم اجتمعت لديهِ الدنانير ونحو ذلك من الاقوال الحكمية التي جمعت خلاصة اختبار قرون عديدة وجرت على السنة الناس قبل تأليف الكتب ومع تقادم عهدها لا تزال تطابق اختبارنا وهذا يزيدها ثباتاً . وامثال سليمان مملوءة من الحكم التي تناسب موضوعنا مثل قولهِ « المتراخي في عملهِ اخو المسرف » وقولهِ « اذهب الى النملة ايها الكسلان تأمل طرقها وكن حكيماً » وقولهِ « الكسلان يأتي فقرهُ كساعٍ وعوزهُ كغازٍ » وقولهِ « العامل بيد رخوة يفتقر اما يد المجتهد فتغني » وقولهِ « السكير والمسرف يفتقران والنوم يكسو الخرق » وقولهِ « أرايت رجلاً مجتهداً في عملهِ امام الملوك يقف » . « وفوق كل ذلك قنية الحكمة خير من الذهب وقنية الفهم تختار على الفضة وهي اثمن من اللآلئ وكل جواهرك لا تساويها »

بالاجتهاد والاقتصاد يستطيع كل احدٍ ان يعيش مكتفياً ويذخر شيئاً لشيخوختهِ . وكلٌّ من الصانع والعامل يقدر ان يدبر نفقتهُ حتى يذخر ولو شيئاً يسيراً . واليسير يصير مع الزمان كثيراً . ومن لم يتدبّر اليسير لم ينل الكثير ومن يذخر شيئاً قليلاً كل يوم ويضعهُ في بنك او عند صراف امين لا تمر عليهِ سنون كثيرة حتى يرى لهُ سنداً يعتمد عليهِ في طلب الارتقاءِ ويلتجئ اليهِ وقت الشدة ويصير قادراً

على تعليم اولاده والاشتراك في الاعمال النافعة. وهذا ممكن لكل احد ولو كان صانعاً او عاملاً بسيطاً ومن امثلة ذلك ما قيل عن توما ريط المنشستري الذي كان صانعاً في مسبك واستطاع ان يصلح شأن كثيرين من المجرمين الذين انقضى وقت سجنهم فانهُ حدث امرٌ اقتادهُ الى الاهتمام بهذا الامر فشغل كل قوى عقلهِ غير انهُ كان يعمل في مسبك كما تقدم من الصباح حتى المساء فلم يكن لهُ الاَّ دقائق يسيرة من النهار مع ايام الآحاد نخصصها لخدمة اولئك المجرمين الذين كان امرهم مهملاً بالكلية في تلك الايام. ومن المؤكد انهُ لم يمضِ عشر سنواتٍ حتى رد اكثر من ثلث مائة منهم الى طريق الاستقامة والراحة وصار يُعَدُّ طبيب السجون الادبي. وكان ينجح في الاماكن التي يعجز فيها القسوس وغيرهم من اهل البر وارجع كثيرين من الفتيان والفتيات الضالين الى والديهم وجعلهم يتعاطون اعمالاً مفيدة ولولاهُ لبلغوا اقصى دركات الشر. ولم تكن هذه الاعمال سهلة لانها تقتضي مالاً ووقتاً واجتهاداً وحكمة واستقامةً. ومن العجب انهُ انقذ كثيرين من الضالين بما كان يذخرهُ من اجرتهِ وكانت اجرتهُ زهيدة لا تزيد على مئة جنيه في السنة ومع ذلك كان يعول عائلتهُ ويذخر شيئاً من دخلهِ الى زمان الشيخوخة. يروى انهُ كان يجلس كل اسبوع ويُقسّم دخلهُ على خرجهِ فيعين قسماً للطعام واللباس وقسماً اجرة للبيت الذي كان ساكناً فيهِ وقسماً للمدرسة التي يعلّم اولادهُ فيها وقسماً للفقراءِ والمحتاجين وبهذه الواسطة امكنهُ ان يعمل ما عملهُ من الخير العظيم. وحياتهُ من اصدق الامثلة لقوة العزم والتدبير ولما يستطيعهُ الانسان باليسير الذي يذخرو لتأثير استقامة الانسان واجتهاده في حياة غيره

كل عملٍ محللٍ شريفٌ سواءٌ كان حرث الارض او عمل الادوات او نسج الثياب او بيع الاثمار. ولا عار على احد اذا تعاطى هذه الاعمال او ما هو ادنى منها بل العار اذا حصر فكرهُ ضمن دائرتها

الضيقة. قال فلر « لا يخجل من يعمل في حرفة بل من لا يعمل » وقال المطران هُل « حبذا الصنائع ونتائجها » . والذين ارتقوا من احتراف الحرف الدنيئة الى مناصب اعلى منها يجب ان لا يستحيوا بل يفتخروا بتغلبهم على المصاعب . قيل سأل بعضهم احد رؤساء اميركا قائلا ما شعار عائلتكم (وكان هذا الرئيس في شبيبتهِ يعيش من تشقيق الحطب) فقال ردنان قصيران (اي انهُ كان يكشف عن ذراعيهِ وقت تشقيق الحطب) وقيل عيّر بعضهم فلاشيه اسقف نسمس بدناءة اصلهِ لانهُ كان شمّاعاً (صانع شمع) فاجابهُ لو ولدتَ شماعاً مثلي لبقيتَ شمّاعاً مدى حياتك

وكثيرون يجمعون المال وليس لهم من غاية سوى جمعهِ . فمن كانت هذه غايتهُ واكبَّ عليها بكليتهِ يندر ان لا ينال مرادهُ . والسبيل الى جمع المال سهل جدًّا لانهُ يتم بجعل الخرج اقل من الدخل . قيل ان استرولد الغني الباريزي كان في اول امرهِ فقيراً جدًّا وكان من عادتهِ ان يأتي كل مساء الى بعض الحانات ويشرب شيئاً من البيرة ويلتقط كل ما يجدهُ من الفلين المرمي فجمع في ثماني سنوات مقداراً من الفلين باعهُ بثمانية جنيهات وهذه الجنيهات هي اساس ثروتهِ الوافرة التي بلغت عند موتهِ ثلاثة ملايين فرنك

ذكر يوحنا فستر مثالاً لتحصيل الغنى بواسطة مثل هذه فقال ان شاباً باع ميراثهُ من ابيهِ وانفق ثمنهُ في ارتكاب المعاصي ولما شعر بما داهمهُ من الفاقة الشديدة خرج هائماً على وجههِ عازماً ان يصرم حبل حياتهِ فوصل الى مكان يشرف على ما حولهُ من الاراضي التي كانت قبلاً ملكاً له فجلس هنيهة يتأمل فيها ثم عزم ان يجتهد على استرجاعها . فقام ورجع الى المدينة فرأى عدلا من الفحم القتهُ عجلة امام باب فعرض نفسهُ على اهل البيت لكي ينقلهُ لهم الى داخلهِ فقبلوا واعطوهُ اجرتهُ فطلب منهم شيئاً من الطعام فاعطوهُ فاكلهُ وابقى الاجرة وأخذ

يعمل في مثل هذا العمل حتى صار معهُ دراهم كثيرة فاشترى بها مواشي وباعها بربح كثير. واستمر يوسع دائرة اعمالهِ حتى صار من الاغنياء فاسترجع املاكهُ وزاد عليها وكان يمكنهُ ان يعيش مفيداً لنفسهِ ولغيرهِ ولكنهُ صار شديد البخل فعاش عيشة الذل ومات غير مأسوف عليهِ

«وكل من لا خير منهُ يرتجى ان عاش او مات على حدٍ سوى»

والذخر للبنين وللشيخوخة محمود جداً ولكن اذا لم يقصد بهِ الاثراء المال فهو قبيح ولا يفعل ذلك الا الحمقى او البخلاء. وعلى الحكيم ان يتجنب التطرف في الاقتصاد كل التجنب لان الزائد اخو الناقص. ومتى زاد الاقتصاد صار شحاً بل بخلاً ومن كان مقتصداً في شبيبتهِ لا يبعد ان يصير بخيلاً في شيخوختهِ فيمسي المحمود مذموماً. ومحبة المال اصل كل الشرور فانها تعمي البصيرة وتظلم الفكر وتفسد الاخلاق. قال السر ولتر سكوت ان الدراهم تقتل نفوساً اكثر مما يقتل السيف اجساداً

ومن الشوائب المعرَّض لها رجال العمل السارون في سبل النجاح تضييق افكارهم بل حصرها في منفعتهم فلا ينظرون الى الغير الا بما يعود الى نفعهم. انزع ورقة من دفاتر هؤلاءِ الناس تزهق ارواحهم منهم والنجاح في جمع المال يروق لنظر اكثر الناس. والمجتهد الدئب الحاذق العاري من صفات البذخ والاسراف ينال الغنى المادي ولكن قد لا ينال من الغنى الادبي شيئاً بل يبقى جاهلاً خامل الذكر. ومن لا يضع نصب عينيهِ الا الدينار يفتنِ غالباً ولكنهُ يظل من افقر الناس عقلاً وادباً. لان الانسان لا يُثمن بمالهِ بل كثيراً ما يكون لمعان الذهب واسطة لاظهار دناءة مالكهِ كما ان لمعان الحباحب يظهر شكلها الشنيع

«وقد يهلك الانسانَ كثرة مالهِ كما يذبح الطاووس من اجل ريشهِ»

واذا التفتنا الى الذين يضحون بكل شيء على مذبح المال رأينا ما يذكرنا بجشع طائفة من القرود. ذلك ان اهالي الجزائر اذا ارادوا مسكها

ربطوا بقطينة مجوفة الى شجرة ووضعو فيها شيئاً من الارز وجعلوا لها ثقباً يكفي لدخول يد القرد فارغة فياتي اليها ليلا ويدخل يده في ثقبها ويحفن ملئها من الارز فلا يعود قادراً على اخراجها ولا يترك الارز جهلا وجشعاً فيتربص في مكانهِ حتى الصباح الى ان يأتوا ويقبضوا عليهِ

والناس يقدرون الغنى اكثر مما يحق لهُ لان اكثر الامور العظيمة التي عملت في هذه الدنيا لم يعملها الاغنياء بل الفقراء . ألا ترى ان الديانة المسيحية انتشرت في المسكونة ودعاتها من افقر الناس او لا ترى ان المخترعين والمكتشفين والمصنفين كلهم رجال متوسطو الحال واكثرهم اناس يحصلون خبزهم اليومي بعرق جبينهم . وما كان فهو الذي سيكون. والغنى يصعّب الاعمال اكثر مما يسهلها وكثيراً ما تكون مضارهُ اكثر من منافعهِ . فاذا ورث الشاب ثروة وافرة انقاد بها الى حياة الكسل والتراخي اذ ليس ما يدعوهُ الى الاجتهاد فتكرُّ عليهِ الايام وهو لا يعرف قيمتها ولا يكتسب منها حكمة بل قد يجتهد في التخلص منها باي واسطة كانت. فهو كحيوانٍ حلميٍّ نامٍ في الهيئة الاجتماعية يمص من دمها ولا يجديها نفعاً والتخلص منهُ اسلم . على ان ذوي الثروة المبثوثة في قلوبهم روح الانسانية الصحيحة يتجنبون الكسل كامرٍ مخلٍّ بالمروءة وعزة النفس ويشعرون انهم مطالبون بكثير لان وسائطهم كثيرة ويرون انهم مضطرون الى العمل اكثر من غيرهم . ولا افضل من الصلاة التي صلاها اجور وهي قولهُ لا تعطني فقراً ولا غنًى اطعمني خبز فريضتي . قال الامام الشافعي في هذا المعنى

غنيٌّ بلا مال عن الناس كلهم   وليس الغنى الاَّ عن الشيءِ لا بهِ

وقال ايضاً

قنعتُ بالقوت من زماني   وصنتُ نفسي عن الهوانِ
خوفاً من الناس ان يقولوا   فضلُ فلان على فلانِ

قيل ان يوسف برذرتن احد اعضاء البرلمنت البريطاني امر ان يكتب على ضريحهِ هذه العبارة « لم يقم غناي بكثرة ثروتي بل بقلة احتياجي » وهذا الرجل ارتقى من ادنى الرتب الى اعلى المناصب فانهُ كان صانعاً في معمل فصار من اعضاءِ البرلمنت المكرمين وذلك لاستقامتهِ واجتهادهِ ومحافظتهِ على وقتهِ وانكارهِ لنفسهِ . وكان حينما ينفضّ البرلمنت يخدم في احدى الكنائس الصغيرة كقس لها . والذين يعرفونهُ يشهدون انهُ لم يطلب مدح الناس على ما عملهُ بل قام بكل ما يطلب منهُ اتماماً لمقتضيات المحبة والشهامة

لا لوم على من اراد ان يكون غنيًّا ليكون مكرَّماً بين اقرانهِ الاَّ انهُ لا ينال الاكرام حقيقة الاَّ اذا كانت صفاتهُ الادبية تستحقهُ واما اذا جاوز غناهُ غنى قارون ولم يكن ذا اخلاق حميدة فالفقير خير منهُ . والفقير العاقل المفيد افضل من الغني الجاهل ولو كان مكرماً بين قومهِ . وغاية الانسان العظمى في هذه الحياة القيام بالاعمال التي يطلبها جسدهُ وعقلهُ وضميرهُ هذا هو الغرض العظيم من حياة الانسان وما بقي فوسائل معدَّة لذلك . فليس الناجح من ينال افضل لذة واوفر ثروة واعظم سطوة وابعد شهرة بل من ينال اعظم نصيب من المروءة ويتمم القدر الاعظم من الاعمال المفيدة . الغنى قوة ولا يسعنا ان ننكر ذلك ولكن العقل والادب قوتان ايضاً وهما افضل من الغنى بما لا يقدَّر . كتب اللورد كلنود الى صديق لهُ يقول « دع الناس يطلبون الارزاق من الدولة فانا لا انحو نحوهم لانني اقدر ان اكون غنيًّا بتسامي عن الدنايا ولا ارتضي ان اشين خدمتي لوطني بفوائد ذاتية . فاني اعمل في بستاني بيدي مع بستانيَّ الشيخ واجتزي بالقليل من النفقة عن الكثير »

والثروة تمكّن صاحبها من الدخول بين الناس على ما يقال ولكن لا يمكن ان يكون صاحبها محترماً منهم ما لم يكن عاقلاً اديباً ذا مناقب

حميدة . ومن الناس من هم اغنى من قارون ولكن لا يلتفت اليهم احد بل الجميع ينظرون اليهم كاكياس من الذهب الصامت . واما الذين يشار اليهم بالبنان اصحاب الرأي والتدبير فليسوا من ذوي الثروة ولا يلزم ان يكونوا اغنياء بل يكونوا من ذوي الاخلاق والآداب الصحيحة والمعارف الواسعة.والقليل المال المهذب الاخلاق الذي يبذل ما في وسعهِ لنفع ابناء نوعهِ يتطلع الى الاغنياء الذين ثروتهم في دنانيرهم ولا يحسدهم على شيء منها

الفصل الحادي عشر

في تعليم الانسان لنفسهِ

وما في ذلك من السهولة والصعوبة

قال غبن . لكل انسان نوعان من العلم الواحد يأخذه عن غيره والاخر يناله بنفسه والثاني افضلهما

وقال يوحنا هنتر . من توهن المصاعب عزمه لا يفلح ومن يتغلب عليها ينجح

وقال رو الشاعر ما معناه ان الحكماء واولي العزم يغالبون المصاعب واما الحمقى فيعتريهم الرعب حالما ينظرون المشقه والخطر وهم يخلقون المصاعب

قال السر ولتر سكوت ان افضل معارف الانسان ما اكتسبهُ بنفسهِ . وكان من عادة السر بنيامين برُودي ان يعجب بهذا الكلام ويفتخر بانهُ لم يدرس على استاذ. وذلك يصدق على كل الذين امتازوا في العلوم والفنون لان الانسان لا يتعلم في المدارس الاَّ المبادىء وما تعليم المدارس الاَّ باب يدخلهُ التلميذ ومنهُ يستطرق باجتهادهِ الى معينِ المعارف. ومن بلغ هذا المعين بجدهِ فهو الخليق بورودهِ ومن اقتيد اليهِ اقتياداً كان استقاؤهُ منهُ كرهاً . ومن حصل علومهُ بجدهِ كانت علومهُ ملكاً لهُ . وقوى العقل تقوى باستعمالها حتى اذا حل الانسان مشكلة بنفسهِ تأهل لحل مشاكل اخرى وصار العلم فيهِ ملكة. وافضل ما في الانسان اجتهادهُ لنفسهِ فاذا انتسخ منهُ هذا الاجتهاد لم تنفعهُ الكتب ولا المعلمون ولا الدروس ولا شيءٌ غيرها

وافضل المعلمين اقربهم الى الاقرار باهمية التعلُّم الذاتي واميلهم الى انهاض همة التلميذ لكي يقرع باب جدّهِ بجدّهِ فتراهم على الدوام يدرّبون تلاميذهم على اجتناء ثمار المعرفة بيدهم وبذلك يرفعون شأن

التعليم ويحولونهُ من قواعد غثَّة ضيقة يراد طبعها في عقول التلامذة الى اصول سامية المطلب تنير عقل التلميذ وتدعوهُ الى البحث والتنقير. وعلى هذا الاسلوب جرى الدكتور ارنُلد الذي كان يعلم تلامذتهُ ان يعوّلوا على نفوسهم ويمرنوا قواهم وكان عملهُ محصوراً في تدريبهم وتشجيعهم وانهاض همتهم ومن قولهِ اذا كان شيء يروق للنظر على وجه هذه الارض فيكون بركة الله على القوى الطبيعية المثقَّفه بالحق والغيرة. ويروى انهُ لما كان في للهام كان يعلم ولداً غير نجيب فوبخهُ بصرامة فالتفت الولد اليهِ وقال لهُ علامَ توبخني يا مولاي اؤكد لك اني باذل كل جهدي. فاثر فيهِ هذا الكلام تأثيراً عميقاً حتى قال بعد زمن طويل انني لم انسَ ذلك المنظر وتلك الكلمات فانها اثّرت فيَّ تأثيراً لا يمحى بكرور الايام

ويظهر من الامثلة المتقدمة في هذا الكتاب من الناس الذين ارتقوا من الدرجات الدنيا وامتازوا في العلوم والفنون ان العمل باليدين لا لا ينافي تهذيب العقل بل يساعدهُ ويقوي الجسم على احتمالهِ. والعمل للجسد كالعلم للعقل. واسعد الناس من لهُ عمل في اوقات الراحة وراحة في اوقات العمل. وكثيرون من الذين هم في غنًى عن العمل يعكفون على عمل وان لغير الربح او لمجرد التسلية مثل الذين يولعون بالصيد وركوب الخيل. وقد جرت العادة الآن في المدارس ان تقام اماكن فسيحة لتمرين الطلبة على انواع مختلفة من اللعب والغرض من ذلك ترويض اعضائهم وتقويتها وتمرينها على الرشاقة وفائدتهُ اعظم من ان توصف. حكي ان دوق ولنتون نظر مرةً الى ساحة اللعب في مدرسة اتن ورأى التلامذة يتمرنون فيها على الالعاب فقال في هذه الساحة فزت بواقعة وطرلو. يريد انهُ تمرّن على اللعب صغيراً فقوي جسداً وعقلاً حتى فاز على نبوليون في واقعة وطرلو الشهيرة

قال دانيال ملشس لابنهِ وهو في المدرسة العالية «اودُّ جداً ان

اراك مجتهداً وناجحاً في كل دروسك التي توسع دائرة عقلك ولكني ارغب ايضاً في ان اراك ناجحاً في اللعب وحركة الاعضاء لان كل معرفة سواء كانت طبيعية او صناعية تلذ للعقل وتهذبهُ . ومثل ذلك ما قالهُ جرمي تيلر وهو « تجنب الكسل والبطالة ولا تستعف من عمل مهما كان شاقاً لانهُ اذا كان العقل بطالاً والجسد في راحة وجدت الشرور اليهِ سبيلاً . وما من رجل بطال قوي البنية قدر على مقاومتها . ولا عمل افضل من الاعمال الجسدية لمقاومة الشر » هذا فضلاً عن ان النجاح يتوقف على صحة الجسد اكثر مما يُظن لانهُ ما من احد يقدر على مزاولة اعمالهِ اذا كان مريضاً او منحرف الصحة . وقد تصيب طلاب العلوم شرور كثيرة من جرى عدم الرياضة الجسدية منها الضجر واليأس والخمول واحتقار الحياة والاستنكاف من السير في كل سبيل مطروق . وتسمَّى هذه الصفة في انكلترا بيرُنزم (نسبة الى اللورد بيرُن) وفي المانيا ورترزم (نسبة الى ورتر المشهور في خرافات الغوطيين بكاره الحياة) وقد بيَّن الدكتور كنغ ان هذا الداء فاش في شبان اميركا بقولهِ ان كثيرين من شباننا يتربون في مدارس اليأس والعلاج الوحيد لهذا الداءِ العضال الرياضة البدنية

ثم ان من الناس من يميل طبعاً الى تعاطي الاعمال والحرف وان لم يكن مفتقراً اليها . واذا تمكن منهُ هذا الميل على صغر صار فيهِ ملكة وادَّى الى نتائج حميدة . يحكى ان السر اسحق نيوتن الخالد الذكر لما كان في المدرسة لم يكن نجيباً كغيرهِ من التلامذة لكنهُ كان مكباً على استعمال القدوم والمنشار والمطرقة حتى لم يُسمع من مخدعهِ غير صوت هذه الآلات . وكان يقضي كل الفرص وهو يعمل المطاحن الهوائية الصغيرة والمركبات والالات المختلفة ولما تقدم في السن صار يتسلى بعمل الموائد والخزائن الصغيرة ويهديها الى اصدقائهِ . وسميتن ووط وستفنسن كان كل منهم حاذقاً في صغرهِ في

عمل الآلات ولولا ذلك ما بلغوا ما بلغوهُ بعدئذ على ما يُظَن . وهكذا كان حال كل المخترعين والمكتشفين المتقدم ذكرهم في ما مضى من هذا الكتاب فانهم كانوا كلهم مشهورين في صباهم بصناعة اليد . والذين ارتقوا من بين الفعلة وانتظموا في سلك العلماءِ وجدوا نتيجة تمرنهم على اعمالهم الاولى في اشغالهم الاخيرة. قال البهو برت انهُ وجد العمل الجسدي الشاق ضروريًّا لمداومة اشغالهِ العقلية . وكثيراً ما كان يترك التدريس في المدرسة ويرتدي بمئزر من جلد ويذهب الى مسبك الحديد ليعمل في حرفتهِ الاولى اي الحدادة لاجل استرداد صحتهِ الجسدية والعقلية

واذا تربى الشبان على استعمال الادوات استفادوا صناعة وتعلموا استعمال ايديهم واعتادوا الاعمال الصحية وتربَّت فيهم ملكة محبة العمل وكره البطالة وانغرست فيهم سجية المواظبة . ونرى هذه الصفات متغلبة على الذين يمارسون الاعمال اليدية اكثر مما على غيرهم ولا سبب لذلك الاَّ ما ذُكر . وما من ضرر على الفعلة والصناع سوى انهم يتقيدون باعمالهم البدنية الى درجة تجعلهم يهملون قواهم العقلية . فالموسرون يأنفون من الاعمال ويربون في الجهالة والمعسرون يقتصرون على اعمالهم ولا يتخطونها الاَّ فيما ندر فيبقون في جهلهم. الاَّ انهُ يمكن اجتناب هذين الشرين باتحاد الاعمال الجسدية بالاشغال العقلية او باتحاد الترويض الجسدي بالتثقيف العقلي. وكثيرون قد سلكوا هذا السبيل في اوربا واميركا ونجحوا نجاحاً عظيماً

ونجاح رجال العلم والمتفرغين للطلب والفقة وما اشبه يتوقف بنوع خاص على صحتهم الجسدية. ولقد اجاد بعض الانكليز اذ قال «ان شهرة كثيرين من رجالنا العظام هي عقلية وجسدية معاً ». فالقاضي والحاكم يحتاج كلٌّ منهما الى رئة قوية كما يحتاج الى عقل ناقب لشدة العلاقة بين الدم والدماغ . وما من امرٍ يتعرض لهُ رجال السياسة مثل ضيق

الصدر لانهم يقيمون في المجالس المزدحمة الفاسدة الهواء يتلون الخطب والمباحث المتوقفة تلاوتها على اعضاء الصوت والصدر . وقد يتعبون في ذلك اكثر مما يتعبون باشق الاعمال . فعلى رَجُل السياسة ان يكون ذا قوة جسدية تضاهي قوتهُ العقلية وتزيد عليها . وقد تم هذا الشرط في وزراء الانكليز بروم ولندهرست وكمبل وبيل وغرهم وبامرستون وغيرهم من رحاب الصدور

يروى ان السر ولترسكوت لما كان في مدرسة ادنبرج الكلية كان من امهر الناس في الصيد وركوب الخيل ثم لما اكبَّ بعدئذٍ على الانشاء لم يتركهما بل انتهز كل فرصة لصيد الارانب فتمكن من مداومة اشغالهِ العقلية كما تقدّم عنهُ . والاستاذ ولسن كان ماهراً في المصارعة كما كان ماهراً في النظم والنثر . وبرنس الشاعر كان مشهوراً في صغرهِ بالمصارعة . وبعض المشهورين بعلم اللاهوت اشتهروا في صغرهم بقوتهم الجسدية مثل اسحق برُو واندراوس فُلر وادم كلَرْك وغيرهم

واذا كان ترويض الجسد ضروريًّا لطلبة العلم فكم بالاولى ترويض العقل وتقويتهُ على الانصباب على اشغالهِ . وسبيل المعرفة مفتوح لكل من اراد السير فيهِ على شرط ان يبذل جهدهُ واجتهادهُ . وليس فيهِ صعوبة لا يمكن الانسان الحازم ان يتغلب عليها . قال تشترتن ان الله خلق الانسان بذراعين تصلان الى كل ما تمدان اليهِ . والاجتهاد اس النجاح في العلم وفي العمل وقد قيل في المثل « طرّق الحديد ما دام حامياً » ولكن ذلك لا يكفي بل يجب تطريقهُ حتى يحمى. واذا التفتنا الى ما يستفيدهُ المجتهدون المواظبون من تهذيبهم لانفسهم بانتهازهم كل فرصة وكل دقيقة مما يضيعهُ غيرهم سدًى اندهلنا من ذلك كل الاندهال . فان فرغوسن تعلم علم الفلك وهو مرتدٍ بجلود الغنم على رؤوس التلال . وستون تعلم الرياضيات وهو يعمل في البساتين

ودرو درس الفلسفة وهو يعمل في السكافة ومِلر تعلم الجيولوجيا وهو يعمل في المقالع

راينا في ما مضى ان السر يشوع رينلدز كان يركن الى فعل الاجتهاد كل الاركان وقال ان كل الناس يمكنهم ان يشتهروا في اي امر ارادوهُ على شرط ان يلازموا ذلك الامر بالاجتهاد والصبر . وقال ايضاً ان الاجتهاد طريق النبوغ وان لا حدَّ للتقدم فيمكن الانسان ان يتقدم الى اي درجة ارادها . وقد علَّق كل شيء على الاجتهاد فمن جملة اقوالهِ الحكمية «الشهرة ثمرة الاجتهاد . واذا كانت القوى عظيمة فالاجتهاد يحسنها واذا كانت ضعيفة فالاجتهاد يجبر ضعفها . ومن تعب على تحصيل امر بطريقهِ حصلهُ . ولا ينال شيء بلا تعب » وكان السر فوَل بكستن يعتقد فاعلية الاجتهاد ويقول انهُ قادر ان يحصل كل ما حصلهُ غيرهُ على شرط ان يجتهد في تحصيلهِ ضعف ما اجتهد ذاك . وكانت ثقتهُ كلها بوسائطهِ الاعتيادية واجتهادهِ النادر المثال . وقال الدكتور رُس «اعرف كثيرين من معاصريَّ الذين سيعدُّون في الازمنة المقبلة من اصحاب النبوغ الفائق وهم الآن يجتهدون اجتهاداً جزيلاً في كل ما يعملونهُ . ولا نعرف النبوغ الاَّ بالعمل وهو بدونهِ لا شيء . والاعمال العظيمة نتيجة الصبر والمزاولة ولا يمكن ان تتم بمجرَّد القصد او الميل . وكل عمل عظيم هو نتيجة استعداد طويل . والسهولة في الاعمال تنتج من المزاولة الدائمة . ولا شيء سهل الاَّ وقد كان صعباً في اول امرهِ حتى المشي . فالخطيب المفلق الذي عيناهُ تقدحان شرراً وشفتاهُ تتدفقان بلاغة وكلامهُ بحر من الحكمة قد تعلم سرَّ هذه الصناعة بالدرس والتكرار الدائم بعد ان خاب مراراً كثيرة »

وعلى كل طالب علم ان يكون مدققاً محققاً في كل شيء يدرسهُ . يروى ان فرنسيس هرنر لما وضع القواعد لتثقيف عقلهِ اعتنى كثيراً بقاعدة الانصباب على موضوع واحد حتى يتقنهُ جيداً قبل ان ينتقل

الى غيرهِ ولذلك حصر درسهُ في كتب قليلة وقاوم صفة الانتقال من الدرس قبل اتقانهِ . ولا تقوم المعرفة بالمقدار الذي يحصلهُ الانسان منها بل بالمنافع التي يجتنيها منها ولذلك تفضل المعرفة القليلة العميقة على الكثيرة الرقيقة . قال اغناطيوس لويولا «من يعمل جيداً عملاً وحداً في وقت واحد يعمل اكثر من غيرهِ . واما من يبسط قوتهُ على سطح متسع فانهُ يضعف تأثيرها ويتعذر نجاحهُ» . اخبر اللورد سنت ليونردس السر فول بكستن بالطريقة التي جري عليها في درسهِ فكانت سر نجاحهِ بقولهِ عزمت عند ما شرعت في درس علم الحقوق ان لا اترك مسئلة حتى استوعبها جيداً . وكثيرون من اقراني كانوا يقرأون في يوم واحد ما اقرأهُ انا في أسبوع ولكن عند نهاية السنة كانت دروسي في ذاكرتي كما كانت يوم درستها واما دروسهم فكانت تذهب من عقولهم بذهاب الايام

ولا يصير الانسان حكيماً بكثرة الدروس بل بتطبيقها على الغاية التي دُرست لاجلها وحصر العقل في موضوع الدرس حتى يصير ملكة فيهِ . قال ابرنثي ان في عقلهِ قابلية الى درجة معلومة فاذا ادخل اليهِ اكثر مما يحتمل دفع ما فاض عنهُ الى الخارج . وقال مرَّة اخرى ان من يعلم جيداً ما يرغب فيهِ قلما يخيب في ايجاد الوسائل اللازمة لبلوغهِ

وافضل الدروس واكثرها فائدة ما كانت غايتهُ محدودة . ومن اتقن فرعاً من العلوم اتقاناً تامّاً استفاد منهُ في كل حين . والاقتصار على الكتب ومعرفة مواضيعها والرجوع اليها عند الاحتياج غير كافٍ لان من كان علمهُ في كتابهِ كان خطأهُ اكثر من صوابهِ . بل على العالِم العامل ان يستصحب علمهُ في كل أين وآن والاَّ فلا يعدُّ عالماً لانهُ ما المنفعة من ان يكون للانسان بدرة من المال وليس في يدهِ درهم منها

وعلى من شاء ان يهذّب نفسهُ ان يكون حازماً ندباً (اي سريعاً في قضاء الحاجات) وهاتان الصفتان تقويان بترك الشبان يعتمدون على نفوسهم واعطائهم كل ما يمكن من الحرية . اما الارشاد والتدريب

فالزيادة منهما تضر كثيراً لانها تصرف الشاب عن الاعتماد على نفسهِ . وقلة ثقة الانسان بنفسهِ مانع قوي من موانع التقدم. ولا نعني بالثقة الاستبداد بالرأي ولا الخيلاء لان كثيرين يثقون بنفوسهم وليس فيهم شيء يوثق بهِ ومع ذلك فلا شيء يعيق النجاح ويمنعهُ اكثر من فتور الهمة وضعف العزم وقلة الحزم .وعدم تقدم الاكثرين ناتج من عدم محاولتهم التقدم . كل احد يرغب في تثقيف عقلهِ ولكن الاكثرين ينفرون من التعب الذي لا بد منهُ للحصول على ذلك . والجميع يرومون ادراك المعالي رخيصة ناسين ان لا بد دون الشهد من ابر النحل . قال الدكتور جنصن ان عدم الجلد على الدرس من امراض الجيل الحاضر العقلية . وما صدق على جيلهِ يصدق على جيلنا هذا . ولا سكة سلطانية لنيل العلم ولكن له سكة مطروقة ومع ذلك ترى الجميع يتوخون معاجيل الطرق واقلها تعباً فيرغبون في ان يتعلموا لغة في ايام قليلة وعلى غير استاذ او كما يقال عن احدى السيدات انها طلبت من معلم ان يدرسها لغة ولكنها اشترطت عليهِ ان لا يعلمها شيئاً من الاسماء والافعال . وعلى هذا المنوال يتعلم كثيرون ما لا يستحق ان يسمى رسم العلم .ألا ترى ان كثيرين يحسبون انهم درسوا الكيمياء باستماعهم بعض الخطب فيها ونظرهم الى بعض الاستحضارات والامتحانات وهذا افضل من لا شيء ولكنهُ لا يفيد شيئاً. وكثيرون يظنون انهم آخذون في تعلم العلوم وماهم غير متسلين تسلياً . وما لا يحصل بالدرس والعناء لا يستحق ان يدعى علماً لانهُ وان شغل العقل لا يغنيهِ وان نتجت منهُ نتائج وقتية لا يرجى منهُ كبير فائدة وماهو الا تأثير وقتي زائل ولذة حسية غير عقلية توقع سباتاً عميقاً على افضل العقول، واكثرها اجتهاداً حتى لا تنتبه الا اذا اصابتها مصيبة باغتة

واكثر الشبان يطلبون اللهو تحت رداءِ طلب العلم ولا يهتمون بعلم يستدعي تعباً وكداً . يحصّلون العلم في ميدان اللعب واللهو

يكون علمهم لعباً ولهواً . ولا بد من انهم يجتنون ثمر تهاونهم الذي هو ضعف عقولهم . قال روبرتصن البريتوني ان درس دروس مختلفة في وقت واحد يضعف العقل ويجعلهُ عقيماً . وهذا الشر كبير الى الغاية ولهُ درجات مختلفة فاقلها ضرراً عدم التعمق والتضلّع واكثرها اذى النفور من كل ما يقتضي تعباً وعناء ثم خمول الذهن . وعلى طالب الحكمة الحقيقية ان يعنى بطلبها لان العناء ثمن لكل ثمين فيجب ان يكد ويتعب واضعاً نصب عينيهِ الغرض الذي يتعب لهُ ومتوقعاً نيلهُ بالصبر الجميل . والنجاح بطيء الحصول ولكن من سعى بامانة وغيرة نال اجرهُ في وقتهِ ومن كانت حياتهُ حياة الاجتهاد قوي على مد سلطتهِ الى ما حولهُ واحراز المجد لنفسهِ والنفع للبشر . وليس للتهذيب حد يوقف عندهُ بل على الانسان ان يواظب على تهذيب نفسهِ ما دام حياً لان ذلك ضروري لكل احد بل بهِ تقوم سعادتهُ والراحة وقت طويل بعد الموت

والانسان يستحق الاكرام والاحترام على قدر استعمالهِ للقوى التي منحهُ اياها الباري . ولا يعتبر من كانت قواهُ العقلية عظيمة الاَّ كمن كان ميراثهُ من ابيهِ عظيماً فاذا استعمل هذا قواهُ وذاك ميراثهُ حق الاستعمال احترموا والاَّ فلا . وقد يتضمن العقل خزائن وافرة من العلم ولكنها تكون بلا منفعة لانهُ اذا لم يرتبط العلم بالمرؤة والحكمة والاستقامة لم يُحسَب شيئاً . قال بستالوزي ان العلم العقلي المجرد مضر الى الغاية . وانهُ يجب ان تنغرس اصول المعرفة في تربة الارادة وتغتذي منها . وقد يحفظ العلمُ صاحبَهُ من ارتكاب الموبقات ولكن لا يحفظه من الافتخار ومحبة الذات ما لم يحصَّن بالمبادىء الصحيحة والعادات الحميدة . لذلك نرى بعضاً من ذوي العقول الكبيرة المملوءة من العلم والمعرفة فاسدي السيرة وعارين من الحكمة الحقيقية وهم مثال للتحذُّر منهم لا للاقتداء بهم . ومن الاقوال الجارية

على السنة الناس في هذه الايام ان العلم قوة ولكن التعصب قوة والظلم قوة والطمع قوة. والعلم اذا لم يصاحب بالحكمة قوّى الاشرار على الشر بل قد يزيد شرهُ حتى تصير محافلهُ مثل محافل الابالسة

ولعلنا حتى يومنا هذا نغالي في اهمية التهذيب العلمي. واكثرنا يظنُّ اننا بلغنا درجة سامية من النجاح لان عندنا مكاتب واسعة ومدارس عديدة ولكن كثيراً ما تكون التسهيلات موانع تصدُّ الكثيرين عن اكتساب العلم. لان نسبة العلم الى المكاتب نسبة الكرم الى الغنى فان كان الغنى ينتج الكرم ضرورة فالمكاتب تنتج العلم. لا ريب ان الوسائل العلمية عديدة الآن ولكن الحكمة والفهم لا ينالان الاَّ بعد السير اليهما على سبيل الملاحظة والتمعُّن والمواظبة والاجتهاد. والمعرفة شيء والحكمة آخر والحكمة لا تنال بقراءة الكتب لان قارىء الكتب يقتصر غالباً على اقتباس افكار الغير واقتباس الافكار ليس لهُ تأثير عظيم في العقول وكثير من القراءة مثل شرب المسكر يطرب العقل ولكنهُ لا يفعل شيئاً في تثقيفهِ. ولذلك نرى كثيرين ينخدعون بانهم آخذون في تثقيف عقولهم وهم مشتغلون باضاعة الوقت وجهد ما يقال عنهم انهم ملتهون بذلك عن فعل ما هو اقبح منهُ

ويجب ان لا ينسى ان كل ما يُستفاد من الكتب من الاختبار هو من نوع التعلم واما الاختبار الشخصي فهو من نوع الحكمة وقليل من الثاني خير من كثير من الاول. ولقد اجاد اللورد بولنبروك اذ قال ان كل علم لا يرفع شأن الانسان فهو نوع من الكسل وكل ما يكتسب منهُ انما هو جهل. ومطالعة الكتب هي دون الاختبار من اوجه كثيرة ولو كانت مفيدة ومهذبة. فقد كان في البلاد الانكليزية رجال حكماء اشداء العزم سديدو الرأي قبل انتشار الكتب. وكان في كل امة رجال حكماء لا نظير لهم في هذا العصر وكلهم حصَّلوا ما حصلوا باختبارهم. فان البراءة العظمى التي للشعب الانكليزي امضاها

قوم لا يعرفون الكتابة وسموها بانامِلهم واسسوا حرية الانكليز وهم يجهلون القراءة والكتابة . ومن المسلَّم ان التهذيب لا يقوم باملاء العقل من افكار الغير بل بتوسيع المعرفة الشخصية والاقدام على اتمام مهام الحياة . واكثر مشاهيرنا (اي مشاهير الانكليز) كانوا من قليلي المطالعة فان برندلي وستفنصن لم يتعلما القراءة حتى صارا رجلين ومع ذلك عملا اعمالاً عظيمة يعجز عنها فحول العلماء. وحياتهما انفع من حياة الوف من العلماء . ويوحنا هنتر بلغ العشرين من العمر قبلما تعلم القراءة

والامر الجوهري في العلم هو غايتهُ لا مقدارهُ فيجب ان تكون غاية العلم تحصيل الحكمة واصلاح الاخلاق لكي يصير الانسان بهِ افضل مما كان واسعد واكرم وانشط . واذا تقدم الناس ماديًّا واهملوا تقدُّمهم الادبي ركبوا طريق الانحطاط . وعلى كل عاقل ان لا يكتفي بالتأمل في ما فعلهُ غيرهُ بل ان يفعلهُ بنفسهِ وان يرفع شأن نفسهِ بيدهِ بالوسائط التي خولتهُ اياها العناية الالهية

وتدريب الانسان لنفسهِ وضبطهُ لها اساسان للحكمة العملية ويجب ان يتخللهما اكرام النفس الذي يصدر عنهُ الامل رفيق القوة وابو النجاح لان من كان املهُ وطيداً قدر على عمل ما يعجز عنهُ غيرهُ . واكرام الانسان لنفسهِ وتدريبهُ اياها من اعظم واجبات هذه الحياة لان الله سبحانهُ يطلب منا ان نكرم اجسادنا وعقولنا وقوانا. وارتباطنا بالبشر يطلب منا ذلك ايضاً. بل ان قوانا نفسها تستدعي ان نعطيها حقها اللازم من الاهتمام .فعلينا ان ننقض ما فينا من الشر ونبني بدلاً منهُ الخير .وكما انهُ علينا ان نكرم نفوسنا كذلك علينا ان نكرم الآخرين وعليهم ان يكرمونا ومن ثم ينتج الاكرام المتبادل والعدل وينتفي كل ما يخل بالراحة العمومية

واكرام النفس من افضل ما يتجلبب بهِ الانسان ويتحلى بهِ عقلهُ .

نصح فيثاغورس للتلميذ ان يكرم نفسهُ لان مَن فعل ذلك نزّه جسدهُ عن الخسائس وعقلهُ عن الدنايا

والمنايا ولا الدنايا وخيرٌ من ركوب الخنا ركوب الجنازه

وهذه الصفة اي اكرام النفس اصل لكل الفضائل فهي اصل للطهارة والعفة والتعقل والتقوى والديانة. قال ملتن ان اكرام النفس الصحيح ينبوع ينبثق منهُ كل عمل صالح محمود . ومن لم يكرم نفسهُ احتقرها وامسى محتقراً في عيني الغير .ومن كان دأبهُ الذل لا يفلح. واما من يكرم نفسهُ فترى وجههُ متهللاً ولو كان مكتنفاً بالفقر ولا يسلِم لتجربة ولا يرتكب دنيئة . قال الشاعر

اذا انتَ لم تعرف لنفسكَ حقها هواناً بها هانت على الناس اهونا
فنفسك أكرمْها وان ضاق مسكنٌ عليك بها فاطلب لنفسك مسكنا

وقال زهير بن ابي سلمى

ومن يغترب يحسب عدوًّا صديقهُ ومن لا يكرّم نفسهُ لا يكرَّمِ

وتثقيف الانسان لعقلهِ اذا حُسب واسطة للتقدم فقط انحطت قيمتهُ الادبية ولكنهُ يبقى من خير ما يبذل فيهِ الوقت والعقل . والتثقيف يساعد الانسان على توفيق نفسهِ للاحوال التي هو فيها وعلى اختراع الاساليب الجديدة لاتمام الاعمال ويزيده مهارة وحذاقة في كل عمل يأخذ فيهِ . والانسان الذي يعمل عملهُ بيدهِ وعقلهِ يجيدهُ ويرى من نفسهِ ذلك ويشعر ان مهارتهُ آخذة في الازدياد وهذا الشعور من الذ ما يتمتع بهِ الانسان ويقوي فيهِ اعتمادهُ على نفسهِ . واعتماد الانسان على نفسهِ واكرامهُ لها يرفعانها عن الدنايا وما احسن ما قاله الطغرائي

اصالة الرأي صانتني عن الخطلِ وحلية الفضل زانتني لدى العطلِ
غالى بنفسيَ عرفاني بقيمتها فصنتها عن رخيص القدر مبتذلِ

والانسان الذي يكرم نفسهُ هذا الاكرام ينظر الى البشر بصدر

رحب ويرى في خدمتهِ ابناء نوعهِ لذة متجددة فيعمل لنفسهِ ولغيرهِ ويحيا للناس ليحيا الناس لهُ

وقد لا ينتهي العلم بالشهرة لانهُ على الفريق الاكبر من الناس ان يتعاطوا الاعمال المختلفة ومهما ازدادوا تعلُّماً وتهذُّباً لا بد لهم من تعاطي الاعمال الشاقة . ولكن لا سبيل لاصلاح ذلك الاَّ برفع شأن العمل بتوجيههِ الى الاغراض المجيدة التي تشرف العمل الدنيء والشريف معاً . ومن يفعل ذلك فهو خليق ان يعاشر اكثر العلماءِ فضلاً واسماهم عقلاً وابعدهم صيتاً ولو كان فقيراً وضيعاً . فيصير التعلُّم المبني على اسس صحيحة مصدراً للذة عظيمة ومنشأً لنتائج مجيدة ومصلحاً للسيرة والسريرة . وان كان المتعلمون في شك من نيل الغنى فهم على يقين من الحصول على الافكار السامية

وما المال الاَّ عارة مستردةٌ فهلاً بفضلي كاثروني وحتدي

قيل سأل بعضهم فيلسوفاً ماذا كسبت بكل فلسفتك فاجابهُ كسبت من نفسي رفيقاً لي

ولكنَّ كثيرين ييأسون وتخور عزائمهم وهم آخذون في تثقيف عقولهم لانهم لا ينجحون سريعاً كما يظنون انهم مستحقون . ولعلهم ظنوا المعرفة بزرة تصير شجرة في يوم فخاب ظنهم .اخبر مستر ترمنهير عن معلم مدرسة تركهُ تلامذتهُ وغب الفحص عن السبب وُجد ان اكثر الوالدين اخرجوا اولادهم من المدرسة لانهم ظنوا ان التعليم يصلحهم حالاً واذ لم يتم ذلك اخرجوهم واهملوا امر تعليمهم . وكثيرون يحطون قيمة العلم اما بجعلهِ واسطة للسبق في الدنيا كما ذكر او سبيلاً للهو والتسلي لكن اسمع ما قالهُ باكون الشهير وهو «ليس العلم حانوتاً للبيع والكسب بل مخزنٌ بضاعتهُ تمجيد الخالق وخير المخلوق» . ولا ريب في انهُ يحسن بالانسان ان يجد ويجتهد للتقدم في الدنيا ولكن لا يحق لهُ ان يضحي بنفسهِ لاجل ذلك . ولا اجهل ممن يجعل عقلهُ عبداً

لجسدهِ او آلةً لهُ ثم يأخذ يندب سوء حظهِ لانهُ لم ينجح النجاح المطلوب. هذا فضلاً عن ان النجاح لا يتوقف على العلم بل على القيام بالاعمال. ومن كان هذا الحال حالهُ يناسبهُ ما قالهُ روبرت سوثي لرجل طلب منهُ النصح فكتب اليهِ يقول «يحدث كثيراً ان يغضب الحكيم على الدنيا ويحزن لاجلها ولكنهُ لا يتذمر منها البتة اذا كان قائماً بما يطلب منهُ فاذا وُجد انسان متعلم صحتهُ جيدة ولهُ عينان ورجلان ويدان وهو مع ذلك في احتياج فيكون الله سبحانهُ قد وهب هذه البركات لرجل لا يستحقها»

وهناك سبيل آخر يحط شأن العلم وهو استعمالهُ لمجرد اللهو والتسلية العقلية. وهذا الامر شائع في عصرنا واتباعهُ لا يحصون. ألا ترى ان الكتب والجرائد قد شحنت من كل سخيف وركيك لكي توافق ذوق الجمهور. حتى متى لا ينتبه الناس من رقادهم بل من جنونهم هذا. حتى متى يميلون الى الهزل والسخافة والركاكة وما لا طائل تحتهُ وما لا يصدقهُ عاقل ولا جاهل. ألاَ يعلمون ان ذلك يفسد الذوق السليم. ذكرنا الكتب والجرائد ولكن ما القول في الروايات والفكاهات. على ان من الروايات ما هو فصيح العبارة بليغ المعنى حتى اذا تصفحهُ الذين اشغالهم شاقة في اوقات الراحة وجدوا فيهِ لذة عقلية كبيرة. ولجميع الناس كبارهم وصغارهم ميل غريزي الى التفكه بمثل ذلك ولا يحسن ان يحرموا هذه اللذة اذا استعملوها الى حدّ موافق ولكن مَن جعل ذلك طعامهُ وشرابهُ اضاع وقتهُ وافسد ذوقهُ وقد يفسد آدابهُ ايضاً. هذا فضلاً عن انهُ لا يرجى من قراءة الروايات كبير فائدة لان التأثير الذي تؤثرهُ وقتي زائل وقد يعتادهُ الانسان حتى لا يصدق منها شيئاً ولا يتأثر بها البتة

واللهو مفيد احياناً ولكن الزائد منهُ قد يفسد الاخلاق فيجب ان يحترس منهُ غاية الاحتراس. نعم انهُ يقال في المثل من اشتغل دائماً

ولم يلعب صار بليداً ولكن من لم يشتغل قط صار شراً من البليد . ولا شيء اضر بالشبان من الانهماك في الملاهي لانهُ يفسد عقولهم ويفتح امامهم باباً للتهور في كل نوع من القبائح . ثم اذا دعتهم الاحوال الى تعاطي الاعمال شعروا بكره شديد لها فيعدمون قوى الحياة وتنضب من وجوههم ينابيع السعادة ويخسرون اسمهم وجسمهم . وما من حالة اتعس من حالة شاب اضاع شبابهُ في التنعم والانهماك في اللذات . قال ميرابو عن نفسهِ « ان ايام حداثتي بذرت كثيراً من قواي وحرمت ايام شيخوختي من ميراثها » . ولا بد من ان خطايا الشبيبة تضر بالشيخوخة . قال جيوستي الايطالي لصديق له « ان الوجود نفسهُ لا تحصل عليهِ عفواً والطبيعة تدَّعي انها تعطينا الحياة مجاناً في صبانا ولكنها تطالبنا بثمنها في شيخوختنا . والبلية الكبرى ان من يبذر قواهُ في شبيبتهِ يلوّث اسمهُ باقذار قلما يستطيع ان يتخلص منها في كهولتهِ ولو اراد ذلك » . وما احسن ما قيل

ان الشباب والفراغ والجده   مفسدة للمرءِ ايَّ مفسده

كان بنيامين كنستان من اكبر رجال فرنسا عقلاً ولكنهُ تهوَّر وهو في العشرين من العمر فصارت بقية حياتهِ سلسلة من الشقاء عوضاً عن ان تكون كنزاً من الخير وما ذلك الاَّ لانهُ اهمل العفة وقهر النفس ولا يخفى ان هذين الامرين كانا في وسعهِ كما انهما في وسع كل احد . ويقال انهُ عزم على اتمام اعمال كثيرة ولكنهُ كان عديم الحزم فلم يتمم شيئاً منها ولذلك دعاهُ الناس كنستان المتقلب . وكان سريع الخاطر قوي الحجة وكتاباتهُ من الطراز الاوَّل ولكنهُ كان يشغل عقلهُ باسمى المواضيع ويمارس ادنى الاعمال حتى ان سمو تاليفهِ لا يكفّر عن دناءة اعمالهِ . فانهُ كان يقامر (يلعب القمار) عند ما كان يكتب في الديانة وكان مع كل قواهُ العقلية كمن لا قوة لهُ لانهُ لم يحترم الفضيلة ولا العفة . وقال ذات مرةٍ « ما هو الشرف وما هو المجد فانني ارى

بطلها كلما تقدمت في السن » وقال مرة اخرى « انما انا تراب ورماد وامرّ على الارض كظل زائل مصحوباً بالشقاء والهم » . وتمنى لو كان لهُ نشاط قُلْتر عوضاً عن كل مواهبهِ الطبيعية . كان كثير التمني عديم الحزم فانقضت حياتهُ بغير نفع . وقد شبَّه نفسهُ مرة برجل ذي رجل واحدة واقرَّ بانهُ خالٍ من المبادىء . وبعد ان عاش في الشقاء سنين عديدة مات ميتة الذلّ والهوان

اما حياة اغسطينوس ثيري مؤلف تاريخ الغلبة النرمندية فضادة لحياة كنستان على خط مستقيم لانها كانت مؤلفة من المواظبة والاجتهاد وتثقيف العقل والحرص على طلب الحكمة . ومن شدة انصبابهِ على الدرس فقد بصره وصحتهُ ولكنهُ لم يفقد محبتهُ للعلم وهاك ما قالهُ في آخر ايامهِ « اذا عدّت فوائد العلم من المآثر الوطنية اكون قد صنعت لبلادي ما صنعهُ الجندي الدامي في حومة القتال . وآملُ ان ابقى مثالاً لغيري في هذا الامر مهما كانت نتيجة اتعابي — مثالاً يعين على مقاومة الضعف الادبي الذي هو داء الجيل الحاضر ويردُّ الى جادَّة الحياة كثيرين من خائري القوى الذين يشكون من عدم الثقة ولا يعلمون ما يفعلون بل يلتمسون في كل مكان امراً يحترمونهُ ويعبدونهُ ولا يجدون . وعلامَ يقال ان بلاد الله ضاقت بسكانها وانهُ لا هواء فيها يكفي لتنفس الجميع ولا اشغال تكفي عقول الجميع أليس فيها مواضيع للدرس والتأمل اوَ ليس ذلك ملجأ ميسوراً لكل انسان . هناك تنقضي ايام الشر ولا يُشعر بها وهناك يمكن كل انسان ان ينال غايتهُ ويقضي حياتهُ . وهذا قد عملتهُ ولو أُبدئت ثانيةً لعملتهُ ايضاً ولا اختار الاَّ ما اوصلني الى ما انا عليهِ الآن . ومع انني اعمى وآلامي لا تنقطع اشهد ان في العالم شيئاً الذَّ من كل اللذات الحسية واشرف من الغنى وافضل من الصحة وهو طلب المعرفة »

وكلردج يشبه كنستان فانهُ كان ذا مواهب سامية الاَّ انهُ

كان ضعيف العزم . ومع كل قواهُ العقلية كان فاقداً صفة الاجتهاد بل كان عدوًّا للعمل . وفضلاً عن ذلك كان فاقداً محبة الاستقلال فلم يستنكف ان ترك امرأته واولادهُ على سوذي الذي كان يشتغل بكل جهدهِ لكي يعولهم . واعتزل كاردج مع تلامذتهِ الى غابة يباحثهم فيها فيما وراء الطبيعة وكان يتطلع الى الدخان الخارج من معامل لندن بكره واحتقار للاعمال الجارية فيها . تعاطى اعمالاً منها ريع كافٍ لهُ ولكنه لم يرفع اثقالهُ عن غيرهِ وكان يتنازل الى امور كثيرة يأنف منها احقر الناس مع ما كان عليهِ من سمو العقل . وكم كان سوذي مخالفاً لهُ لانهُ قضى حياتهُ في العمل والاجتهاد حتى في اعمال لا توافق ذوقهُ مالئاً عقلهُ بكنوز الحكمة الثمينة وعاش بالسعة من شق قلمهِ الضيق

كتب روبرت نيكول الى احد اصدقائهِ بعد ان قرأ مذكرات كاردج يقول « يا لهُ من عقل ثاقب ضاع في هذا الانسان لافتقارهِ الى قليل من الهمة والحزم » . اما نيكول هذا فمات شابًّا ولكنهُ كان ممن تعقد لهم الخناصر ويشار اليهم بالبنان ولم يمت حتى تغلَّب على كثير من مشاق الحياة . لما كان يتعاطى بيع الكتب وجد نفسهُ مديوناً بعشرين جنيهاً فكان يشعر كأن عنقهُ مطوق بحجر رحى وعزم ان لا يستدين شيئاً من مخلوق بعد ما يوفيها . ونحو ذلك الوقت كتب الى امهِ يقول « لا ينشغل بالك من نحوي ايتها الام الحنون لان همتي تزيد يوماً فيوماً واملي يقوى وكلما افتكر واتأمل ارى انني متقدم في الحكمة وذلك افضل مما لو زدت غنىً . والالم والفقر وغيرهما من بلايا الحياة التي ترعب غيري اقابلها بالصبر الجميل والاتكال على العناية الالهية . وهذه خطة تقتضي تعباً جزيلاً للحصول عليها ولكن من نالها يمكنهُ ان يلتفت الى ما تحتهُ كسائح يتطلع على العواصف الثائرة تحتهُ وهو ماشٍ على رأس جبل عال . ولا اقول اني بلغت هذه الدرجة ولكني اشعر في نفسي اني آخذ في الاقتراب منها يوماً فيوماً »

فالمتاعب والمشاق تصير الانسان رجلاً او كما قال ارسطو بالصبر على مضض السياسة ينال شرف الرآسة . ولا منصب في هذه الحياة الاّ وهو محفوف بالمتاعب حتى لا يرتقي اليهِ الاّ من تغلب عليها . والمتاعب تربي فوق تربية الاب كما ان الخطاء يقود الى الصواب في الغالب. كان من عادة تشارلس جمس فكس ان يقول ان رجائي في من لم ينجح في بادىء امرهِ اقوى منهُ في من نجح. فالشاب الذي ينجح في اول خطبة يلقيها تقتادهُ حلاوة الظفر غالباً الى التهامل فلا يفلح واما من يفشل في خطبتهِ الاولى ثم يستمر على ممارسة الخطابة ينجح نجاحاً ثابتاً اكيداً

والناس يتعلمون الحكمة من الخيبة اكثر مما يتعلمونها من النجاح لانهم كثيراً ما يعرفون النافع اذا اختبروا الضار. ومن لا يغلط لا يتعلم. قيل ان الذي دعا غاليليو وطورشلي وبويل الى درس الهوائيات هو فشل البعض في اصعاد الماءِ بالطلمبا فوق ثلاثٍ وثلاثين قدماً . وقال يوحنا هنتر ان صناعة الجراحة لا تتقدَّم حتى يشهر الجراحون العمليات التي اخطأُوا فيها كما يشهرون العمليات التي اصابوا فيها . وقال وط ان اهمّ ما تمس الحاجة اليهِ في علم الهندسة العملية تاريخ اغلاط المهندسين. قيل أُطلع السر همفري داڤي مرة على امتحان طبيعي أُجري بمهارة فائقة فقال احمد الله لاني لست ماهراً في اجراءِ الامتحانات ولاني توصلت الى اكثر اكتشافاتي بما لقيتهُ من الفشل . وقال آخر ممن لهم في العلوم الطبيعية اطول باع انهُ كان يكتشف اكتشافاً جديداً كلما عرضت لهُ صعوبة في امتحاناتهِ يظهر ان التغلب عليها ضرب من المحال. واعظم الاختراعات والاكتشافات كان محفوفاً بالمتاعب والمشاق

قال بتوفن ان في روسيني ما يكفي لجعلهِ من امهر الموسيقيين لو ضرب في صغرهِ ولكنهُ لم ينجح لانهُ لم يصادف شيئاً من المشاق لا يخف أُولو العزم من مناقضة الغير لهم وتنديدهِ بهم كما يجب ان

يخافوا من المدح في غير محله . يُروى انهُ لما طُلب من مندلسن ان يشارك الاركسترا في رواية ايليا قال لاحد اصحابهِ المنتقدين لا تشفق عليَّ في الانتقاد ولا تخبرني بشيء استحسنتهُ بل بكل ما لم تستحسنهُ. ويقال ان الانغلاب يفيد قواد الجيوش اكثر من الغلب . فوشنطون مثلاً كانت المعارك التي كُسر فيها اكثر من التي ظفر فيها ولكنهُ نال الظفر التام اخيراً . وكل الحروب التي نجح فيها الرومانيون كانت بدايتها انغلاباً .وقد شبَّه بعضهم القائد مورو بطبل لا يسمع صوتهُ ما لم يضرب.والمصاعب الكثيرة الشديدة ربَّت القائد العظيم ولنتون الذي لاقى منها اكثر مما لاقاهُ من اعدائهِ فقوَّت عزمهُ وعودتهُ الثبات فصار من امهر القواد . وكل ربَّان ماهر في سفر البحر بلغ ما بلغ في وسط الزوابع والعواصف التي علمتهُ الشجاعة والاقدام.ولعل مهارة الملاحين الانكليز في سلك البحار نتجت مما يصادفونهُ فيها من المخاطر

والحاجة قاسية صارمة ولكنها مفيدة والمصائب والمحن بلايا شديدة تقشعر منها الابدان ولكن اذا اصابت الندب قابلها بالصبر الجميل وخطوب الدهر وغير الزمان مرَّة المذاق كالعلقم ولكن نتيجتها احلى من العسل لانها تنبهُ المرء وتحرك همتهُ. ومن كان فيهِ ذكاء ظهر بالفرك كالنباتات العطرية . قال المثل الخطوب سلالم السماء وقال الشاعر

تريدين ادراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل

قال بعضهم الفقر اشبه شيء بالالم الحاصل من ثقب اذن فتاة لتعليق قرط من الجوهر الثمين . وكثيرون قاوموا المشقات بشجاعة واحتملوا البلايا بالصبر الجميل ولما نجحوا لم يقدروا ان يقاوموا الشرور الكثيرة التي صحبت نجاحهم . وعلى هذا نقول ان الغنى يستدعي حكمة وافرة للتحفظ من الشرور التي يؤدي اليها . نعم ان البعض تحمد افعالهم عند ما يصيرون في سعة من العيش ولكن الأكثيرين لا تنفعهم السعة قدر ما تضرهم لان كثيرين يحولهم الغنى من الخمول الى

الطيش ومن الذل الى الكبرياءِ اما الضيق فانهُ يربي اصحاب الحزم على الصبر والجلد . قال برك « المصاعب معلم لا يهاود اقامتهُ لنا العناية الالهية بمحبة ابوية وهي تعرفنا اكثر مما نعرف نفوسنا وتحبنا ايضاً اكثر مما نحب نفوسنا » . والبلايا تفعل فعل المصارع في تقوية اعضاءِ خصمهِ . ورخاءُ المعيشة اسهل من ضنكها ولكنهُ لا يربي رجالا . قيل انهُ لما وشي بهدصن زوراً ففصل عن وظيفتهِ في الهند قال لصديق لهُ « اني بالغ جهدي في مقابلة كل ضنك يصيبني بجسارة تضاهي جسارتي على مقابلتي العدو وعلى القيام بما يطلب مني على احسن ما يمكنني معتقداً انهُ لا بد من سبب لكل ما اصابني وان الواجبات الصعبة جزاؤها حسن اذا عملت حق العمل والاَّ فلا تزال واجبات »

وحرب الحياة كثيراً ما تشب في نجود صعبة المسالك لا يغلب فيها الاَّ البطل الذي لا يبالي باقتحام المخاطر . واذا لم تكن مخاطر فلا فوز لانهُ ان لم يكن شيء يغلب فلا شيء يكسب . والمشاق توهن عزم الجبان ولكنها تزيد همة الشجاع . والاختبار يعلمنا ان كل الموانع التي تحول دون تقدُّم البشر لا تقدر ان تثبت امام الاستقامة والنشاط والهمة والمواظبة وخصوصاً امام من يعزم ويحزم على مقاومة كل بلية تنزل بهِ

ومدرسة المشاق احسن المدارس لتربية المبادىءِ الادبية وتاريخها عبارة عن تاريخ كل الاعمال العظيمة التي عملها البشر . من ينكر كم استفادت القبائل الساكنة شمالي اوربا من محاربتها عناصر الطبيعة ومحل الاراضي مما لا يعرفهُ سكان البلدان الحارة فلا يستفيدون منهُ

ان افضل غلات البلاد الانكليزية مما لا ينمو فيها اصلاً لكن الاجتهاد الذي بُذل في انمائها في تلك البلاد ربى فيها رجالاً لا يفوقهم احد همة

وحيثما وجدت المصاعب قويت مقاومها وزادت مهارتهُ ونشَّطت

همتهُ على مقاومة ما ينزل بهِ من خطوب الدهر . وجبل الحياة صعب المرتقى ولكن من مرن على ارتقائهِ علت همتهُ فلا يألو جهداً حتى يبلغ قمتهُ . والاختبار يعلمنا ان ما من ترياق للتغلب على المصاعب الاَّ مصارعتها . ألا ترى ان من خطف القرَّاص بيدهِ وقبض عليهِ شديداً شعر ان ملمسهُ لين كالحرير . ولا يقوى على امر الاَّ من اقتنع انهُ قادر على اتمامهِ وعازم عليهِ. وكثيراً ما تتلاشى المصاعب من مجرَّد هذا العزم قبل الشروع في مقاومتها

وكثيرون يتوهمون الصعوبة في هذا الامر او ذاك قبل ان يباشروه ولكنهم لو باشروهُ لوجدوهُ أسهل مما ظنوا كثيراً . واما التمني والترجي فلا ينفعان شيئاً . ومباشرة امرٍ واحد خير من الف ليت ولو ولعل بل ان هذه الاحرف مصدر اليأس واصل المستحيل وسبب الاهمال قال اللورد لندهرست «الصعوبة امر يجب التغلب عليهِ» فيجب ان تصارعها حالما تظهر لك . والسهولة نتيجة المزاولة والقوَّة نتيجة الممارسة وبهما يبلغ العقل درجة من الكمال لا يقدر ان يتصورها من لم يختبرها بنفسهِ

لا خير في عزمٍ بغير حزمٍ والحزم والتدبيرُ روح العزمِ
والصبر لا في سرعة المزاوله والحزم كل الحزم في المطاوله
ما غلبَ لايامَ الاَّ الصابرُ وفي الخطوب تظهر الجواهرُ
خطبٌ تلقَّاهُ بصبر وثقه ليس الفتى الاَّ الذي ان طرقهْ

وتعلُّم العلم نوع من التغلب على المصاعب . والتغلب على صعوبة واحدة يقوي الانسان على غلبة غيرها . وما لا تظهر منهُ فائدة في بادىءِ الرأي كدرس اللغات القديمة والرياضيات هو كبير الفائدة بسبب تأثيرهِ في العقل لا بسبب فائدتهِ العملية. لان درس هذه العلوم يوسع العقل ويزيد قوَّة الانصباب وبقية القوى التي لولا الدرس لبقيت ضعيفة . وكل امرٍ يقود الى آخر ولا تنقضي مقاومة المصاعب ما لم

تنقض الحياة . ولكن الخوض في بالوعة اليأس لم يُعِن احداً على المصاعب ولن يعين . وما افضل النصيحة التي نصح بها دلمبر طالب علم شكا اليهِ من عدم نجاحهِ في مبادىء الرياضيات فقال لهُ «اجتهد تجد الثقة والقوة مقبلتين عليك»

الذين يلعبون على آلات الطرب لم يبرعوا الاَّ بعد تعب يفوق التصديق. قيل مدح بعضهم كريسمي على اتقانهِ فن الغناء وجريهِ فيهِ بسهولة . فقال لهُ انك لا تعلم بكم من الصعوبة حصلت هذه السهولة . سُئل السر يشوع رينلدز كم من الوقت قضيت على تصوير هذه الصورة فقال حياتي كلها . وقال هنري كلاي الخطيب الاميركي لبعض الشبان يصف سر براعتهِ في فن الخطابة اني انسب كل نجاحي الى الحادثة الآتية وهي اني لما بلغت السابعة والعشرين شرعت اقرأُ بعض الكتب التاريخية والعلمية واتلو مضمونها بصوت عالٍ في الحظائر والحقول والغابات وليس لي من سامع سوى البهائم والطيور والحشرات هذا هو العمل الوحيد الذي لهُ انا مديون ببراعتي في هذا الفن

كان كرّان الخطيب الارلندي قليل الافصاح اولاً حتى لُقب وهو في المدرسة بالالكن ولما كان يدرس الحقوق ويجتهد على اصلاح منطقهِ حدثت حادثة اصلحتهُ تماماً وذلك انهُ دخل بعض المجامع العلمية وجاء دورهُ للمناظرة فقام ولكن لم يستطع التكلم فقام خصمهُ ودعاهُ باسم الخطيب الاخرس فاثَّر فيهِ هذا التهكم فنهض ودافع عن نفسهِ بكلام فصيح الى الغاية حتى ادهش الحاضرين. ولما رأى من نفسهِ ذلك قوي عزمهُ واستمر على درس الحقوق برغبة زائدة وكان يقرأُ ابلغ الكتابات بصوت عالٍ ساعات عديدة وكل ذلك لتصليح منطقهِ دارساً حركاتهِ على مرآة وكان يفرض بعض المسائل ويناظر فيها وحدهُ امام المرآة وما زال على مثل ذلك حتى صار خطيباً مصقعاً . ثم دخل المحاكم محامياً في الدعاوي وفي احد الايام قال للقاضي اني لم ارَ القانون الذي

حكمت بموجبهِ في كتاب من كتب القانون . فقال لهُ القاضي بتهكم لعل ذلك صحيح لان الكتب التي اطلعتَ عليها قليلة جدًّا . وكان القاضي المذكور من رجال السياسة المتعصبين وقد الَّف رسائل مشحونة بالقذف والتشنيع ولم يضع اسمهُ عليها فنهض كر٘ان والغيظ آخذ منهُ كل مأخذ وقال لهُ « حقيق ايها المولى انني فقير ولذلك كتبي قليلة ولكن كلها نخب وقد تصفحتها مليًّا وتاهلت لهذا المنصب السامي بدرس كتب قليلة قيِّمة لا بتأليف كتب كثيرة قبيحة ولا اخجل من فقري بل اخجل من غناي اذا كنت احصلهُ بالظلم والباطل . واذا لم ارتقِ الى مرتبة امراء الارض فسارتقي الى مرتبة فضلاها وانني ارى الغنى المكتسب بطرق محرمة يشهر الانسان ولكن شهرة رديئة »

ومهما كان الفقر مدقعاً لا يعيق الانسان عن التقدُّم في تثقيف عقلهِ فان الاستاذ اسكندر مري اللغوي تعلم الكتابة وقلمهُ فحمة . ولم يكن في بيت ابيهِ من الكتب سوى كتيّب واحد ثمنهُ اربعة ملهات وهو مختصر اصول الايمان وكان اهلهُ يحفظونهُ بكل حرص ولا يفتحونهُ الاَّ من احدٍ الى احدٍ . والاستاذ مور لما كان فتى لم يكن معهُ دراهم لابتياع كتاب الاصول لنيوتن فنسخهُ كلهُ بيدهِ . وكثيرون من طلبة العلم المساكين المضطرين ان يعملوا كل النهار لكي يحصلوا قوتهم كانوا ينتهزون كل دقيقة يمكنهم انتهازها لاجل الدرس ولم يكن لهم من مشجع ولا معزٍّ سوى الامل والثقة . قصَّ وليم تشمبرس سيرة تقدمهِ على فئة من الشبان في ايدنبرج فقال « انني اقف امامكم الآن كرجل علَّم نفسهُ لانني اتيت ايدنبرج وانا صغير وفي غاية المسكنة وكنت اعمل كل النهار وجزءًا من الليل عند بائع كتب لتحصيل قوتي الضروري وامضي الساعات الاخيرة من الليل التي كنت اسرقها من النوم في تثقيف العقل الذي منحتني اياهُ العناية الالهية . وانصببت بالاكثر على درس العلوم الطبيعية . وفي غضون ذلك درست اللغة الفرنسوية

وحدي . والان ألتفتُ الى تلك الايام بلذة لا توصف واود لوكانت احوالي الآن متعسرة كما كانت حينئذٍ لانني وجدتُ لذة لما كنت ادرس في بيت صغير ولم يكن معي شيءٌ من الدراهم اكثر مما اجد الآن وانا في افخر القاعات »

وهاك قصة مفيدة جداً لطلبة العلم المكتنفين بالمصاعب وهي قصة تعلُّم وليم كوبت النحو الانكليزي قال « انني تعلمت النحو وانا جنديٌّ ومقعدي سريري ومائدتي قطعة لوح واتممتهُ في اقل من سنة . ولم يكن لي من المال ما ابتاع بهِ سراجاً ادرس في نورهِ ليلا فكنت ادرس على نور النار عند ما تأتي نوبتي للقيام امامها . فاذا كنت قد بلغت مرامي وانا فقير ولا اب لي ولا صديق ولا منشط فما عذر غيري مهما كان فقيراً متعباً . وكنت منهوكاً من كثرة العمل ابقى بلا اكل لكي اشتري قلماً وقرطاساً وكنت اكتب بين قهقهة عشرات من الرجال الطائشين وصفيرهم وخصامهم . ولا تحتقر الفلس الذي كنت ادفعهُ ثمن الحبر او الورق او القلم لان ذلك الفلس كان عندي بمثابة بدرة من المال عند غيري اذ لم اعطَ في الاسبوع غير غرش واحد . واذكر الآن انهُ فاض معي مرَّة قطعة تساوي مليمين لا غير فحفظتها لكي اشتري بها سمكةً آكلها في الصباح ولكن لما نزعت ثيابي في المساء وكنت اكاد اموت جوعاً نظرت فاذا القطعة ضائعة فغطيت رأسي بملاءتي واخذت ابكي كالطفل . فان كنت انا قد تغلبت على ذلك الضنك الشديد ونجحت فهل يبقى عذر لاحد من الشبان »

وهاك حادثة تشبه هذه اصابت احد المهاجرين الفرنسويين . كانت حرفة هذا الرجل البناء وقد وجد عملاً يعمل بهِ حالما اتى البلاد الانكليزية ولكن بعد قليل انتهى عملهُ ولم يجد عملاً آخر فامسى في حالة يرثى لها من العوز . وفي غضون ذلك زار احد اصحابهِ المهاجرين وكان يعلّم اللغة الفرنسوية واستشارهُ في الطريقة الممكنة لتحصيل

معيشته فقال لهُ رأيي ان تصير معلماً . فقال أأصير معلماً وانا بنّاءٌ ولا اعرف غير الباتوى (فرنساوية ركيكة) حقّـاً انك تمزح. فقال كلاَّ بل اني اتكلم معك كلام الجد ولا ارى لك سوى ان تصير معلماً فهلمَّ اليَّ وانا اعلمك كيف تعلم الغير . فقال البنّاء ان ذلك ضرب من المحال لانني كبير السن واهن الذهن قال هذا ومضى في طريقهِ واخذ يفتش عن عمل يعمل بهِ فقرع ابواباً عديدة ولم يجد عملاً فرجع الى لندن وانطلق الى صاحبهِ وقال لهُ قد بذلت جهدي في التفتيش عن عمل فلم اجد والآن ساجتهد لكي اصير معلماً . ثم عكف على الدرس وكان شديد المواظبة سريع الادراك كثير الجلد فتعلم مبادىء الصرف والنحو والبيان في مدة قصيرة واصلح لفظهُ حسب الاقتضاء وعند ما تعلَّم ما يكفيهِ ليكون معلماً للغة الفرنسوية جعل يعلمها الى ان صار استاذاً لها في مدرسة بضواحي لندن حيث كان يعمل سابقاً في صناعة البناء وكانت كوة غرفتهِ تطل على كوخ بناهُ بيدهِ فكان حالما يفتح عينيهِ صباحاً يقع نظرهُ على هذا الكوخ فخاف ان يشتهر امرهُ فيلتقي اللوم على المدرسة وهي ذات مقام رفيع في تلك الانحاء ولكن خوفهُ لم يكن في محلهِ لانهُ كان من امهر المعلمين . وقد احترمهُ تلاميذهُ وسائر الاساتيذ كثيراً ولاسيما حينما اخبرهم بقصتهِ

والسر صموئيل روملي ابن جوهري من المهاجرين الفرنسويين ايضاً. وقد تعلم قليلاً في حداثتهِ ولكنهُ بلغ ما بلغ باجتهادهِ وانصبابهِ. قال في سيرة حياتهِ « عزمت وانا بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ان اتعلم اللغة اللاتينية ولم اكن اعرف منها شيئاً تقريباً الاَّ انهُ لم يمضِ ثلاث سنوات او اربع حتى قرأت اكثر المؤلفات الفصيحة النثرية والشعرية مثل ليفيوس وسلتيوس وتاشيتس ودرست اكثر خطب شيشرون وترجمت كثيراً من هوميروس وكررت قراءة ترنشيوس وفرجيليوس وهوراشيوس واوفيديوس ويوفناليس» . ودرس عدا

ذلك الجغرافية والتاريخ الطبيعي والفلسفة الطبيعية. ولما بلغ السادسة عشرة عين كاتباً في محكمة الاستئناف فاظهر نشاطاً عظيماً حتى انهُ قبل بين المحامين ثم صار مدعياً عمومياً في مدة وزارة فكس سنة ١٨٠٦ وقام باعباء منصبهِ الا انهُ كان دائماً يحسب نفسهُ غير اهل لشيء فاتعبهُ هذا الوهم كثيراً . وتاريخ حياتهِ الذي كتبهُ بيدهِ يستحق ان يقراه كل احد بتمعن

كان من عادة السر ولترسكوت ان يقول ان في حياة صديقهِ يوحنا ليدن مثالاً من اتم الامثلة على قوَّة المواظبة التي لم يرَ اعظم منها. اما يوحنا هذا فهو كغيرهِ من الاسكتلنديين الذين ارتقوا من رعاية الغنم الى اعلى المناصب باجتهادهم مثل هوغ الذي تعلم الكتابة بتمثيل حروف كتاب مطبوع وهو يرعى القطعان في البراري . او كرنس الذي ارتقى من رعاية الغنم الى منصب استاذ في مدرسة كلية او مري وفرغوسن وغيرهما ممن يضيق المقام عن استيفاء اسمائهم . ولنرجع الى يوحنا ليدن فنقول انهُ اظهر تعطشاً شديداً الى المعرفة وهو صغير فكان يمشي ثمانية اميال كل يوم حافياً الى مدرسة صغيرة لكي يتعلم القراءة ثم ذهب الى ايدنبرج وصار يتردد على مدرستها الكلية مع ما هو عليهِ من الفاقة الشديدة . وكان يتردد على دكان كتب لارشيبلد كنستابل فيقيم فيهِ ساعات عديدة واقفاً على سلم عالٍ وبيدهِ كتاب ضخم يطالع فيهِ. وما زال يقاوم الصعوبات بهمة تفوق التصديق حتى تغلب عليها وازاحها من طريقهِ فانفتحت امامهُ ابواب المعرفة. وقبلما بلغ التاسعة عشرة حير اساتذة ادنبرج بمعرفتهِ الواسعة في اليونانية واللاتينية وفي كثير من العلوم . ثم وجَّه افكارهُ نحو الهند وطلب منصباً في الخدمة الملكية فلم يجد الا انهُ اخبر ان في الامكان ان يُجعل معاوناً لجراح. ولم يكن يعرف شيئاً من علم الجراحة وكان عليهِ ان يتقلد المنصب المذكور بعد ستة اشهر فاخذ يدرس هذا العلم الذي

يقتضي ثلاث سنوات فتعلمهُ في ستة اشهر وامتُحن فيهِ ونال الشهادة ثم مضى الى الهند بعد ان طبع قصيدتهُ المشهورة المعروفة بمناظر الطفولية. فاظهر في الهند ما يدل على صيرورتهِ من البارعين في اللغات الشرقية ولكن وافتهُ المنية وهو في عنفوان الشباب

وسيرة الدكتور لي استاذ العبرانية في مدرسة كمبردج من اعجب ما حدث في هذا العصر واقوى الامثلة على فعل الصبر والمواظبة والعزم. فانهُ تعلَّم مبادئ القراءة في مدرسة مجانية ولم يكن نجيباً على الاطلاق حتى قال معلمهُ انهُ ابلد ولد رآهُ في حياتهِ. فوُضع صانعاً عند نجار وعمل في النجارة حتى بلغ اشدهُ. وعكف على القراءة في ساعات الفراغ وكان يعثر على بعض الاقتباسات اللاتينية فعزم ان يعرف معناها فاشترى غراماطيقاً لاتينيًّا وشرع يدرس اللاتينية. وكان يقوم باكراً وينام متأخراً فتعلم هذه اللغة في مدة قصيرة. وبينما هو يعمل في بعض المعابد عثر على نسخة من الانجيل باليونانية فتحرك فيهِ ميل شديد الى تعلُّم هذه اللغة فباع بعض كتبهِ اللاتينية واشترى غراماطيقاً يونانيًّا وكتاباً في متن اللغة ولم يلبث طويلاً حتى تعلم اليونانية فباع كتبها واشترى كتباً عبرانية وتعلم تلك اللغة بلا استاذ غير طامع بالشهرة بل تابعاً ميلهُ الطبيعي ثم اخذ يتعلم الكلدانية والسريانية والسامرية وحينئذٍ اثَّرت دروسهُ في صحتهِ فاصابهُ مرض في عينيهِ من درس الليل حتى اضطر ان يترك الدرس ريثما يشفى. وكان في كل هذا الوقت آخذاً في حرفتهِ ونجح فيها نجاحاً مكَّنهُ من ان يتزوج وهو في الثامنة والعشرين وحينئذ تفرغ لتحصيل ما يقوم بنفقة عائلتهِ فترك الدرس وباع كل كتبهِ. ولو لم تحترق ادواتهُ لبقي نجاراً كل حياتهِ الاَّ انها احترقت ولم يكن قادراً على ابتياع ادوات اخرى فعزم ان يفتح مدرسة صغيرة لتعليم الصغار. ومع انهُ تعلم كثيراً من اللغات كانت معارفهُ العلمية قليلة جدًّا فلم يقدر ان يعلم

في هذه المدرسة شيئاً من العلوم ولكن علو همتهِ وشدة حزمهِ هوَّنا عليهِ كل عسير فتعلم من الحساب والكتابة ما يكفي لتعليم الاولاد الصغار . وكان لين العريكة يجذب اليهِ قلوب كثيرين من الذين بهتوا من معرفتهِ باللغات. وكان لهُ جار صديق يدعى الدكتور سكوت فساعدهُ حتى دخل مدرسة شوبري المجانية معلماً وعرَّفهُ برجل عالم باللغات الشرقية وقدم لهُ كتباً فرجع الى الدرس وتعلم العربية والفارسية والهندية . ثم دخل مدرسة كمبردج الملكية تلميذاً بمساعدة الدكتور سكوت وبعد ان درس مدة واشتهر فيها بالرياضيات اخلي منصب استاذ العربية والعبرانية في تلك المدرسة فقلدوهُ اياه فقام بعبئهِ وكان يعلّم اللغات الشرقية للمبشرين المزمعين على الانطلاق الى الشرق وترجم التوراة الى كثير من لغات اسيا ثم تعلم لغة زيلندا الجديدة وصنَّف لها غراماطيقاً وكتاب لغة وعليهما المعوَّل الآن في مدارس زيلندا الجديدة . هذه خلاصة ترجمة هذا الفاضل الذي هو واحد من كثيرين من المشاهير الذين تعلموا باجتهادهم ومواظبتهم

ومهما تقدم الانسان في السن لا يفوت وقت تعلمهِ ولنا على ذلك شواهد كثيرة فان السر هنري سبلمن لم يباشر درس العلوم الا بين السنة الخمسين والستين من عمره . وفرنكلين الاميركي كان ابن خمسين سنة لما شرع يدرس الفلسفة الطبيعية . ودريدن وسكوت لم يظهرا كمؤلفين حتى بلغ كل منهما الاربعين . وبكاتشو كان ابن خمس وثلاثين سنة لما شرع في دروسهِ العلمية. والفيري كان ابن ست واربعين سنة لما اخذ يدرس اليونانية . والدكتور ارنلد تعلم الالمانية بعد ان طعن في السن لكي يقرأ نيبهر بلغتهِ الاصلية . وجمس وط تعلم الفرنسوية والالمانية والايطالية وهو ابن اربعين سنة لكي يقرأ الكتب المؤلفة فيها في الفلسفة الميكانيكية . وتوماسكوت كان في السادسة والخمسين عند ما شرع يتعلم العبرانية . وربرت هُل تعلم

الايطالية وهو شيخ طاعن في السن ومكتنف بالاوجاع لـكي يرى صحة المقابلة التي عملها الشهير ما كولي بين ملتن الشاعر الانكليزي ودنتي الشاعر الايطالي . وهندل كان في الثامنة والاربعين قبلما اشهر شيئاً من الحانهِ . ويمكننا ان نذكر الوفاً من الرجال الذين ساروا في خطة جديدة بعد ان تقدموا في السن . وما من احد يقول انني كبرت عن العلم الاَّ الجبان او الكسلان

والآن نعيد ما ذكرناهُ قبلاً وهو ان الرجال الذين غيروا هيئة العالم واحرزوا قصب السبق لم يكونوا من ذوي المواهب الفائقة بل من ذوي الحزم والاجتهاد . وكثيرون من اذكياء العقول اشتهروا في صغرهم ولـكن الاشتهار في الصغر لا يلزم عنهُ الاشتهار في الكبر بل ان النمو الباكر علامة المرض والاَّ فاين التلامذة النجباء الذين نالوا الجوائز واكتسبوا المديح . فتش عنهم في العالم ترَ ان الذين كانوا دونهم درجات عديدة قد سبقوهم بمراحل . اما هم فكانوا اذكياء العقول سريعي الخاطر فنالوا الجوائز الحسنة جزاء لنجاحهم ولكن كان يجب ان تعطى هذه الجوائز للمجتهدين الباذلين جهدهم وان لم تكن قواهم العقلية في درجة سامية. ولا يصعب ان نكتب فصلاً كبيراً عن الاولاد البلداء الذين صاروا رجالاً عظاماً الاَّ ان المقام لا يسمح لنا الاَّ بذكر بعضهم فبيترو دي كرتونا المصور كان معدوداً من ابلد الاولاد حتى لُقب براس الحمار . وتوماسو غويدي لُقب توما الثقيل ولـكنهُ ارتقى باجتهاده الى اسمى المراتب . ونيوتن لما كان في المدرسة كان آخر اولاد صفهِ ما عدا واحداً وحدث يوماً ان الصبي الذي فوقهُ رفسهُ برجلهِ لمخاصمهُ نيوتن ثم عزم ان يغلبهُ بالدرس فانصبَّ بكليتهِ على دروسهِ ولم تمض عليهِ مدة طويلة حتى ارتقى الى راس الصف. واكثر لاهوتيينا لم يكونوا اذكياء في صغرهم فان اسحق بَرُو كان مشبوباً بشراسة الاخلاق ومحبة الخصام وكان يُضرَب المثل بكسلهِ حتى ان اباه قال

مراراً كثيرة اذا شاءَت العناية الالهية ان تأخذ ولداً من اولادي فاحب ان تأخذ اسحق الذي لا يرجى منهُ نفع. وآدم كلرك نعتهُ ابوهُ بالابله. ودين سوفت طُرد من مدرسة دبلن الكلية . والدكتور تشلمرس الشهير والدكتور كك طردهما معلمهما زاعماً انهما ابلهان مؤذيان لا يقبلان الاصلاح ابداً . وشريدن الشهير لم يكن نجيباً في صغرهِ حتى ان امهُ لما اخذتهُ الى المكتب قالت لمعلمهِ ها قد اتيتك بهذا الابله البليد . والسر ولتر سكوت كان بليداً احمق محبًّا للخصام حتى ان الاستاذ دلزل قال انهُ بليد وسيبقى بليداً كل حياتهِ . وتشترتن طُرد من المدرسة كاحمق لا يرجى منهُ نفع . وبرنس كان بليداً لا ينفع الاَّ للعب . وغلدسمث قال عن نفسهِ انهُ نبات ازهر متأخراً . والفيري خرج من المدرسة جاهلاً كما كان عند ما دخلها ولم يبتدئ في دروسهِ التي اشهر بها الاَّ بعد ان طبَّق نصف اوربا هرباً. وروبرت كليف كان مشهوراً بالطيش والكسل فارسلهُ والداه الى الهند لكي يتخلصا منهُ ولكن هو الذي وضع اساس السلطنة الانكليزية في الهند . ونبوليون وولنتن كان كلٌّ منهما بليداً في صغرهِ واولهما لم يشتهر بشيءٍ في المدرسة سوى جودة صحتهِ . والجنرال اولوس غرنت رئيس الولايات المتحدة الاميركية لقبتهُ امهُ يوزلس اي عديم النفع لبلادتهِ وبلههِ . وستنول جكسن القائد الشهير اشتهر ببلادتهِ وهو صغير وكان آخر ولد في صفهِ وهو سبعون تلميذاً ولكن لما اكمل دروسهُ في المدرسة لم يكن فوقهُ سوى ستة عشر منهم والبقية دونهُ . وقيل انهُ لو طال وقت المدرسة ست سنوات اخرى لخرج وهو راس صفهِ . ويوحنا هورد الشهير كان بليداً ايضاً وقد اقام سبع سنوات في المدرسة ولم يتعلم شيئاً . وستفنصن لم يشتهر وهو في المدرسة الاَّ بالمصارعة . والسر همفري دافي لم يكن انجب من غيرهِ من التلامذة . ووط كان بليداً الاَّ انهُ كثير الانصباب وذلك مكَّنهُ عن اتمام الآلة البخارية

ويمكننا ان نقول عن الصغار كما قال الدكتور ارنلد عن الكبار ان الفرق المهم بينهم ليس في ذكاء العقل بل في الاجتهاد لان البليد المجتهد خير من الذكي الكسلان . ومن العجيب ان بعض النجباء الاذكياء العقول لا ينجحون اما البلداء فانهم اذا كانوا شديدي الاجتهاد والانصباب نجحوا دائماً . وانا (المولف) لما كنت حدثاً كان معي في المدرسة تلميذ بليد حتى ان كل المعلمين اعيوا ولم يقدروا ان يجعلوهُ يستفيد شيئاً فيئسوا منهُ وتركوهُ بعد ان استخدموا كل واسطة لتقوية ذهنهِ . ولكن كان فيهِ شيء من العزم الذي نما بنموهِ . فلما دخل في مهام الحياة فاق كثيرين من ابناء صفهِ وآخر مرة سمعتُ عنهُ كان رئيس المحكمة في بلادهِ

ولا يخفى ان السلحفاة المشهورة ببطء الحركة اذا سارت في طريق قويم سبقت الفارس السائر في طريق معوج . فلا خوف على ولد بطيء الفهم اذا كان مجتهداً . على ان الذكاء قد يكون مضرًّا لان من تعلم سريعاً نسي سريعاً. هذا فضلاً عن ان الذكي لا يرى موجباً للاجتهاد والمواظبة واما البليد فيرى لزومهما لهُ ويمارسهما ولا يخفى انهما اصل لكل نجاح

والخلاصة ان التعلُّم لا يتوقف على المدارس والمعلمين كما يتوقف على الاجتهاد بعد الدخول في ميدان الحياة ولذلك لا يليق بالآباء ان يخافوا من تأخر بنيهم وهم في المدارس ولا ينبغي ان ينتظروا منهم نجاحاً سريعاً بل عليهم ان يكونوا صبورين منتظرين فعل القدوة الحسنة والتربية الصحيحة فيهم وتاركين ما بقي للعناية الالهية وليحرصوا على صحة اولادهم وتدريبهم في جادَّة التهذيب الذاتي مربين فيهم روح الانصباب والمواظبة فينجحوا اذا كانوا اهلاً للنجاح ولو بعد ان يتقدموا في السن

هذا وانا ذرف كثيرين في بلاد الشام وغيرها تركوا صناعة الحياكة

او السكافة او البناء او تقطيع الحجارة ودخلوا المدارس العالية وتعلموا فيها ورقوا الى اعلى المناصب ويحق لكلٍّ منهم ان يردد قول الشاعر

ما بقومي شرفتُ بل شرفوا بي وبنفسي فخرتُ لا بجدودي

ونعرف ايضاً كثيرين من الذين وُصفوا بالذكاء وهم في المدارس وكانوا في مقدمة صفوفهم ثم اهملوا الدرس فضاع علمهم ونسي اسمهم وغيرهم من الذين لم يشتهروا بسرعة الفهم وقوة الذاكرة ثم اشتهروا بالاجتهاد والمواظبة لما تعاطوا مهام الحياة فافلحوا واثروا وسبقوا الذين كانوا فوقهم في المدرسة بمراحل . واللبيب اذا امعن نظرهُ رأى بين جيرانهِ ومعارفهِ امثلة كثيرة تؤيد ما تقدم

الفصل الثاني عشر

في القدوة

قال جون سترلن ما معناه

كانا وطيف الاقربين يزورنا وان ابعدتهم عن حمانا المقابر
جيوش الى كسب الفخار تسابقوا واملاكهم تحثهم ان يحاضروا

وقال جورج اليوت · اولادنا يموتون وافعالنا تحيا وحياتها خالدة في نفوسنا وفي غيرنا

وقال توما الملمسبري · لا عمل من اعمال الانسان الا وهو بداية سلسلة من النتائج التي تقصر عن ادراك نهايتها الحكمة الانسانية

القدوة معلم من اقدر المعلمين مع انها تعلّم بلا لسان وهي مدرسة البشر العملية . وتعليم العمل افعل من تعليم القول . الارشاد يري الطريق ولكن القدوة البكماء تسيّر فيهِ . والنصيحة ثمينة ولكنها لا تفيد كثيراً ما لم ترافقها سيرة الناصح . وخير النصح إفعلْ كما أفعَلُ لا كما اقول . والناس مائلون طبعاً الى ان يتعلموا بعيونهم اكثر مما يتعلمون بآذانهم .والمرئي يوثر اكثر من المقروءِ والمسموع. يصدق هذا القول بنوع خاص على الاحداث لانَّ عيونهم هي الباب الاوسع للمعرفة .فما يرونهُ يقتدون بهِ وان عن غير قصد ولذلك تراهم يتمثلون بالذين حولهم كما ان الحشرات تتلون بلون النباتات التي تقتات بها . واذا كان الامر كما ذكرنا فلا شيء افعل من التربية البيتية لانهُ مهما كان تأثير المدارس قويًّا يبقى تأثير البيوت اقوى وعليهِ تتوقف اخلاق رجالنا ونسائنا . البيت جرثومة الهيئة الاجتماعية واصل الصفات الاهلية ومن هذا الينبوع تنبثق الآداب والاخلاق المتسلطة على الخاصَّة والعامَّة .وصفاء الدنيا وكدرها يتوقفان على صفاء البيت

وكدره . والمحبة العائلية مصدر المحبة الوطنية ومن هذه الدائرة الصغيرة تتولد دوائر كبيرة تعمّ العالم اجمع . وللقدوة الاهمية الكبرى حتى في الامور الطفيفة لانها تؤثر في حياة الناس تأثيراً بليغاً وتميل بهم الى الصلاح او الطلاح . وصفات الوالدين تظهر في اولادهم . وافعالهم المختلفة التي يمارسونها يوميًّا كالمحبة والاجتهاد وانكار الذات وحسن السياسة تحيا في اولادهم بعد ان يكونوا قد نسوا تعاليمهم التي سمعوها منهم بآذانهم منذ زمان طويل . ونظرة واحدة من الاب قد تبقى مؤثرة في الولد مدى الحياة . وكثيرون قد تجنبوا شروراً كثيرة لئلا يهينوا اسم والديهم . وكل امر مهما كان طفيفاً يؤثر تأثيراً بليغاً في اخلاق البشر . قال وست المصور «ان قبلة واحدة من امي جعلتني مصوراً» . وعلى هذه الامور الطفيفة تتوقف سعادة الصغار عندما يصيرون رجالاً . كتب فول بكستن الى امهِ بعد ان نال منصباً عالياً يقول «انني اشعر على الدوام بنتائج المبادىء التي غرستها في عقلي» . وكان يقر بفضل رجل اميّ يسمى ابرهيم بلاستو وهو من الحكمة والاستقامة على جانب عظيم حتى شبه بكستن كلامهُ بخطب سنيكا وشيشرون . ولما التفت اللورد لنديل الى قدوة امهِ الصالحة قال اذا وضع العالم باسرهِ في كفة ميزان وامي في الكفة الاخرى رجحت عليهِ رجوحاً بليغاً . وكانت احدى السيدات تذكر في شيخوختها ما كان لامها من الهيبة في قلوب معارفها فقالت انها لم تدخل بيتاً الا كان نفَسها يطهر هواءهُ فتنعش النفوس وترقي حديث الذي فيهِ بمهابتها التي جعلت لها هذا التأثير في قلوب الجميع

من الامور المهمة بل الرهيبة جدًّا ان كل عمل يعملهُ الانسان وكل كلمة يفوه بها هي مقدمة لنتائج عديدة لا يعرف نهايتها الا الله ولكلٍّ منها تأثير في حياتنا وحياة غيرنا . فكل عمل صالحاً كان او طالحاً يحيا ويثمر وان لم نرَ ثمرهُ بعيوننا . وارواح البشر لا تموت

ولكنها تبقى حية وتجول بين الاحياء. ولقد اصاب المستر دزرائيلي اذ قال في مجلس النواب عند وفاة رتشرد كبدن ان هذا الرجل من الرجال الذين وان غابوا عنا لا يزالون بيننا اعضاء في هذا المجلس

في حياة الانسان شيء من الخلود حتى في هذه الدنيا لانهُ ما من فرد من افراد البشر الاَّ وهو عضوٌ من اعضاء الاسرة البشرية يعمل لزيادة خيرها او ضيرها . وكما ان الحاضر متصل بالماضي وحياة آبائنا لا تزال تؤثر فينا فكذلك نحن سنؤثر في الاجيال الآتية بسيرتنا وافعالنا اليومية . وما الانسان سوى ثمرة انضجتها القرون السالفة واوصلتها الى حالتها الحاضرة وللجيل الحاضر هذا الفعل نفسهُ في الاجيال التالية وهكذا سيرتبط الماضي الدابر بالمستقبل البعيد . وافعال البشر لا تموت وان ماتت اجسادهم وصارت هباء منثوراً بل تحيا الى الابد وتؤثر في حياة الاجيال العتيدة وتثمر اثماراً من نوعها ان خيراً فخير وان شرًّا فشر . ولقد اظهر ذلك المستر بيادج بعبارات بليغة لا بأس بايرادها هنا . قال « ان كل ذرة تتحرك بالحركة التي حرَّكها بها الحكماء والفلاسفة حتى ان الهواء نفسهُ يشبه كتاباً كبيراً كُتب على صفحاته كل ما فاه بهِ بنو البشر — كل ما قالوهُ ولم يفعلوهُ او وعدوا بهِ ولم يفوهُ فهو شاهد ازلي على تقلُّب ارادة الانسان . ولكن اذا كان الهواء شاهداً على اقوالنا فالارض والبحر والهواء شهود ابدية على افعالنا . وكما وضع الله القدير على جبهة القاتل الاوَّل علامة ظاهرة لجرمهِ فكذلك سنَّ شرائع تلزم كل مذنب ان يقر بذنبهِ لان كل ذرة من جسدهِ مهما تغير وضعها لا تزال تتحرك بالحركة الاولى التي ارتكب بها ذلك الذنب » لذلك فكل فعل نفعلهُ وكل كلمة نقولها بل كل عمل نراهُ وكل قول نسمعهُ يؤثر في حياتنا تأثيراً مستمرًّا ويمتد تأثيرهُ الى النوع البشري كلهِ . ولا نقدر ان نتتبَّع هذا التأثير بتفرعاتهِ المختلفة بين اولادنا واصحابنا ورفاقنا لكن

لا بد من انهُ يتصل اليهم ويدوم امتدادهُ مدى الايام . ومن هنا نرى اهمية القدوة التي هي مهذب اخرس كما قلنا سابقاً ويقدر عليها افقر الناس واحقرهم . ومهما كان الانسان حقيراً لا يزال مديوناً لغيره بهذا النوع من التعليم ولا يستغنى عن تعليمهِ مهما كان حاله دنيئاً لان المنارة الموضوعة على راس جبل تنير والموضوعة على سفحهِ تنير ايضاً . والرجل الحقيقي ينشا في كل اين وآن في اكواخ المزارع وقصور المدائن . ومن يحرث قطعة ارض تقاس بالشبر يمكنهُ ان يكون قدوة لغيره في الامانة والاجتهاد كمن يملك الالوف . واحقر الحوانيت يمكن ان يكون مدرسة للاجتهاد والاداب او وهدةً للشر والجهل . وكل شيء يتعلق على الانسان واستخدامهِ للفرص التي تسنح لهُ

من ترك لاولاده وللناس سيرة حسنة وقدوة صالحة فقد ترك لهم ارثاً فاضلاً يردعهم عن الشر ويحرضهم على الخير ويغنيهم ادبيّاً وماديّاً . وحبذا مَن يقدر ان يقول كما قال بوب للورد هرفي « حسبي فخراً اني لا اخجل بوالديَّ ولم يخجلا بي » . ولا يكفينا ان نقول للناس اعملوا كذا وكذا بل علينا ان نعمل امامهم . وما احسن ما قالتهُ احدى السيدات وهو اذا اردنا فعل شيء فعلينا ان نشرع فيهِ بيدنا . والكلام وحدهُ لا يكفي فان كثيرين يحثون غيرهم على فعل هذا الشيء او ذاك ولكن كلامهم لا ينفع شيئاً ولو كانوا من ذوي البلاغة والحجة البالغة ما لم يعززوهُ بفعلهم . وما احسن ما قيل

ان قلت ويحك فافعل ايها الرجل فكم رجال لنا قالوا وما فعلوا

وذوو الهمة والمروءة لا يقدرون ان يحركوا الناس للعمل ما لم يكونوا هم من اهل العمل . فلو قام توما ريط وتبوأ كل منبر وخطب في اصلاح شأن المجرمين ولو قام يوحنا بوندس وملأ جرائد البلاد من الحث على انشاء المدارس للمساكين ولم يفعلا شيئاً ما افادا شيئاً ولكنهما لم يتكلما بشيء بل شرعا في عمليهما بايديهما فنجحا وحركا

غيرة الناس للاقتداء بهما . وهاك ما قالهُ الدكتور غثري الواعظ البليغ الذي يدعى رسول مدارس المساكين قال « ان رغبتي الشديدة في هذا العمل العظيم تبين كيف ان العناية الالهية تجعل الامور الطفيفة تؤثر في حياة البشر ومقاصدهم لانني انتبهت الى وجوب انشاء المدارس لاولاد المساكين من نظري الى صورة في برج قديم . فانني دخلت هذا البرج فوجدت فيهِ غرفة فيها كثير من الصور وبينها صورة تمثل دكان اسكاف، والاسكاف جالس وعويناتهُ على انفهِ وبين ركبتيهِ حذاء عتيق وعلى وجههِ امارات الهيبة والوقار وعلو الهمة وعيناهُ شاخصتان الى جم من الصبيان والبنات جالسين امامهُ بثياب اخلاق وكتبهم في ايديهم . ثم التفتُّ واذا الى جانب الصورة كتابة يقال فيها هذا يوحنا بوندس الاسكاف وقد اخذتهُ الشفقة على الاولاد المساكين المتروكين من القسوس والحكام والاسياد والسيدات لكي يجولوا في الازقة في حالة يرثى لها فجمعهم مثل راعٍ صالح وعلمهم وهذبهم لاجل خيرهم ومجد الله فانتشل من وهدة الهلاك ما ينيف على خمس مائة ولد وهو يحصل خبزهُ بعرق جبينهِ . فعند ما قرأت هذا الكلام خجلت من نفسي والتفتُّ الى رفيقي وقلت لهُ حقًّا ان هذا الرجل فخر لبلادهِ ويجب ان يقام لهُ نصب من ارفع الانصاب التي اقيمت في البلاد الانكليزية . ثم راجعت تاريخ حياتهِ فرأيت ان قلبهُ كان مملوءًا من الشفقة والحنو وعقلهُ من الحكمة والدراية في اجتذاب الناس وانهُ كان يجول في الشوارع يستدعي الاولاد المنبوذين ليأتوا الى مدرستهِ ولم يكن يجبرهم على ذلك بقوة الحكومة بل باطعامهم قليلاً من الطعام . واني لاخال عظماء الارض واشرافها الذين اطنب الشعراء في مدحهم واقيمت لهم الانصاب قد وقفوا في ساعة الحساب الرهيبة وانقسموا الى شطرين لكي يجتاز بينهم هذا الرجل الخامل الذكر وينال ثوابهُ من ذاك الذي قال « بما انكم فعلتموهُ باحد هؤلاء

الاصاغر في فعلتم »

لا شيء يؤثر في الاخلاق مثل القدوة لان البشر مائلون طبعاً الى الاقتداء بمن حولهم في العادات والاخلاق والآراء وان لم يقصدوا ذلك . نعم ان قواعد السلوك تفيد كثيراً ولكن القدوة الحسنة تفيد اكثر منها لانها مهذب عامل . ومن ينذر بكلامهِ وهو فاسد السيرة كمن يبني بيد ويهدم باخرى . لذلك كان اختيار الرفاق امراً ضروريًّا ولاسيما في سن الصبوة لان في الشبان قوة خفية تجعلهم يتخلقون باخلاق رفقائهم ولله در القائل

عن المرءِ لا تسأل وابصر قرينهُ فكل قرين بالمقارن يقتدي

وهذا الامر قد اوجب على بعضهم ان يقول إما رفقة حسنة واما الانفراد . وما احسن ما قالهُ المثل اسأل عن جارك قبل دارك وعن رفيقك قبل طريقك . قيل كتب لورد كُلِنْوُد الى صديق لهُ من الشبان يقول « الانفراد خير من مرافقة ادنياء القوم فلا تصاحب الاَّ من كان مثلك او اعلى منك لان الانسان يُعرَف باصحابهِ » . وقد آلى السر بطرس لِلي المصور على نفسهِ ان لا ينظر الى صورة قبيحة خوفاً من ان يكتسب قلمهُ منها شيئاً يفسد ذوقهُ . وكذلك من يعاشر شخصاً فاسداً لا يلبث ان يكتسب منهُ شيئاً يضر بهِ . قال سليمان الحكيم المسائر الحكماء يصير حكيماً ورفيق الجهال يُضر . فعلى الشبان ان يعاشروا افاضل القوم ويقتدوا بهم . وقال فرنسيس هرنر عما استفادهُ من معاشرتهِ للعقلاء « لا يسعني ان انكر انني استفدت منهم افادة عقلية اكثر مما استفدت من كل الكتب التي تصفحتها في حياتي » . قيل ان لورد شلبرن زار وهو فتىً الوزير ملشرب واستفاد من هذه الزيارة فائدة كبيرة حتى انهُ قال فيما بعد « انني جلت في بلدان كثيرة ولم استفد من مخلوق قدر ما استفدت من تذكري مسيو ده ملشرب » .

وفول بكستون كان من اكثر الناس اقراراً بفضل اسرة غرني عليهِ

لانها ربّت فيهِ كل صفاتهِ الحميدة حتى ان نجاحهُ في حياتهِ توقف بنوع خاص على الاخلاق التي اكتسبها مدة اقامتهِ في بيت تلك الاسرة

والالتصاق بالافاضل يورث الفضل كما ان المرور بين النباتات العطرية يعطر ثياب السيَّاح . ان الذين يعرفون يوحنا سترلن مثلاً يقولون انهُ لم يجالسهُ احد الاَّ استفاد منهُ . وكثيرون مديونون لهُ لانهم بواسطتهِ انتبهوا الى رفع شأنهم . قال فيهِ المستر ترنتش انهُ لمن المحال ان تقترب منهُ الاَّ وتشعر ان افكارك قد ارتقت ارتقاء كبيراً وهذا فعل العقول العجيب بعضها ببعض

بين الموسيقيين والمصورين فعل وانفعال مثل هذا . قيل ان هيدن سمع هندل يغني فاضطرمت في فؤادهِ رغبة شديدة في الغناء . ولما كان نرتكوت فتى رأى المصور رينلدز في محفل فاخترق الجمع المزدحم الى ان وصل اليهِ ولمس هدب ثوبهِ وقال انهُ لما فعل ذلك اطمأن بالهُ

من ينكر ان قدوة الابطال تبث الشجاعة في قلوب الجبناء حتى ان الرجال العاديين قد فعلوا العجائب لان قوادهم كانوا ابطالاً بُسَّلاً . قيل ان زسكا اوصى بجلدهِ ان يصنع طبلاً لكي يحرك شجاعة البوهيميين . ولما مات اسكندر بك امير ابيروس طلب الاتراك عظامهُ لكي يحملوها فتتصل شجاعتهُ اليهم . ولما كان البطل دغلس في فلسطين راى واحداً من فرسانهِ يحيط بهِ خصومهُ وقد سدوا عليهِ طرائقهُ فنزع ذخيرة قلب بروس من عنقهِ وطرحها في وسط العدو صارخاً حارب وانتصر حسب عادتك فسأتبعك او اموت . قال هذا وهجم الى حيث سقطت الذخيرة ولم يرتد حتى قُتل

وفائدة الترجمات تخليد ذكر الرجال الذين يقتدى بهم فاننا نجد فيهم آباءنا احياء في سير حياتهم وفي الاعمال التي عملوها نعم ونراهم يحثوننا على المعروف وينهوننا عن المنكر . ومن مات وترك وراءهُ مثالاً

حسناً فقد ترك لنسله وغيرهم افضل تركة تبقى ثمارها مدى الايام .
وانفع الكتب كتاب يتضمن حياة رجل فاضل . وقلّ مَن يقرا سيرة الرجال الافاضل الاّ ويشعر كأنّ حياة جديدة دخلت عقلهُ وقلبهُ .
وكثيراً ما يحدث ان سيراً كهذه تنبه القوى الخامدة فينتبه الانسان الى نفسه ويرى ان فيهِ ميلاً الى بعض الامور وهو غير شاعر بهِ كما حدث لكرجيو لما قرأ مؤلفات ميخائيل انجلو .قال السر صموئيل روملي في تاريخ حياته انهُ استفاد فائدة كبرى من قراءة سيرة الوزير العظيم داغسو الفرنساوي . ونسب فرنكلين نجاحهُ الى قراءته مقالات ماذر . وقال صموئيل درو انهُ درَّب حياتهُ على انموذج فرنكلين . فانظر كيف يتصل فعل القدوة الحسنة بالتسلسل ولا يمكننا ان نحكم اين تكون نهايتهُ ان كانت لهُ نهاية لذلك علينا ان نختار الكتب الفضلى ونقتدي بالشيء الاحسن فيها كما انهُ علينا ان نختار افضل العشراء . قال اللورد ددلي انني مغرم بالاقتصار على الكتب المفيدة التي طالعتها وعرفت فائدتها واشهد ان قراءة كتاب عتيق مرة ثانيه افضل من قراءة كتاب جديد لم يقرأ قبلاً وان لم تكن الذ منها

ويحدث احياناً ان يأخذ انسان كتاباً لمجرد التسلية فيرى فيهِ سيرة تؤثر فيهِ تأثيراً شديداً وتنبه فيهِ قوة كانت خاملة مثال ذلك ان الفياري مال الى الانشاء بقراءة سيرة فلوطرخس . ولويولا لما كان في الجند جُرح جرحاً بليغاً في رجلهِ ونقل الى المستشفى فطلب كتاباً يتسلى بهِ فاعطي كتاب حياة القديسين فاثر في نفسهِ تأثيراً بليغاً حتى انهُ عزم من ذلك الوقت ان ينشيء طغمة دينية جديدة. ولوثروس تحرك للاصلاح بقراءة سيرة يوحنا هس . والدكتور ولف تحرك للتبشير بقراءة حياة فرنسيس زفير . ووليم كاري انبعث الى فؤادهِ اول ميل الى التبشير بقراءة اسفار القبطان كوك . وكان من عادة فرنسيس هُرنر ان يذكر في مفكرتهِ ومكاتيبهِ اسماء الكتب التي استفاد منها الفائدة

الكبرى ومن جملة ما ذكرهُ تأبين كندرست لهلر ومقالات السر يشوع رينلدز ومؤلفات باكون وسيرة السر متى هال فهذه الكتب ولاسيما الاخير حركت نشاطهُ بل اضرمت فيهِ غيرة واجتهاداً ولقد قال عن تأبين هلر انني لا اقرأ سيرة انسان مثل هذا الاّ واشعر بنوع من خفقان القلب ولا اعلم الى اي شيء انسبهُ أالى الاعجاب ام الى الطمع ام الى اليأس . وقال عن خطب السر يشوع رينلدز ما من كتاب بعد كتب باكون اقتادني الى تهذيب نفسي مثل هذه الخطب . واني اعدُّ الرجل الذي يظهر للعالم كيفية البلوغ الى العظمة من احكم الناس . وهذا شأن هذا المؤلف وهو يثبت ان البشر قادرون على عمل كل شيء يجتهدون فيهِ اثباتاً يضطر القارئ الى الاعتقاد بان الموهبة الفائقة ليست هبة خاصة ببعض الناس بل ملكة مكتسبة وان الجميع قادرون على نيلها.ومن الغريب ان السر يشوع نفسهُ تحركت فيهِ محبة التصوير بقراءتهِ سيرة مصور من مشاهير المصورين وكذلك تحركت محبة التصوير في هيدن بقراءتهِ سيرة رينلدز هذا . فكانت سيرة الواحد شعلة لاضرام قوى الآخر وبعثها في سبيل المجد . واذا دققنا النظر رأينا في الدنيا سلسلة غير منقطعة من الناس الذين تمثلوا بمن قبلهم وكانوا مثالاً لمن بعدهم

ومن الامثلة التي يمكننا ان نعرضها على الشبان ليقتدوا بها مثال العامل المسرور بعملهِ لان السرور زيت النفس يسهل حركتها ويزيد مرونتها وبهِ تزول المصاعب ويزداد الرجاء وتُغتنم الفرص . والروح الحارة تكون مسرورة دائماً ونشيطة وتعمل اعمالها بسرور وتحرك الغير الى الاقتداء بها وترفع شأن احقر الصناعات. واتم الاعمال ما يعملهُ الانسان من قلبهِ ويعملهُ بسرور . كان من عادة هيوم ان يقول انهُ يفضل الطبع الميال الى السرور على عقار دخلهُ عشرة آلاف جنيه مع طبع ميال الى الغم. وكان غرنفيل شرب يسلي نفسهُ في وسط اعمالهِ

الشاقة في تحرير العبيد باللعب على آلات الطرب والرسم. وفول بكستن كان دائماً جزلاً وكان يشترك مع اولاده في اللعب واللهو وركوب الخيل. والدكتور ارنلد كان يسر بكل اعماله وكل ما عمله عمله بكل قلبه. قيل في ترجمته «ان اغرب ما في مدرسة للهام حيث كان يعلم نشاط من فيها وهمتهم حتى ان كل من يدخلها يرى ان الذين فيها عاملون عملاً عظيماً وكل تلميذ مشترك فيه وكل منهم مسرور سروراً لا يوصف لكونه عاملاً عملاً نافعاً وقلبه مشغوف بعمله الذي علّمه ان يعتبر الحياة والعمل المعين لها. واساس ذلك كله استقامة ارنلد وحسن ارشاده واحترامه للعمل. ولم يصدر هذا منه عن هوى ولا عن ميل لعمل دون آخر بل عن شعور عميق ثابت بان العمل من واجبات الانسان وهو الغاية من قواه المختلفة والميدان الذي تتروض فيه طبيعته وتترقى فيه نحو السماء»

لم يقم في هذه الدنيا على ما نظن رجل افاد اهله وجيرانه بسيرته واجتهاده الممزوج بالسرور اكثر من السر يوحنا سنكلر. كان لهذا الرجل املاك واسعة في شمالي اسكتلندا اتصلت اليه بالارث من ابيه ولما بلغ الثامنة عشرة اخذ يصلح هذه الاملاك بنشاط لم يقفه فيه احد فانتشرت اصلاحاته حالاً في كل اسكتلندا. وكانت الزراعة حينئذٍ في حالة يرثى لها لان الحقول كانت تُغمر بالمياه مدة طويلة من السنة. وكان الفلاحون في غاية المسكنة ولم يمكنهم ان يشتروا شيئاً من الدواب بل كانت نساؤهم تحمل كل الاحمال حتى ان من احتاج دابة كان يتزوج بامرأة. وكانت البلاد من دون طرق والانهار من دون قناطر وكان هناك طريق وعرة في لحف جبل يشرف على البحر فعزم على فتح طريق اخرى فازدرى به اصحاب الاملاك ولم يصدقوا انه يستطيع ذلك لكنه جمع الف ومائتي رجل واقتادهم الى هذا العمل العظيم بنفسه وقبل ان خيم الليل فتح طريقاً طوله ستة اميال تسير فيه المركبات بسهولة مع

انهُ كان يتعسر سلوكهُ على المعزى فانذهلوا منهُ وانقادوا الى رأيهِ
ثم جعل يفتح الطرق ويقيم المطاحن ويبني القناطر على الانهر ويحسّن
حال الزراعة بزرع الارض انواعاً عديدة بالتعاقب واعطاء الجوائز
تشجيعاً للمجتهدين فاحيا الهيئة الاجتماعية في كل البلاد المجاورة لهُ
حتى صارت جنة يضرب بها المثل في الخصب وحسن الطرق . ولما
كان حدثاً كان البريد يحمل الى ثرسو مرة واحدة كل اسبوع فعزم
على جعلهِ يحمل كل يوم وفي اول الامر لم يصدق احد ان ذلك ممكن
حتى صار قولهم متى رأى السرجون البريد في ثرسو يوميًّا مثلا
يضربونهُ للمستحيل او البعيد الوقوع ولكنهُ لم يمت حتى رأى البريد
في ثرسو يوميًّا

ثم اتسع نطاق اعمالهِ المفيدة لانهُ لما رأى ان الصوف الانكليزي
الذي هو فرع مهم من تجارة البلاد قد انحط كثيراً عزم ان يصلحهُ ولم
يمضِ عليهِ الاَّ مدَّة قصيرة حتى انشأ مجمع الصوف البريطاني وجلب
ثماني ماية رأس غنم على نفقتهِ من البلدان البعيدة وكانت النتيجة
ادخال الجنس الشفيوتي الى اسكتلندا . واول ما جاهر بهذا الامر
استهزأ بهِ مربو المواشي زاعمين انهُ لا يمكن لمواشي البلدان الجنوبية
ان تعيش في البلدان الشمالية ولكنهُ لم يبال بهم بل اصرَّ على اتمام ما
قصدهُ ولم يمضِ الاَّ سنون قليلة حتى صار في البلاد ما ينيف على ثلث
مائة الف راس من الغنم الشفيوتية فارتفعت اسعار الاراضي الصالحة
للمراعي ارتفاعاً كبيراً

ثم انتُخب عضواً في البرلمنت لمقاطعة كثنس وبقي في هذا المنصب
ثلاثين سنة فصارت لهُ فرص كثيرة لافادة بلادهِ . فانهُ لما رأى
المستر بت الوزير مواظبتهُ واجتهادهُ في كل امر مفيد للجمهور دعاهُ
وعرض عليهِ مساعدتهُ في كل ما يريد فاجابهُ على الفور انني اطلب
مساعدتك في انشاء مجلس وطني للزراعة . ويروى ان ارثر ينغ راهن

السر يوحنا على ان هـذا الامر لا يتم ابداً وهذا كلامهُ « ان مجلس الزراعة الذي تحلم بهِ سيكون في القمر » ولـكن السر يوحنا اخذ في هذا الامر بهمتهِ المعتادة فحرك ميل الجمهور واكثر اعضاء البرلمنت ولم ينفك عن عزمهِ حتى انشيء هذا المجلس وانتُخب هو رئيساً لهُ. ونتائج هذا المجلس وفوائدهُ اعظم من ان تبين واكثر من ان تعدَّد. ولما سمع ان فرنسا عازمة على غزو انكلترا عرض على المستر بت تجهيز كتيبة من الجند على نفقتهِ ثم مضى الى الشمال وجرد نحو الف من المتطوعة واستلم قيادتهم وكان حينئذٍ مديراً لبنك اسكتلندا ورئيساً لمجمع الصوف البريطاني ومديراً لمجمع صيد السمك البريطاني وعضواً في مجلس اصدار الاوراق المالية وفي البرلمنت لمقاطعة كثنس ورئيساً لمجلس الزراعة . وفيما كان يشتغل في هـذه الاشغال الـكثيرة التي لا يقوم بها رجلان ولا ثلاثة وجد وقتاً لتأليف كتب تكفي وحدها لتخليد اسمهِ . قال المستر رش سفير اميركا في لندن انهُ سأل المستر كوك ما افضل كتاب في الزراعة فاجابهُ كتاب السر يوحنا سنكلر ثم سأل المستر فتسترت ما افضل كتاب في مالية الدولة الانكليزية فهداهُ الى كتاب للسر يوحنا سنكلر في هذا الموضوع . ولـكن الـكتاب الذي خلَّد ذكرهُ اكثر من غيرهِ هو كتابهُ في حالة اسكتلندا الاقتصادية والمالية في واحد وعشرين مجلداً وهو من افضل ما سمحت بهِ قريحة انسان وقد قضى في تأليفهِ ثماني سنوات قرأ في غضونها اكثر من عشرين الف مكتوب اتتهُ في موضوع هذا الكتاب. ولم يكن لهُ منهُ فائدة شخصية سوى شرف الاسم لانهُ وهب دخلهُ لتهذيب اولاد القسوس الاسكتلنديين . ولقد نتج من طبع هـذا الـكتاب نتائج كثيرة حميدة منها الغاء بعض الامتيازات المضرة بالجمهور ورفع اجرة القسوس والمعلمين وترقية شأن الزراعة . ثم قصد ان يباشر عملا اعظم من هذا وهو جمع كتاب شبه الاول في احوال انكلترا

الاقتصادية والمالية فلم يوافقهُ رئيس اساقفة كنتربري مخافة ان يتعرَّض لأعشار القسوس

ومن الامور الكثيرة التي تظهر علو همتهِ ومضاء عزيمتهِ الحادثة الآتية .وهي انهُ في سنة ١٧٩٣ وقف دولاب الاعمال بسبب الحرب فافلس كثير من تجار منشستر وغلاسكو واضحت بيوت كثيرة عظيمة على حافة الافلاس لا لقلة مقتنياتها بل لانغلاق باب التجارة والامانة (كرديتو) فارتأى السر يوحنا في البرلمنت ان تصدر الدولة اوراقاً مالية على الخزينة بخمسة ملايين جنيه وتدينها للتجار الذين يقدرون ان يقدموا ضمانة فقُبل هذا الرأي وفوّض اليهِ مع بعض الاعضاء الذين انتخبهم اتمام هذا العمل . وكان الوقت حينئذٍ ليلاً وخاف من تأجيل الامر فنهض صباحاً ومضى الى الصيارفة واستقرض منهم بكفالتهِ سبعين الف جنيه وارسلها في ذلك اليوم الى التجار. ثم التقى بهِ المستر بت في المجلس واخذ يتأوه لانهُ لا يمكن ان تفرج منشستر وغلاسكو في وقت قصير كما كان يظن اذ لا بد من ايام كثيرة لجمع النقود اللازمة فاجابهُ السر يوحنا ان النقود قد مضت منذ يومين ثم قصّ عليهِ واقعة الحال فعرا بت الانذهال . وما زال هذا الفاضل آخذاً في اعمالهِ باجتهاد وسرور الى ان ادركتهُ الوفاة فصار افضل مثال لاسرتهِ ولاهل بلاده بل شامة في وجنة بريطانيا . وقد احرز الخير لنفسهِ وهو يطلب خير غيرهِ لا بجمع الثروة بل بما نالهُ من السرور والراحة الداخلية والسلام الذي يفوق كل عقل . وتمم ما يجب عليهِ لوطنهِ ولم ينسَ ما يجب عليهِ لاهل بيتهِ . وبنوهُ وبناتهُ ارتقوا في درجات المجد . واعظم ما كان يفتخر بهِ عند ما ناهز الثمانين انهُ ربَّى سبعة بنين وما منهم من استدان مالاً لا يقدر على ايفائهِ او احزن اباهُ بعمل وكان تجنبهُ ممكناً

الفصل الثالث عشر

في الادب واللطف[1]

قال الشاعر تنسن ما معناه

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها   سوى الفاضل الندب الاديب المجرب
تراه بماء اللطف طهر ثوبه   وزين حوباه بخلق مهذب

وقالت جريدة التيمس ان ما يرفع البلاد ويقويها ويعظمها ويبسط سطوتها المادية والادبية ويجعلها محترمة مطاعة ويخضع تحتها امماً وممالك هو الادب آلة الطاعة واساس العظمة وتاج الرآسة وعرش السلطة وصولجان القوة

الادب تاج الحياة ومجدها وافضل ما يملكهُ الانسان وهو الشرف بالذات والمال بالاعتبار. هو الذي يرقّي الامة ويرفع شأن المناصب ويغني اكثر من الثروة ويشرّف اكثر من الشهرة وليس هو تحت الخطر مثل الاولى ولا عرضة للحسد مثل الثانية. هو نتيجة الصدق والاستقامة والثبات الصفات التي يحترمها الجميع اكثر من اي صفة كانت. الادب مظهر الطبيعة الانسانية في افضل معانيها واحسن مبانيها واهلهُ روح الهيئة الاجتماعية ومصدر قوّة الدولة الحسنة السياسية لان الصفات الادبية هي الحاكمة على الكون. قال نبوليون ان نسبة القوى الادبية في الحرب الى القوى المادية كنسبة عشرة الى واحد. وقوّة الامم واجتهادها وتمدنهما تتوقف على آداب افرادها. وما الشرائع والاحكام سوى ظواهر الآداب. وميزان الطبيعة العادل لا ينيل الافراد والامم والشعوب الاَّ ما يستحقونهُ فذو

---

(١) الادب لغة ملكة تعصم من كانت فيه عما يشينه وقد ترجمنا بها كلمة character واللطف معاملة الناس بالرفق واللطيف الذي يعامل الناس بالرفق وقد ترجمنا به كلمة Gentleman

الآداب الرائعة يجازى بالحسنى والضد بالضد وتلك نتيجة ضرورية لا مفر منها. الادب صفة تعصم من قامت بهِ عما يشينهُ فان كان الانسان قليل العلم والثروة ولكنهُ اديب كان لهُ شأن في كل مكان في المعمل وفي المخزن وفي المكتب وفي الديوان. كتب كنن يقول سبيلي الى القوَّة انما هو في ادبي ولست بسالك سبيلاً آخر وهو ليس السبيل الاقرب ولكنهُ الجادة المثلى

اننا نفتخر بذوي العقول الثاقبة ولكننا لا نتكل عليهم ما لم نرهم ادباء. ولقد اصاب اللورد يوحنا رسل اذ قال ان من طبيعة الاحزاب في لندن ان يستعينوا بذوي العقول الثاقبة ويتبعوا ارشاد ذوي الآداب الرائعة. وقد ظهر الادب ظهوراً جليًّا في حياة فرنسيس هُرْنَر الذي قال فيهِ سدني سمث ان الوصايا العشر كانت مطبوعة على جبينهِ. وتوفي هرنر هذا في الثامنة والثلاثين من عمرهِ ولكنهُ كان محبوباً ومؤتمناً من الجميع وما من احد الاَّ وقد تأسف عليهِ ما عدا الانذال. ولم يُقِم البرلمنت اكراماً لعضو وقت وفاتهِ كما اقام لهذا الرجل. وما هو سبب ذلك أشرفهُ. كلاَّ. لان اباهُ كان تاجراً متوسط الحال. أغناهُ. كلاَّ. لانهُ لم يُعرَف عنهُ ولا عن واحد من اقاربهِ انهُ فاض معهُ درهم واحد. أمنصبهُ. كلاَّ. لانهُ لم يكن لهُ الاَّ منصب واحد اقام فيهِ مدة قصيرة وكانت اجرتهُ طفيفة. اذكاؤهُ. كلاَّ. لانهُ لم يكن ذكيًّا بل حذوراً بطيئاً ولم يطمع الاَّ بان يكون على حق. أفصاحتهُ. كلاَّ. لانهُ كان يتكلم بهدوءٍ وسكينة ولم يكن في كلامهِ شيء من الفصاحة التي تذهل السامعين. أَلِسحر بيانهِ. كلاَّ. لانهُ كان كغيرهِ من الناس. فبماذا اذاً. باجتهادهِ وحسن مبادئهِ وصفاء نيتهِ الصفات التي يقدر ان يتصف بها كل انسان سليم العقل. فلم يرتقِ الاَّ بحسن آدابهِ ولم تكن آدابهُ طبيعية فيهِ بل مكتسبة وهو الذي اكتسبها. وكان في مجلس النواب اناس كثيرون اسمى منهُ عقلاً وافصح

كلاماً ولكن ما من احد منهم فاقهُ في الجمع بين مقدار كافٍ من ذكاء العقل والفصاحة مع الآداب وقد نشأ هذا الرجل لكي يظهر مقدار ما تفعلهُ القوى المعتدلة المعززة بالتهذيب والاستقامة

كان فرنكلين الاميركي ينسب نجاحهُ الى حسن آدابهِ لا الى قوى عقلهِ ولا الى فصاحة لسانهِ وقد قال عن نفسهِ انني ركيك العبارة متردد في اختيار الكلمات كثير الغلط اللغوي لكنني كنت اقنع غيري غالباً بما اريد

الادب يؤهل صاحبهُ لان يكون محل ثقة مهما كان مقامهُ رفيعاً او وضيعاً فانهُ يقال عن اسكندر الاول امبراطور روسيا ان آدابهُ كانت بمثابة دستور للبلاد . وفي ايام حروب الفرُند لم يبقَ احد من اشراف فرنسا فاتحاً ابوابهُ الاَّ منتاني ويقال ان سجاياهُ الشخصية كانت افضل لحمايتهِ من كتيبة من الفرسان

الادب قوَّة ويصدق عليهِ هذا الوصف اكثر مما يصدق على المعرفة . والعقل بلا قلب والذكاء بلا سلوك حسن والاجتهاد بلا صلاح جميعها قوات ولكنها كثيراً ما تكون قوات للشر وقد نستفيد منها ولكنَّ من يمدحها اذا كانت كذلك كمن يمدح اللص على مهارتهِ

والصدق والاستقامة والصلاح جوهر الادب ومن اجتمعت فيهِ هذه المناقب ورافقها صدق العزم كان صاحبها ذا قوة لا تقاوم وقوي فيهِ فعل الخير ومقاومة الشر واحتمال الخطوب المختلفة والمصاعب المتنوعة بالصبر الجميل . يروى انهُ لما وقع استفانوس الكولوني في يد خصومهِ سألوهُ على سبيل التهكم اين حصنك المنيع فوضع يدهُ على قلبهِ وقال « هنا » . وافضل فرصة لظهور الآداب ازمنة الضيق والشدائد فانها تظهر حينئذٍ بكل بهائها وتثبت الانسان على كمالهِ واستقامتهِ حينما يخذلهُ كل صاحب وتفرغ يدهُ من كل حيلة . « وفي الخطوب تظهر الجواهرُ »

ومما يستحق ان ينقش على قاب كل شاب قواعد علم السلوك التي جرى عليها اللورد ارسكن المشهور باستقامة السيرة وعلو الهمة. قال اني اجتهدت منذ نعومة اظفاري لكي اعمل كل ما حثني على فعله ضميري تاركاً النتيجة الى الله ولقد جريت على هذا القانون الى هذه الدقيقة من حياتي ولستُ بنادم ولم يلحقني منهُ ادنى ضرر بل وجدتهُ طريقاً للنجاح والغنى وسادرّب اولادي فيهِ ايضاً

وعلى كل انسان ان يضع نصب عينيهِ اكتساب افضل الآداب حاسباً ذلك اسمى غايات حياتهِ . ومن اجتهد حتى ينال هـذه الغاية بالوسائط الحميدة تمكّـن منها . والافضل ان نطلب الغايات السامية وان لم نحصل عليها كلها. قال المستر دزرائيلي ان الشاب الذي لا يلتفت الى الاعلى يلتفت الى الاسفل والنفس التي لا تطلب المعالي تميل الى الدنايا . وقال الشاعر جُرج هربرت ان شئت ان تدعى واطىء الجانب عزيز النفس فكن وضيعاً في السلوك وكن رفيعاً في المقاصد تكن وضيعاً رفيعاً . لان من يسدد سهمهُ الى العلى يرمي فوق من يسددهُ الى شجرة . وقال ابو الطيب

اذا غامرت في شرفٍ مروم فلا تقنع بما دون النجوم

وقال المثل الاسكتسي تمسك بحلة موشاة بالذهب تنل ردناً منها. ومن قصد غايةً سامية وطلبها باجتهاد فلا بد من ان يرتقي فوق الحالة التي كان فيها ويقترب نحو تلك الغاية . وان لم ينلها تماماً فلا بد من ان يستفيد من اجتهادهِ في طلبها فائدة دائمة

كثير من الآداب ليس الاَّ صورة الآداب الصحيحة ولكن لا يمكن ان يشتبه فيهِ لان اصل الآداب الصحيحة الاستقامة في القول والعمل وفرعها التزام الحق والنزوع عن الباطل. وافضل شهادة قُدّمت في حق انسان الشهادة التي شهد بها دوق ولنتون للسر روبرت بيل في مجلس الاعيان بعيد وفاتهِ قال لا بد من انكم تشعرون ايها السادة

بسمو آداب المرحوم السر روبرت بيل الذي اشتركتُ معهُ مدة طويلة في مصالح الحكومة وكنا كلانا في مجالس ملكنا وقد تمتعتُ مدة طويلة بصداقتهِ ولا اعرف انساناً اقدر ان اثق باستقامتهِ اكثر مما كنت اثق بهذا الفاضل كما اني لا اعرف انساناً يحب رفع شأن الامة مثلهُ. ففي كل مدة معاملتي لهُ لم اعرف حادثةً واحدة لم يَرَ فيها تمسكهُ التام بالحق ولم ارَ ايضاً انهُ قال شيئاً وهو لا يعتقدهُ من كل قلبهِ

والصدق في العمل كالصدق في القول وهو ضروري للآداب الصحيحة: ويجب ان يكون باطن الانسان كظاهرهِ. قيل كتب احد الاميركيين الى كرانفيل شرْب يقول اني معجب بمناقبك الحميدة ولذلك سميت ولداً من اولادي باسم عائلتك. فاجابهُ شرب يقول « اطلب اليك ان تعلم ابنك قاعدةً تجري عليها العائلة التي سميتهُ باسمها وهي اجتهد لكي تكون دائماً كما تريد ان تظهر فقد اخبرني ابي ان اباهُ جرى على هذه القاعدة فكان اساس اخلاقهِ الاخلاص والبساطة والاستقامة ». وكل من يكرم نفسهُ ويكرم غيرهُ يجري على هذا القانون واضعاً شرف نفسهِ نصب عينيهِ غير مفتخر بشيءٍ الآ باستقامتهِ ومروءتهِ لان من خالف عملهُ قولهُ خسر احترام الناس لهُ والغي كلامهُ ولو كان حقّاً محضاً ولله درّ القائل

لا تنهَ عن خلقٍ وتأتي مثلهُ عارٌ عليكَ اذا فعلت عظيمُ

ومن طابت سيرتهُ وحسنت سريرتهُ لم يحد عن سبيل الاستقامة لا سرّاً ولا علناً. قيل سُئل ولدٌ لِمَ لم تأخذ شيئاً من ذلك الكمثرى ولم يكن هناك احد ليراك فقال بلى كان. فقيل لهُ مَن. قال كنت انا هناك واكرهُ ان اراني سارقاً. هنا ما يدعى ضميراً او ذمةً وهو مرشد الانسان في الحض على المعروف والنهي عن المنكر وبهِ تتدرب الاخلاق يوماً فيوماً واذا خلا الانسان منهُ لم يكن لاخلاقهِ من مدرّب ولا حافظ بل استولى عليها الضعف وكانت تحت خطر

الخضوع للتجارب واذا خضعت لها مرةً واحدة صارت عرضةً للخضوع لها دائماً وآل الامر الى انحطاط شأن صاحبها سواء أُشهر امرهُ ام لم يشهر لانهُ لا بد من ان يشعر بنفسهِ بالذل وانشغال البال من تلقاءِ ما ندعوهُ بالضمير الذي هو اشد معذب للمذنبين

والآداب متوقفة كثيراً على العادات حتى قيل ان الانسان حزمة من العادات. والعادة طبيعة ثانية. قال ميتستاسيو كل ما في الانسان ناتج من العادة حتى الفضيلة نفسها. وقال بطلر كما ان عادات الجسد تكتسب بالاعمال الخارجية كذلك عادات العقل تكتسب بالمقاصد الداخلية كالطاعة والصدق والعدل والمحبة اي باخراجها الى حيز الفعل. وقال اللورد برُوم كل شيءٍ موكولٌ الى العادة بعد الله تعالى. العادة تسهل كل امرٍ عسير وتدك الصعوبات ولو كانت جبالاً. فمن تعود الصحو كرهَ السكر ومن تعوَّد الحكمة والرصانة كره الجهل والطيش. فعلى كل احدٍ ان يسهر كل السهر لكيلا يدع عادة رديئة تغلب عليهِ لانهُ اذا غُلِب مرة واحدة صار عرضةً للانغلاب دائماً. ومن اعتاد امراً صار فيهِ ملكة وصار يفعلهُ بلا روية وعن غير قصد ولا يعرف قوة العادة التي فيهِ حتى يضادها. وما فعل مرة وثنّي صار فعلهُ سهلاً والانقطاع عنهُ صعباً. والعادة في اولها ضعيفة اوهن من خيط العنكبوت ولكن متى تملكت الانسان قيدتهُ بسلاسل من حديد

واكرام النفس والتعويل عليها والانصباب والاجتهاد والاستقامة جميعها عادات. وما يدعوهُ البعض مبادىء ليس الاَّ عادات. وكلما تقدم الانسان في السن تملكتهُ العادة ونزعت قسماً كبيراً من حريّتهِ بل قيدتهُ بسلاسل صنعها لنفسهِ. فمهما اطنبنا في وجوب تربية الاولاد على العادات الحميدة لم نوف الموضوع حقهُ لان الصبوة افضل سن لتربية العادات والعادة الراسخة في الصغر كالحروف المنقوشة على ساق شجرة صغيرة تكبر وتتسع بنموها. قال الحكيم ربِّ الولد في طريقهِ

فمي شاخ لا يحيد عنها. ومن البداية تعرف النهاية . وقال اللورد كلنود لشاب لا تنسَ انك قبل ان تبلغ الخامسة والعشرين يجب ان تربي فيك اخلاقاً تعتمد عليها كل حياتك . والعادات تتمكن بالتقدم في السن فتركها يتصعب شيئاً فشيئاً والهدم اعسر من البناء غالباً . يروى ان مغنياً يونانيًّا كان اذا اتاهُ تلميذ متعلم شيئاً من الغناء على استاذ غير بارع طلب منهُ اجرة مضاعفة . ونزع العادة المتمكنة اصعب من نزع الاسنة . فمن اعتاد السكر مثلاً او الكسل او الاسراف لا يرجى اصلاحهُ لان العادة تكون قد تمكنت منهُ وامتزجت بهِ كل الامتزاج حتى لا يرجى استئصالها لذلك قال المستر لنتش ان افضل عادة عادة التطبع على العادات الحسنة . والسرور قد يصير عادة لان لكل امر طرفين سارًّا ومكدراً ومن الناس من يعتاد النظر الى هذا ومنهم النظر الى ذاك . قال الدكتور جنصن ان من اعتاد النظر الى الطرف السارّ كان ذلك خيراً لهُ من كسب الف جنيه سنويًّا

ما من شيءٍ الزم من التطبع على الآداب اي الاخلاق الفاضلة فانهُ الزم من تحصيل العلوم والفنون . ومهما كانت افعال الانسان طفيفة فلا بد من انها تُظهر آدابهُ كما ان الثقوب الصغيرة تكفي لاظهار شروق الشمس . وما الآداب سوى الاعمال المستقيمة ولو مهما كانت طفيفة في حد ذاتها وافضل طريق لاظهار كونها محمودة او مذمومة هو السلوك لان من احسن سلوكهُ مع المساوي لهُ والاعلى والادنى تمتع بسرور دائم وسرَّ غيرهُ معهُ قال الشاعر العربي

فما الناس الاَّ واحدٌ من ثلاثةٍ شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاومُ
فأما الذي فوقي فاعرف فضلهُ وأتبعُ فيهِ الحقَّ والحقُّ لازمُ
وأما الذي دوني فان قال صنتُ عن إجابتهِ نفسي وان لامَ لائمُ
واما الذي مثلي فان زلَّ او هفا تفضلتُ ان الحلمَ بالفضل حاكمُ

وكل احد قادر على تحسين سلوكهِ واظهار اللطف ورقة الجانب

وان لم يملك درهماً . واللطف في المعاشرة فاعل خفي كالنور وهو واسطة لاظهار بهجة الطبيعة واسرار الابصار مثلهُ وهو من اقوى المؤثرات فلا يقوى شيء على مقاومتهِ وكم من قلب منكسر قد انتعش بنظرة واحدة الى وجهٍ بشوش

الآداب اهم من الشرائع لان الشرائع لا تتبعنا دائماً واما الآداب اي الاخلاق الحميدة فمعنا كل حين . والاخلاق الحميدة هي السلوك الحسن لان السلوك لغة تطهير العبد نفسهُ عن الاخلاق الذميمة مثل حب الدنيا والجاه الى غير ذلك واتصافهُ بالاخلاق الحميدة مثل العلم والحلم واللطف والكرم وما اشبه. قالت السيدة منتاغيو ان رقة الجانب لا تكلف شيئاً وتربح كل شيء . وقال برلي للملكة اليصابات « امتلكي قلوب رعاياكِ فتمتلكيهم هم واكياسهم » . ولكن يشترط ان لا يكون في ذلك شيء من التصنع والاَّ فسد كلهُ . ومن الناس من يفتخر بشكاسة اخلاقهِ ولكن الشكس الاخلاق لا يطاق ولو كان من ذوي العلم والفضل لان الانسان لا يحب من لا يحترمهُ ولا من يتكلم كلاماً لا يسرهُ . ومنهم من يتنازل كل التنازل ولكن يكون متصنعاً في تنازلهِ ولذلك لا يدع فرصة تظهر عظمتهُ الاَّ اغتنمها . من ذلك ما يروى عن ابرنثي الجراح انهُ كان مرةً يستكتب الذين يرغبون في ان يكونوا طبيباً لمستشفى مار برثلماوس فاتى رجلاً غنيًّا لكي يكتب اسمهُ وحالما وصل الى مخزنهِ قابلهُ ذلك الغني بعجب وافتخار وقال لهُ اظنك آتياً لتكتب اسمي حتى يمكنك ان ترتقي الى هذا المنصب السامي. وكان ابرنثي يكره التملق والمن فقال لهُ « كلاَّ بل مرادي ان ابتاع كذا وكذا هلمَّ اعطني مطلوبي ودعني اذهب في سبيلي »

والتأدب في السلوك ضروري جدًّا للذين عملهم الاخذ والعطاء على انهُ اذا بولغ فيهِ صار تصنعاً قبيحاً . والبشاشة والاقتراب من الناس ضروريان للنجاح ايضاً ومن كان فاقداً هاتين الصفتين لا يؤمل

نجاحهُ كثيراً ولو كان مجتهداً اميناً لان اكثر الناس يحكمون على الظواهر اكثر مما يحكمون على البواطن . ومن اوجه اللطف احترام آراء الغير وعدم التنديد بها فانهُ ما من خلة اقبح من التصلُّف والاستبداد بالرأي والادعاء والتنديد بعيوب الغير ولولا هذه الخلال ما وقع شيء من الجدال والخصام . وطعن اللسان اشد من وخز السنان وما اجهل من استعمل لسانهُ آلة للطعن والتنديد

فان لسان المرءِ ما لم تكن لهُ   حصاة على عوراتهِ لدليلُ

والادب لا ينحصر في فئة من البشر بل يتصف بهِ العامل الفقير كالامير الخطير . قيل ان روبرت برنس لقي فلاحاً اديباً فسلم عليهِ وكان مع برنس شريف اسكتاندي فلامهُ على ذلك فالتفت اليهِ برنس وقال اني لا انظر الى اللباس بل الى الرجل الذي فيهِ فان هذا الرجل اثمن مني ومنك ومن عشرة مثلنا . ولله درّ القائل

وان كان في لبس الفتى شرف لهُ   فما السيف الاَّ غمدهُ والحمائلُ

كان وليم وتشارلس غرنت ابني فلاح فطغى الماء على املاكهما وجرف كل شيء حتى تراب الارض التي كانا يعيشان منها فقاما مع ابيهما واتجهوا نحو الجنوب في طلب الرزق وما زالوا في سيرهم حتى وصلوا الى تلة قرب بري في لنكشير تشرف على ما حولها من البلاد الفسيحة ولم يكونوا يعرفون الى اي جهة يتجهون لانهم كانوا يجهلون تلك الجهات فاطبق رأيهم على ان يوقفوا عصاً ويتركوها لتسقط من نفسها فيأخذوا الجهة التي تسقط فيها ففعلوا واخذوا الجهة التي دلتهم عليها العصا فوصلوا الى قرية رمسبوتام ووجدوا عملاً في دار طباعة المنسوجات . واشتهر ذانك الاخوان بالاجتهاد والنزاهة والاستقامة وصعدا درجة بعد اخرى في سلم النجاح الى ان صار لهما معامل كبيرة واستأجرا عملة كثيرين يعملون عندهما . وبعد سنين عديدة صارا باجتهادهما وتدبيرهما وشهامتهما غنيين مكرمين من كل من يعرفهما وصار

لهما معامل لنسج القطن وطبعهِ فيها عدد وافر من العمال حتى اصبحت النواحي التي نزلا فيها داراً للعمل وازدادت ثروة السكان وتحسنت صحتهم . ولم تكن ثروتهما سبباً لتربية البخل فيهما كما يحدث مراراً كثيرة لانهما ازدادا سخاء وكرماً فاقاما كنائس وانشأا مدارس وعملا اعمالاً كثيرة خيرية لرفع شأن العمال لانهما لم ينسيا اصلهما. ثم اقاما برجاً شاهقاً على رأس التلة التي تشرف على ولمرسلي حيث اوقفا العصا تذكاراً لتلك الحادثة وما زالا يزدادان شهرة وكرماً حتى صار المثل يضرب بهما. ويروى ان تاجراً منشستريًا كتب رسالة طعن فيهما فأُخبر احدهما وليم بذلك فقال ان الرجل سيندم على ما فعل. فأُخبر الكاتب بما قالهُ وليم فقال لعلهُ يظن انني ساستدين منهُ ولكنني ما كنت لافعل ذلك . ثم دار دولاب الدهر وافلس ذلك الرجل وساءت حالهُ ولما اراد ان يشرع في العمل ثانيةً اضطرَّ الى كنكرداتو فيهِ ختم بيت غرنت فظهر لهُ ان هذا ضرب من المحال ولكن ضيق الحال الجاهُ الى ذلك فمضى الى محل وليم غرنت الذي هجاهُ بتلك الرسالة وعرض عليهِ واقعة الحال واعطاهُ ورقة لكي يضع ختمهُ فيها فاخذها وليم وقال لهُ انك كتبت مرةً رسالةً في هجائنا ثم ختم الورقة وقال ان من قوانيننا ان لا نأبى وضع ختمنا على شهادة لتاجر امين ولا نعرفك الاَّ اميناً. فعندها اغرورقت عينا الرجل بالدموع فقال لهُ غرنت ألا ترى ان قولي انك ستندم على ما فعلت كان صحيحاً ولم اقل ذلك على سبيل التهديد بل عنيت انك ستعرفنا يوماً ما كما نحن وحينئذٍ تندم على قصدك الاضرار بنا. فقال نعم نعم قد ندمت فقال غرنت ان ذلك لانك عرفتنا ولكن كيف انت الآن. فقال ان لي اصدقاء وعدوني بالمساعدة عند ما احصل على الشهادة. فقال غرنت وكيف اهلك في الوقت الحاضر فقال اني بعد ان اعطيت جميع اموالي لاصحاب الديون التزمت ان احرم اهل بيتي بعض الامور الضرورية لكي انال هذه الشهادة . فقال غرنت

ياصاح لم تصب لانهُ يجب ان لاتضام امرأتك واولادك بسببك فاطلب اليك ان تأخذ هذه النقود لزوجتك هدية فكفكف عبراتك واتكل على الله فستفلح ثم اعطاهُ مبلغاً من المال . فاجتهد ذلك المسكين لكي يظهر شكرهُ ولكن انقطع صوتهُ وخنقتهُ العبرات فغطى وجههُ بيديهِ وخرج وهو يبكي كالطفل الصغير

والانسان الحقيقي منطبع على المحامد والآداب الحقيقية او كما وصفهُ صاحب الزبور بانهُ « يمشي بالاستقامة ويفعل البر ويتكلم الحق في قلبهِ » . ويكرم نفسهُ ويكرم الآخرين ايضاً ويكون وضيعاً رؤوفاً حليماً . يحكى عن اللورد ادورد فتزجرلد انهُ كان مسافراً في كندا مع قوم من هنود اميركا فرأى امرأة هندية حاملة حملاً ثقيلاً من الحطب وزوجها ماشٍ فارغاً فاخذ الحمل عنها وحملهُ على ظهرهِ . فهذه هي الانسانية في افضل معانيها . والانسان الحقيقي يقول المنايا ولا الدنايا وخيرهُ من ركوب الخنا ركوب الجنازه . فلا يخاتل ولا يحاول ولا يروغ ولا يواري ولا يكابر ولا يماري ولكنهُ يسير دائماً بالاخلاص والاستقامة ان قال نعم او قال لا كان قولهُ حجة بل سنّة . الانسان الحقيقي لا يرشي ولا يبيع نفسهُ بالمال كما يفعل الادنياء . يحكى عن دوق ولنتون انهُ اتاهُ يوماً وزير بلاد حيدراباد بعد واقعة اساي لكي يستعلم منهُ عن المعاهدة التي جرت بين امراء المهرتا والنظام وقدَّم له مبلغاً من المال يفوق مئة الف جنيه . فالتفت اليهِ الدوق وقال اظنك تكتم السر فقال نعم فقال وانا كذلك وصرفهُ ولم يقبل منهُ درهماً ولا باح لهُ بشيء . هنا الشهامة وعزة النفس . ولقد حارب ولنتون حروباً كثيرة في الهند وظفر فيها كلها ومع ذلك رجع الى انكلترا وليس معهُ شيء من المال . ومن هذا القبيل ما يحكي عن نسيبهِ مركيز ولسلي الذي رفض مئة الف جنيه قدمها لهُ مديرو شركة الهند الشرقية عند غلبة ميسور وقال لهم لا يقتضي ان اخبركم عن شيمتي

وشهامتي وشرف منصبي الامور التي تضطرني الى رفض ما تعوضونهُ عليَّ . وممن فعل كذلك السر تشارلس نبير لانهُ رفض كل الهدايا التي اهداها اليهِ امراء السند وكانت تنيف على ثلاثين الف جنيه ٍ

ولا علاقة للغنى والشرف بالانسانية لانها في الفقراء كما في الاغنياء. أوَلا يمكن ان يكون الفقير اميناً صادقاً مستقيماً انيساً نزهاً شجاعاً مكرِماً لنفسهِ ومعتمداً عليها . بلى وهذه هي الانسانية بعينها . وما الفقير فقير المال ولا الغني من يملك الالوف لانهُ قد يكون الانسان فقيراً ويملك كل شيء وقد يملك كل شيء وليس لهُ شيء والاول يرجو كل شيء ولا يخاف شيئاً والثاني يخاف كل شيء ولا يرجو شيئاً. ومن خسر كل مالهِ وبقيت فيهِ مروءتهُ وانسهُ وفضلهُ واملهُ وشهامتهُ لم يزل غنيًّا ولسان حالهِ يقول

ما الفخرُ بالمالِ ان الفخر بالرجل مالاً جمعنا مضى والفخرُ لم يزلِ
وكم من رجل فاضل وثيابهُ اخلاق واسمهُ بين الناس مجهول

حكي انهُ طغى نهر عظيم في ايطاليا فهدم قنطرتهُ ما عدا جزءا منها عليهِ بيت صغير يسكنهُ رجل واولادهُ وكان لا بد من ان ينهدم هذا الجزء ايضاً فيهلك ذلك المسكين مع اولادهِ. فوقف الكنت سبلفريني وقال انني اعطي مئة دينار لمن يخاطر بنفسهِ وينقذ هذه العائلة فتقدم فلاَّح من الجمهور الحاضر وانزل قارباً الى النهر واقتحم الخطر الاكيد وبعد قليل رجع ومعهُ العائلة باسرها . فقال الكنت هلمَّ ايها الشاب الشجاع وخذ الدنانير فقال الشاب « كلاَّ يامولاي ما كنتُ لابيع حياتي بالمال اعط مالك لهذه العائلة المسكينة لانها في احتياج اليهِ » . هنا المروءة وعزة النفس هنا الانسانية وان تحت ثوب الفلاح

اثبت مستر ترنبل في كتابهِ عن النمسا حادثة عن الامبراطور فرنسيس قال فيها انهُ لما فشا الهواء الاصفر في ڤينا كان الامبراطور يجول في الاسواق والشوارع وليس معهُ سوى رجل واحد فرأى

مرة ميتاً محمولاً الى القبر ولم يكن معهُ احد من اهلهِ فسأل عن سبب ذلك فوجد ان الميت من الفقراء وقد مات بالوباء فخاف اهلهُ ان يسيروا في جنازتهِ فقال لنسرْ وراءهُ عوضاً عنهم لانني اكره ان ارى واحداً من رعيتي المحبوبة يدفن ولا تنال جثتهُ العلامة الاخيرة من علامات الاكرام . فذهب معهُ الى المدفن وكان المدفن بعيداً ووقف فوق قبرهِ مكشوف الراس الى ان تمَّ تجنيزه ودفنهُ حسب شعائر كنيستهِ

ومن دلائل الانسانية ايضاً الصدق الذي هو اساس نجاح البشر. كتب دوق ولنتون الى كلرمن عن الاسرى الانكليز المستأمنين يقول اذا كان شيء يفتخر بهِ ضباط الانكليز غير الشجاعة فهو الصدق فثق بكلامهم لانهم لا يكذبون ولا يخلفون الوعد

ومن مقتضيات الانسانية ايضاً العفو عند المقدرة.قيل ان جنديًّا فرنساويًّا اخترط سيفهُ في واقعة البودن في اسبانيا وهمَّ بضرب السر فلتن هرفي ولكن لما رآهُ اقطع شفق عليهِ وحنا لهُ سيفهُ حسبما يفعل الجند عند التسليم وسار في طريقهِ .ومن قبيل ذلك ما حدث لتشرلس نبير في تلك الحرب وهو انهُ أُخِذ اسيراً في كرونا بعد ان جُرِح .وكان اصدقاؤهُ في انكلترا لا يعلمون أمات ام بقي حيًّا فارسلوا رسولاً خاصًا في سفينة حربية ليبحث عنهُ فوصل الرسول الى البارون كلوه وكلموهُ في امره فاخبر القائد ناي بذلك فقال لهُ دع الاسير يرى الرسول واخبرهُ اننا نعاملهُ بالحسنى فتأخر كلوه فقال ناي مالك فقال يقولون ان للاسير امًّا ارملة عمياء فقال ناي اذا كان الامر كذلك فليذهب بنفسهِ ويخبرها بسلامتهِ.ولم تكن مبادلة الاسرى جارية في ذلك الوقت وكان ناي يخاف ان يغتاظ نبوليون حينما يسمع ذلك لكن نبوليون مدحهُ على شهامتهِ

وفي هذه الازمنة امثلة كثيرة للمروءة وعزة النفس وكرم الاخلاق كما في الازمنة الغابرة تشهد بذلك نجود سبستوبول وسهول الهند.

فان زحف نيل على كنبور وهفلوك على لكنو لانقاذ النساء والاولاد من اعجب ما جاء التاريخ بذكرهِ . وموت هنري لورنس البطل وقولهُ حال وفاتهِ لا تهتموا بدفني بل ادفنوني مثل سائر الجنود. وما عاناه السر كولن كمبل وهو جالب النساء من لكنو الى كنبور ومن ثمَّ الى الله اباد — امور تضيق الصحف بذكرها ويحق للامة الانكليزية ان تباهي بها امم العالم. ولم يكن آحاد الجند اقل شهامة من قوادهم كما تشهد الوقائع التي حدثت في تلك البلاد ومعاملة الجرحى للنساءِ الممرّضات.

ومن ذلك ايضاً ما حدث في سنة ١٨٥٢ على شواطىءِ افريقية عند انكسار السفينة المدعوة بركنهد فانهُ كان فيها ٤٧٢ رجلاً و١٦٦ من النساءِ والاولاد وكان اكثر الرجال من الجنود الانكليزية المقيمة في راس الرجاءِ الصالح . وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل اذ كان الجميع نياماً لطمت السفينة صخراً مخفىً فانثغر جوفها وكان لا بد من غرقها فتنبّهت الجنود بصوت الطبول فاصطفوا على ظهر السفينة وأُمروا بان يخلصوا النساء والاولاد فانزلوا القوارب وانزلوا اليها النساء والاولاد واكثرهم بثياب النوم ثم بعد ان سارت القوارب قليلاً امر مدير السفينة كل القادرين على السباحة ان يرموا بنفوسهم الى البحر ويصعدوا الى القوارب فاعترضهُ قائدهم رَيط قائلاً ان فعلوا هلكوا هم والقوارب فوقف الرجال في مكانهم ولم يبدوا حركة ولم يتذمروا قط بل ثبتوا في اماكنهم الى ان غرقت بهم السفينة وقبل ان غرقوا اطلقوا سلاحهم طلق الفرح . هنا الشجاعة وكرم الاخلاق فانهُ وان مات اولئك الابطال لا يزال ذكرهم خالداً

والادلة كثيرة على الانسان الحقيقي ولكن الدليل الاقوى كيفية استعمالهِ سلطتهُ على الذين دونهُ او على المتعلقين بهِ مثل معاملتهِ للنساء والاولاد ومعاملة القائد لجنودهِ والرئيس لخدمهِ والمعلم لتلامذتهِ والمتسلط للمتسلَّط عليهم . فالحلم والحنو ورقة الجانب في

احوال مثل هذه من الشروط اللازمة للانسانية واما من طغى وبغى على الذين دونهُ فهو نذل جبان ولله در من قال

واسعد العالم عند الله من ساعد الناس بفضل الجاهِ
ومن اغاث البائس الملهوفا اغاثهُ الله اذا اخيفا
وان من شرائط العلوّ العطف في البؤس على العدوِّ
قد قضت العقول ان الشفقه على الصديق والعدوِّ صدقه
وقد علمت واللبيب يعلمُ بالطبع لا يُرحم مَن لا يَرحمُ
والبغي داءٌ ما لهُ دواءُ ليس لملك معهُ بقاءُ
والبغيَ فاحذرهُ وخيم المرتعِ والعُجب فاتركهُ شديد المصرعِ

رُوي انهُ لما جرح السر رلف ابركرمبي في معركة ابي قير وحُمل الى سفينة الفدرويان وضع حرامٌ تحت راسهِ لاراحتهِ فقال ما تحت راسي فقيل لهُ حرام فقال حرام مَن فقيل لهُ حرام واحد من الرجال فقال اخبروني باسمهِ فقيل له حرام دنكن روي من رجال السر رلف فقال لهم اعطوهُ اياهُ هذه الليلة . فانظر كيف ان هذا الجنرال وهو على حافة القبر اشفق على واحد من رجالهِ ان ينام بلا غطاء ليلة واحدة. وقد جمع فلر صفات الانسان الكامل في كلامهِ عن السر فرنسيس دراك بقولهِ انهُ كان عفيفاً عادلاً صادقاً شفوقاً على الذين دونهُ مبغضاً للكسل لا يعتمد على غيرهِ ولا يجزع من خطر ولا يستعفي من عمل يستدعي بسالة ومهارة واجتهاداً . انتهى

هذا ومَن يطَّلع علي كتب الادب العربية والفارسية والهندية والصينية يجد فيها منار الآداب مرفوعاً وعلَم مكارم الاخلاق منشوراً. ويجد هنالك من الحكم والامثال والنوادر ما تضيق بهِ بطون الدفاتر ويُضعِف حجة مَن قال كم ترك الاول للآخر . وكأن لسان حال ادباءِ المشرق يقول

لو انني خُيِّرتُ كلَّ فضيلة ما اخترتُ الاَّ مكارمَ الاخلاقِ

وكنَّا نودُّ ان نحلي جيد هـذا الكتاب ببعض هذه الاقوال والنوادر لولا انهُ قد بلغ الحدَّ الذي عيناهُ لهُ عند اعادة طبعهِ فلم نرَ بدًّا من ختمهِ هنا والشروع في المعجم الذي وعدنا ان نضيفهُ اليهِ. غير انهُ لا يحسن بنا ان نختم هذا الفصل بدون ان نضيف اليهِ شيئاً من ترجمة امام تحلَّى بالفضائل والفواضل وخلَّد لنفسهِ اسماً بين الاكارم الاماثل الا وهو الاستاذ المغفور لهُ السيد محمد القصبي شيخ الجامع الاحمدي والد الامام الغيور على نشر المعارف والآداب الاستاذ محمد القصبي خليفتهِ في الجامع الاحمدي

اما المترجَم بهِ فهو ابن السيد حسن طلحة القصبي احد مدرسي الازهر الانور ابن محمد طلحة بن مصطفى طلحة بن عيسى طلحة الشريف الحسيني اول مَن حضر مصر من طرابلس الغرب حيث توطن اجدادهُ من عصر السيد الشريف ادريس الاصغر الحسيني. ولد في قرية بمديرية الغربية اسمها نشا سنة ١٢٣٠ للهجرة وكان ابوهُ قد انتقل اليها بدعوة من اهاليها ومن جاورهم لتعليم الشعائر الدينية وتلقين اصول الطرق الصوفية . ولما بلغ من العمر عشر سنوات ارسلهُ والدهُ الى الجامع الاحمدي لتجويد القرآن وحفظ المتون فاستمرَّ على تلقي العلوم حتى سنة ١٢٥١ فأُذن لهُ في التدريس من مشائخهِ الاعلام كالشيخ محمد الطوخي شيخ المشايخ بالجامع الاحمدي والشيخ محمد ابي النجا المجاهدي وغيرهما. وكان ابوهُ قد توفي فارسل يطلب والدتهُ واخوتهُ واخواتهِ لحضروا اليهِ الى طنطا وفي ذلك يقول مخاطباً الشريف العلوي السيد محمد البدوي

كنتُ ابنَ تسعٍ وخمسٍ قد فقدتُ ابي
وقد رجوتكَ لي مولًى فكنتَ ابا

وما انفكَّ يفيد ويستفيد ويزيد ويستزيد حتى اطاع من العلماءِ

شموساً واهلّةً واعلاماً اجلّةً وشهد بفضلهِ القريب والبعيد وكان مشهوراً بحبهِ للعلماءِ والفضلاءِ لا ينفكُّ عن تعليم علم او اقراء ضيف او فصل خصومةٍ او اسداءِ معروف او احسان الى مسكين وكان له ثروة عظيمة ودخل وافر الاّ انهُ كان ينفقهُ كلهُ في سبيل المبرّات فلا يدخل عليهِ عام ولديهِ من دخل سابقهِ شيءٌ . وقد بلغنا عنهُ نوادر كثيرة تظهر فضلهُ وكرمهُ منها ان رجلاً حُكم عليهِ بالنفي من القطر المصري ولم يكن معهُ مال ليستعين بهِ على امرهِ فقصدهُ الى طنطا وشكا اليهِ حاجتهُ ولم يكن لدى الشيخ شيءٌ من النقود حينئذٍ فاستقرض مئتي دينار واعطاهُ اياها . وقيل لهُ حينئذٍ ان الرجل منفيٌّ من البلاد ولا امل بارجاعهِ للمال فقال حاشا لنا ان نردَّ طالباً . ثم عفي عن الرجل قبل ان خرج من ثغر الاسكندرية فعاد اليهِ بالمال فقال لهُ الشيخ اننا لم نعطك مالاً لكي نستردهُ نخذهُ واستعن بهِ على امرك فانت احوج منا اليهِ

وقد قيّض لنا الله ان زرناهُ في زيارتنا للقطر المصري سنة ١٨٨٠ فرأينا منهُ شيخاً جليل القدر انيس المحضر يرفع اقدار الناس ويجلُّ المشتغلين بخدمة العلم فذكر المقتطف بالخير واثنى على المنهج الذي نهجناهُ فيهِ فخرجنا من لدنهُ وقد ثبت لنا ان سماء الفضلاءِ في وجوههم وان الناس لا يجمعون على مدح انسان ما لم يكن حقيقاً بكل مدح

وتولّى مشيخة الجامع الاحمدي بالامر العالي سنة ١٢٨٢ وفي تلك السنة تمم بناء مسجدهِ الجامع بطنطا امام منزلهِ واحكم تشييده ووقف عليهِ الاوقاف الجمة . وسنة ١٢٨٨ بنى مدفنهُ الذي دُفن فيهِ امام منزلهِ بجوار مسجدهِ المذكور ودام متقلباً في حلل الكمالات حتى استأثرت بهِ رحمة مولاهُ وكانت وفاتهُ في السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ فدُفن بما يليق بهِ من التعظيم والتكريم وكانت الحضرة

الخديوية قد اصدرت امرها الكريم الى جميع مأموري الحكومة بمدينة طنطا ان يشيّعوا جنازتهُ بما يليق بها

ولهُ شعرٌ رقيق لم يعتنِ بجمعهِ ومنهُ قولهُ

ولي همةٌ يستوقف البرقَ خطوها وعند سكوني ربما يثبُ الطودُ

ومن شعرهِ ايضاً القصيدة المشهورة التي مطلعها

أفؤادي متى المتابُ ألمّا تصحُ والشيب نحو فودي ألمّا

ومنها

أفؤادي متاع دنياكَ فان شأنهُ نقصهُ اذا قيل تمّا

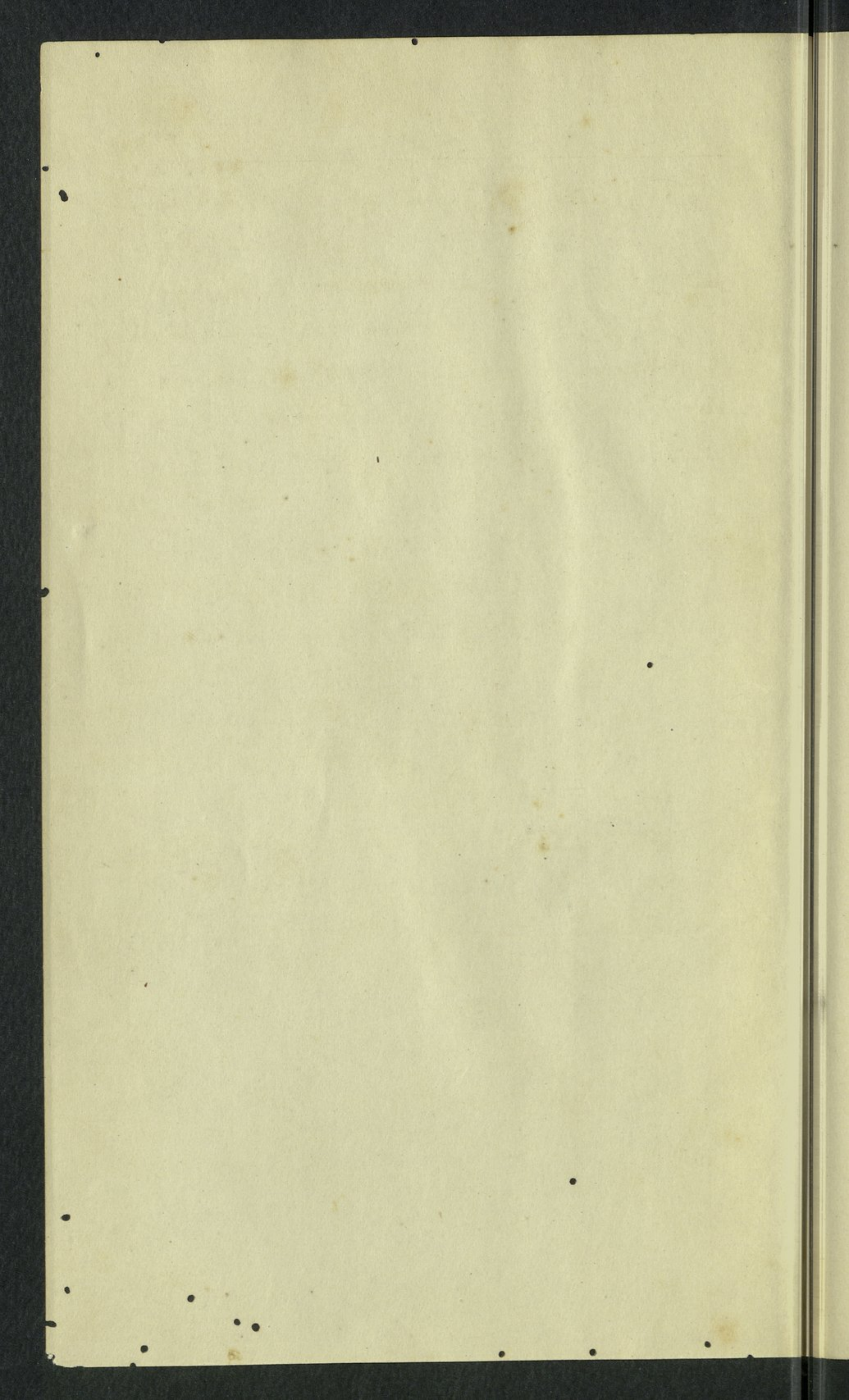
وهي طويلة ولهُ مؤلف منظوم في علم الفرائض سمّاهُ نتيجة الفارض في علم الفرائض شرحهُ العلامة المرحوم الشيخ احمد الشرقاوي وحشّاهُ وشرحهُ ايضاً أحد تلامذتهِ العلامة الكبير الشيخ احمد الحلواني

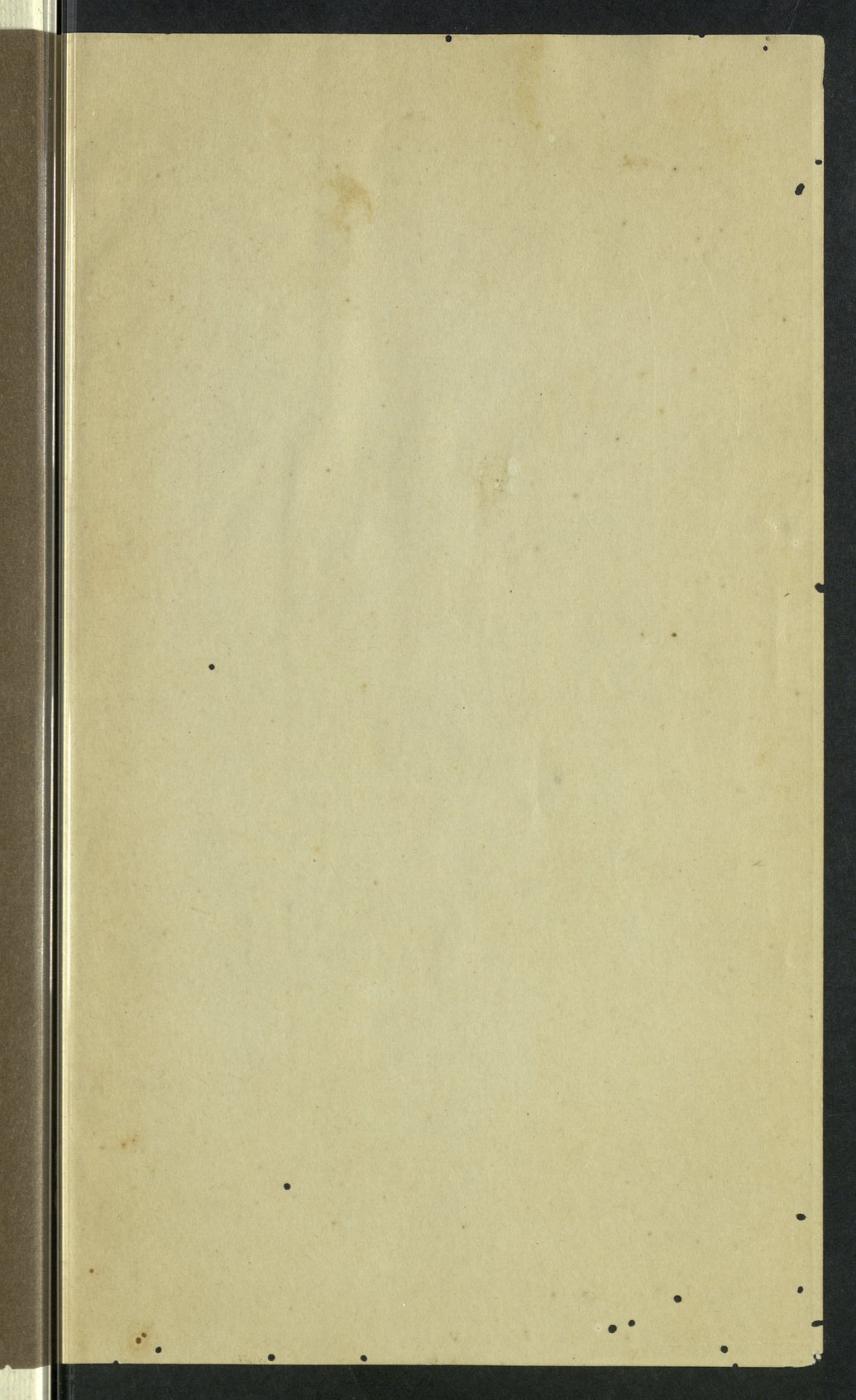
اما ولدهُ الامام محمد القصبي الذي تولى بعدهُ مشيخة الجامع الاحمدي فمن اعلام هذه البلاد الذين تُعقد لهم الخناصر ويشار اليهم بالبنان . وقد ظهر هذا الكتاب في حلّتهِ الشرقية الحاضرة سنة ١٨٨٦ بكرم هذا الشهم الفاضل فانهُ اعاننا على طبعهِ رغبةً في تعميم نفعهِ ونشر المبادىء الفاضلة التي ينطوي عليها جزاهُ الله عنا وعن جميع المستفيدين منهُ جزاء الخير وخير الجزاءِ وختم عواقبنا بالخير ولهُ الحمد اولاً وآخراً

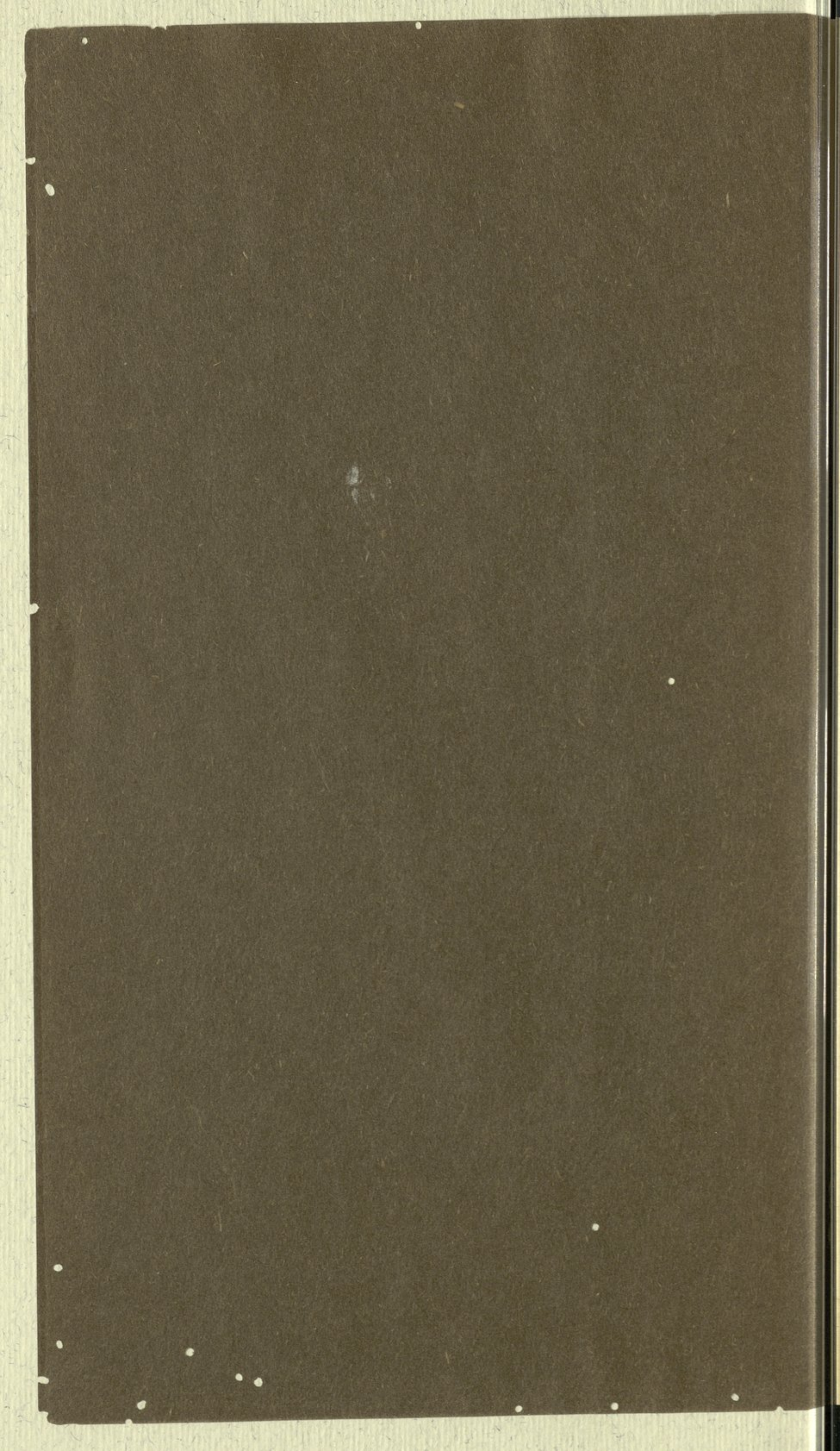
معجم الاعلام والالفاظ الاصطلاحية في هذا الكتاب

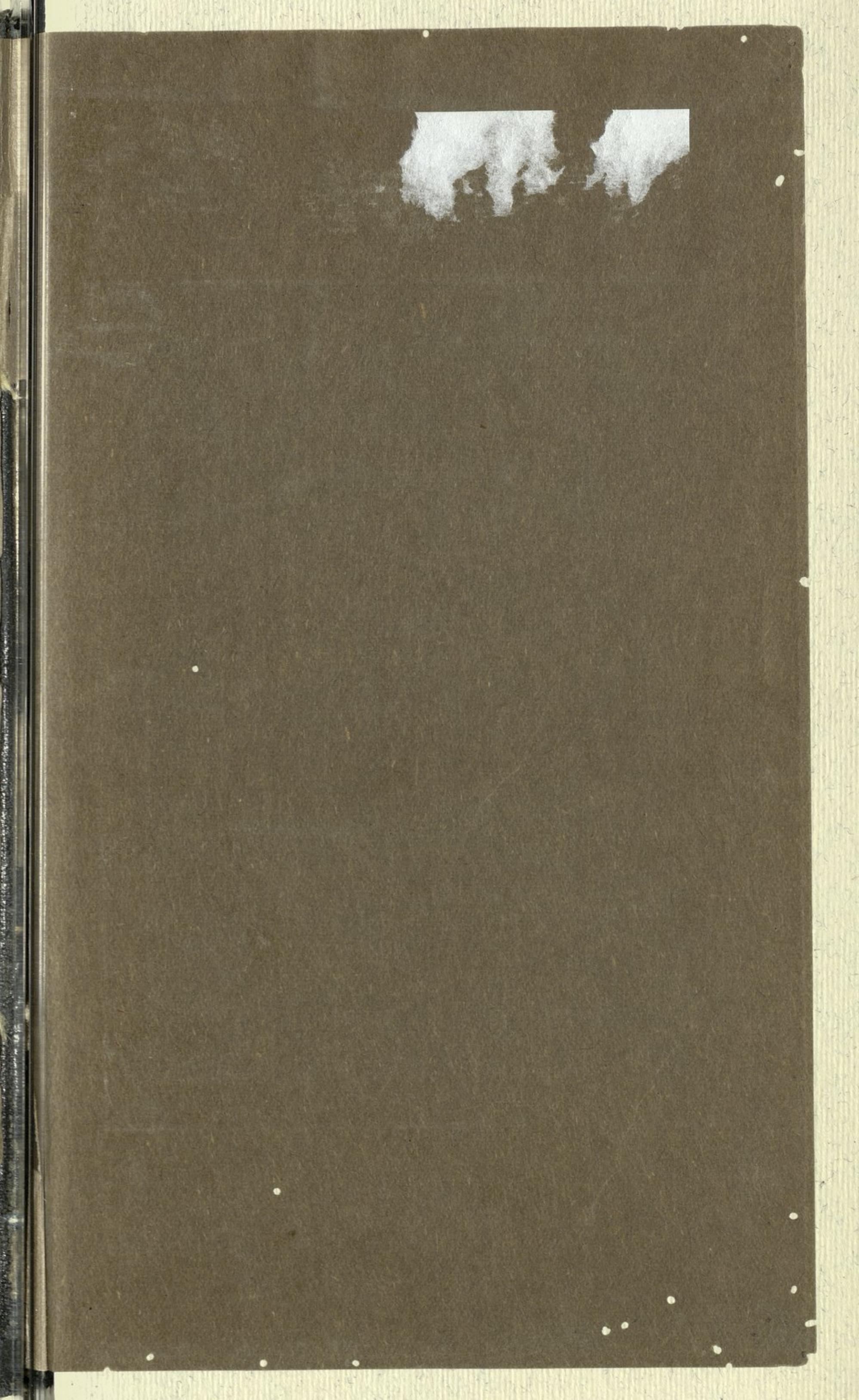
تنبيه : الارقام التي بين قوسين تدل الاولى منها على سنة الولادة والاخيرة على سنة الممات وبقية الارقام تدل على اوجه الكتاب

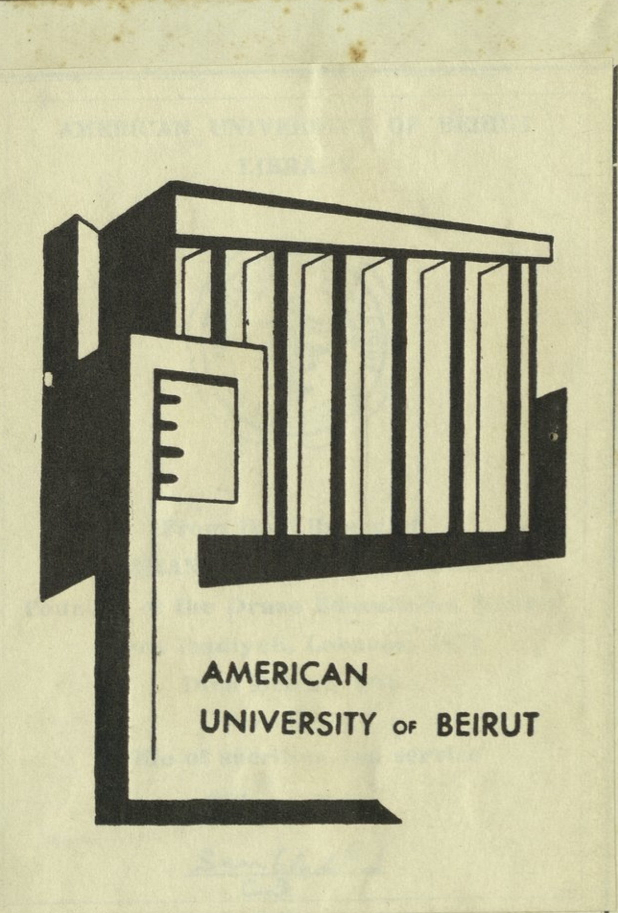
— ٢٠ —










AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

